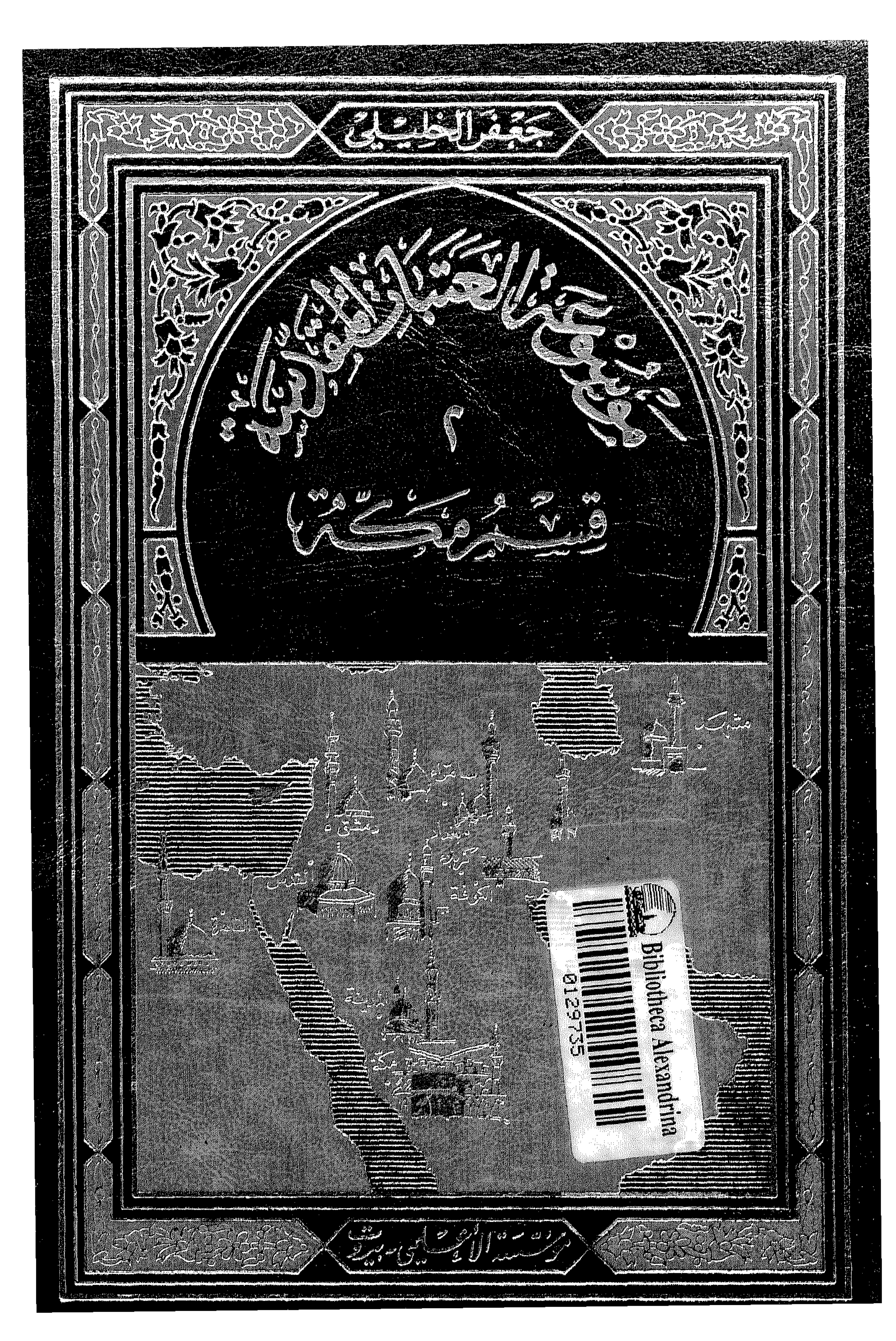

جعفر الخليلي
موسوعة العتبات المقدسة
٢
قسم مكة
مؤسسة الأعلمي - بيروت







موسوعة العتبات المقدسة

قسم مكة المكرمة ـ ٢



موسوعة العتبات المقدسة

الجزء الأول من

قسم مكة المكرمة

تأليف

جعفر الخليلي

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الثانية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات :
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة - ملك الاعلمي - ص.ب : ٧١٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

كان الواجب ان يكون هذا الجزء اسبق جميع اجزاء الموسوعة في الصدور لو ان تأليفه كان قد كمل في حينه ، وحسناً فعلنا حين اخذنا بمبدأ الشروع بطبع اي جزء ينتهي تأليفه دون التقيد بتقديم الأهم على المهم ، ولو كنا قد تقيدنا بذلك لبقينا (نراوح) طوال السنتين في مكاننا حتى يتم الجزء الأول من مكة المكرمة والذي لم يتم الا اليوم ، وحسناً فعلنا ان جعلنا كل عتبة قائمة بنفسها من هذه الموسوعة . وعلى ان في هذا الاستقبال الكبير الذي استقبلت به الموسوعة من مختلف القراء ومختلف المؤسسات ، والجامعات منذ اول صدور الجزئين الاولين منها تحفيزاً كبيراً على مضاعفة النشاط ، فان خطورة الموضوع وصعوبة القيام به على الوجه الصحيح المطلوب لا يسمح لنا مهما اجهدنا انفسنا باصدار اكثر من جزئين في كل سنة في الوقت الحاضر ، ذلك لان غربلة الكتب من مطبوع ومخطوط ، وعزل الرواية والخبر عن الوقائع التاريخية مما أخذنا على عاتقنا القيام به واخراجه اخراجاً اكاديمياً وبحوثاً جامعية ، على قدر ما نملك من طاقة لهو من اصعب الامور واكثرها مشقة لا سيما وان تداخل الاخبار والروايات والاحاديث والوقائع التاريخية

في تاريخ العتبات المقدسة وتشابكها من التعقيد ما يجعل هذا التاريخ بمثابة الوشيعة من الغزل المتشابك المتقطع الذي لا تدري كيف تهتدي إلى رأس الخيط الأصلي منها ، ومع كل ذلك فنحن ساعون على قدر الامكان في بذل الجهود في المستقبل ليكون بمقدورنا ان نصدر ثلاثة اجزاء من الموسوعة في كل سنة ، وان مبعث هذا الأمل كامن في زيادة العدد الذي انضم الينا من اساتذة الجامعات وافاضل الباحثين والكتاب، ولكن مثل هذا الأمل لا يجوز ان يسجله القارىء علينا وعداً .

وانه لمن السار لنا ان نجد الأجزاء التي صدرت تحتل اليوم مكاناً مرموقاً في اهم مكتبة من مكتبات الجامعات الاروبية والاميركية ، وهذا ما يبشر بنجاح هذا المشروع ومدى انتشار الموسوعة ، وقيمتها العلمية .

وقسم مكة المكرمة كسائر اقسام العتبات المقدسة لن يقل مجموعه عن عشرة اجزاء إن لم يزد على ما نظن ، وهذا هو الجزء الأول ، وهو عبارة عن المامة وافية عن مكة من اول نشأتها واهميتها في التاريخ ، ومصادر بحوثها ، ونماذج مما ورد عنها في اهم المصادر العربية والأجنبية راجين ان نوفق الى اصدار الأجزاء التسعة الاخرى بمنه تعالى وتوفيقه .

مكة قديماً

إلمامة تاريخية كافية عن مكة المكرمة
منذ أول تمصيرها حتى قيام الاسلام

كتبها

جعفر الخليلي



مكة المكرمة واسماؤها

قلما اختلف اللغويون والمؤرخون في اسم مدينة من المدن واشتقاقها وتعدد اسمائها كما اختلفوا في اسم « مكة » فقد جاء في القاموس للفيروزآبادي ان فلاناً مَكَّ فلاناً اي اهلكه ونقصه ، ومنه (مكة) للبلد الحرام او للحرم كله لأنها تنقص الذنوب او تفنيها [١] .

وقد قيل انما سميت (مكّة) فلقلة مائها ، وذلك انهم كانوا يمتكّون الماء فيها أي يستخرجونه – على ما اورد ابن منظور – وقيل بل سمّيت مكّة لانها كانت تَمُكُّ من ظلم فيها وألحد – أي تُهلكه ، قال الراجز :

يا مكّةُ الفاجرَ مُكّي مكّا ولا تمكّي مَذْ حِجا وعكّا [٢]

ويقال انما سميت (مكة) فلازدحام الناس بها من قولهم : قد امتك الفصل ضرع امه اذ امتصه مصاً شديداً ، وروى ياقوت ان الشرقي بن القطامي قال : انما سميت مكةَ لان العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمكّ فيه اي نصفر صفير المكّاء حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم اذا طافوا بها ، وقال قوم

(١) القاموس في مادة مكة ، (٢) لسان العرب في مادة مكك

سميت مكة لانها بين جبلين مرتفعين عليها وهي في هبطة بمنزلة المكوك الى غير ذلك من التفاسير التي يصعب الركون اليها والاعتماد عليها [١]

ولقد جاء اسم (مكة) في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة الفتح من قوله تعالى (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطنِ مكّة من بعدِ ان أظفركم عليهم وكان اللهُ بما تعملونَ بصيراً) مشيراً بذلك الى صلح (الحديبية) كما اشارت الى ذلك التفاسير ،

بكّة

ومن أسماء مكة الكثيرة (بكّة) وقيل انها سميت بذلك لان مكة كانت تبكّ اعناق الجبابرة اذا ألحدوا فيها بظلم ، وقيل بل لان الناس يتباكون فيها من كل وجه اي يتزاحمون

وقال ابن منظور عن يعقوب ان (بكّة) ما بين جبلي (مكة) لان الناس يبك بعضهم بعضاً في الطواف ، اي يزحم ، وقيل سميت (بكّة) لان الناس يبكّ بعضهم بعضاً في الطريق اي يدفع [٢] ، قال ذلك ابو عبيدة وأنشد :

اذا الشريب أخذته أكّهْ فخلّه حتى يبكّ بكّه [٣]

وقيل بل ان (بكّة) موضع البيت وسائر ما حوله (مكه) .
وورد إسم (بكّة) في القرآن الكريم في موضع واحد من قوله :
(إن أول بيتٍ وُضع للناسِ للذي ببكة مباركاً وهُدى للعالمين) [٤] .

ام القرى

ومن أشهر اسماء مكة (ام القرى) وفي سبب هذه التسمية اختلاف

---

(١) معجم البلدان مادة مكة . (٢) لسان العرب في مادة بكك . (٣) معجم البلدان مادة مكة .
(٤) سورة آل عمران .

كما هو في اسم مكة وبكّة فقد قيل انها سميت (بام القرى) لانها توسطت الأرض فيما زعموا ، ويقول ابن منظور في لسان العرب : وقيل لانها قبلة جميع الناس يؤمونها ، وقيل سميت بذلك لانها كانت اعظم القرى شأناً ولا يبعد ان يكون هذا التوجيه اقرب الى الصواب لما عرفت به مكة في ادوارها التاريخية ولان كل مدينة بمثابة الأم لما حولها من القرى على ما يصطلح عليه اللغويون .

وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في موضعين :

(وهذا كتابٌ انزلناه مباركٌ مصدقٌ الذي بين يديه ولتنذر أمّ القرى ومن حَولها والذين يؤمنون بالآخرةِ يؤمنون به وهُم على صلاتِهِم يحافظون)[١]

(وكذلك اوحينا إليك قرآنا عربياً لتُنذر أمّ القرى ومَن حولها وتُنذر يوم الجمع لا ريب فيه فَريقٌ في الجنّة وفريقٌ في السعير [٢]) .

البلد ، والبلد الأمين ، والحرام

البلد ، والبلد الامين من اشهر أسماء مكة ، التي تغلب عليها هذا الاسم والصفة ، في الاسلام اكثر والمقصود بالأمن هو ماعرفت به مكة من ألامن على ساكنيهاواللائذين بها وحفظ اموالهم دون جميع اطرافها ، وانما سميت مكة بالبلد فهو من باب التفخيم لها كالنجم ، للثريا ، والعود للمندل [٣] وقد ورد ذكر مكة باسم البلد في أربعة مواضع من القرآن الكريم ، وقد اجمع المفسرون على ان المقصود من الآية (لا أُقسِمُ بهذا البلد ، وانتَ حِلّ بهذا البلد) [٤] هو القسم بالبلد الحرام وهو (مكة) وتفسير ذلك : انك يا محمد مقيم بهذا البلد وهو محلك ، وهذا تنبيه على شرف البلد بشرف من

(١) سورة الانعام . (٢) سورة الشورى . (٣) لسان العرب في مادة بلد ، (٤) سورة البلد .

حلّ به من الرسول الداعي الى توحيده ، واخلاص عبادته ، وبيان ان تعظيمه له ، وقسمه به لأجله .

وهكذا كان المقصود من (البلد) في الآية : (والتين والزيتونِ وطورِ سنين ، وهذا البلدِ الأمين) [1] هو مكة البلد الحرام الذي يأمن فيه الخائف في الجاهلية والاسلام [2] .

وكذلك فان المقصود بالبلد في الآية القرآنية (وإذ قالَ ابراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا بلداً-آمناً ، وارزقْ أهله من الثمراتِ من آمن منهم بالله واليوم الآخر) [3] هو مكة المكرمة ، وان معنى قوله (بلداً آمناً) اي يأمنون فيه ، كما يقال : ليل نائم اي النوم فيه [4] .

وورد ذكر (البلد) على لسان ابراهيم بمعنى مكة مرة اخرى في الآية (وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً . واجنبني وبنيّ ان نعبـد الأصنام) [5] .

ووردت (مكة) باسم (البلدة) مرة واحدة في القرآن الكريم في الآية : (إنما أُمِرْتُ ان أعبدَ ربَّ هذه البلدةِ الذي حرّمَها . وله كل شيء . وأُمِرتُ ان اكون من المسلمين) [6] وعن ابن عباس ان البلدة هي مكة ، وقوله (والذي حرمها) اي جعلها حرماً آمناً يحرم فيها ما يحل في غيرها . لا ينفر صيدها ، ولا يختلي خلاها ، ولا يقتص فيها [7] .

ونعتت مكة (بالحرم الآمن) في موضعين من القرآن فقد جاء في الآية (أولم نُمكّنْ لهم حرماً آمناً يجبى اليه ثمراتُ كل شيء رزقاً من لدّنا) [8] وجاء في الآية : (أولم يرو أنّا جعلنا حرماً آمناًويتخطّفُ الناسُ من حَولِهم) [9]

---

(١) سورة التين . (٢) مجمع البيان للطبرسي سورة البلد ص ٤٩٢ . (٣) سورة البقرة .
(٤) التبيان في تفسير القرآن سورة البقرة ص ٤٥٧ . (٥) سوة ابراهيم . (٦) سورة النمل .
(٧) مجمع البيان سورة النمل ص ٢٣٧ . (٨) سورة القصص . (٩) سورة العنكبوت .

اسماء مكة الاخرى

ولمكّة اسماء اخرى كثيرة أوردها المؤرخون ويغلب على الظن ان ما كان معروفاً في صقع من اسماء (مكة) غير معروف في صقع آخر ، وما كانت تطلق قبيلة عـلى مكة من الاسماء باستثناء اسماء (مكة) العامة الشاملة — غير ما كانت تطلقه قبيلة أخرى ، والا لما تعددت أسماء مكة كل هذا التعدد .

فمن أسماء مكة : النسّاسة ، وأم رُحم ، ومعاد ، والحاطمة ، والرأس ، والحرم ، وصلاح ، والعرش ، والقادس ، والمقدسة ، والناسّة ، والباسّة ، وكُوثى ، والمُذْهَب في قول بشر :

وما ضم جياد المصلى ومُذْهَبُ [١]

وهناك من يطلق على مكة صفة (البيت) و (الكعبة) ويسميها (بالبيت العتيق) او بيت الله . او البيت الحرام ، وغير ذلك من الأسماء والنعوت .

---

(١) معجم البلدان في مادة (مكة) .

اول ظهور مكة في التاريخ

تقع مكة في الجانب الغربي من جزيرة العرب وتمتد من الغرب الى الشرق على مسافة نحو ثلاثة كيلومترات طولاً وما يقرب من نصف ذلك عرضاً في واد مائل من الشمال الى الجنوب منحصر بين سلسلتي جبال تكادان تتصلان ببعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب ، ولذا لا يشاهد ابنيتها القادم عليها الا وهو على أبوابها ، والسلسلة الشمالية فيها تتركب من جبل الفلح (الفلق) غرباً ، ثم جبل قيقعان ثم جبل (الهندي) ، ثم جبل (لعلع) ثم جبل (كداء) وهو في أعلى مكة ، ومن جهته دخل رسول الله البلد حين الفتح ، اما الجنوبية فانها تتركب من جبل (ابي حديدة) غرباً يتلوه جبلا (كُدي) و (كُدَّي) بالتصغير بانحراف الى الجنوب ، ثم جبل (ابي قبيس) الى شرقهما ، ثم جبل (خندمه) .

وترتفع مكة عن سطح البحر بنحو ٣٣٠ متراً وهي على عرض ٣١ درجة و ٢٨ دقيقة وفي طول ٤٠ درجة و ٩ دقائق[١] .

ومكة على مسافة قليلة من البحر الاحمر يوصلها به ميناء (جدة) .

---

(٧) دائرة معارف القرن العشرين في مادة مكة منقولا عن الرحلة الحجازية لمحمد لبيب البتنوني .

ولا تنفذ من واديها الى الخارج الا من طرق معينة محدودة ، وفي تأريخ ظهورها كبيت او كعبة ، او مدينة ، أقوال مختلفة من الصعب الركون اليها اذا اخذنا القواعد العلمية في دراسة التاريخ بنظر الاعتبار ، وكل ما يمكن القول هو ان تاريخ مكة قديم جداً ربما يرجع الى الوف من السنين الغابرة [١] .

ومن المؤكد ان وادي مكة قد اتخذ من قبل ان تبنى : مرحلة ومحطاً لمرور القوافل لأنها تقع وسط الطريق ولان فيها بعض العيون من المياه التي تفتقر اليها القوافل التي تقطع الصحراء بين اقصى الشمال من أراضي فلسطين الى اقصى الجنوب من أراضي اليمن ، .

وليس في تاريخ المدن مدينة كثر حول مبدأ تكوينها وتأسيسها واسباب ذلك من الكلام والروايات والاحاديث كهذه المدينة التي كانت اهم مدينة عند العرب قبل الاسلام ، وهي اهم مدينة اليوم عند المسلمين ، وستظل كذلك ما دام الاسلام قائماً .

ومعول جميع المؤرخين في كتابة تاريخ مكة القديم يقع على الكتب المقدسة ، وعلى رواية الراوين ، وقصص الأنبياء ، وعلى القليل مما تبقى من الآثار التاريخية التي يمكن استخلاص بعض الوقائع منها ، وهو ما سنمرّ عليه على قدر ما يسمح به التحقيق ، وعلى قدر ما تستدعيه حاجة كتاب نريد ان نجعل منه مصدراً عاماً لمختلف ما قيل عن تاريخ مكة ، وبالقدر المستساغ من مجموع تلك الروايات والاخبار ، والأحاديث ، والقصص الضاربة في الغرابة وبعد القول .

وتذهب أخبار مكة الى ان مكة او البيت او الكعبة كما تزعم هذه الأخبار كانت موجودة قبل قيام الطوفان ! وحين وقع طوفان نوح وعمّ الأرض خفي موضع الكعبة ودرس بسبب الغرق ، وكان موضع الكعبة

---

(١) حياة محمد لهيكل ص ٤٦ .

— على ما تقول هذه الأخبار — أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول غير ان الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولكنهم لم يتثبتوا منه بالضبط ! ! وكان يأتي البيت المظلوم ، والمتعوّذ من اقطار الأرض ، ويدعو عنده المكروب . فقلّ من دعا هنالك الا استجيب له ، وكان الناس يحجون الى موضع البيت حتى بوّأ الله مكانه لابراهيم عليه السلام لما أراد عمارة بيته وأظهار دينه وشرايعه [١] .

واذا صرفنا النظر عن هذه الأخبار فان جميع المصادر التأريخية والدينية متفقة على ان باني البيت ومؤسس مكة الأول هو ابراهيم الخليل وان البحث يقتضينا ان نمر على حياة ابراهيم ولو بايجاز لتعيين اتجاه دينه ودعوته للتوحيد ثم علاقته بمكة وبيت الله الحرام .

ابراهيم

وابراهيم اسم اعجمي كاسماعيل وفيه لغات : ابراهامَ ، وإبراهَم ، وابراهِمُ بحذف الياء وقال عبد المطلب :

وعذتُ بما عاذَ به إبراهِمُ
مُستقبلَ القبلةِ وهو قائمُ
اني لكَ اللهم عانٍ راغِمُ [٢]

قال (ابو محمد) ووجدت في التوراة انه ولد لتارخ أبي ابراهيم : ابراهيم وناحور وهارون وقد ولد لهارون هذا (لوط) و (سارة)[٣] وهناك قول ان سارة هي إبنة هاران الأكبر ، وهاران هذا هو اخو تارخ وعم ابراهيم ، على ان بعض الأخبار تقول ان ابراهيم تزوج ابنة اخيه لان ذلك لم يكن مخالفاً للشرع والمألوف حينذاك .

---

(١) اخبار مكة للازرقي المتوفى سنة ٢٢٣ هـ ج ١ ص ٥٢ ط ٢ (٢) لسان العرب في مادة برهم ، (٣) المعارف لابن قتيبة ص ١٥ .

وقد إختلفت المصادر في موطن ابراهيم الأصلي ومحل ولادته فقال البعض انه ولد في (سوس)[١] وقال البعض بل كان مولده (ببابل) في الفرات، وقال آخرون: كان مولده بناحية كُوثى من ارض السواد (العراق)[٢] وقال بعضهم كان مولده، (بالوركاء) بناحية الروابي وحدود (كسكر)[٣] ثم نقله ابوه الى (كُوثى) وهي الناحية التي كان فيها نمرود، وهو نمرود بن كوش العاهل التاريخي الجبار الشهير في ذلك الزمان، او نقله ابوه تارخ الى بابل على بعض الأقوال[٤]، وقال البعض بل انه ولد بحران وهي مدينة بفلسطين وعلى ما في هذه الأقوال من اختلاف في موضع ولادة ابراهيم فان موضع ولادته متعين في العراق وان مكان ظهوره يكاد يقتصر على مدينة بابل، بلاد الكلدانيين، وفي عصر نمرود بن كوش الملك الجبار.

وكان آزر وقد ذهب البعض الى ان آزر ليس أبا ابراهيم بل انه عمه وقد تربى ابراهيم في حجره بعد موت ابيه[٥] وكان آزر — وهو الاسم الثاني لابي ابراهيم على اغلب المصادر كان نجّاراً، ويظهر انه لم يكن نجاراً اعتيادياً وانما كان نجاراً موهوباً متفنناً وكانت بابل تعبد الأصنام فكان آزر هذا متخصصاً في صنع هذه الأصنام بمختلف صفاتها، وحين كبر ابراهيم استعان به ابوه

---

(١) مدينة تاريخية بالقرب من الاهواز وتعرف بشوش، (٢) وهنالك موضع آخر باسم كوثي غير كوثي العراق التي ولد فيها ابراهيم وهي موضع بمكة ينزله بنو عبد الدار كما عينه ياقوت في معجمه وفي كوثى هذه يقول الشاعر:

لعن الله منزلا بطن (كوثى) ورماه بالفقر والامعار
لست (كوثى) العراق أعني ولكن كوثة الدار دار عبد الدار

(٣) الوركاء مدينة اثرية تاريخية قديمة، وكسكر هي المنطقة التي تشمل الغراف واواسط الجزيرة بين الفرات ودجلة. (٤) تاريخ الامم والملوك (الطبري) ج ١ ص ١٦٢ ط ١. (٥) تاريخ اليعقوبي ج ١ (حاشية المصحح) ص ١٥ وان العم يسمى الاب في الفهم وقيل ان ازركان جده (سورة الانعام) في تفسير البيان الاية ٧٤.

آزر في الخروج بهذه الأصنام الى السوق وبيعها على الناس لاقتنائها في بيوتهم او معابدهم ، وقد اوتي ابراهيم من ربه ملكة يميز بها الأشياء وينظر الى الأمور بعين الفكر والعقل لذلك سرعان ما تسرب الى نفسه الشك في قدسية هذه الأصنام الخشبية التي يصنعها ابوه ويسبغ عليها القوم صفة الربوبيـــة ويعبدونها ، ثم حملته الهداية الالهية على أن يفكر في الكون وخالقه ، ويطيل التفكير فيستعرض الزهرة من النجوم والكواكب ، والقمر والشمس فيراها تظهر للعيان ثم تغيب ويستنتج بقوة تلك المدارك والهداية ان هذه الأشياء وان كانت اعظم ما تستلفت الأنظار من هذا الكون المرئي فلا يمكن بأي وجه من الوجوه ان يكون احدها هو خالق هذا الخلق وهو رب السموات والارض ، وانما يجب ان يكون هنالك إله غير محدود الجوانب بالبصر ، وغير مشهود للعيان وهو الذي يجب ان يتجه اليه القوم ويؤمنوا به فكان اول تشكيكه في تلك الأصنام ان توجه الى ابيه معترضاً وسائلاً على ما جاء في القرآن :

(وإذ قال ابراهيمُ لأبيه آزرَ أتتخذ اصناماً آلهةً إني اراكَ وقومَكَ في ضلالٍ مبين [١] .

ثم حين قوي ايمانه ويقينه بضلال هؤلاء القوم ، وتيقن ان هذه العبادة هي الشرك بالله وان الله هو فاطر السموات والارض وانه المعبود الذي لا شريك له قال :

(اني وجهتُ وجهي للذي فَطَرَ السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين) [٢] وراح يبشر بعقيدته ويدعو الى نبذ عبادة الاصنام ، ويغرس الشكوك في نفوس القوم بآلهتهم حتى فشا ذلك عنه في قومه ، ولكي يقيم ابراهيم الحجة المنطقية على ان هذه الأصنام ليست الا اخشاباً او احجاراً

---

(١) سورة الانعام الاية ٧٤ ، (٢) سورة الانعام الاية ٧٩ .

وهي لا تملك نفعاً او ضراً تسلل في غفلة من القوم وكان لهم عيد يخرجون اليه جميعهم فلما خرجوا لم يخرج ابراهيم معهم الى العيد وخالف اصنامهم وهو يقول :

(تاللهِ لأكيدنّ أصنامَكم) [١] .

وجاء الاصنام وهي في بهو عظيم بعضها الى جنب بعض ، كل صنم يليه أصغر منه ، وهوى عليها فكسرها بفأسٍ في يده حتى اذا بقي اعظم صنم منها ربط الفأس بيده ثم تركهن [٢] .

فلما رجع القوم من مهرجان العيد ورأوا ما فعل بأصنامهم راعهم ذلك واعظموه وقالوا (مَنْ فعلَ هذا بآلهتنا) [٣] فرد عليهم من يعرف ابراهيم ومخالفته لهم في دينهم قائلين : (قالوا سمعنا فتى يَذكُرُهم يقال له ابراهيم) [٤] وهم يعنون انه كان يسبّ الاصنام وينال منها ، وبلغ ذلك نمرود واشراف قومه فجيء به وقد كرهوا ان يأخذوه بغير بينة [٥] وسألوه وهم عند ملكهم نمرود :

(أأنت فعلتَ هذا بآلهتنا يا ابراهيمُ . قال بل فعَله كبيرُهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون) [٦] .

ولم تفدّ هذه الحجة مع قوم نمرود وبرموا به وحاولوا ان يقضوا عليه احراقاً بالنار فنجا وخرج من العراق ولم يؤمن بدعوته الا القليل وكان منهم ابنة عمه سارة بنت هاران وقد تزوجها ابراهيم وهاجر بها وبمن آمن معه الى (حاران) من ارض كنعان .

وجاء في التوراة ــ التكوين : ' واخذ تارخ ابرام (ابراهيم) ابنه ولوطاً

---

(١) سورة الانبياء الاية ٥٧ . (٢) الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ١ ص ٩٧ ط صادر ودار بيروت (٣) سورة الانبياء الاية ٥٩ (٤) سورة الانبياء الايه ٦٢ (٥) ابن الاثير ج ١ ص ٩٧ ط صادر ودار بيروت (٦) سورة الانبياء الاية ٦٢ .

بن هاران ابن ابنه وساراي (سارة) كنته امرأة ابرام ابنه – وذلك قبل ان تسمى ساره – فخرجوا معاً من اور الكلدانيين ليذهبوا الى ارض كنعان ، فأتوا الى حاران ، واقاموا هناك[١] » .

ثم جاء في التوراة التكوين « وحدث جوع في الأرض فانحـــدر ابرام الى مصر ليتغرب هناك لان الجوع في الارض كان شديداً ، وحدث لمـــا قرب ان يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته اني قد علمت انك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذ رآك المصريون انهم يقولون هذه امرأته فيقتلوني ويستقبونك ، قولي انك اختي ، ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من اجلك » وكان ملوك مصر يومذاك العمالقة (الهكسوس) وتروي الأخبار وجلّها مستقاة من التوراة قصة طويلة عما جرى لابراهيم وسارة مع فرعون مصر ثم تقول ان فرعون هـــذا قد اهدى لسارة جارية .اسمها (هاجر) وكانت سارة عاقراً حتى ذلك الحين فلم تلد لابراهيم ولداً وكانت (هاجر) جارية ذات هيئة فوهبتها سارة لابراهيم وقالت اني اراها امرأة وضيئة فخذها لعل الله يرزقك منها ولداً[٢] .

وخرج ابراهيم من مصر ونزل ارض فلسطين (بيت المقدس) وهي بلاد الكنعانيين ، وقد وسع الله عليه وبسط له في الرزق والمال والخدم ، وهنا ولد اسماعيل من هاجر ، فهاج ذلك غيرة (ساره) وغاظها ان ترى جاريتها تلد ولداً وهي لا تلد ، فغضبت عليها واخرجتها ثم اعادتها ، وليس من شك ان نزاعاً حاداً كان قد جرى بينهما وربما طال امد هذا النزاع فاضطر ابراهيم للهجرة بهاجر وابنها اسماعيل وقد اختلفت الأخبار في سن اسماعيل عند الهجرة وقال البعض انه كان رضيعاً ، والراجح انه كان في سن اكبر وفوق سن الرضاعة فقد ورد في الأسباب التي حملت ساره على ان تفرض على ابراهيم الهجرة بهاجر وابنها اسماعيل في قولها : (لا تساكني

(١) التوراة التكوين ٣١ الاصحاح الحادي عشر (٢) تاريخ الامم والملوك الطبري ج ١ ص ١٧٣.

هاجر في بلد) هو ان سارة قد حملت هي الأخرى باسحق فلما ولدته وكبر اقتتل هو واسماعيل[١] ، فلم تطق سارة بعد ذلك ان تحتمل هاجر هاجر وابنها اكثر مما احتملته . وقد رووا انه لما ولد لابراهيم اسحق من سارة وبلغ ثلاث سنين أقبل اسماعيل على اسحاق وهو في حجر ابراهيم فنحاه وجلس في مجلسه فبصرت به سارة فقالت : يا ابراهيم أينحّي ابن هاجر ابني من حجرك ويجلس هو في مكانه ؟ لا والله لا تجاورني هاجر وابنها في بلاد ابداً فنحّهما عني ؛ وكان ابراهيم مكرماً لسارة يعزّها ويعرف حقها وذلك لانها كانت من من ولد الانبياء وبنت خالته (كذا)[٢] .

واقبل ابراهيم بام اسماعيل واسماعيل حتى قدم بهما مكة ومع ام اسماعيل شنة[٣] فيها ماء تشرب منها وعمد بهما الى دوحة فوق (زمزم) ووضعهما تحتها ثم رجع . فوضعت هاجر ابنها الى جنبها تحت الدوحة ، وعلقت شنتها تشرب منها حتى فني ماؤها ، فانطلقت هاجر حتى صعدت (الصفا) لتنظر هل ترى شيئاً فلم تر شيئاً ، وقيل انها فعلت ذلك سبع مرات ، وكان ذلك اصل السعي عند الحجاج .

وتختلف هنا الروايات في هذه الهجرة وكيفيتها واصل (زمزم) وظهورها عند الدوحة لأول مرة ، واسباب تسمية (زمزم) وما ارفق ذلك من الاخبار التي تقتصر على ما توردها قصص الأنبياء وما يوردها الرواة التي لا تنسجم اخبارها واخبار التاريخ .

ويعلق محمد فريد وجدي على ما ورد عن تلك الروايات فيقول : « ويظهر لنا ان في هذه الروايات ضعفاً ، بل ان اكثر امثال هذه الروايات مخلوطة بالخرافات — ثم يقول — ويلوح لنا ان ابراهيم لم يطوح با مرأته وولده

(١) تاريخ الامم والملوك (الطبري) ج ١ ص ١٧٨ ط ١ — والكامل في التاريخ لابن الاثير ج ١ ص ١٠٢ ط صادر ودار بيروت ، (٢) مجمع البيان سورة الصافات الاية ١١٢ ، (٣) الشنة : هي القربة ،

الى هذا الحد بل انتقل بامرأته الثانية الى جهات مكة لغرض من الأغراض بدليل انه كان قد زار بلاد العرب مراراً »[١].

وعلى مثل هذا الرأي كان غير قليل من المؤرخين كما سيجيء البحث ، وليس هنالك من تناقض بين هذا الرأي والآية القرآنية الواردة على لسان ابراهيم :

(ربّنا إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم)[٢] اذ لا ينافي ذلك ان يكون الوادي ذا مياه وافياء مع كونه وادياً غير ذي زرع.

اسماعيل

وعلى مقربة من مكة كانت منازل قبائل جرهم ، بل قال بعضهم ان جرهم كانت اولى القبائل التي أقامت في (مكة) وانها كانت تقيم هناك قبل ان تجيء هاجر وابنها على حين تذهب روايات اخرى الى ان جرهم لم تقم الا بعد ان تفجرت (زمزم) وجعلت العيش في هذا الوادي الاجرد مستطاعاً[٣] وقبائل جرهم عرب يتكلمون اللهجة التي نزل بها القرآن وهي لغة بني معد.

فشب اسماعيل في قبيلة جرهم واعطوه سبع اعنز فكانت اصل ماله ونشأ مع اولادهم وتعلم الرمي ، ونطق بلسانهم[٤] وماتت امه وتزوج باحدى بنات جرهم واقام واياها مع الجرهميين في هذا المكان الذي تمّ فيه تشييد البيت الحرام ، وقامت مكة بعد ذلك من حوله.

وقيل ان اسماعيل قد تزوج مرتين وتتحدث الأخبار عن الزوجة الاولى وتدعي ان اسمها (عمارة) بنت سعيد بن اسامة[٥] وتقول هذه الأخبار ان

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين في مادة اسماعيل . (٢) صورة ابراهيم الاية ٣٧ (٣) حياة محمد لهيكل ص ٥١ ط ١ (٤) المعارف لابن قتيبة ص ١٦ ط ١ . (٥) اخبار مكة للازرقي ج ١ ص ٥٧ ط ١ ، وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد انها كانت من العماليق ج ١ ص ٣٢ ط لجنة نشر الثقافة ،

ان ابراهيم رأى ان يزور إبنه بعد مرور هذه السنين ويستطلع خبره فجاء يسأل عنه حتى وقف على بيته ووجد امرأة اسماعيل فسألها عنه فقالت : انه غائب ، وليس من شك ان يكون غيابه في الصيد ، فقد كان الصيد يومذاك هو المعول في حياة تلك القبائل ، وقد يقضي القوم في الصيد اياماً واسابيع ، ولم يجد ابراهيم من زوجة ابنه اسماعيل ما كان مألوفاً عند القبائل من ترحيب بالضيوف فقال لها ابراهيم – على ما تقول هذه الروايات : « قولي لزوجك اسماعيل اذا ما عاد انه قد جاءه شيخ صفته كذا وكذا وهو يقرئك السلام ويطلب منك : ان تغيّر عتبة بيتك لانه لم يرضها لك ». ثم رجع من حيث أتى .

وحين رجع اسماعيل حدثته امرأته بحديث ذلك الشيخ فقال لها زوجها : « هذا آبي وانت عتبة بيتي ، وهو لم يرض بك فارجعي الى اهلك » وأرجعها الى أهلها ، وتزوج بجرهمية اخرى ، قيل ان اسمها (رِعلة) بنت مضاض التي ولد له منها اثنا عشر ذكراً فكان هو وجرهم بن قحطان الجدين الأولين للعرب المستعربة [1] .

وجاء في التوراة على لسان الله يخاطب ابراهيم في اسماعيل « ها انا أباركه وأثمره ، واكثره كثيراً جداً ، اثني عشر رئيساً يلد واجعله امةً كبيرةً » [2] .

وتقول الرواية : ولبث ابراهيم ما شاء الله ان يلبث ثم عاد مرة اخرى ليزور ابنه اسماعيل فألفاه غائباً كالسابق ، ووجد امرأته الجديدة فاستنزلته وهي لم تعرفه وعرضت عليه الطعام والشراب فسألها : ما طعامكم وشرابكم ؟ قالت : اللحم والماء . قال : هل من حَبّ او غيره من الطعام ؟ قالت : لا ، قال : بارك الله لكم في اللحم والماء [3] . وقالت بعض الروايات انها جاءته باللبن واللحم ثم طلبت منه على سبيل المبالغة في إكرام الضيف وهو شيخ كبير

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ، مادة اسماعيل (٢) التوراة – التكوين – الاصحاح ١٧ ،
(٣) اخبار مكة اللازرقي ج ١ ص ٥٨ ط ٢ .

وعلى رأسه أثر من غبار السفر ، طلبت منه ان تغسل له رأسه وهو على فرسه دون ان ينزل من فرسه وجاءته (بالمقام) [١] بالاناء ووضعته عند شقه الايمن ، فوضع قدمه عليه فغسلت له شق رأسه الأيمن ، ثم حولت (المقام) الى شقه الايسر وفعلت به كذلك ، فقال لها اذا جاء زوجك فاقرئيه عني السلام وقولي له : الآن قد استقامت عتبة بابك . فلما جاء اسماعيل قالت له زوجته: لقد جاءنا من بعدك شيخ احسن الناس وجهاً، وأطيبهم ريحاً، وقال لي كذا وكذا وقلت له كذا وكذا ، وغسلت له رأسه ، وهو يقرئك السلام ويقول : قد قد استقامت عتبة بابك فلا تغيرها . فقال لها اسماعيل : ذلك هو ابي ابراهيم ، وقوله هذا يدل على رضاه منك .

وولد لاسماعيل من هذا الزواج كما مر اثنا عشر ولداً هم آباء العرب المستعربة، هؤلاء العرب الذين ينتمون من ناحية خؤولتهم في جرهم الى العرب العاربة ابناء يعرب بن قحطان . ومن ناحية أبوّتهم لاسماعيل بن ابراهيم الذي يمتّ من ناحية امومته الى مصر بأوثق نسب ، ومن ناحية ابوته الى العراق والى فلسطين ، والى حيث نزل ابراهيم من ارض الله [٢] .

هذه القصة من قصص التاريخ – على ما اورد هيكل – يكاد ينعقد الاجماع على جملتها من ذهاب ابراهيم واسماعيل الى (مكة) وان وقع خلاف على التفاصيل ، والذي يعرضون لتفاصيل حوادثها بالنقد ، يروونها على ان هاجر ذهبت باسماعيل الى الوادي الذي به (مكة) اليوم ، وكانت به عيون أقامت (جرهم) عندها فنزلت هاجر منهم اهلاً وسهلاً لما جاء ابراهيم بها وبابنها ، وان ما ورد عن حيرة هاجر لما نضب الماء منها ، وعن سعيها سبعاً بين الصفا والمروة ، وعن (زمزم) وكيف نبع الماء منها فهو

---

(١) ويرى البعض من الرواة ان المقام هو الحجر وقد وضعته زوجة اسماعيل تحت قدم ابراهيم في اثناء قيامها بغسل رأسه ثم شمله التقديس وعرف بمقام ابراهيم . (٢) حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ٥١ ط ١ .

موضع شك عندهم ، وهناك من يرتاب في ذهاب ابراهيم واسماعيل الى الحجاز وينفي القصة من اساسها ومن هؤلاء السير وليم موير ، ولكن هذا الارتياب يفتقر الى ما يسنده في حين ان جميع الروايات على خلاف هذا الرأي

قصة الذبح

ومصادر قصة الذبح هي نفسها مصادر قصة ابراهيم ومصادر قصة اسماعيل الواردة في الكتب المقدسة ؛ والرواة كابن عباس ، والصحابة ، وقصص الأنبياء ، وتتلخص القصة ، في ان ابراهيم قد رأى في المنام ان الله يأمره بأن يذبح ابنه فقالت التوراة ومعها بعض الرواة ان الذبيح هذا هو اسحاق بن سارة ، وان ذلك كان في فلسطين[1] ، وقال الراوون الآخرون بل الذبيح هو اسماعيل وان ذلك كان في مكة ، واورد القرآن قصة الذبح ولكن لم يعين اسم الذبيح في القصة . وكل ما جاء هو ان ابراهيم قد اخذ ابنه امتثالاً للرؤيا التي رآها لقد اخذه لكي يذبحه ويحرقه ويقدمه قرباناً فسار به في الصباح ، وتقول الآية (فلما بلغ معه السعي قال يا بُنيّ إني أرى في المنام أنّي أذْبَحُكَ فانظر ماذا ترى ، قال يا أبَتِ افعلْ ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتَلّهُ للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيمُ قد صَدّقْتَ الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين ، إنّ هذا لَهُوَ البلاءُ المبين ، وفديناه بذبحٍ عظيم »[2] .

وتكثر الروايات وبأساليب مختلفة وعن طرق مختلفة من الرواة عن الذبيح وكيف جرى هذا الذبح حتى لقد علق الدكتور محمد حسين هيكل على احدى قصص الذبح ، يقول : وتسبغ بعض الروايات على هذه القصة خيالاً شعرياً تدعونا روعتها ان نقصها ثم يسرد تلك القصة[3] .

---

(١) التوراة — التكوين ٩ — ١٠ الاصحاح الثاني والعشرون ،(٢) صورة الصافات الاية١٠٧ ،
(٣) حياة محمد ص ٤٩ ط ١ .

وملخص ما تروي المصادر عن كيفية الذبح هو ان ابراهيم لما رأى في المنام ان يذبح ابنه وتحقق لديه من هذه الرؤيا انها أمر رباني فيه رضا الله قال لابنه : يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا الى هذه الهضبة لنحتطب لاهلنا ، وفعل الغلام وتبع والده ، وهناك أفضى ابراهيم الى ابنه برؤياه وسأله رأيه في الأمر ؟ فقال : يا أبت افعل ما تؤمر. وهم ابراهيم بالتنفيذ ولكن الله افتدى الغلام بكبش عظيم ونودي ان قد صدقت الرؤيا فالتفت ابراهيم واذا بكبش على مقربة منه فعلم انه هو الفدية ، فذبحه وحرقه وآمن بأن الله قد قبل منه ومن ابنه هذا الفداء ، وهذا خلاصة ما تذكره الكتب المقدسة والروايات في الذبيح ، فاذا كان الذبيح اسحاق على ما تقول التوراة ويروي الرواة فيجب ان يكون مسرح هذه القصة في فلسطين ، اما اذا كان الذبيح اسماعيل كما يروي الآخرون فيجب ان يكون مسرح القصة في مكة.

بنـــاء البيت

واختلف الرواة فيما اذا كان هنالك بيت او بنية سبقت عهد ابراهيم في مكة ، فلما جاء ابراهيم الى مكة شيد هذا البيت على أسسه ام ان ابراهيم قد قام بتشييد هذا البيت ابتداء في هذا المكان الذي يقوم فيه بيت الله اليوم . فقـــد أوردت بعض المصادر من الأخبـــار ما يستدل منه ان لمكة هذه كانت بنية من قبـــل وان هنالك مواسم كانت القبائل تأتي مكة فيها ، وان مكة هذه كانت ممراً للقوافل وسوقاً للتجارة يقع فيها التبادل في البضائع بين القوافل المارة من هناك وكان الناس يحجون إلى مكة والى موضع البيت الذي كان مبنياً من الطين قبل الطوفان حتى بوأ الله مكانه لابراهيم لما اراد ألله عمارته واظهار دينه وشعائره . كما أشرنا في ذلك من قبل . وتذهب هذه الروايات الى مدى ابعد من التصور فتقول عن هذا البيت انه « لم يزل منذ اهبط آدم الى الأرض معظماً محرماً تتناسخه الأمم والملل امة بعد امة وملة بعد ملة ! ! »(١) .

مخطط الكعبة كما بناها ابراهيم على ما يدعى البعض نقلا من كتاب (مكة المكرمة – والمدينة المنورة) بالانكليزية تأليف أميل ايسين

(١) معجم البلدان في مادة الكعبة .

وهناك من يذهب الى ان ابراهيم قـــد هاجر باسماعيل وامـــه في الموسم فقد رأى في المنام أمر الله بأن يهاجر باسماعيل وامه من ارض الشام في الموسم – وكان ذلك في ذي الحجة – الى مكة ويذبحه في الموسم [١] وهو يدل على ان هنالك كان موسم ، وكان اجتماع ، إذ يستبعد ان يكون هذا الموسم قد سنّه ابراهيم وصار موسماً عاماً فذبح فيه ابنه اسماعيل والموسم في عامه الأول .

ولكن اكثر الرواة على ان اول من بنى البيت كان ابراهيم ، فما لبث ابراهيم بعد زيارته ابنه اسماعيل للمرة الثانية في مكة حتى عاد مرة اخرى من ارض الشام الى مكة وفي هذه المرة فاجأ ابنه اسماعيل وهو جالس يصلح نبلاً له ولا شك ان اللقاء بين الأب والابن كان مؤثراً وان الحديث كان طويلاً وهناك اي في هذه الزيارة قال لابراهيم : يا اسماعيـــل ان الله قد أمرني ان ابني له بيتاً هنا قال اسماعيل : فأطع ربك ، فقال ابراهيم : وقد امرك ان تعينني على بنائه ، قال : فافعل .

ولا بد ان الاب والابن قد أعدّا العُدّة حينذاك وهيآ المواد اللازمة وفي تعيين مكان البيت والمواد روايات كثيرة ، واستمرا في البناء (وإذ يرفع ابراهيم القواعدمن البيت واسماعيل [٢] .) وكلما انجزا قسماً منه دعوا الله قائلين :(ربنا تقبّلْ منا انك أنتَ السميعُ العليم [٢] .) وحين ارتفع الجدار وعجز الأب الشيـــخ ان يضع الحجارة فوق الحجارة رأى ان يضـــع حجراً ويقوم عليـــه ، ولم يزل مكان هذا الحجر يعتبر مقاماً لابراهيم لانه وقف عليه في اثناء بناء البيت ، وجعل ابنه اسماعيل يناوله الحجارة ، وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان الى ايام عمر بن الخطاب (رض) فأخّره عن البيت قليلاً لئلا يشغل المصلين

(١) مجمع البيان – سورة الصافات الاية ١١٣ . (٢) سورة البقرة الاية ١٢٧ .

عنده والطائفين بالبيت [١]. وفي مقام ابراهيم من الآية (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) اختلاف عند المفسرين فقال بعضهم : ان مقام ابراهيم هو مراسيم الحج اي الحج كله ، وقال البعض بل المقصود بمقام ابراهيم : عرفه والمزدلفة والجمار ، وقيل الحرم كله . وعن السعدي ان مقام ابراهيم هو الحجر الذي كانت زوجة اسماعيل وضعته تحت قدم ابراهيم حين غسلت رأسه [٢] ويفسر المفسرون قول ابراهيم وابنه اسماعيل (ربّنا تقبّلْ منا) على انهما بنيا الكعبة مسجداً لا مسكناً لانهما التمسا الثواب عليه والثواب انما يطلب على الطاعة.

واستدل المستدلون على ان هذا اول بيت بني كمسجد للعبادة وكبيت لله الذي عبده ابراهيم ومن بعده اسماعيل ودعا اليه ولم يكن نظير له من قبل لقد استدلوا عليه في الآية : (إنّ اوّلَ بيت وُضعَ للناس للذي بِبكّةَ مُباركاً وهُدى للعالمين [٣].) على الرغم مما ورد من الاختلاف والتفاسير في كونه البيت الأول .

وابرز ما في هذا البيت مما قدس هو الحجر الأسود الذي وضع في البناء وربما افرد فاكتفوا بقولهم (الحجر) بدون وصف اعظاماً له ، ومن ذلك قول عمر بن الخطاب (رض) يخاطب الحجر الأسود وهو يؤدي مراسيم الحج « والله انك حجرٌ ولولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل كذا ما فعلت » [٤].

فأما قول الفرزدق :

وإذا ذكرتَ أباكَ أو أيّامَه   أخزاكَ حيث تُقَبّلُ الاحجارُ

فانه جعل كل ناحية منه حجراً ، ألا ترى انك لو مسستَ كل ناحية منه لجاز ان تقول : مسستُ الحجر [٥].

---

(١) البداية والنهاية في التاريخ ج ١ ص ١٦٤ ط ١ . (٢) التبيان في تفسير القرآن سورة البقرة . (٣) سورة آل عمران الاية ٩٦ . (٤) لسان العرب لابن منظور في مادة حجر ط صادر ودار بيروت . (٥) المصدر السابق .

دين ابراهيم

وبعد ان اتم ابراهيم واسماعيل بناء البيت تعينت هنالك الفروض الواجبة . على ابراهيم واسماعيل والمؤمنين بدعوته الى الوحدانية . وتتلخص ديانة ابراهيم بأنه كان (حنيفاً) ففسر البعض الحنيفية بالاستقامة وقالوا اي انه كان مستقيماً [١]. وايدت الأخبار المستقاة من النصوص المقدسة والروايات ان ديانة ابراهيم كانت ديانة مستقلة لم تنهج نهج ديانات اخرى وقد ايدها الاسلام بعد ذلك واعتبرها من إسس دعوته ، وقد استدل المستدلون على ديانة ابراهيم المستقلة وتأييد الاسلام لها من الآية :

(ما كان ابراهيمُ يهودياً ولا نَصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كانَ من المشركين ، إنّ أولى الناس بابراهيمَ للذينَ اتّبعوه وهذا النبيّ والذين آمنوا واللهُ وليّ المؤمنين [٢] .)

ثم استدلوا على ان ابراهيمَ لم يكن مشركاً وان طقوسه كانت مقبولة ولم يرد بها الا الدعوة الى الوحدانية في بناء البيت لكي يحضروا عنده ويدعو الله من قلوب خالصة ويصلوا الى ربهم انهم يستدلون على ذلك بالآيــة :

(وإذ بوأنا لابراهيمَ مكانَ البيتِ ان لا تُشْرِكَ بي شيئاً وطهّرْ بيتي للطائفين والقائمين والركّع السجود [٣] .)

قال المبرد : كأنه قال وحدّني في هذا البيت وذلك معنى (لا تشرك بي شيئاً) وطهر بيتي من الشرك وعبادة الأوثان ، ومن الآية الاخرى : (وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طَهِّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود [٤]) اتخذوا دلائل اخرى على اتجاه ابراهيم في ديانته والغرض المطلوب من بناء البيت .

---

(١) مجمع البيان سورة آل عمران الاية ٦٧ . (٢) سورة آل عمران الاية ٦٧ و ٦٨ .
(٣) سورة الحج الاية ٢٦ . (٤) سورة البقرة .

وكما لم يكن لدى المؤرخين في الغالب ما يرجعون اليه في تعيين دين ابراهيم وأسسه وبنـاء البيت وأركانه غـير الكتب المقدسة والأحاديث والروايات فإنه ليس في الطقوس الدينية في الحج من مصدر غيرها وقد روت هذه المصادر روايات مختلفة لا يخرج مفهومها عن ان طقوس الحج التي التي يقوم بها المسلمون والصلاة التي يؤدونها اليوم تكاد تكون نفس الطقوس التي قام بها ابراهيم ، وهي موضع مناقشة عند المؤرخين لا سيما فيما يتعلق بالصلاة التي لم تعين تلك المصادر نوعها ، وبمواقيتها التي وردت في تلك الأخبار ، ومجمل تلك الاقوال هو ان ابراهيم حين فرغ من بناء البيت دعا الناس ممن آمن بدعوته الى الحج وخرج بابنه اسماعيل وبمن لبّى دعوته يوم (التروية) فنزل بهم (منى) وصلى بهم الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء الآخرة ، ثم بات بهم حتى أصبح فصلى بهم صلاة الفجر ، ثم غدا بهم الى (عرفة) فقام بهم هنالك حتى اذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين : الظهر والعصر ثم راح بهم الى الموقف من (عرفة) فوقف بهم على (الاراك) وهو الموقف من (عرفة) الذي يقف عليه الامام يريه لاسماعيل ويعلّمه ، فلما غربت الشمس دفع ابراهيم باسماعيل وبمن معه حتى اتى (المزدلفة) فجمع فيها بين الصلاتين : المغرب والعشاء الآخرة ، ثم بات به وبمن معه حتى اذا طلع الفجر صلى بهم صلاة الغداة ثم وقف على (قزاح) من (المزدلفة) فيمن معه وهو الموقف الذي يقف به الامام ، حتى اذا أسفر دفع باسماعيل وبمن معه يريه ويعلمه كيف يصنع حتى رمى (الجمرة الكبرى) ، واراه (المنحر) من (منى) ثم نحر ، وحلق ، ثم أفاض به من منى ليريه كيف كيف (يطوف) ثم عاد به الى (منى) ليريه كيف يرمي (الجمار) حتى فرغ له من الحج وأذن به في الناس [1] .

وتكرر بعد ذلك حج ابراهيم ، وكان ابراهيم يحجه في كل سنة ، وحجّت

---

(١) الطبري ج ١ ص ١٨٣ ط ١ ، وابن الاثير ج ١ ص ١٠٧ ط صادر ودار بيروت ، ونهاية الارب ج ١ ص ٣٠٨ ، واغلب التفاسير .

بعد ذلك الانبياء والامم ، وفي رواية عن عبد الله بن ضمرة السلولي : « ما بين الركن الى المقام ، الى زمزم قبر تسعه وتسعين نبياً جاؤوا حجاجاً فقبروا هنالك »[1] وجاء : «كان النبي من الأنبياء اذا هلكت امته لحق بمكة فتعبد بها النبي ومن معه حتى يموت ، فمات بها نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وقبورهم بين زمزم والحجْر »[2] ومات ابراهيم ودفن في المغارة التي كانت بحبرون الحيثي عند امرأته (ساره) بمدينة الخليل في الأردن، ولم يزل البيت على ما بناه ابراهيم الى ان هدمته قريش سنة ٣٥ من مولد النبي .

البيت ، والكعبة ، والمسجد الحرام

واطلق على بيت الله اسم (البيت) و (البيت العتيق) و (الكعبة) ، لتكعيبها — اي تربيعها — و (المسجد [illegible] بيت الحرام . كما يقال المسجد الحرام وقد اورده القرآن باسم البيت في عدة آيات سبق ان اوردنا بعضها شواهد فيما مرّ ونورد هنا جميع الآيات الأخرى التي ورد فيها اسم البيت مقصوداً به الكعبة قد ايد الاسلام شعائر ابراهيم ونهى عن قتال الآمّين الى البيت ومنحهم الأمن فيه ؛ وحقن حتى دم الحيوان في الحرم .

فالآيات القرآنية التي ورد فيها اسم البيت هي :

(يا أيها الذين آمنوا لا تحلّوا شعائرَ الله ولا الشهر الحرام ولا الهديَ ولا القلائدَ ولا آمّينَ البيت الحرام)[3] .

(لكم فيها منافع الى اجل مسمى ثم مَحلّها الى البيت العتيق[4]) .

(وما كان صلاتُهم عندَ البيتِ الا مُكاءً وتصديةً)[5] .

(فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعَمهم من جُوعٍ وآمنهم من خوف)[6]

---

(١) نهاية الارب للنويري ج ١ ص ٣٠٩ ط دار الكتب . (٢) المصدر السابق ص ٣١٤ .
(٣) سورة المائدة . (٤) سورة الحج . (٥) سورة الانفال . (٦) سورة قريش .

(وليوفوا نذورَهم وليطوّفوا بالبيتِ العتيق)[١] .

(والطورِ . وكتابٍ مسطور . في رقٍّ منشور . والبيت المعمور)[٢] .

(وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للناس وأمناً . واتّخذوا من مقامِ ابراهيم مُصلّى)[٣] .

(إنَّ الصفا والمروةَ من شعائرِ الله فمن حجَّ البيتَ واعتمر فلا جناحَ عليه ان يطوّفَ بهما)[٤] .

وهناك آية جمعت بين اسم البيت والكعبة في القرآن :

(جَعلَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرام قياماً للناس)[٥] .

وما عدا ذلك فقد ورد اسم الكعبة في القرآن مرة واحدة وذلك في الآية :

(يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيدَ وأنتم حُرمٌ ومن قتله منكم متعمّداً فجزاءٌ مثلُ ما قَتَلَ من النّعم يحكُمُ به ذَوا عدل منكم هَدياً بالغَ الكعبةِ او كفارةٌ طعام مساكين . او عدلُ ذلك صياماً ليذوقَ وبالَ أمرهِ عفا الله عمّا سلف . ومن عادَ فينتقم اللهُ منه . واللهُ عزيزٌ ذو انتقام)[٦]

وورد اسم المسجد الحرام بقصد البيت في القرآن في اربعة مواضع :

(انما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ)[٧] .

(همُ الذين كفروا وصدّوكم عن المسجدِ الحرام)[٨] .

(لتدخلن المسجدَ الحرامَ إن شاء اللهُ آمنين)[٩] .

(إنَّ الذين كفروا ويَصدّونَ عن سبيلِ الله والمسجدِ الحرام الذي جعلناه للناسِ سواء العاكفُ فيه والباد)[١٠] .

---

(١) سورة الحج . (٢) سورة الطور . (٣) سورة البقرة . (٤) سورة البقرة . (٥) سورة المائدة الاية ٩٦ . (٦) سورة المائدة الاية ٩٨ . (٧) سورة التوبة . (٨) سورة الفتح . (٩) سورة الفتح . (١٠) سورة الحج .

تمصير مكة

وعهد ابراهيم بالدعوة الى ابنه اسماعيل وصار لمكة شأن آخر غير شأنها الذي جعل منها ممراً للقبائل القادمة من اليمن في طريقها الى الشام والقبائل القادمة من الشام في طريقها الى اليمن وليس من البعيد ان يكون هذا العبور والمرور وإقامة القوافل يوماً او يومين بقصد الاستراحة سبباً آخر لنشر دعوة اسماعيل وازدياد عدد الحجاج في كل موسم من المواسم . ولا بد لموقع مثل هذا انحصر به المرور والعبور ، واستراحة القبائل بالاضافة الى ما تستدعيه قدسيته لوقوع بيت الله فيه وكثرة آبار المياه من التوجه إليه والطواف به والتبرك بحجه نقول : لا بد ان يكون هناك موقع استراتيجي في عالم العبادة والتجارة والكسب وتبادل المنافع . لذلك من الطبيعي — شأن تمصير اي مدينة قديمة ام حديثة — ان يتخذه من تقتضيهم مصالحهم سكناً . ومع ذلك لم نجد في المصادر ما يشير الى ان هؤلاء السكان قد عرفوا البناء من زمن طويل وفي ايام قريش على اغلب الظن .

ويستدل من تصفح هذه الأخبار والمصادر ان مكة قد عمرت بالسكان في عهد اسماعيل حتى كان لها نظام حكم وسلطة ، وادارة ، خصوصاً ان مكة كبرت واتسعت وتشابكت مصالح سكانها ، واصبحت لها مواسم

تختلف مهماتها من طقوس دينية . وعروض تجارية . وغير ذلك من النوازع والغايات .

واوردت هذه المصادر ان اسماعيل قد خلف من زوجته الثانية اثني عشر ولداً هم :

نابت . وقيدار . وأذبل . وميشا . ومسمع . ورما . وماش . وآدر . وقطورا . وقافس . وطميا . وقيدمان[1] .

ادارة جرهم

ويقول المؤرخون أن من (نابت) و (قيدار) ابني اسماعيل نشر الله العرب[2] . وعلى هذا يذهب اكثر المؤرخين فينسبون عرب الحجاز كلهم الى (نابت) و (قيدار) كما قد اشرنا الى ذلك من قبل وحين توفي اسماعيل ودفن الى جوار امه (هاجر) بالحجر كان الرئيس بعده والقائم بالأمور والحاكم المطلق في مكة والناظر في امر البيت وزمزم هو (نابت) بن اسماعيل على الرغم من ان اسماعيل كما تقول الروايات الاخرى قد اوصى لاخيه اسحاق وهو في بر الشام (فلسطين) . ولقد تغلبت (جرهم) على البيت بعد ذلك بداعي الخؤولة او القدرة والبأس فحكمت بمكة وما والاها عوضاً عن بني اسماعيل بالرغم من كثرة اولاد اسماعيل وشرفهم وانتشارهم بمكة كما تقول الروايات . واحسن الجرهميون ادارة الحكم واشتهر بعض حكامهم بالمقدرة وحسن السيرة وقوة البأس كان اشهرهم (مضاض) بن عمرو الجرهمي . وكان قد تولى الحكم بعد (نابت) مباشرة . ثم الحارث . ثم عمرو بن الحارث ثم مضاض ابن عمرو بن الحارث . ولكل من هؤلاء ذكر غير قليل في الروايات .

---

(١) يختلف ورود هذه الاسماء في أكثر المصادر حتى ليكاد يستقل كل مصدر ببعض التحريف او التصريف في ايراد اسماء ابناء اسماعيل . (٢) الكامل في التاريخ ج ١ ص ١٢٥ .

وفي ايام جرهم داهم السيل (البيت) وكان سيلاً جارفاً فهدم البيت فقامت جرهم واعادة البناء على الأسس التي اقامها ابراهيم، ومن اهم ما جعل لمكة شأناً بعد ذلك، وحرمة في النفوس هو حلف الفضول الذي شدد في رعاية حقوق الضعفاء والمحتمين بالبيت في ايام حكومة الجرهميين على الرغم مما قيل عن عبثهم بالأموال والهدايا التي كان الناس والقبائل يهدونها للكعبة.

حلف الفضول

هو حلف جرى بمكة يهدف الى الأخذ بنصرة الضعيف واخذ حقه من القوي، ويرعى حقوق الغرباء الذين يسكنون مكة ويحمي الاقلية التي تحل مكة من الأكثرية، ويرد كل اعتداء يقع من اية جهة اتباعاً لدعوة الانصاف، وانما سمي بحلف الفضول لانه «قام به رجال من جرهم كلهم يسمى الفضل: الفضل بن الحرث، والفضل بن وداعة، والفضل بن فضالة فقيل له حلف الفضول جمعاً لأسماء هؤلاء»[١].

وظل هذا الحلف معمولاً به الى ايام قريش، وصار موضع فخر لمكة وفخر للعرب جميعاً لما كان يتضمن من عهود شريفة نبيلة، وقد تجدد هذا الحلف في أيام قريش بدار عبد الله بن جدعان وأدركه النبي (ص) فقال: لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول، ولو أدعى اليه في الاسلام لأجبت.

قال محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي: «كان بين الحسين بن علي ابن ابي طالب وبين الوليد بن عتبة بن ابي سفيان منازعة في مال كان بينهما، والوليد يومئذ أمير على (المدينة) لعمه معاوية، فتحامل الوليد لسلطانه، فقال له الحسين: أقسم بالله لتنصفنّي أو لآخذنّ سيفي ثم لأقومنّ في مسجد

(١) لسان العرب في مادة (فضل) ط صادر ودار بيروت.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأدعونّ (بحلف الفضول) فقال عبد الله ابن الزبير — وكان حاضراً — وانا أحلف بالله لو دعا به (اي الحسين) لأجبته حتى ينصف من حقه او نموت. وبلغ المِسْوَر بن مخرمة الزُهري فقال مثل ذلك، وبلغ عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمي فقال مثل ذلك: فلما بلغ الوليد ذلك أنصف الحسين من نفسه حتى رضي [1]».

إتساع رقعة مكة

واتسعت رقعة مكة باتّخاذها سكناً لما كان يستدعيه حسن الادارة وطلب المثوبة. والحث على سكناها من لدن جميع الأنبياء الذين كانوا في مختلف أنحاء الحجاز. فقد جاء في الروايات ان النبي (صالحاً) قال لمن آمن به من قومه: ان هذه الدار — يعني مساكنهم — قد سخط الله عليها وعلى أهلها فاظعنوا عنها فانها ليست لكم بدار. فقالوا له: فأين تريدنا نذهب؟ قال: تلحقون بحرم الله وأمنه — يعني مكة — فاني لا أرى لكم دونه. فانطلقوا آمّين البيت الحرام حتى وردوا مكة. فلم يزالوا بها حتى ماتوا وتلك قبورهم غربي الكعبة بين (دار الندوة) ودار بني هاشم. وكذلك فعل (هُوْد) ومن آمن معه. وكذلك فعل (شُعيب) ومن آمن معه [2].

والذي زاد اهمية مكة واتساع رقعتها وكثرة الوافدين عليها من الحجاج ان كانت نفائس الأمتعة والاعلاق والحلي التي تهدى الى الكعبة والأموال التي تجبى اليها قد جعلتها اهم سكن في جزيرة العرب حتى لقد كان لها في ايام (جرهم) خزانة بئر في (البيت) يلقى فيها الحلي والمتاع والسلاح مما كان يهدى الى (البيت) وفي ضمن ما كان قد أهدي للبيت غزالتان من الذهب، واسلحة من الذهب مما دل على ان حياة مكة كانت رخية ناعمة.

---

(١) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٤٢ ط صادر ودار بيروت. (٢) البداية والنهاية ج ٢ ص ١٨٥ ط ١.

امارة خزاعة

وكانت قبيلة خزاعة تنزل حول الحرم في ايام جرهم . وقد اختلف المؤرخون في اصل خزاعة فقال بعضهم ان اصلها من اليمن كالجرهميين ، وقد هاجرت بسبب ما كان ينتظر من الدمار الذي يخلفه سيل العرم واقامت في مكة ، وقال بعضهم بل إن خزاعة من بني اسماعيل ، وكيفما كان فقد اطمع رخاء مكة وشأنها العظيم ووفرة النعمة خزاعة بامارة مكة وكان ذلك في ايام حكم مضاض بن عمرو بن الحارث ، فقامت خزاعة في وجه جرهم . ووقع القتال بينهما ، واعتزل بنو اسماعيل الفريقين ، فتغلبت خزاعة على جرهم وانتزعت منهم الامارة ، وأجلتهم عن مكة فقصدوا اليمن موطن اصولهم إذ لم يبق لهم مأمل في مكة .

ومن قصيدة منسوبة لمضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي الذي غلب على امره وأجلي عن مكة هو ومن تبعه يستخلص الباحث بعض الرخاء والنعمة وراحة النفس التي كانت تتمتع بها مكة . يقول مضاض عن مكة وهو في طريقه إلى اليمن جالياً :

وقائلةٍ والدمعُ سكبٌ مبادرٌ ... وقد شرقتْ بالدمع منها المحاجرُ

كأنْ لم يكن بين الحجونِ الى الصفا ... أنيس ولم يسمرْ بمكةَ سامرُ ١

بلى نحنُ كنّا أهلَها فأزالنا ... صروفُ الليالي والجدود العواثرُ ٢

وكنّا ولاةَ البيتِ من بعد (نابتٍ) ... نطوف بذاك البيت والخيرُ ظاهرُ

الى ان يقول :

وصرنا احاديثاً وكنّا بغبطةٍ ... بذلك عضّتنا السنونُ الغوابرُ

فسحّت دموعُ العين تبكي لبلدةٍ ... بها حرمٌ أمنٌ وفيها المشاعرُ

---

(١) الحجون – جبل باعلى مكة ، والصفا – مكان معين من اعالي جبل ابي قبيس . (٢) هكذا وردت في اغلب المصادر فتركناها على حالها .

وتبكي لبيتٍ ليس يؤذى حمامُه   يظلُّ به أمناً وفيـه العصافرُ
وفيه وحوشٌ لا ترامُ أنيسهُ   اذا خرجتْ منه فليست تغادرُ [1]

على ان بعض المصادر قالت ان الواقعة قد حدثت في ايام عمرو بن الحارث وليس في ايام ابنه مضاض وان هذا الشعر انما هو لعمرو وانه هو الذي أجلي عن مكة وليس ابنه مضاضاً كما ذكرنا ، وتزعم بعض المصادر ان هذه القصيدة وغيرها من ابيات عمرو بن الحارث كانت اول شعر عربي قيل ولم يقل قبله احد شعراً !! [2] .

وغير هذا الكثير الذي يدل على توسع رقعة مكة وازدياد عدد سكانها يوماً بعد يوم لما امتازت به هذه البلدة من رخاء وأمن وعزة :

ويقول الأزرقي في اخبار مكة وفي قوله دلالة اخرى على النعمة والرخاء التي كانت تتمتع به مكة في امارة خزاعة خاصة ، يقول « واحتازت خزاعة حجابة الكعبة وولاية امر مكة وفيهم بنو اسماعيل بن ابراهيم بمكة وما حولها لا ينازعهم احد منهم في شيء من ذلك ولا يطلبونه فتزوج (لحي) — وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر (الخزاعي) — (فهيرة) بنت عامر بن عمرو ابن الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي ملك جرهم فولدت له (عمرواً) وهو عمرو بن لحي ، وبلغ بمكة وفي العرب في حطمة حطموها عشرة آلاف ناقة ؟ وكان قد اعور عشرين فحلاً ، وكان الرجل في الجاهلية اذا ملك الف ناقة فقأ عين فحل إبله ! فكان قد فقأ عين عشرين فحلاً !! وكان اول من اطعم الحاج بمكة سدايف الابل [3] ولحمانها على الثريد ، وعمّ في تلك السنة جميع حاج العرب بثلاثة اثواب من برود اليمن » .

فمن اين لعمرو هذا عشرون الف بعير ؟ ومن اين له كل هذا الثراء

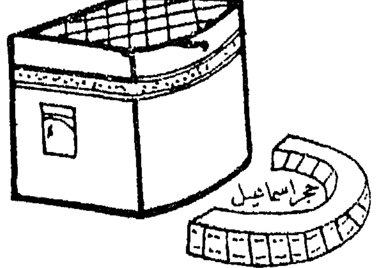
---

(١) وردت هذه القصيدة باختلاف في بعض الاصول في كتب السير والتاريخ . (٢) البداية والنهاية ج ٢ ص ١٨٩ ط ١ . (٣) — السدايف : شحوم السنام من الابل .

الذي ينفق منه آلاف البرود اليمنية الغالية الثمن على الحجاج ، ويطعم هؤلاء الحجاج شحوم السنام لو لم تكن مكة قد تجاوزت الحدود في الرخاء والنعمة وفيما كان يدخل اليها من المداخل ؟

ولقد دافعت خزاعة عن مكة والحرم غير مرة . وكان بعض التبابعة من اليمن قد سار الى البيت غازياً واراد هدمه وتخريبه فقامت دونه خزاعة وقاتلت عليه اشد القتال حتى رجع ثم غزاها غزوة اخرى وهكذا [1] وكانت لخزاعة نفوس أبية منعتها من ان تمد يداً الى الاموال والهدايا التي تهدى الى الكعبة . ولا بد ان يكون هذا الاباء قد انعكس في ادارة حكمها فزاد من قيم الأنظمة واعزاز البيت وتقديسه .

مكة في ايام قريش



مخطط بناء الكعبة في عهد قريش نقلا عن كتاب (مكة المكرمة والمدينة المنورة) بالانكليزية — تاليف اميل ايسين .

وتولت خزاعة الحكم نحو ثلثماية سنة . وقيل خمسماية سنة تولت بعدها قريش الحكم وولاية البيت بزعامة (قصي) بن كلاب بعد حرب وقعت بين خزاعة وبين القبائل التي استعان بها قصي لانتزاع الحكم من ايدي خزاعة . وانتهت هذه الحرب بالتحكيم وتولى قصي ولاية البيت وامارة مكة وبقيت مكة تحت حكم قريش حتى قام الاسلام .

وتغـير اسلوب الحكم وطريقة الادارة منذ ان تول قصي بن كلاب امارة مكة ، وقام بحفر عدد من الآبار زادت من ثروة البلاد المائية ، واوجد تشريعات جديدة ، واحدث وظائف اكثر ضماناً لتنظيم حياة السكان في مكة .

---

(١) اخبار مكة ج ١ ص ١٠٣ ط ٢ .

دار الندوة

وانشأ قصي في داره مجلساً اشبه بالمجلس النيابي باسم (دار الندوة) وقد بنى داره هذه وجعل بابها الى مسجد الكعبة . وسن لها تشريعاً يقصر تقتضاه دخولها على اولاده كافة وعلى من يبلغ الأربعين من العمر من قريش ، وفي دار الندوة هذه كانت تجتمع قريش للتداول في الرأي والتشاور في كل امر يخص المدينة او البيت احرام . فلا يردون شيئاً الا فيها ، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم الا فيها يعقده لهم بعض اولاد قصي ولا تفصل خصومة بينهم الا هناك .

قال الكلبي : وهي اول دار بنيت بمكة ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه . وكلما قربوا من عصر الاسلام ازدادوا قوة وكثرة حتى دانت لهم العرب . وصار امر قصي في قريش كالدين المتبع . وسميت (الندوة) لأنهم كانوا ينتدون فيها اي يجتمعون للخير والشر [1] وكثر المنتدون بعد ذلك فكان لعبد المطلب مجلس في ظل الكعبة على فراش يعد له لا يجلس عليه احد غيره احتراماً له واجلالاً لقدره . وفي جوار الكعبة كانت قريش تسمر في اندية تسمع فيها المواعظ والأخبار . وغير ذلك .

طراز الحكم وصفته

وعظم شأن مكة وكثرت مواردها وتعددت المرافق والنواحي التي تفتقر الى الرعاية وادارة شئون البلد الواسعة وصار الحكم فيها منذ عهد قصي الذي تولى حكمها يقرب من الحكم الديمقراطي الذي يشترك في ادارته غير واحد من الحكام مما يشبه الحكم الشوري وكانت مناصب مكة تقوم على ستة اسس تعتبر هي القواعد الأساسية لادارة شؤون مكة الخاصة والعامة ،

---

(١) بلوغ الارب ج ١ ص ٢٧٢ ط ٢ .

وهي : السدانة ، ودار الندوة ، واللواء ، والسقاية والرفادة ، والقيادة .

وكان من أولاد قصي عبد مناف ، وكانت له وجاهة وشخصية تكاد تحصر زعامة ابيه فيه وقد شق ذلك على الاب والام ان لا يكون للابن الثاني وهو عبد الدار هذه المنزلة ورأى الأب ان يقسم هذه المناصب بينهما فناط بابنه عبد الدار (السدانة) و (دار الندوة) و (اللواء) .

والسدانة — هي الحجابة وباستطاعة المتولي لها ان يحجب الكعبة لان مفتاحها بيده وحده يفتح بابها للناس ويقفله ، ولها المقام الأول عندهم ، ومثل هذا المنصب قديم عند اليهود ، فقد كان عندهم كاهن خاص لحراسة الهيكل يسمونه حافظ الباب ، وقد جعل صاحب (العقد الفريد) السدانة والحجابة منصبين[1] .

دار الندوة — وقد مر ذكرها وهي ادارة شؤون الشورى وما يتعلق ببلوغ الرشد عند الفتيان والفتيات وغير ذلك من مهام هذه الندوة .

اللواء — هو الراية — وقد كانت لقريش راية تسمى العقاب ، فكانوا اذا ارادوا الحرب اخرجوها ، فاذا اجتمع رأيهم على واحد سلموه اياها والا فانهم يسلمونها الى صاحبها[2] .

ثم ناط قصي بابنه عبد مناف المناصب الثلاثة الأخرى وهي : (السقاية) و (الرفادة) و (القيادة) .

والسقاية — اما السقاية فحياض من أدم (جلود كانت على عهد قصي توضع بفناء الكعبة ويسقى فيها الماء العذب من الآبار على الابل ويسقاه الحجاج . .

والرفادة — خرج من المال كانت قريش تخرجه من اموالها في كل موسم فتدفعه الى قصي يصنع به طعاماً للحاج يأكله من لم يكن معه سعة ولا زاد .

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ص ٣٨ ط جديدة . (٢) نفس المصدر المتقدم .

وفي احدى السنين وكانت الرفادة بيد عمرو بن عبد مناف اصاب البلد قحط وجدب شديد ، فخرج عمرو بن عبد مناف الى الشام فاشترى بماله دقيقاً وكعكاً ، فقدم به مكة في الموسم ، وهشم ذلك الكعك ونحر الجزور وطبخه وجعله ثريداً واطعم الناس . وكانوا في مجاعة شديدة حتى أشبعهم فسمي منذ ذلك الحين باسم (هاشم) ولم يعد احد يسميه عمروا لانه هشم الثريد لأهل مكة [١] . وفي ذلك يقول الشاعر مشيراً إلى هاشم :

عمروُ العلا هشمَ الثريدَ لمعشرٍ كانوا بمكة مُسنِتين عجافِ [٢]

والقيادة – هي إمارة الركب ويتقدم صاحبها الركب ويقودهم للقتال في الحرب ويتزعمهم في قيادته في الخروج للتجارة .

وتفرعت بعد ذلك من هذه المناصب مناصب اخرى اهمها : (الاشناق) وهي النظر في الديات والغرم ، و (القبة) وهي جمع تجهيزات الجيش في الحرب ، و (الاعنّة) وهي تدبير شؤون الخيل عند قريش في الحرب ، و (المشورة) وهو منصب مهمته اسداء النصيحة والمشورة وقد كان هذا المنصب في بني اسد فلم تكن قريش تجتمع على امر حتى يعرضوه على بني اسد ، و (السفارة) في القيام بالاتصال بين قريش وغيرهم من القبائل اذا وقعت حرب او تطلب الأمر الى مذاكرة وصلح ، و (الايسار) وهي الازلام التي كانوا يستقسمون بها للاستخارة بما يشبه سحب القرعة ، وكان يتولى ذلك رجل من بني جمح ، و (الحكومة) وهي التي تحكم بين الناس اذا اختلفوا ، و (الاموال) المحجرة وهي الأموال التي كانت تخص آلهتهم من النقد والحلي والسلاح وهي ما تشبه (بيت المال) في الاسلام ، وكانت ولايتها في بني سهم ، و (العمارة) ويراد بها ان لا يتكلم احد في المسجد

---

(١) اخبار مكة للازرقي ج ١ ص ١١٠ ط ٢. (٢) مسنتين – اي اصابهم القحط ـ الجدب ، والعجاف الضعف من الجوع وانعدام الغلة .

الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع صوته على ما وصف به العقد الفريد ، ويمكن ان يوصف صاحبها بالمسؤول او المحافظ على حرمة البيت [١] .

ويعلق جرجي زيدان على هذه المناصب فيقول ان بعض هذه المناصب لا اهمية لها على الاطلاق ولكن يظهر انهم قد اكثروها ليرضوا كل بطون قريش خوفاً من التحاسد وإجلالاً لقدر الكعبة والمبالغة في تعظيمها ، وترى انهم جمعوا بها بين السياسة والدين والادارة والحرب ولكنهم اقتسموها فيما بينهم بما يشبه الجمهورية ، او هو نوع من الحكومة لا ترى له شبيهاً بين الامم المتمدنة . وربما اشهت الحكومة الشورية بعض الوجوه الا ان للشورى ، رئيساً كالملك او السلطان او رئيس الجمهورية ، وليس في هذه شيء من ذلك الا ما قد يكون لصاحب (دار الندوة) او السدانة من الرياسة [٢] .

وكان لهذا الحكم ونظامه شيء غير قليل من الامتياز ، واليه يرجع الكثير من الأسباب التي جعلت من مكة مدينة عامرة ذات امجاد وشهرة انفردت بها بين جميع المدن العربية قبل الاسلام ثروة ، وجاهاً ، وحرية ، وأمناً ، وحرباً .

اصحاب الفيل

ان قصة اصحاب الفيل هي قصة ابرهة الأشرم الذي سار بجيش جرار من الأحباش مستخدماً الفيلة ناوياً هدم بيت الله الحرام وقد هزم القبائل العربية التي اعترضته وهو في طريقه الى مكة حتى وقعت به وبجيشه النكبة عند ابواب مكة والتي تحدثت الروايات عنها بمختلف الأحاديث ، وتفشت على اثرها الحصبة والجدري في جيش ابرهة وهي امراض قيل انها عرفت في بلاد العرب لأول مرة في ذلك التاريخ وداهمهم السيل فألقى بهم في البحر [٢] ورجع ابرهة ناكصاً على عقبيه وقد وقع الدمار بمن بقي من الجيش

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٣٨ – ٣٩ طالجديدة . (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ص ٧٣ .

حتى صار عبرة للمعتبرين اذ جاء في محكم كتاب الله :

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ » .

إن قصة ابرهة هذه قد رفعت قدر مكة خصوصاً حين وجدوا عبد المطلب وهو رئيس مكة وعظيمها يطمئن قريشاً بأن للبيت رباً سيحميه . فلما ردّ الله تعالى الحبشة عن مكة واصابهم تما أصابهم به من النقمة عظّمت العرب شأن قريش وقالوا : « اهل الله قاتل الله عنهم . واكفاهم مؤونة عدوهم »[١] .

وسبب زحف ابرهة كما يروي الرواة هو ان ابرهة الاشرم احد قواد النجاشي الحبشي العظام لما فتح اليمن بنى كنيسة كبيرة فيها اراد بها ان يصرف العرب عن حج مكة اليها . فتغوط بعض العرب فيها في غفلة من الناس تحقيراً لها ويقول الطوسي في تفسيره بل هدّم البعض في غفلة من القوم جانباً منها بقصد الاهانة فعزم ابرهة ان يسير الى مكة فيهدمها انتقاماً فكان الذي كان من الدمار الذي لحق بجيشه .

وفي طير الابابيل وصفته وحمله الحجارة بمنقاره وكيفية مهاجمة هذا الطير جيش ابرهة اختلاف في التفاسير والروايات .

ويقول فريد وجدي : اما الروايات في اشكال هذه الطيور فكثيرة وكثرتها تدا، على انه لا يوجد نص صحيح في ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله ، فقيل انها كانت طيراً خرجت من البحر واختلفوا في لونها فقيل كانت بيضاء . وقيل سوداء . وقيل خضراء لها خراطيم كخراطيم الطير واكفّ كأكفّ الكلاب الى غير ذلك من الروايات المختلفة « وقد يذهب بعض علماء العصر الى ان هذه الطيور عبارة عن الميكروبات حملت اليهم الطاعون او البعوض وقد حمل اليهم الحميّات الخبيثة . او ميكروبات الجدري

(١) بلوغ الادب ج ١ ص ٢٥٧ ط ٢ – ابن الاثير الكامل في التاريخ ج ١ ص ٤٤٧ ط صادر ودار بيروت .

وليس في الآية ما يمنع هذا المعنى فيتفق المنقول والمعقول ، — ويقول فريد وجدي ونحن نميل الى هذا الرأي ونؤيده . لا سيما وليس من مانع لغوي ولا علمي يمنع من ان يريد بالطير المكاريب ، وكثيراً ما يتفشى الطاعون في الجيوش فيردها على اعقابها خاسرة . فهذا نابليون الاول لما حاصر (عكا) ولبث أشهراً اصاب جيشه الطاعون فكان سبب رفعه الحصار عنها ورجع لمصر راضياً من الغنيمة بالاياب واصابه مثل ذلك في محاربته لروسيا في موسكو فكان الوباء والبرد اشد عليه من كل ما لقيه من جيوش الروس فرجع ولا جندي معه وهلك عسكره برمته»[1] .

ويروي احمد بن ابي يعقوب المتوفي سنة ٢٩٢ رواية تفيد علماء العصر في استخلاص ما يرون استخلاصه مما يتفق واراءهم عن انكسار جيش (ابرهة) وهلاكه فيقول : ان الرعب قد داخل ابرهة وغشيه الذعر حينما خرج اليه زعيم مكة الكبير عبد المطلب طالباً منه ان يعيد له أبله التي استحوذ عليها أبرهة في مرعاها خارج مكة وكانت نحو مائتي بعير فتعجب ابرهة وقال انه كان يتوقع ان يكون طلبه منحصراً في حفظ البيت من هدمه اياه لا رد ابله اليه ، فقال له عبد المطلب وبكل وثوق واطمئنان : «ان للبيت رباً يحميه» ثم يقول احمد ابن ابي يعقوب :

«فلما انصرف عبد المطلب من عند ابرهة جمع ولده ، ومن معه ، ثم جاء الى باب الكعبة فتعلق به ، ثم انصرف واقام بموضعه . فلما كان من غد بعث ابنه عبدالله (ابا محمد بن عبدالله النبي) ليأتيه بالخبر . ودنا وقد اجتمعت اليه من قريش جماعة ليقاتلوا معه ان امكنهم ذلك، فاتى عبدالله على فرس شقراء بركض وقد جردت ركبته ، فقال عبد المطلب : قد جاءكم عبدالله بشيراً ونذيراً ، والله ما رأيت ركبته قط قبل هذا اليوم فاخبرهم بما صنع الله باصحاب الفيل»[2] .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين مادة أبابيل . (٢) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢١٠ مط الغري .

ولم يزد اليعقوبي وهو من اقدم مؤرخي الاسلام ومن اقرب المؤرخين الى ذلك العهد . انه لم يزد شيئاً على ذلك ولم يأت بذكر عن طير الابابيل وصفتها . اما الشيخ محمد عبده فقد اورد في تفسيره لجزء (عم) قوله :

« عندما اقترب (ابرهة) من مكة فزع اهلها وانطلقوا الى شعب الجبال ينتظرون ما هو فاعل رغم ما اكده لهم رسله من انه لم يأت لحربهم وانما اتى لهدم البيت . اي الكعبة . وفي اليوم التالي فشا في جند ابرهة داء الجدري والحصبة . وكانت هذه اول مرة يظهر فيها الجـــدري ببلاد العرب كما قال عكرمة ، وكما يقول يعقوب بن عتبه من ان (اول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام) لقد فعل ذلك الوباء باجسام الحبشي وجنده ما يندر وقوع مثله . فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين ، واصيب الحبشي ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وانملة انملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء » .

ولا يستبعد بعد ذلك الشيخ محمد عبده ان يكون طير الابابيل من الحشرات كالذباب والبعوض الذي يحمل جراثيم بعض الامراض وقد علق به من الطين اليابس الملوث بالمكروب .

وكيفما كان الامر فليس هنالك من شك ان (ابرهة) قد غزا مكة بالافيال محاولاً هدمها وقد رُدّ مقهوراً . ووقع في جيشه الوباء والبلاء ، فاضافت قصة انهزام اصحاب الفيل هذه ، الى عظمة مكة عظمة اخرى ، واضفت عليها شيئاً كثيراً من الهيبة والجلال والعظمة .

اسواق مكة

وكان لا بد للتجارة ان تتسع فتتسع اسواقها بمكة ، فسكان مكة كانوا اكثر ارتياداً للاسواق الخارجية وكانت لهم اتصالات واسعة باهم الاسواق المشهوره حتى لقد اصبحت مكة سنين طويلة معرضاً لانفس البضائع واغلاها

وهذا من اهم العوامل التي زادت قيمة مكة وزادت ثراءها خصوصاً في ايام قريش الذن كانوا يعتمدون التجارة في حياتهم وكانت طرق التجارة خطرة الا عليهم لحفظ العرب حرمتهم لانهم ولاة الكعبة ، وكانوا كثيراً ما يسافرون الى بلاد فارس او الى الشام او اليمن ، فيأتون من اليمن بالبرد والمنسوجات اليمنية الفاخرة ، ويأتون من الشام بالاطعمة ، ويأتون من فارس بالشمع والستر وغير ذلك ، ولما كانت البلاد العربية قد عرفت بالخيول الجيدة فلا يبعد ان تكون قريش قد تاجرت بها مع ما تاجرت به من البضائع وخصوصاً الجلود والاموال التجارية وكانت لهـؤلاء التجـار من قريش رحلتان رحلة الشتاء وهي التي تدفع بهم الى الجنوب من بلاد اليمن ، ورحلة الصيف وهي التي يؤمون بها الشام ، وفي موسم معين تعرض قريش وتعرض كل القبائل ما لديها من البضائع والمنتوج في هذا السوق ، وكانت للعرب اسواق كثيرة في مختلف بقاع جزيرة العرب ولكن اسواق مكة كانت اهم جميع تلك الاسواق واوسعها واكثرها جمعاً للقبائل بل اوسعها غاية .

ومن اهم اسواق مكة سوق (عكاظ) ، وسوق عكاظ وان كانت اقرب الى الطائف منها الى مكة لوقوعها في واد بينه وبين مكة ثلاث ليال بينما لا تبعد عن الطائف الا ليلة واحدة فقد تعتبر سوقاً تخص مكة من حيث الافادة ، ويقول ابن منظور : سمي عكاظ عكاظاً لان العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضاً بالفخار اي يدعكه [1] وكان العرب يتوافدون الى هذه السوق بجميع ما لديهم في موسم معين ، ومن اشهر ما عرفت به عكاظ هو الأديم الكاظمي وهو مـا يحمل الى عكاظ ويباع فيها حتى اذا انتهوا من عروض تجارتهم وسائر اغراضهم ، وقفوا في (عرفه) ثم قصدوا مكة فقضوا فيها مناسك الحج ثم انصرفوا الى مواطنهم .

وتجاوزت سوق عكاظ حدود التجارة واتخذت منها قريش منتدى

---

(١) لسان العرب ، مادة عكاظ .

منتدى لمطارحة الشعر والخطب وعرض الخلاف بين القبائل على المحكمين ، وكان لعكاظ ايام الموسم رجل يولونه الحكومة للفصل في ما قد يقع من الخلاف او نحوه ، وكان الغالب ان يكون ذلك الحاكم من بني تميم [١] وكان احدهم الأقرع بن حابس التميمي.

وتوسعت اغراض سوق عكاظ فكانت مسرحاً عاماً يخطب فيها كل خطيب مصقع ، ومنهم كان قس بن ساعدة الايادي إذ خطب خطبته الشهيرة هناك وهو على جمله وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده الا سوق عكاظ فانهم كانوا يتوافدون اليها من كل جهة فكانت تأتيها قريش ، وهوازن ، وبنو سليم ، والاحابيش ، وعقيل ، والمصطلق ، وطوائف من العرب ، ومن كان له اسير سعى في فدائه ، ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بأمر الحكومة [٢] اما متى اتخذت سوقاً فيحددها فريد وجدي بسنة ٥٤٠ للميلاد [٣] .

وقضايا عكاظ وايام عكاظ مشحونة بأخبار الحروب والتفاخر والشعر ومن اطرف ما ورد في بلوغ الأرب ان طريف بن تميم العنبري كان من مشاهير شجعان العرب وفرسانهم وقد قتل مرة رجلاً من بني شيبان ثم حضر موسماً من مواسم عكاظ فرآه احد اقارب ذلك القتيل وصار يمعن النظر في وجه طريف ، فسأله طريف عن سبب امعانه فقال : اريد ان اعرفك فلعلي اصادفك يوماً لأقتلك او تقتلني ، ومن الغرائب انه قد صادف

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٣٧ ط جديدة . (٢) بلوغ الارب ج ١ ص ٢٦٧ ط ٢ . (٣) دائرة معارف القرن العشرين في مادة عكظ .

ذلك الرجل طريفاً ذات يوم وقتله واخذ بثأر قريبه .

وافادت قريش من سوق عكاظ فوائد اخرى غير الفوائد الاقتصادية والاجتماعية فلقد كان لهذه السوق العظيمة تأثير كبير في تهذيب اللغة العربية عند قريش فكانت قريش لقرب هذه السوق منها اسبق القبائل لالتقاط كل معنى حسن ، ولفظ جزل وعبارة بليغة فنسب اليها التهذيب الأخير للغة حتى استأهلت الشرف العظيم بنزول القرآن الكريم بلغتها ، واعتبرت لهجتها اخلص لهجات العرب من التعقيد والتنافر [١] .

وقد بلغ من اهمية مكة والاهتمام بالكعبة ان اختارت العرب سبع قصائد من اجود الشعر وكتبتها بماء الذهب وعلقتها بأستار الكعبة [٢] تكريماً لشعرائها الذين فضلهم العرب على غيرهم ، وهذا وحده كاف للدلالة على على ما كان لمكة من اهمية في جميع النواحي من الحكم والادارة والاقتصاد والادب وليس لمخالفة البعض من المؤرخين في صحة رواية المعلقات المسماة بالمعلقات السبع ، من اهمية في تقليل شأن مكة الأدبي .

ويورد جرجي زيدان نقلاً عن ابن خلدون قوله :

يقول ابن خلدون « حتى انتهوا – اي العرب – الى المناغاة في تعليق اشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم ، وبيت ابراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر ، والنابغة الذبياني ، وزهير بن ابي سلمى ، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، والاعشى ، وغيرهم من اصحاب المعلقات السبع » [٣] .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين مادة عكظ . (٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٩٣ (٣) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ١٠٦ .

ويقول البغدادي في الخزانة (الجزء الأول صفحة ٦١) ان العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به ، ولا ينشده احد ، حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرض على اندية قريش فاذا استحسنوه روي وكان فخراً لقائله ، وعلق على ركن من اركان الكعبة حتى ينظر اليه ، وان لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به ، وقيل بل كان الملك اذا استجيدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه لتكون في خزانته ، وهذا القول ينفي انها كانت تعلق في الكعبة على ان هذه المعلقات سميت ايضاً السبع الطوال ، وسميت السموط ، وسميت المذهبات كما سميت سبع قصائد غيرها المذهبات في (جمهرة أشعار العرب) وحتى اصحاب المعلقات مختلف في احصائهم ... امرؤ القيس ، طرفة ، زهير ، لبيد ، عمرو بن كلثوم ، وهؤلاء متفق عليهم ، وعنترة ، والحارث بن حلزة ، او النابغة الذبياني ، والأعشى ميمون ، ثم عبيد بن الابرص ، ولهذا تجد كتباً اسمها (المعلقات العشر) ومما يذكر ان حماداً الراوية هو الذي جمعها ، او ان بعض بني امية أمر من اختار له سبعة أشعار فسماها المعلقات [1] .

وكيفما كان الامر فان حضور العرب اسواق مكة وقراءة الشعر على قريش أكان قد تم تعليق الجيد منه في الكعبة او لم يتم قد ساعد على رفع قيمة مكة وشأنها في نظر جميع العرب قاصيها ودانيها .

ومن اهم اسواق مكة بعد ذلك (سوق ذي المجاز) وكانت بناحية (عرفة) وسوق (مَجِنّة) وهي في موضع بقرب مكة .

---

(١) العربي العدد ١٠١ نيسان ٩٦٧ .

وقد افادت مكة من هذه الأسواق فوائد كبيرة عامها جعلت لها الزعامة الكبرى بين جميع المدن العربية كما جعلت لقريش ميزة كبرى بين جميع القبائل .

ديانة مكة وعبادتها

لم تعرّف مكة ديناً غير دين ابراهيم في اول عهدها بالدين اذ المفروض ان يكون تأسيس مكة متعلقاً بتأسيس البيت ، فقبل تأسيس البيت لم تكن مكة اكثر من ممرّ للقبائل يمرون بهـا لوقوعها في وسط الطريق بين اقصى شمال الجزيرة وبين اقصى جنوبها فحين بنى ابراهيم البيت ودعا الى التوحيد ونهج ابنه اسماعيل نهجه آمن به اكثر من سمع دعوته فكانت الحنيفية التي عرف بها ابراهيم هي اول ما اعتنقت مكة من دين فكانوا يعتقدون ان الله واحد ، وهو خالق الخلق وحده لا شريك له . وكانوا يحجون البيت ويقيمون المناسك ، ويعظمون الأشهر الحرم ، وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم فلم يزالوا على ذلك ما كانوا ولاة على البيت ، وكان آخر من قام بولاية البيت الحرام من ولد معد هو ثعلبة بن اياد بن نزار بن معد ، [1] فلما خرجت اياد وليت خزاعة حجابة البيت . وفي امرة عمرو بن لحي الذي تولى حجابة البيت تغير ما كان عليه الأمر في المناسك واتجهت العبادة اتجاهاً آخر ودخلت الاصنام لأول مرة مكة على اساس كونها وسائط مقدسة بين

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢١١ مطبعة الغري .

الله وبين عباده . فالدعوات والقرابين والتوسلات يجب ان تقدم لها .

وقصة دخول الأصنام الى مكة لأول مرة وعبادة الله عن طريقها يختلف في روايتها الراوون . ويقول البعض ان عمرو بن لحي هذا قد مرض فوصفوا له الاغتسال في عين من العيون بالبلقاء من ربوع الشام وقالوا له اذا اتيتها برأت من المرض ، وقصدها عمر واستحم بها وكان من نتيجة ذلك أن برىء وفي مكوثه هناك رأى اهل هـذه البقعة يعبدون الأصنام فسألهم عنهـا فقالوا هـذه أرباب نتخذها انـا ونستنصر بها فننصر ، ونستسقي بها فنسقى . وكل من سألها يعطى فطلب منهم صنماً يدعونه (هُبل) فسار به إلى مكة ونصبه على الكعبة ، ودعا الناس الى تعظيمه وعبادته ففعلوا ذلك[1] وهناك من يقول ان (هبل) هذا قد جاء به عمرو بن هيث[2] وقلد بعض العرب اهل مكة في عبادة الأصنام فاتخذت كل قبيلة لها صنماً وحين تم فتح مكة من قبل النبي محمد (ص) كان عدد الأصنام حول الكعبة ثلثماية وستين صنماً ، وكان اشهر هذه الأصنام بعد (هبل) الذي يعد اكبر اصنام العرب هو (أساف) و (نائلة) وفي اصل هذين الصنمين مزاعم لا يركن اليها . فكان الطائف اذا طاف بدأ (باساف) ثم (بنائلة) وختم بهما فكان هذا عاملاً آخر في عظمة مكة وجعلها مطمح انظار العرب جميعاً بحيث صاروا ملزمين بأن يتوجهوا بقلوبهم لاصنام الكعبة وحجهم الهياكل عام من كل صوب وحدب ، ولكل قوم وقبيلة تلبية خاصة بهم ، وكانت تلبية قريش : (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك ، تملكه وما ملك)[3] .

على ان سكان مكة كانوا يقدسون الى جانب تقديس اصنامهم بمكة صنم (اللات) بالطائف وسموا باسمه زيد اللات ، وتيم اللات . وصنم (العزى) وهو بواد من نخلة الشامية في طريق العراق من مكة . وسموا

---

(١) مروج الذهب ص ٣٧٤ المطبعة البهية . (٢) اخبار مكة ج ١ ص ١٠٠ ط ٢ .
(٣) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢١٢ مطبعة الغري .

باسمه عبد العزي بن كعب ، وصنم (مناة) وكان منصوباً على ساحل البحر بناحية (المشلل) بين مكة والمدينة وقد سمت العرب باسمه : عبد مناة ، وزيد مناة .

وهذه كانت أعظم الأصنام عند قريش . وكانت تطوف بالكعبة وتقول : واللات ، والعُزّى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فانهن الغرانيق العلى [1] وان شفاعتهن لترتجى » [2] .

وكانت العرب تقدم مكة وتهدي الهدي للاصنام وتضحي ، وتدعو وتنذر ، وتستقسم .

ويبدو لمن يسبر التاريخ ويستعرض الحوادث ان مكة لم تكن كلها على هذا النحو وانما بقي هناك على دين ابراهيم عدد وأن قل فان فيهم الزعيم والشخصية المرموقة من ذوي الصولة والجاه ومن هؤلاء كان عبد المطلب على ما يروي البعض .

الاستقسام والازلام

والاستقسام هو طلب القسم الذي قسّم للمرء وقدّر مما لم يقسم ولم يقدّر ، والازلام سهام كانت لأهل الجاهلية مكتوب على بعضها : أمرني ربي ، وعلى بعضها نهاني ربي وعلى الآخر غفل فاذا اراد الرجل سفراً أو أمراً ضرب تلك القداح (السهام) فان خرج السهم الذي عليه : أمرني ربي ، مضى لحاجته ، وان خرج الذي عليه : نهاني ربي ، لم يمض في أمره وان خرج الغفل عاد فأجالها وضرب بها اخرى الى ان يخرج (الامر) او (النهي) [3] .

---

(١) الغرانيق جمع غرنوق وهو طير معروف وقد شبهوا الاصنام به . (٢) بلوغ الارب ج ٢ ص ٢٠٣ ط ٢ . (٣) لسان العرب مادة (قسم ١ .)

وكانت العرب تستقسم بالازلام اي (القداح) فلا يكون لها حاجة من الحاجات من زواج وسفر واستكشاف حال الا رجعت الى القداح ، وكان لهم امناء على القداح لا يثقون بغيرهم ، على ان البعض يقامر بالقداح وهو ما يسمى بالميسر (القمار) وليس له بالقداح الذي يستقسم به من صلة .

ويقول ابن جرير واذا اريد الاستقسام بالازلام جاؤوا الى (هبل) وهبل هذا قائم على بئر في جوف الكعبة ، وهذه البئر هي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة ، وكان عند هبل سبعة (اقدح) كل قدح منها فيه كتاب ، قدح فيه العقل وذلك اذا اختلفوا في العقل ومن يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة ، وقدح فيه (نعم) فاذا ارادوه ضربوا به فان خرج قدح (نعم) عملوا به ، وقدح فيه (لا) فاذا ارادوا امراً ضربوا به في القداح فاذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الامر ، وقدح فيه (منكم) ، وقدح فيه (ملصق) وقدح فيه (من غيركم) ، وقدح فيه (المياه) فاذا ارادوا ان يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها قدح (المياه) فحيثما خرج عملوا به ، وكانوا اذا ارادوا ان يختنوا غلاماً او يتزوجوا ، او يدفنوا ميتاً او شكوا في نسب احد منهم ذهبوا به الى (هبل) وبمائة درهم وجزور وأعطوها صاحب القداح الذي يضربها ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ثم قالوا : « يا إلهنا هذا فلان بن فلان قد اردنا به كذا وكـذا فأخرج الحق فيه » ثم يقولون لصاحب القداح اضرب ، فيضرب ، فان خرج عليه (منكم) كان وسيطاً وان خرج عليه (من غيركم) كان حليفاً ، وان خرج عليه (ملصق) كان على منزلته منهم لا نسب له ، ولا حلف ، وان خرج في شيء سوى هذا مما يعملون به (نعم) عملوا به ، وان خرج (لا) أخّروه عامهم ذلك حتى يأتوا به مرة اخرى وينتهوا في امورهم الى ذلك[1] .

---

(١) تاريخ الامم والملوك ج ٢ ص ٣ — ٤ مطبعة الاستقامة .

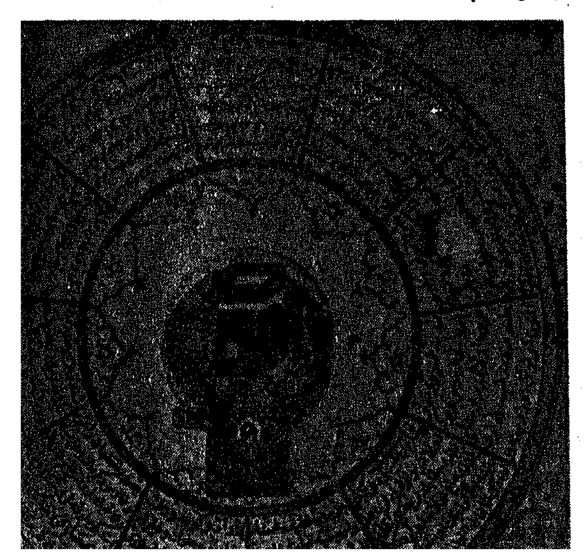
نذر عبد المطلب

والمنقول عن عبد المطلب حين لقي بعض الأذى من قريش عند حفره (زمزم) [١] نذر لئن ولد له عشرة نفر وبلغوا اشدهم بحيث يستطيع ان يستعين بهم ويمنعوه لينحرنّ احدهم لله عند الكعبة فلما ولد له عشرة بنين وعرف انهم سيمنعونه جمعهم واخبرهم بنذره الذي نذر ودعاهم الى الوفاء لله فأطاعوه ، وقالوا كيف نصنع؟ قال يأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ، فجيء بالقداح فضربوا بها فظهرت باسم (عبد الله) أبي النبي محمد (ص) وكان اصغرهم ، وأحبهم الى أبيه ، فأخذه ليذبحه فقامت قريش في وجهه وقالت : والله لا تذبحه ابداً حتى تعذر فيه ، فلئن فعلت هذا فلا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا [٢]

ووجدت قريش حلاً بأن يقدموا عشراً من الابل كفدية ويضربوا عليها بالقداح فان خرجت على عبد الله (فليزيدوها عشراً عشراً حتى تخرج القداح على الابل وبذلك نرضي الله عنه ، وهكذا فعل عبد المطلب ونحر مائة من الابل وتركها للناس طعاماً ، ومنذ ذلك اليوم صارت الدية من الابل على ما سن عبد المطلب [٣] .

وهكذا نجد مكة قد اصبحت كل شيء في كيان العرب قبل الاسلام لأنها منذ وجدت شغلت المحل الأسمى

في الروايات ان الكعبة سرة الارض وقد صورها المصور المسلم مركزاً لدائرة يحيط بها جميع اقطار العالم معيناً لكل قطر قبيلة منها (نقلا عن كتاب لز آراب لا اعرب) بالفرنسية)



---

(١) واغلب الظن ان عبد المطلب قام بتطهير زمزم حين انقطاع مائها . (٢) تاريخ الامم والملوك ج ٢ ص ٤ مطبعة الاستقامة .(٣) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٠٩ مطبعة الغري .

من تاريخ العرب ، من حيث الدين ، واللغة ، وطريقة الحكم والصولة ، والثروة .

اشهر امراء مكة وعظماؤها

نابت وقيدار — من ابناء اسماعيل .

مضاض بن عمرو الجرهمي ، الحارث ، عمرو بن الحارث ، مضاض ابن عمرو بن الحارث من جرهم .

لحي بن حارثة الخزاعي ، عمرو بن لحي ، من خزاعة .

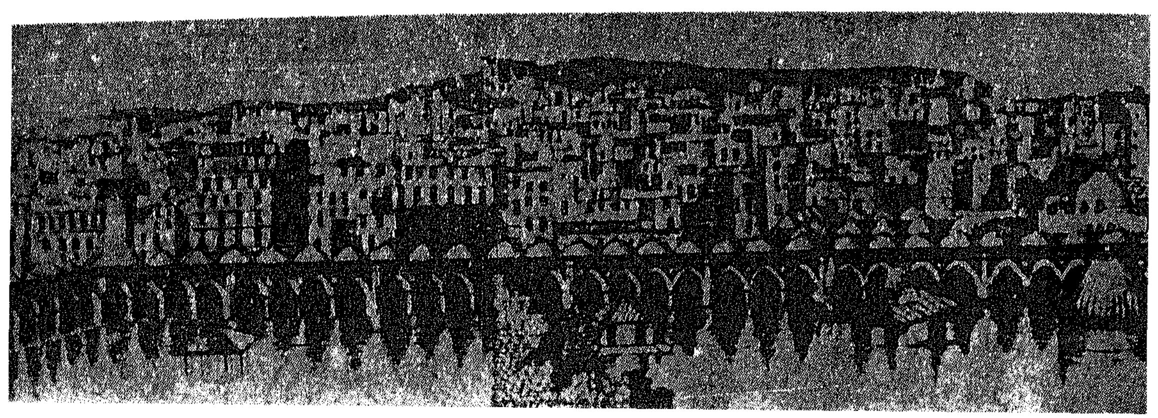
قصي بن كلاب ، عبد مناف ، عبد الدار ، هاشم ، عبد المطلب ابو طالب من قريش .

كسوة الكعبة وتزيينها

يقال ان اول من كسا الكعبة هو (تبّع) وقد مرّ بمكة فأُخبر بفضلها وشرفها وكانت الكعبة غير مسقفة فكساها (تبّـع) الخصف ، وهي حصر من خوص النخل ، ثم كساها بعد ذلك (الانطاع) وهو بساط من الجلد ثم كساها (المعافر) والمعافر : ثياب يمانية تنسب إلى قبيلة من همدان يقال لها المعافر [1] وجعل لها باباً يغلق ، وروى الأزرقي ان الكعبة كانت تكسى

(١) معجم البلدان — مادة كعبة .

صورة للسيل وهو يدهم البيت ويهدم الكعبة



في الجاهلية كسي شتى من خز ، وحبرة ، وانماط فتكسى منه الكعبة ويجعل ما بقي في خزانة الكعبة فاذا بلي منها شيء أخلف عليها مكانه ثوب آخر ، ولا ينزع مما عليها شيء من ذلك وكان يهدى اليها خلوق[1] ومجمر ، وكانت تطيّب بذلك في بطنها ومن خارجها[2] .

وكانت قريش في الجاهلية تفرض كسوة الكعبة على القبائل وتجمع أثمانها منهم على قدر احتمالهم ، وقد جرى ذلك في عهد قصي بن كلاب حتى نشأ ابو ربيعة المغيرة بن عبد الله بن مخزوم وكان مثرياً فقال لقريش انا اكسو الكعبة وحدي سنة وتكسو قريش كلها سنة ، فكان يأتي بالحبرة الثمينة من اليمن فيكسوها فسمّته قريش العدل لأن فعله عدل بفعل قريش كلها ويقال لأولاده بنو العدل ، وظل يكسو الكعبة حتى مات[3] .

وكان أوّل من حلى البيت هو عبد المطلب لما حفر بئر زمزم واصاب فيه من دفن (جرهم) غزالين من ذهب فضربهما في باب الكعبة[4] .

تجديد بناء الكعبة

وفي أواخر حكم قريش بمكة داهم السيل الكعبة ، وكان من القوة بحيث هدمها كما فعل ذلك في ايام جرهم وكان هذا اهم شيء في مكة وعند سكانها لان عظمة مكة كلها مدينة للبيت وطقوسه وحرمته عند العرب ، فاجتمعت قريش وتشاورت فيما بينها واجمعت أمرها على تجديد بناء الكعبة واحكامها وكان ذلك قبل مبعث النبي بخمس سنوات ، وكان البحر على ما روى المؤرخون قد رمى بسفينة (بجدة) فتحطّمت[5] فأخذوا أخشابها واستعانوا به على عمارتها ، ويقول الحموي : وكان بمكّة رجل قبطي نجّار فسوى لهم ذلك وبنوها ثمانية عشر ذراعاً ، فلما انتهوا الى موضع (الركن) اختصموا ،

---

(١) الخلوق ضرب من الطيب ـ المجمر هو مادة البخور من الطيب . (٢) اخبار مكه ج ١ ص ٢٥١ ط ٢ . (٣) المصدر السابق . (٤) معجم البلدان – مادة كعبة . (٥) المصدر السابق .

واراد كل قوم ان يكونوا هم الذين يضعون الحجر في موضعه من الركن . وتفاقم الأمر بينهم حتى تواعدوا للقتال . ثم تحاجزوا وتناصفوا على ان يجعلوا بينهم اول طالع يطلع من باب المسجد حكماً ليقضي بينهم فيما يرى ويكون بحكمه الفصل . فخرج عليهم محمد بن عبد الله (ص) وكان يومذاك في نحو الخامسة والثلاثين ولم يعلن نبوّته بعد ; فاحتكموا اليه فقال لهم : هلمّوا ثوباً . فأتي به . فوضع الحجر فيه ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ليرفعوا . حتى اذا رفعوه الى موضعه اخذ النبي الحجر بيده فوضعه في الركن العراقي خارج الكعبة على ارتفاع دون القامة ليتسنى لمسه للمتبركين وهو الركن القريب من مقام ابراهيم وزمزم[1] فرضوا بذلك وانهوا عن الشرور . ورفعوا باب الكعبة عن الأرض مخافة السيل . وان لا يدخل فيها الا من أحبوا . وبقوا على ذلك الى ايام عبد الله بن الزبير .

---

(١) نزهة القلوب (بالفارسية) ط ليدن ص ٥ .

قبائل مكة قبل الاسلام

كتبه

الدكتور حسين امين

استاذ التاريخ الاسلامي المساعد
ومقرر دائرة التاريخ والآثار بجامعة بغداد
والحائز على درجة دكتوراه الشرف الاولى
من جامعة الاسكندرية



القبائل التي سكنت مكة قبل الاسلام

العمالقة

ان عدداً من رواة التأريخ يقولون أن العمالقة هم أول من استوطن مكة [1] ونسبوهم الى عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح [2] ، بينما نجد ابن خلدون ينسبهم الى عمليق بن ارفخشد بن سام بن نوح [3] ، والأبحاث العلمية التأريخية تؤكد ان العماليق كانوا يسكنون جنوبي فلسطين ، ويظهر انهم كانوا يتحكمون في طرق التجارة بين غزة وأيلة (ايلات) أي العقبة المؤدية الى مصر [4] ، وقد جرت بين العبرانيين والعمالقة حروب شديدة [5] .

وتبدو أخبار العمالقة ، مضطربة في مصادر التأريخ ، مما يجعلنا متحفظين في قبول اكثر اخبار رواتها ، واقدم تلك الأخبار العربية تقول : ان ابراهيم (ع) لما اسكن اسماعيل مكة مع أمه هاجر وابتهل الى خالقه قائلاً : ربنا

---

(١) الازرقي : ط ١ ص ٤٦ . اليعقوبي : ط ١ ص ١٩٤ المسعودي : ط ص ٣٥٨ .
(٢) الطبري : ج ١ ص ٢١٣ ، ٢١٧ طبعة اوربا . ابن الأثير : ج ١ ص ٤٤ الطبعة المنيرية .
(٣) ابن خلدون ج ٢ ص ٣٠ . (٤) جواد علي تاريخ العرب ج ٢ ص ٣٥١ . (٥) العهد القديم — الاصحاح الخامس عشر ص ٣١٠ — ٣١٢ .

إني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون [١]» وكان موضع البيت ربوة حمراء ، أمر ابراهيم هاجر ان تتخذ عليه عريشاً يكون لها مسكناً ، وكان من ظمأ اسماعيل وهاجر ما كان إلى ان أنبع الله لهما (زمزم) ، وأقحط الشحر واليمن ، فتفرق العماليق وجرهم في البلاد ، ومن هناك من بقايا عاد ، فبقيت العماليق نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى والدار الخصيبة ، وعليهم (السميدع بن هود بن لاي بن قنطور ابن كركر بن حيدان) فلما أمعنت بنو كركر في المسير . وقد عدمت المأوى والمرعى ، واشتد بها الجهد ، أقبل السميدع بن هود ، يحثهم على السير في شعر له :

سيروا بني الكرر في البـــلاد إني أرى ذا الدهر في فساد
قد سار من قحطان ذي الرشاد جُرهُمُ لـمّا هدهـــا التعادي

فأشرف روادهم على الوادي ، فنظروا الطير ترتفع وتنخفض ، فهبطوا الوادي ونظروا الى العريش على الربوة الحمراء ، وفيها هاجر واسماعيل ، وقد زَمّتْ حول الماء بالاحجار ومنعته من الجريان ، فسلم الروادُ عليها ، واستأذنوها في نزولهم وشربهم من الماء ، فأنستْ اليهم ، وأذنت لهم في النزول ، فتلقوا من كان وراءهم من اهليهم ، واخبروهم خبر الماء فنزلوا الوادي مطمئنين ، مستبشرين بالماء [٢] .

ويبدو ان الاخباريين تأثروا بالتوراة فأوردوا اخباراً عن العمالقة الذين اعتبروهم اول من سكن مكة وذكروا اوصافاً عديدة عن اجسامهم وطولهم وعن ابنيتهم وقدمهم وقصصاً عن احوالهم وحروبهم [٣] .

---

(١) القرآن الكريم : سورة ابراهيم : الآية ٣٧ . (٢) الا زرقي : اخبار مكة ج ١ ص ٢٤ . اليعقوبي : التاريخ ج ١ ص ١٩٣ . المسعودي : مروج الذهب ج١ ص ٣٥٨ . (٣) راجع الكتاب المقدس : العهد القديم الاصحاح الخامس عشر والسابع عشر والرابع و العشرين .

ويعتقد الاخباريون ان قبيلة (جرهم) التي كانت على عهد العمالقة من العرب البائدة، وقد سموا بجرهم الأولى [١]، وان نسبهم يعود الى (عابر)، وان هؤلاء ابيدوا على ايدي القحطانيين. [٢]

جرهم

وجرهم الثانية هي قبيلة قدمت الى موقع مكة من اليمن، وهي تنتسب الى القحطانية، والقبائل القحطانية بالنسبة الى قحطان بن عابر بن شالخ ابن ارفخشر بن سام بن نوح [٣]، ويذكر بعض المؤرخين ان (يعرب) تولى الملك بعد (قحطان) وكان ملكه باليمن، وقد غلب بقايا (عاد) واستعان باخوته في حكم البلاد فأقر اخاه (حضرموت) على البلاد التي عرفت باسمه فقيل لها (حضرموت) وعين (عمان) على ارض عمان، وولى جرهماً على الحجاز [٤].

وتذكر الروايات التاريخية ان اسماعيل تزوج من جرهم وبلغتهم تكلم، قال الازرقي: فكانت (أي هاجر أم اسماعيل) معهم (أي قبيلة جرهم) هي وابنها حتى ترعرع الغلام ونفسوا فيه واعجبهم، وتوفيت أم اسماعيل، وطعامهم الصيد يخرجون من الحرم ويخرج معهم اسماعيل فيصيد فلما بلغ، أنكحوه جارية منهم تدعى (عمارة بنت سعيد بن اسامة) [٥] الى آخر ما ورد من اخبار زواج اسماعيل في صدر هذا الجزء من الموسوعة.

والاخبار العربية تشير الى ان قبيلة جرهم حكمت الحجاز وكانت قائمة على الكعبة واشتهر منهم رجال كان لهم شأن في التاريخ، منهم الحارث

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٦ ص ٣٥٠. (٢) ابن خلدون: التاريخ جـ ٢ ص ٣. (٣) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٥ طبعة البابي الحلبي. (٤) ابن خلدون: التاريخ: جـ ٢ ص ٤٧. القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٩. (٥) جواد علي: تاريخ العرب جـ ٤ ص ١٨٩ ذكر ان اسم الزوجة الاولى (حرا).

ابن مُضاض الجرهمي . وكان مقيماً في الحجاز تابعاً لليمن ، وفي ايامه نشطت حركة بني اسرائيل وزحفوا يريدون مكة ، من الشمال ، فقاتلهم الحارث بن مضاض فهزمهم واستولى على تابوت من الكتب كانوا يحملونه . وفيه ما انتحلوه على الزبور . والحارث بن مضاض هو الذي يقال انه خرج من بلاده يجول في الأرض . زمناً طويلاً ، وضربت الأمثال باغترابه . ويذكر المسعودي : إنه اول من تولى أمر البيت بمكة من بني جرهم ، وكان ينزل في الموضع المعروف بقعيقعان ، وكان كل من دخل مكة بتجارة عَشّرها عليه ، وذلك في اعلى مكة . وملك العماليق (السميدع بن هود بن حدر ابن مازن بن لاي بن قنطورا) وكان ينزل (اجياد) من اسفل مكة ، وكان يُعشّر من دخل مكة من ناحيته . وكانت بينهما حروب ، فخرج الحارث ابن مضاض ملك جرهم تتقعقع معه الرماح والدرق . فسمي الموقع بقعيقعان . وخرج السميدع ملك العماليق ومعه الجياد من الخيل فعرف الموضع بأجياد [1] .

ومن رجال جرهم عمرو بن الحارث بن مُضاض الجرهمي ، تولى مكة بعد خروج أبيه منها ، وكذلك نفيلة بن عبد المدان [2] .

ونستدل من الحصيلة الشعرية أن قبيلة جرهم كانت لها ولاية البيت . قول عمرو بن الحارث بن مضاض الاصغر الجرهمي : ـ [3]

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيسٌ ولم يسمر بمكـة سامرُ [4]

الى آخر ما ورد من الأبيات .

وقال عمرو بن الحارث بن مُضاض الجرهمي : [5] ـ

وكنا ولاة البيت والقاطن الذي إليه يؤدي نَذْرَهُ كل محرم

---

(١) ابن هشام : السيرة جـ ١ ص ١١٢ . (٢) ابن هشام : التيجان في ملوك حمير : ص ١٧٨ . (٣) ابن هشام : السيرة جـ ١ ص ١١٥ (٤) الحجون : جبل بأعلى مكة . (٦) المسعودي جـ ١ ص ٣٦٢ .

سكنا بها قبل الظبــاء وراثة   لها عن بني هيّ بن بنت بن جرهم

ويبدو ان خزاعة وجدت الفرصة سانحة للسيطرة على ما تسيطر عليه قبيلة جرهم ، ووردت بعض الأخبار التاريخية التي تشير الى ان قبيلة جرهم بغوا بمكة واستحلوا خِلالاً من الحُرمة ، فظلموا من دخلها من غير أهلِها ، وأكلوا مال الكعبة الذي يُهدى لها ، فرقّ أمرهم ، فلما رأت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وغُبشان من خزاعة ذلك ، اجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة . فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا ، فغلبتهم بنو بكر وغبشان . فنفوهم من مكة .[1]

وكان لتلك الوقعةعلى ما تشير الاخبار التأريخية أثرها الكبير في انحسار نفوذ جرهم ، ويذكر ابن هشام ؛ قال ابن اسحاق : فخرج عمرو بن الحارث ابن مُضاض الجرهمي بغزالي الكعبة وبحجر الركن ، فدفنها في زمزم ، وانطلق هو ومن معه من جرهم الى اليمن ، فحزنوا على ما فارقوا من امر مكة وملكها حزناً شديداً ، فقال عمرو بن الحارث الجرهمي قولته المشهورة المتقدمة من الشعر :

وقائلةٍ والدمــعُ سكبٌ مبادرُ   وقد شَرِقَتْ بالدمع منها المحاجرُ

خزاعة

وتولت خزاعة أمر البيت الحرام ، وخزاعة من عرب الجنوب ، وهي فرع من قبيلة الأزد العربية الكبيرة[2] ، ومعظم النسابة ينسبون هذه القبيلة الى عمرو بن لُحيّ بن حارثة بن عمرو بن مزيقياء ، ويذكر المسعودي ان سبب تسميتهم (خزاعة) : انه لما خرج عمرو بن عامر وولده من مأرب ،

(١) ابن هشام: السيرة ج ١ ص ١١٣ – ١١٤ . (٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ٧٥ . الهمداني : صفة جزيرة العرب : ١٢٠ .

انخزع بنو ربيعة ، فنزلوا تهامة ، فسموا خزاعة لانخزاعهم [١] .

ويعتقد ان ورود خزاعة كان في القرن الخامس الميلادي على وجه التقريب [٢] . وتلقب رجال خزاعة الذين سيطروا على مكة بألقاب الملوك وصاروا يتوارثون النفوذ كابراً عن كابر .

وعبدت خزاعة اصناماً كثيرة من اهمها ، العزى [٣] وهُبل [٤] وإساف ونائلة [٥] . وعظمت هذه القبيلة الصنم مناة [٦] .

ويعتقد الاخباريون ان اول من نصب الأوثان هو عمرو بن ربيعة ، وهو لَحيّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، ابو خزاعة . ويعتبر أول من غير دين اسماعيل « فنصب الأوثان وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة وحمى الحامي » [٧] .

وكان آخر حكام قبيلة خزاعة حُليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو [٨] ، وخطب قصي بن كلاب ابنته حُبّى فرغب فيه حُليل فزوجه ، فولدت له عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدا [٩] .

ويبدو ان حليل بن حبشية ، كبرت به السن فكان اذا إعتلّ اعطى مفتاح البيت الى ابنته حُبّي ففتحته فإذا اعتلت اعطت المفتاح زوجها قصياً او بعض ولدها ففتحه . [١٠] ولما شعر حليل بن حبشية بدنو اجله نظر الى قصي والى ما انتشر له من الولد من ابنته فرأى ان يجعلها في ولد ابنته ، فدعا قصياً فجعل له ولاية البيت ، واسلم إليه المفتاح وكان يكون عند حبّي ،

---

(١) المسعودي : مروج الذهب : جـ ١ ص ٣٦٦ . (٢) دائرة المعارف الاسلامية : جـ ٦ ص ٣٠١ . (٣) جواد علي : تاريخ العرب جـ ٥ ص ٩٧ (٤) ابن هشام : السيرة : جـ ١ ص ٧٧ . (٥) الكلبي : الاصنام : ص ٩ . (٦) المرجع السابق ص ١٥ . (٧) بلوغ الارب : جـ ٢ ص ٢٠٠ . الاغاني : جـ ١٣ ص ١٠٩ . (٨) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٦ ص ٣٠١ . (٩) ابن هشام : السيرة جـ ١ ص ١١٧ ، ويذكر الأزرقي الابن الرابع باسم (عبد بني قصي) جـ ١ ص ٦٢ . ويذكر ذلك ايضاً اليعقوبي جـ ١ ص ٢١٠ . (١٠) الأزرقي : اخبار مكه جـ ١ ص ٦٢ .

فلما هلك حليل أبت خزاعة أن تَدّعه ذاك ، وأخذوا المفتاح من حُبّي فمشى قصي الى رجال من قومه من قريش وبني كنانة ودعاهم الى ان يقوموا معــه في ذلك وان ينصروه ويعضدوه فأجابوه الى نصره. وارسل قصيّ الى اخيه لأمه (رزاح بن ربيعة) وهو ببــلاد قومه من قضاعة يدعوه الى نصره ويعلمه ما حالت خزاعــة بينه وبين ولاية البيت ويسأله الخروج إليه بمن اجاب من قومه ، فقام رزاح بن ربيعة في قومه فأجابوه الى ذلك ، فخرج رزاح ومعه اخوته من ابيه ، حُنّ ، ومحمودة ، وجَلْهَمَة بنو ربيعة بن حرام فيمن تبعهم من قضاعة في حاجّ العرب مجتمعين لنصرة قصي والقيام معه ، فلما اجتمع الناس بمكة خرجوا الى الحجّ فوقفوا بعرفة وبجَمْعٍ [1] ونزلوا منى ، وقصي مجمع على ما اجمع عليه من قتالهم ، بمن معه من قريش ، وبني كنانة ، ومن قدم عليه مع اخيه رزاح من قضاعة ، فلما كان آخر أيام منى ارسلت قضاعة الى خزاعة يسألونهم ان يسلموا الى قصي ما جعل له حليل ، وعظموا عليهم القتال في الحرم ، وحذروهم الظلم والبغي بمكة. وذكروهم بما كانت فيه جرهم وما وصلت إليه حين الحدوا فيه بالظلم والبغي ، فأبت خزاعة أن تسلم ذلك فاقتتلوا بمفضى مأزمي منى ، وسمي ذلك المكان (المفجر) [2] لما فجر فيه وسفك فيه من الدماء ، وانتهك من حرمته ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعــاً وفشت فيهم الجراحات وحاج العرب جميعاً من مضر واليمن مستكفون ينظرون الى قتالهم ثم تداعوا الى الصلح ، ودخلت قبائل العرب بينهم ، وعظموا على الفريقين سفك الدماء والفجور في الحرم ، فاصطلحوا على ان يحكموا بينهم رجلاً من العرب فيما اختلفوا فيه فحكموا (يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن الليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة) وكان رجلاً شريفاً ، فقال لهم : موعدكم فناء الكعبة غداً . فاجتمع إليه الناس ، وعدوا القتلى فكانت

---

(١) جمع : المزدلفة سميت بذلك لاجتماع الناس بها . (٢) المفجر : مكان خلف الجبل المقابل لثبير وهو على حافة طريق السيارات الى عرفات ايام الحج .

في خزاعة اكثر منها في قريش وقضاعة وكنانة . فلما اجتمع الناس بفناء الكعبة قام (يعمر بن عوف) فقال : الا اني قد شدخت ما كان بينكم من دم تحت قدمي هاتين فلا تباعة لاحد على احد في دم واني قد حكمت لقصي بحجابة الكعبة وولاية امر مكة دون خزاعة ، لما جعل له حليل وان يخلي بينه وبين ذلك وان لا تخرج خزاعة عن مساكنها من مكة ، فسلمت ذلك خزاعة لقصي وعظموا سفك الدماء في الحرم وافترق الناس فولى قصي بن كلاب حجابة الكعبة وامر مكة وجمع قومه من قريش من منازلهم الى مكة يستعزيهم وتملك على قومه فملكوه .[١]

قريش

وهكذا سيطرت قريش على مكة واستحوذ قصي بن كلاب اول زعماء قريش على الامور في تلك المدينة ، وهو قصي بن كلاب بن مُرة بن كعب ابن لؤي بن فهر ، وأمه فاطمة بنت سعد بن سيل . ويذكر بعض المؤرخين ان قصياً اشترى ولاية البيت من ابي غيشان بزق خمر وعود[٢] ، ويذكر بعض الرواة ان هذا الشراء حصل في ايام ملك الحيرة « المنذر بن النعمان »[٣] .

وتعتبر قريش من القبائل العدنانية ، واختلف في معنى كلمة قريش ، يقول الفيروز أبادي : يَقرُشُه ويَقرِشُه قطعه وجمعه من ههنا وههنا وضم بعضه الى بعض ومنه قريش لتجمّعهم الى الحرم أو لأنهم كانوا يتقرشون البياعات فيشترونها ، أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً فقالوا تَقَرَّش أو لأنه جاء الى قومه فقالوا كأنه جملٌ قريشٌ أي شديداً ولأن قصياً كان يقال له القرش ، او لأنهم كانوا يفتشون الحاج فيسدون خلتها ، او سميت بمصغر القِرش وهو دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها ، او سميت

---

(١) الأزرقي : ص ٦٢ – ٦٣ . (٢) ابن الأثير : الكامل : جـ ٢ ص ١٢ الطبعة المنيرية
(٣) بلوغ الارب : جـ ١ ص ٢٤٦ .

بقريش بن مخلد بن غالب بن فهر وكان صاحب عيرهم فكانوا يقولون قدمت عيرُ قريش وخرجت عير قريش [١] .

ويبدو ان الفيرز آبادي متأثر برأي المؤرخ الطبري الذي يقول : وسميت قريش قريشاً بقريش بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة ، وبه سميت قريش قريشاً لأن عير بني النضر كانت إذا قدمت قالت العرب قد جاءت عير قريش، قالوا وكان قريش هذا دليل بني النضر في اسفارهم وصاحب ميرتهم ، وكان له ابن يسمى بدراً وقال ابن الكلبي انما قريش جماع نسب ليس بأب ولا أم ولا حاضن ولا حاضنه ، وقال آخرون انما سمي بنو النضر بن كنانة قريشاً لأن النضر بن كنانة خرج يوماً على نادي قومه فقال بعضهم لبعض انظروا النضر كأنه جملُ قريشٌ . وقيل انما سميت قريش قريشاً بدابة تكون في البحر تدعى القرش ، فشبه بنو النضر بن كنانة بها لأنها اعظم دواب البحر قوة ، وقيل ان النضر بن كنانة كان يقرش عن حاجة الناس فيسدها بماله ، والقرش فيما زعموا التفتيش ، وكان بنوه يقرشون اهل الموسم عن الحاجة فيسدونها بما يبلغهم ، وقيل ان النضر بن كنانة كان اسمه قريشاً ، وقيل بل لم تزل بنو النضر بن كنانة يدعون بني النضر حتى جمعهم قصي بن كلاب فقيل لهم قريش من اجل ان التجمع هو التقرش ، فقالت العرب : تقرش بنو النضر أي قد تجمعوا ، وعن محمد بن سعد : سميت قريش قريشاً حتى اجتمعت إلى الحرم من تفرقها فذلك التجمع التقرش . قال عبد الملك ما سمعت هذا ولكن سمعت أن قصياً كان يقال له القرشي ، ولم يسم قرشي قبله [٢] .

تلك هي الآراء التي قدمها المؤرخ الطبري ، ولعل أقرب الآراء للبحث العلمي ان اسم قريش من (القرش) وهو حيوان بحري ، وأن البحث العلمي في المستقبل قد يتوصل الى معلومات قيمة عن أصالة هذه القبيلة وصلتها

---

(١) الفيروز آبادي : القاموس المحيط ج ٢ ص ٢٩٤ – ٩٥ (٢) الطبري : ج ٥ ص ١٨٧ .

الوثيقة بهذا الحيوان الذي ارتبطت به والتفت حوله ليكون حاميها والمدافع عنها ، وهذا الموضوع معروف عند علماء الاجتماع بمبـدأ الطوطمية Totemism وهو عبارة عن اعتقاد جماعة من الناس بوجود صلة لهم بحيوان ما ، تقدم له الاحترام ولا تجيز صيده او ذبحه ، ويرى بعض العلماء انه ليس من الضروري ان تقوم القبيلة بعبادة الحيوان ولكنها تشعر بروابط دموية بين افرادها اي بوجود صلة رحم بينها ، والرابط بينها هو ذلك الطوطم الذي تنتمي الجماعة إليه وتلتف حوله ليكون حاميها والمدافع عنها في الملمات [١] .

ويعتبر قصي بن كلاب اول رئيس وردت اخباره التأريخية وأنه هو الذي لمّ شعث قومه ، وجمعهم من الاودية والشعاب والجبال الى مكة ، وابتنى دار الندوة وجعل بابها الى البيت ، ففيها كان يكون أمر قريش كله ، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة كله وكان يعشر من دخل مكة سوى اهلها [٢] . كما ان قصياً بعد ان تمكن من مكة حفر بها بئراً اسماها (العجول) وهي اول بئر حفرتها قريش [٣] ، وادخل قصي بطون قريش كلها الأبطح ، فسموا قريش البطاح ، واقام بنو معيص بن عامر [٤] بن لؤي وبنو تيم الأدوم بن غالب بن فهر وبنو محارب بن فهر وبنو الحارث بن فهر ، بظهر مكة فهؤلاء الظواهر لأنهم لم يهبطوا مع قصي الى الأبطح فهم مع المُطيَّبين اهل البطاح ، وقد قال الشاعر في ذلك وهو ذكوان مولى عمر بن الخطاب للضحاك بن قيس الفهري حين ضربه :

فلو شهدتني من قريش عصابةٌ   قريش البطاحِ لا قريش الظواهر [٥]

وتذكر المراجع ان قصي بن كلاب لما كبر ورقّ وكان عبد الدار بكره

---

(١) جواد علي : جـ ٥ ص ٣١ . (٢) ابن سعد : جـ ١ ص ٥٠ . (٣) ابن الأثير : جـ ٢ ص ٩ . (٤) ورد في ابن الأثير باسم بغيض بن عامر . (٥) ابن سعد : جـ ١ ص ٥٠ - ٥١ .

واكبر ولده ، فأعطاه دار الندوة وحجابة البيت واللواء والسقاية والرفادة . ويرى بعض المؤرخين ان قصياً عمل ذلك لأنه رأى ضعف ولده عبد الدار وان عبد مناف كان قد ساد في حياة ابيه فأراد قصي تقويته بتلك الامتيازات التي اسبغها على عبد الدار [١] . ويورد الأزرقي رواية اخرى فيذكر ان قصي اجمع على ان يقسم امور مكة الستة التي فيها الذكر ، والشرف ، والعز ، بين ابنيه فأعطى عبد الدار السدانة وهي الحجابة ، ودار الندوة ، واللواء ، واعطى عبد مناف السقاية ، والرفادة ، والقيادة [٢] . ويذكر ابن الأثير : ان قبيلة قريش تفرقت ، فكانت طائفة مع بني عبد مناف وطائفة مع بني عبد الدار ، فكان بنو اسد بن عبد العزى ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تميم بن مرة ، وبنو الحارث بن فهر مع بني عبد مناف ، وكان بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي مع بني عبد الدار فتحالف كل قوم حلفاً مؤكداً ، وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها عند الكعبة وتحالفوا وجعلوا ايديهم في الطيب ، فسموا المطيبين ، وتعاقد بنو عبد الدار ومن معهم وتحالفوا فسموا الأحلاف ، وتعبوا للقتال ثم تداعوا الى الصلح على ان يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، فرضوا بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، واقترعوا عليها فصارت لهاشم بن عبد مناف ، ثم بعده للمطلب بن عبد مناف ثم لابن طالب بن عبد المطلب [٣] .

ان قريش سيطرت على الطرق التجارية واستغلت ضعف الاسطول البيزنطي بسبب الحروب الفارسية البيزنطية ، وتحولت التجارة من البحر الى البر نتيجة لذلك ، وقد برع القريشيون في التجارة ، وقد اشار القرآن الكريم الى تجارتهم في قوله تعالى : (لايلاف قريش ، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) ، ويبدو ان القريشيين استغلوا ايضاً الوضع السيء الذي آلت

---

(١) الزبيري : نسب قريش ص ١٤ تحقيق ليفي بروفنسال . (٢) الأزرقي : ج ١ ص ٦٦ .
(٣) ابن الأثير : ج ٢ ص ١٤ .

إليه اليمن نتيجة انهيارها السياسي بدخول الأحباش إليها ، وصار رجال قريش يهيمنون على التجارة العربية وقاموا بدور الوساطة التجارية ، وتنقلت قوافلهم الى بلاد الشام واليمن . واصبحت مكة من اهم المراكز الاقتصادية في العالم قبل ظهور الاسلام .

وكانت مواسم الحج اياماً تزدهر فيها التجارة ، فالعرب يقصدون الكعبة من كل مكان . ويجلبون معهم ما يشاؤون من السلع ، وينشط التجار القريشيون في ذلك الموسم وتعود عليهم الأرباح بشكل وفير . كما كانت تخرج لقريش القوافل الكبيرة للتجارة يشرف عليها احد كبار رجالات مكة امثال ابن العاص بن الربيع العبشمي [١] ، زوج السيدة زينب ابنة الرسول محمد (ص) وكان يخرج الى الشام بتجارة قريش . وكان رجلاً مأموناً ، يخرج بماله ومال وأموال رجال من قريش أبضعوها معه ، [٢] وأبي سفيان صخر بن حرب الذي كان يقود قافلة كبيرة لقريش وبسببها وقعت موقعة بدر في السنة الثانية للهجرة . [٣] وكانت وسيلة النقل التجاري لقريش هي الجمال وانها استخدمت عناصر سودانية وحبشية وغيرهما من شرقي افريقيا لحراسة القوافل وتحميل الجمال وتفريغها واطعامها ، وقد عرفت تلك العناصر بالأحابيش .

ان قريش المتحكمة في مكة تعتبر نفسها هي الحامية للأصنام والاوثان ومن اشهر الأصنام التي عبدتها قريش وعظمتها ، (هبل) الذي كان من اعظم تلك الآلهة [٤] ، وكان مصنوعاً من عقيق أحمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى . ادركته قريش فجعلوا له يداً من ذهب [٥] . و (العزى) وكانت قريش تزورها وتهدي إليها ويتقربون إليها بالذبح . كما كانت قريش تخص (اللات) بالاعظام والاكبار .

---

(١) ابن حجر : الاصابة جـ ٤ ص ٣٠٦ . (٢) الطبري : جـ ٢ ص ٢٩٢ . (٣) ابن هشام : السيرة جـ ١ ص ٦٠٧ و ٦٠٩ . (٤) ابن الكلبي : ص ٢٧ . (٥) المرجع السابق ص ٢٨ .

اقسام قريش

وقبيلة قريش قسمان ، قريش الظواهر وقريش البطاح ، وقريش الظواهر ، تلك التي سكنت في ظاهر مكة ، وهم بنو بغيض بن عامر بن لؤي ، وبنو الأدوم بن غالب بن فهر ، وبنو محارب بن فهر ، وكان هؤلاء يعيشون عيشة البداوة ، لم يتعودوا حياة الاستقرار ، وكثيراً ما قامت بينهم الغارات .

اما قريش البطاح فهي التي سكنت حول الحرم ، واستحوذ رجالها على جميع الوظائف في مكة ، وكانت بيدها التجارة وكل المرافق الاقتصادية ، وتميزت بالغنى والثروة وبحياة الاستقرار وصلاتها المختلفة مع البلدان كالشام والعراق واليمن والحبشة .

وقبائل قريش البطاح هي : بنو عبد الدار ، وبنو عبد مناف ، وبنو عبد قصي ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة وبنو مخزوم بن يقظة وبنو سهم ، وبنو جمح ، وبنو عدي بن كعب ، وبنو حسل بن عامر بن لؤي ، وبنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وبنو هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وبنو هاشم بن عبد مناف وبنو المطلب ابن عبد مناف ، وبنو الحارث بن عبد مناف وبنو أمية بن عبد شمس ، وبنو نوفل بن عبد مناف ، وبنو الحارث بن فهر .[1]

ومن زعماء قريش المشهورين ، قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي سيد قريش وزعيمها الأول ، مات ابوه وهو طفل فتزوجت امه من ربيعة ابن حرام بن ضنّة بن عبد بن كبير ، بن عُذرة بن سعد بن زيد أحد قضاعة فاحتملها الى بلاده من ارض عُذرة من اشراف الشام الى سرْغ[2] وما دونها ،

---

(١) ابن حبيب : المحبر ص ١٧٦ . المسعودي : مروج الذهب /ج١ ص ٣٦٩ وج٢ ص ١٦٧

(٢) سرغ : مكان في اول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٧٧) .

وكان قصي فطيماً ، وسمي قصياً لتقصيها به الشام ، وولدت امه لربيعة ولداً سمي (رزاحاً) وكان قصي ينسب الى ربيعة بن حرام ، فناضل يوماً رجلاً من قضاعة يدعى رُقيعاً ، وهو من عُذرة ، فنضله قصي فغضب المنضول ، فوقع بينهما شر حتى تقاولا وتنازعا ، فقال رُقيع : — ألا تلحق ببلدك وقومك ، فانك لست منا . فرجع قصي الى امه فقال : مَنْ أبي ؟ فقال : أبوك ربيعةُ . قال : لو كنت ابنه ما نُفيت . قالت : أوَقد قال هذا ؟ فوالله ما أحسن الجوار ، ولا حفظ الحق ، أنت والله يا بني اكرم منه نفساً ووالداً ونسباً واشرف منزلا ، أبوك كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي ؛ وقومك بمكة عند البيت الحرام فما حوله ؛ قال : فوالله لا أقيم ههنا ابداً . قالت : فأقم حتى يجيء إبّان الحج فتخرج في حاجّ العرب ، فاني أخشى عليك ان يصيبك بعض الناس ، فأقام فلما حضر ذلك بعثته مع قوم من قضاعة ، فقدم مكة ، وزُهرة أخوه يومئذ حي ، وكان أشعر وقصي اشعر ايضاً ، فأتاه ، فقال له قصي : — أنا اخوك ، فقال زهرة : أدن مني ، وكان قد ذهب بصره وكبر ، فلمسه فقال : اعرف والله الصوت والشبه ، فلما فرغ من الحج عالجه القُضاعيون على الخروج معهم والرجوع الى بلادهم ، فأبى وأقام بمكة [1] .

ويبدو ان قصي بن كلاب كان رجلاً جلداً بعيد النظر وطموحاً ، وانه خطب الى حُليل بن حبشية بن سلول الخزاعي ، ابنته حُبّى — كما ترى — ، فرغب فيه حليل وزوّجه ، فولدت له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد قصي ، وكان حليل بن حبشية يلي الكعبة وآمر مكة ، وكان حليل إذا إعتل اعطى إبنته مفتاح الكعبة ، ففتحت ابواب البيت ، فاذا اعتلت اعطت المفتاح زوجها قصياً او بعض ولدها ففتحه ، ولما حضرت حليلاً الوفاة نظر إلى قصي والى ما انتشر له من الولد من ابنته

---

(١) ابن سعد : الطبقات جـ ١ ص ٤٦ — ٤٧ . الأزرقي : اخبار مكة جـ ١ ص ٦١ .

فرأى ان يجعلها في ولد ابنته فدعا قصياً فجعل له ولاية البيت واسلم إليه المفتاح [١]، وهكذا اصبحت الزعامة الى قصي وآل اليه الأمر في مكة كما قد أشرنا الى ذلك من قبل .

وجعل قصي لولده عبد الدار، الحجابة والندوة والسقاية والرفادة واللواء ، والحجابة وهي حجابة الكعبة ، والندوة وهي مجلس قريش ومعقد اجتماعهم ، وفيها تقرر الحروب وتعقد المحالفات السياسية والإقتصادية وترسم سير القوافل التجارية واتجاهاتها وغيرها من الأمور المهمة ، والرفادة وهي خرج تخرجه قريش في كل موسم من اموالها الى قصي بن كلاب فيصنع منه طعاماً للحجاج يأكله الفقراء ، [٢] والسقاية ، وهي سقاية الحاج ، واللواء ، راية قريش ، وكان قصي هو الذي يعقد لقريش ألويتهم .

وجرى نزاع بين أبناء عبد الدار وابناء عبد مناف ، فقد اراد ابناء عبد مناف انتزاع المراتب الشرفية التي كانت لعبد الدار وابنائه ، فانقسمت قريش أحلافاً ، ونحر بنو عبد الدار وانصارهم جزوراً ، وغمسوا ايديهم في دمه ، متعاهدين ، ولعق أحدهم من ذلك الدم ، وتابعه من كان معه ، فسموا الاحلاف ولعقة الدم ، [٣] واخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعوها عند الكعبة ، وتحالفوا ، وجعلوا ايديهم في الطيب ، فسموا بالمطيبين ، واستعدوا للقتال ، ثم اصطلحوا على ان تكون لبني عبد مناف السقاية والرفادة ، ولبني عبد الدار اللواء والحجابة [٤] .

بنو عبد مناف

وبنو عبد مناف ، ينتسبون الى عبد مناف ، وقيل ان اسمه المغيرة ، لقبه ، وذكر ابن سعد عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن ابيه قال :

---

(١) اخبار مكة : ج ١ ص ٦٢ . (٢) ابن الأثير : الكامل : ج ٢ ص ١٣ . (٣) ابن سعد : ج ١ ص ٥٧ . (٤) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ١٣٢ .

لما هلك قصي بن كلاب ، قام عبد مناف بن قصي على أمر قصي بعده ، وأمر قريش إليه ، واختط بمكة رباعاً بعد الذي كان قصي قطع لقومه ، وعلى عبد مناف اقتصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى أنزل الله تبارك وتعالى عليه (وأنذر عشيرتك الأقربين)[١] .

وولد عبد مناف بن قصي ستة نفر ، وست نسوة ، المطلب بن عبد مناف ، وكان اكبرهم ، وهو الذي عقد الحلف لقريش من النجاشي في متجرها الى ارضه ، وهاشم بن عبد مناف ، وعبد شمس بن عبد مناف ، وتماضر بنت عبد مناف وحنّة ، وقلابة ، وبرّة ، وهالة ، بنات عبد مناف وأمهم عاتكة الكبرى بنت مرة بن هلال بن فالج ، بن ثعلبة ، بن ذكوان ، ابن ثعلبة ، بن بهثة ، بن سليم ، بن منصور ، بن عكرمة بن خصفة ، ابن قيس ، بن عيلان ، بن مضر ، ونوفل بن عبد مناف ، وهو الذي عقد الحلف لقريش من كسرى الى العراق ، وابا عمرو بن عبد مناف ، وابا عبيد درج ، وامهم واقدة بنت أبي عدي ، وريطة بنت عبد مناف[٢] .

بنو هاشم

وبنو هاشم ، وينتسبون الى هاشم ، اكبر اولاد عبد مناف ، وقد انتهت إليه السيادة في مكة ، وذكر ان اسمه (عمرو) وكنيته (ابو نضله) وانما قيل له هاشم لأنه اول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمه[٣] . وامتاز هاشم بقوة الشخصية وسعة النفوذ ، وهو الذي حفر عدة آبار في مكة مثل بئر (سجلة) وهي البئر التي يقال لها بئر جبير بن مطعم[٤] في وبئر (بذر) وقال حين حفرها لأجعلنها للناس بلاغاً وهي البئر التي حق المقوم ابن عبد المطلب في ظهر دار الطلوب مولاة زبيدة بالبطحاء[٥]

---

(١) ابن سعد : ج ١ ص ٥٣ . (٢) ابن سعد : ج ١ ص ٥٤ . (٣) ابن الأثير : ج ٢ ص ٩ .
(٤) الأزرقي : ج ١ ص ٦٩. (٤) المرجع السابق .

وهاشم اول من سَنّ الرحلتين لقريش ، للتجارة ، رحلة الشتاء الى اليمن والحبشة ، ورحلة الصيف الى غزة وبلاد الشام وربما بلغ أنقرة ، فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه فأصابت قريشاً سنوات ذهبن بالأموال [١] . وهو الذي اخذ الحلف من قيصر لقريش على ان تأتي الشام وتعود منها آمنة . وكان احد الأجواد الذين ضرب بهم المثل في الكرم ، وقد ذكر انه خرج مرة الى الشام فأمر بخبز كثير فخُبز له . فحمله في الغرائر على الابل حتى وافى مكة ، فهشم ذلك الخبز وشرده ونحر تلك الابل ، ثم أمر الطهاة فطبخوا ، ثم كفأ القدور على الجفان [٢] ، فأشبع اهل مكة ، فكان ذلك اول الحيا بعد السنة التي أصابتهم فسمي بذلك هاشماً وفي ذلك قال عبد الله بن الزّبعري : —

عمرو العلى هشم الثريد لقومه
ورجالُ مكة مُسْنِتون عجاف [٣]

وقد مر ذكره في صدر هذا الجزء

ويبدو أن ما أصاب هاشماً من علو المكانة وسمو المجد ، اثار حسد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، وكان ذا مال . فتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه ، فشمت به ناس من قريش فغضب ، ونال من هاشم ودعاه الى المنافرة ، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره ، فلم تدعه قريش وأحفظوه . قال هاشم : فاني انافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة ، والجلاء عن مكة عشر سنين ، فرضي أمية بن عبد شمس بذلك ، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وهو جد عمرو بن الحمق ومنزله بعُسفان [٤] ، وقد قضى الكاهن لهاشم بالغلبة ، فأخذ هاشم الابل فنحرها

---

(١) ابن سعد : ج ١ ص ٥٥ . (٢) الجفان : جمع جفنه وهي القصعة . (٣) مسنتون : مجدبون ، وعجاف : نحاف من قلة الطعام. (٤) عسفان : على بعد ستة وثلاثين ميلا من مكة (ياقوت الحموي ، معجم البلدان) .

واطعمها من حضره ، وخرج امية الى الشام فأقام بها عشر سنين ، فكانت هذه اول عداوة وقعت بين هاشم وامية [١] .

وفي ايام هاشم حصل النزاع بين بني عبد مناف وبني عبد الدار من اجل السيطرة على المراتب التي استحوذت عليها بنو عبد الدار ، وقد بينا فيما سبق ما آل اليه ذلك النزاع حيث اصبحت السقاية والرفادة لبني عبد مناف ، واحتفظ بنو عبد الدار باللواء والحجابة ودار الندوة [٢] . ودار الندوة ملك خاص لبني عبد الدار توارثوها حتى آلت الى عكرمة بن عامر بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ، من معاوية بن أبي سفيان فجعلها دار الامارة [٣] ، وقيل ان دار الندوة صارت الى حكيم بن حزام بن خويلد ابن اسد بن عبد العزى بن قصي ، فباعها من معاوية بن ابي سفيان بماية الف درهم ، فلامه معاوية على ذلك وقال : بِعْتَ مكرمة آبائك وشرفهم ، فقال حكيم : ذهبت المكارم إلاّ التقوى . والله لقد اشتريتها في الجاهلية بزق خمر وقد بعتها بماية الف درهم ، واشهدكم ان ثمنها في سبيل الله تعالى فأين المغبون ؟ وقال ابن الكلبي : دار الندوة اول دار بَنَتْ قريش بمكة وانتقلت بعد موت قصي الى ولده الأكبر عبد الدار . [٤]

ووَلَد هاشم بن عبد مناف اربعة نفر وخمس نسوة ، شيبة الحمد وهو عبد المطلب . وكان سيد قريش حتى هلك ، ورقية ، ماتت وهي جارية لم تبرز وامها سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم ابن عدي بن النجار . وأبا صيفي بن هاشم ، واسمه عمرو وهو اكبرهم . وصيفياً ، وامهما هند بنت عمرو بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج . واسد بن هاشم ، وامه قيلة بنت عامر بن مالك

---

(١) ابن سعد : جـ ١ ص ٥٦ / ابن الأثير جـ ٢ ص ١٠ . (٢) ابن سعد : جـ ١ ص ٥٧ .
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٥٧ . (٤) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٥٢٤ .

ابن جذيمة من خزاعة ، ونضله بن هاشم . والشفاء . ورقية وامهم أميمة بنت عدي بن عبد الله بن دينار بن مالك من قضاعة ، والضعيفة بنت هاشم وخالدة بنت هاشم ، وامها ام عبد الله واقدة بنت أبي عدي . وحنة بنت هاشم ، وامها عُدَيّ بنت حُبيّب بن الحارث بن مالك بن حُطيط بن جُشم ابن قسي وهو ثقيف [1] .

وفي حدود ٥٢٤ م وفد هاشم بن عبد مناف على الشام في تجارة له ، فمرض في طريقه إليها ، فتحول الى غزة فمات فيها [2] .

اصحاب الايلاف

ومن اولاد مناف ، نوفل بن عبد مناف ، وهو من اصحاب الايلاف ، قال ابن حبيب : اصحاب الايلاف الذين رفع الله بهم قريشاً ، ونعش فقراءها ، هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل ، بنو عبد مناف [3] . وكل من هؤلاء كان رئيس من يخرج معه ممن يتجر في وجهته ، واشتهر من اولاده ، عدي ، وعامر ، وعمرو ، وعبد عمرو . ويبدو ان نوفل كانت تجارته الى العراق ، وفي احدى رحلاته التجارية توفي في مكان يعرف (بالسلمان) وهو ماء قديم جاهلي في الطريق الى تهامة من العراق [4] ، وقد مات نوفل قبل اخيه المطلب [5] .

ومن بني عبد مناف ، عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، وكان هذا هو الآخر من اصحاب الايلاف ، وكان متجره الى بلاد الحبشة [6] ، وله من الولد ، أمية ، وحبيب ، وعبد أمية ، ونوفل ، وربيعة ، وعبد العزى ، وعبد الله . وتوفي عبد شمس في مكة .

---

(١) ابن سعد : جـ ١ ص ٥٩ — ٦٠ . (٢) الطبري : جـ ٢ ص ١٨١ . (٣) ابن سعيد : المحبر ص ١٦٢ . (٤) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ١٢١ . (٥) البكري : معجم ما استعجم ص ٧٤٥ . (٦) المجد : ص ١٦٢ و ١٦٣ .

ومن بني عبد مناف ، المطلب بن عبد مناف بن قصي ، وكان اكبر من هاشم ومن عبد شمس ، وهو الذي عقد الحلف لقريش من النجاشي في متجرها ، وكان شريفاً في قومه مطاعاً سيداً ، وكانت قريش تسميه الفيض لسماحته ، فولي بعد هشام السقاية والرفادة ، وخرج مرة بتجارة الى ارض اليمن فتوفي بردمان من بلاد اليمن [١] .

عبد المطلب وبنوه

وتولى الرفادة والسقاية بعد وفاة المطلب بن عبد مناف ، عبد المطلب ابن هاشم ، وكان اسمه شيبة ، وهو الذي حفر زمزم ، وكان يحمل الماء من زمزم الى عرفة فيسقي الحاج ، ومن أبرز الحوادث التي حصلت في زمن عبد المطلب ، حملة الأحباش الكبيرة على مكة ، وكان في مقدمة جيش الحبشة فيل كبير ، ويقود تلك الحملة القائد الحبشي (ابرهة) وقد هلك معظم جيش الأحباش نتيجة وباء وبيل اكتسح ذلك الجيش ومزق صفوفه ، وقد اشار القرآن الكريم الى تلك الحادثة في قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وارسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » وبذلك انقذت مكة وذهب عن اهلها الخوف .

وولد عبد المطلب بن هاشم اثني عشر رجلاً وستّ نسوة ، الحارث وهو اكبر ولده وبه كان يكنى ومات في حياة ابيه ، وامــه صَفيَّة بنت جُنيدب بن حجير بن زبّاب بن حبيب بن سُواءه بن عامر بن صعصعة ، وعبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وعلم ، والزبير وكان شاعراً شريفاً ، وإليه أوصى عبد المطلب ، وابا طالب واسمه عبد مناف ، وعبد الكعبة مات ولم يُعقِبَ ، وأمّ حكيم وهي البيضاء ، وعاتكة ، وبرّة ، واميمة ،

---

(١) ابن سعد : ج ١ ص ٦٣ .

واروى ، وامهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة ابن مرة بن كعب بن لؤي ، وحمزة وهو اسد الله واسد رسوله ، شهد بدراً واستشهد يوم احد ، والمقوّم ، وحجلاً واسمه المغيرة ، وصفية وامهم هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، والعبّاس وكان شريفاً عاقلاً مهيباً ، وضراراً وكان من فتيان قريش جمالاً وسخاءً ، ومات أيام أوحى الله الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عقب له ، وقُثَم بن عبد المطلب لاعقب له ، وابا لهب بن عبد المطلب واسمه عبد العزى ويكنى ابا عُتبة ، كنّاه عبد المطلب ابا لهب لحسنه وجماله ، وكان جواداً ، والغيداق بن عبد المطلب واسمه مصعب [1].

وتوفي عبد المطلب بمكة سنة ٥٧٩ م بعد ان عاش نحواً من ثمانين عاماً. وذكر ان وفاته كانت سنة تسع من عام الفيل وللنبي (ص) يومئذ ثماني سنين ، وقيل : بل توفي عبد المطلب وهو ابن ثلاث سنين [2].

بطون قريش

وقريش القبيلة الكبيرة في مكة ، تتألف من بطون أخرى كثيرة منها :

بنو أسد وهم ابناء اسد بن عبد العزي بن قصي ، وهم حي كبير من قريش ، وكانت تلبية بني اسد في الجاهلية إذا حجوا : (لبيك اللهم لبيك ، يا رب أقبلت بنو أسد اهل التواني والوفاء والجلد ، إليك.) [3] ويُعتقد ان لا عقب لعبد العزى إلاّ من أسد [4]. ومن مشاهير هذه القبيلة في الجاهلية عثمان بن الحويرث بن اسد بن عبد العزى ، وورقة بن نوفل بن أسد ، ومن مشاهيرها في الاسلام السيدة الجليلة خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى ، ام المؤمنين عليها السلام ، وحكيم بن حزام بن خويلد بن اسد

(١) ابن سعد : ج ١ ص ٧٤ . ابن هشام : ج ١ ص ١٣٨ . (٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ج ١ ص ٤٠ . (٣) اليعقوبي ج ١ ص ٢٢٥ . (٤) ابن حزم : هجرة الانساب ص ١٠٨ .

ابن عبدالعزى ، ابو خالد وهو ابن اخي السيدة خديجة عليها السلام ، وكان من سادات قريش في الجاهلية والاسلام ، وقد اسلم يوم الفتح ، وكان من أصدقاء النبي (ص) وكان من المؤلفة وشهد حنيناً وأعطي من غنائمها مائة بعير ثم حسن اسلامه ، قال الزبير : جاء الاسلام وفي يد حكيم ابن حزام الرفادة وكان يفعل المعروف ويصل الرحم ، وقيل انه عاش مائة وعشرين سنة شطرها في الجاهلية وشطرها في الاسلام [1] . ومن المشهورين في هذه القبيلة الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي وهو من المسلمين الأولين وشهد بدراً وأحداً وقتل سنة ٣٦ هـ بوادي السباع على بعد سبعة فراسخ من البصرة .

بنو جمح

وبنو جمح ، وهم اولاد جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر [2] ، وكان له من الولد حذافة وسعد ، ومن بني سعد بن جمح ، ابو محذورة وقيل ان اسمه أوس بن معير بن لوذان بن ربيعه بن عريج بن سعد بن جمح ، مؤذن الرسول (ص) [3] . واخوه انيس بن أنيس بن مغير ، قتل يوم بدر كافراً ، ومن بني حذافة ابن جمح ، أمية بن خلف وأخوه أبَيّ بن خلف ، وكانا من المشركين ، وكلدة بن أسيد بن خلف بن حذافة بن جمح ، الذي انزل فيه (لقد خلقنا الانسان في كبد) وجميل بن معمر بن حبيب بن وهب الذي انزل فيه (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) على احد الاقوال [4] .

بنو تيم

وبنو تيم ، وهم أبناء تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر

---

(١) الاصابة : جـ ١ ص ٣٤٨ . (٢) ابن الأثير : اللباب : ص ٢٣٦ . (٣) ابن عبد البر : الاستيعاب / بهامش الاصابة / جـ ٤ ص ١٧٦ . (٤) القلقشندي : نهاية الارب ص ٢٠٣ .

ابن مالك بن النضر ، ومن مشاهير هذه القبيلة ابو بكر ، عبد الله بن ابي قحافة عثمان بن عامر بن كعب ، اول الخلفاء الراشدين والمتوفى سنة ١٣ هـ ، وطلحة بن عبيد الله بن عثمان ، وكان من رجال الشورى الذين عينهم الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ، وقتل في معركة الجمل سنة ٣٦ هـ [١]

بنو خزيمة

وبنو خزيمة ، وهم ابناء خزيمة بن مدركة بن الياس ، من مضر ، وكنيته ابو اسد ، وهو الذي نصب (هبل) على الكعبة ، وكان يقال له : هبل خزيمة ، ومن ابنائه ، عضل بن الهون بن خزيمة بن مدركة ، اختلط بنوه ببني اخ له اسمه « الديش » وسُموا (القارة) لاجتماعهم والتفافهم ، ويذكر القسطلاني : ان القارة بطن من الهون ينسبون الى الديش المذكور[٢] ، ويعتقد البعض الآخر ان الهون ، وعضل ، والقارة ، اخوة الهزيل[٣] ، بينما يرى فريق آخر ان الهون ، وعضل ، حيان في نهاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم[٤] . وهم على ما يظهر بنو زهرة في الجاهلية[٥] . ومن مشاهير هذه القبيلة عبد الرحمن بن عبد القاري ، وهو من ولد القارة بن الديش ، من التابعين الأجلاء في المدينة وعلمائهم ، وكان على بيت المال للخليفة عمر بن الخطاب (رض)[٦] ، وروى عن عمر بن الخطاب ، وروى عنه عروة بن الزبير وحميد بن عبد الرحمن[٧] . واشتهر بنو القارة بإجادة الرمي وفيهم المثل ، وهو من رجز لأحدهم : —

« قد انصف القارة من راماها »[٨]

---

(١) الطبري : حوادث سنة ٣٦ هـ . (٢) القسطلاني : شرح البخاري جـ ٦ ص ٣٧٣ . (٣) ابن دريد : الاشتقاق : ص ١١٠ . (٤) المبرد : الكامل : ص ٦٣٢ . (٥) الزبيدي : تاج العروس جـ ٣ ص ٥١٠ . (٦) الاصابة : جـ ٣ ص ٧٢ . (٧) اللباب : ص ٢٣٥ . (٨) الميداني : مجمع الامثال / جـ ٢ ص ٣١ .

ويورد ابو الفرج الأصفهاني ، قصة وفد عضل ، والقارة ، وقدومهم على الرسول (ص) وغدرهم بعدد من الصحابة ، قال ابو الفرج : — قدم على رسول الله (ص) بعد أحد رهط من عضل والقارة ، فقالوا : يـا رسول الله ، ان فينا اسلاماً وخيراً ، فابعث معنا من اصحابك ، يفقهونا في الدين ، ويقرئونا القرآن ، ويعلمونا شرائع الاسلام ، فبعث رسول الله (ص) معهم نفراً ستة من أصحابه : مَرْثَد بن ابي مرثد الغنوي ، حليف حمزة بن عبد المطلب ، وخالد بن البكير ، حليف بني عدي بن كعب ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح اخا بني عمرو بن عوف ، وخبيب بن عدي اخا بني جَحْجَبَى بن كُلفة بن عمرو بن عوف ، وزيد بن الدَّثِنَّة ، اخا بني بياضة بن عامر ، وعبد الله بن طارق حليفا لبني ظفر من بَلِيّ ، وأمَّر رسول الله (ص) عليهم مرثد بن أبي مرثد ، فخرجوا مع القوم ، حتى إذا كانوا على الرجيع [1] غدروا بهم واستصرخوا عليهم هُذيلاً فلم يُرَع القوم وهم في رحالهم إلاّ بالرجال وفي ايديهم السيوف قد غَشُوهم ، فأخذوا اسيافهم ليقاتلوا القوم ، فقالوا : إنا والله ما نريد قتلكم ولكنا نريد ان نصيب بكم شيئاً من اهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقُه ألا نقتلكم . فأمَّا مَرْثَد بن أبي مَرْثَد ، وخالد بن البُكير ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، فقالوا : إنا والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً ابداً . فقاتلوهم حتى قتلوهم جميعاً . واما زيد بن الدَّثِنَّة وخُبَيْب بن عدي ، وعبد الله ابن طارق فلانوا ورقوا ورغبوا في الحياة وأعطوا بأيديهم ، فأسروهم ، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها ، حتى إذا كانوا بالظهران [2] ، انتزع عبد الله بن طارق يده من القِران [3] ، ثم أخذ سيفه واستأخر عن القوم ،

(١) الرجيع : ماء لهذيل قرب الهدءة بين مكة والطائف ، ياقوت الحموي : جـ ٢ ص ٧٥٦ .
(٢) الظهران : واد بين مكة والمدينة . (٣) القران : الحبال .

فرموه بالحجارة حتى قتلوه ، فقبره بالظهران . اما خبيب بن عدي وزيد ابن الدثنة فقدموا بهما مكة فباعوهما [١] .

بنو زهرة

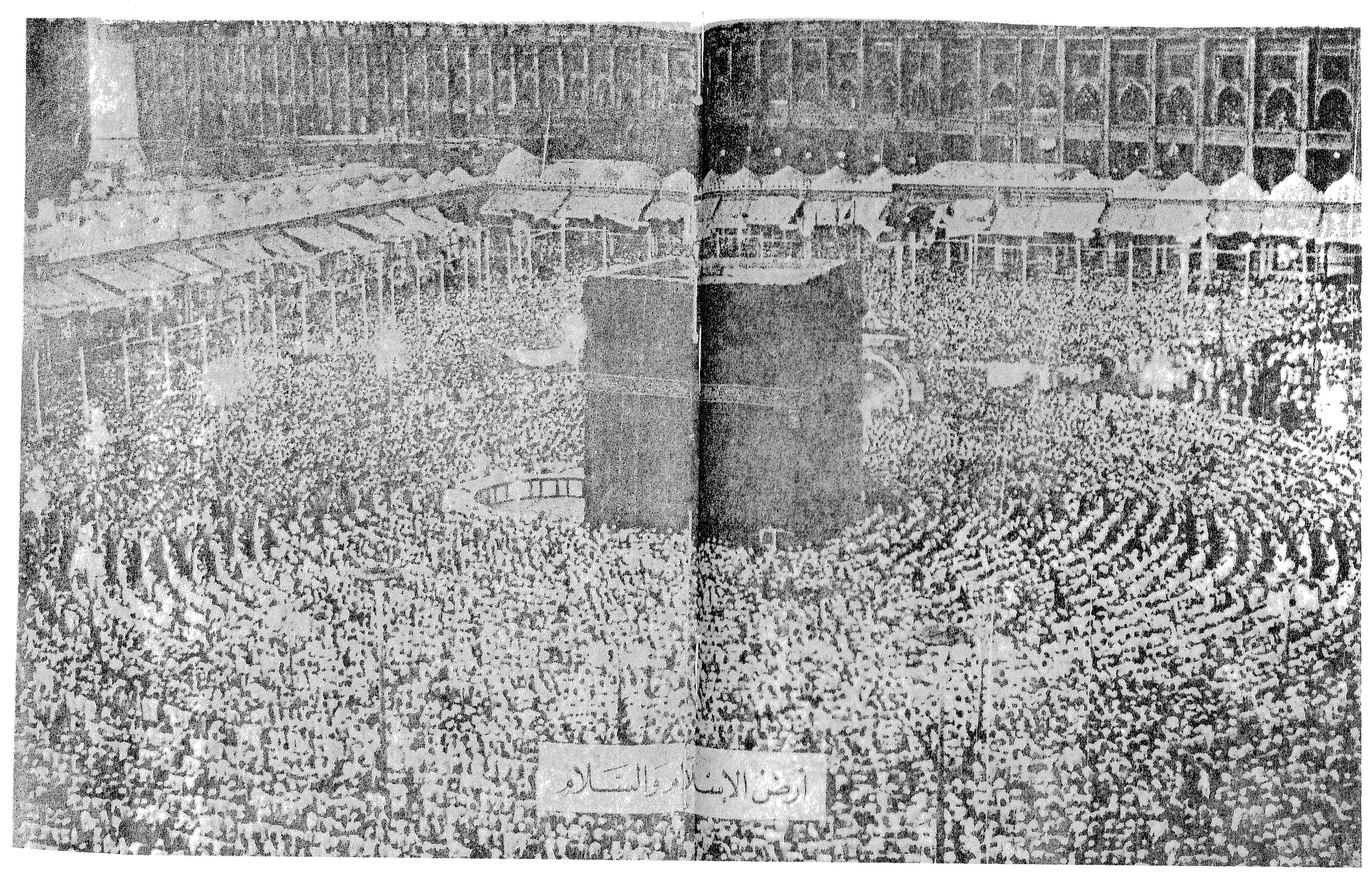
وبنو زُهرة ، وهم ابناء زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي [٢] ، ومن مشاهير بني زهرة ، عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث الزهري القرشي ، من صحابة رسول الله (ص) واحد الستة اصحاب الشورى الذين عينهم عمر بن الخطاب (رض) ، وكان اسمه قبل اسلامه (عبد الكعبة) وسماه رسول الله (ص) عبد الرحمن ، وقيل كان اسمه (عبد عمرو) [٣] .

ومن مشاهير بني زهرة سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف الزهري ، وهو احد الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب (رض) لمجلس الشورى ، اسلم وهو ابن ١٧ سنة وشهد بدراً ، وقاد جيش المسلمين في موقعة القادسية والتي انتصر فيها المسلمون انتصاراً رائعاً على الدولة الساسانية وفتحوا العراق ، مات في قصره بالعقيق وحمل الى المدينة وذلك سنة خمس وخمسين للهجرة .

ومن رجالات بني زهرة المعروفين محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري ، رأى عشرة من اصحاب النبي (ص) وروى عنه جماعة منهم مالك وابن عيينة والثوري [٤] . ويعتبر محمد بن مسلم اول من دون الحديث واحد اكابر الحفاظ والفقهاء [٥] ، ونزل محمد بن مسلم الزهري

---

(١) ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني ج ٤ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ . (٢) اللباب : ج ١ ص ٥١٣ . (٣) الاصابة : ج ٢ ص ٤٠٨ . (٤) اللباب : ج ١ ص ٥١٣ . (٥) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٠٢


أرض الإسلام والسلام

مدينة الشام واستقر بها ، وحضرته الوفاة في ضيعته المعروفة (شَغْب) وهي خلف وادي القرى وبها قبره [١] .

بنو سهم

وبنو سهم ، أولاد سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤي [٢] ، ومن مشاهيرهم ، العاص بن وائل بن هاشم السهمي ، أدرك الاسلام وظل على الشرك ، وكان على رأس بني سهم في حرب الفجار ، وكان من المستهزئين ، وهو القائل لما مات القاسم ابن النبي (ص) ان محمداً ابتر لا يعيش له ولد ذكر ،فأنزل (ان شانئك هو الأبتر) [٣] . ومن مشاهير بني سهم ، منبه بن الحجاج السهمي ، وكان ادرك الاسلام ووقف مواقف عدائية للمسلمين ، وهو نديمٌ لطعيمة بن عدي بن نوفل من رؤساء قريش في الجاهلية ، وقد قتل الامام علي بن ابي طالب ، طعيمة بن عدي في موقعة بدر [٤] ، وقَتَل منبه بن الحجاج ، ابو اليَسَر ، اخو بني سلمة [٦] في تلك الوقعة ايضاً .

ونبيه بن الحجاج بن عامر أخو منبه بن الحجاج ، كان نديماً للنضر بن الحارث ، وقتل مشركاً في وقعة بدر ، قتله حمزة بن عبد المطلب [٦] .

ومن مشاهيرهم في الاسلام ، هشام بن العاص بن وائل بن هاشم ، من المسلمين الأقدمين ، وهاجر الى بلاد الحبشة في الهجرة الثانية ، ثم عاد الى مكة حين علم بهجرة الرسول (ص) الى المدينة ، وقتل في موقعة اجنادين [٧] .

---

(١) ابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ٢٦٢ . ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٠٢
(٢) اللباب : جـ ١ ص ٥٨٠ . (٣) الكامل : جـ ٢ ص ٤٩ . (٤) ابن هشام السيرة جـ ١ ص ٧٠٩ . ويقال : حمزه بن عبدالمطلب . (٥) المرجع السابق ص ٧١٢ . (٦) المرجع السابق ص ٧١٢ .
(٧) الاصابة / جـ ٣ ص ٥٧٢ .

ومن بني سهم عمرو بن العاص أخو هشام بن العاص وكان من المعارضين للرسول محمد (ص) وللمسلمين ، واسلم بعد معاهدة الحديبية ، شارك في فتوح الشام وولاه الخليفة عمر بن الخطاب فلسطين ثم مصر ، وعزله الخليفة عثمان بن عفان ، وأيد عمرو بن العاص معاوية بن أبي سفيان ضد الامام علي بن ابي طالب ، ومات في مصر سنة ٤٣ هـ .

بنو عدي

وبنو عدي ، وهم ابناء عدي بن كعب بن مرة ، وكان له من الولد رزاح وعويج ، فمن بني (رزاح) الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ومن بني عويج ، نعيم بن عبد الله المعروف بالنحام [1] .

ومن مشاهير بني عدي في الجاهلية ، زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى ، وكان مشهوراً بالاتزان والحكمة وسعة الصدر ، ويعتبر نصيراً للمرأة في الجاهلية ، وإنه اعتزل عبادة الأوثان وامتنع من اكل ذبائحهم ، وكان إذا خلص الى البيت استقبله ثم قال : — لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورِقاً ، البِرَّ ارجو لا الخال [2] ، وهل مهجِّرٌ [3] كمن قال :

عُذت بمـــا عاذ به ابـــراهـِيم
مُستَقبِلُ الكعبة وهـــو قائمُ

يقول انفي لك عانِ راغمُ
مهما تُجشّمني فـــإني جاشمُ [4]

ورحل الى الشام باحثاً عن عبادات اهلها ، فلم تستهوه اليهودية ولا المسيحية ، ورجع الى مكة يعبد الله على دين ابراهيم ، وجاهد بعداء الاوثان [5] ،

---

(١) نهاية الارب : ص ٣٣١ . (٢) الخال : الخيلاء . (٣) المهجر : السائر في الهاجرة .
(٤) الاغاني : جـ ٣ ص ١٢٣ — ١٢٤ . (٥) الاصابة : جـ ١ ص ٥٥٢ .

فتألب عليه جمع من قريش ، فأخرجوه من مكة ، فانصرف الى (حراء) فسلط عليه عمه الخطاب ابن نفيل جماعة من قريش منعوه من دخول مكة فكان لا يدخلها إلاّ سراً ، وكان يعارض فكرة وأد البنات ، ولا يعلم ببنت يراد وأدها إلاّ قصد أباها وكفاه مؤونتها ، فيربيها حتى إذا ترعرعت عرضها على ابيها فان لم يأخذها بحث لها عن كفؤ فزوجها به[١] . وتوفي زيد قبل مبعث النبي (ص) بخمس سنين .

ومن بني عدي الخليفة عمر بن الخطاب ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، هاجر الى المدينة وشارك في معظم الغزوات وكان من ذوي الرأي والبسالة ، وشهد اليرموك ، وولاه القائد ابو عبيدة عامر بن الجراح ، ولاية دمشق ، وكانت وفاته في المدينة سنة احدى وخمسين للهجرة[٢] .

بنو عبد شمس

وبنو عبد شمس ، ابناء عبد شمس بن عبد مناف بن قصي كان له من الولد : أمية ، وحبيب ، وعبد أمية ، ونوفل ، وربيعة ، وعبد العزى وعبد الله[٣] . وعبد شمس من اصحاب الايلاف ، وكان متجره الى الحبشة[٤] ، ومن اشهر اولاده امية الذي كانت له القيادة بعد وفاة ابيه[٥] ، وقد شارك امية بن عبد شمس مع عبد المطلب بن هاشم ، وخويلد بن اسد في وفد التهنئة الذي اوفدته قريش الى سيف بن ذي يزن في اليمن[٦] .

ومن بني عبد شمس ، صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس (ابو سفيان) وهو والد معاوية بن ابي سفيان ، كان من اشد المشركين حرباً للرسول والمسلمين ، قاد جيوش قريش في موقعة أحد سنة ٣ هـ وفي موقعة

---

(١) الاصابة : جـ ١ ص ٥٥٢ . (٢) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٤٤ . (٣) نهاية الارب : ص ٣١٦ . (٤) ابن سعيد : المحبر ص ١٦٢ . (٥) الأزرقي : اخبار مكة / جـ ١ ص ٧١ . (٦) المرجع السابق جـ ١ ص ٩٩ .

الخندق سنة ٥ هـ ، واعلن اسلامه بعد فتح مكة سنة ٨ هـ ، كما اسلم ولداه معاوية ويزيد في السنة نفسها وهم جميعاً من الطلقاء .

بنو عبد المطلب

وبنو عبد المطلب ، اولاد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، وهو من أشهر زعماء قريش في الجاهلية ، امتاز بالحلم [1] وسعة الصدر ، وفصاحة اللسان ، وكانت له السقاية والرفادة ، [2] وفي ايامه كانت محاولة الاحباش في غزو مكة . مات بمكة سنة تسع من عام الفيل وللنبي (ص) يومئذ ثمان سنين [3] على بعض الروايات .

ومن اشهر اولاد عبد المطلب ، (ابو طالب) عبد مناف بن عبد المطلب ابن هشام ، عم النبي (ص) وكافله ومربيه ومناصره ، كان من ابطال قريش ومن الخطباء العقلاء الأباة ، نشأ الرسول محمد (ص) في بيته ، ودافع بقوة عن الرسول محمد في وقت كانت فيه قريش تتفنن في اذى الرسول واضطهاد المسلمين وتحاول كل جهدها في القضاء على الفكرة الاسلامية . ومن اولاده المشهورين ، الامام علي بن ابي طالب (ع) وجعفر شهيد معركة مؤتة ، وعقيل ، وقد امتاز عقيل بن ابي طالب بفصاحة اللسان ، وانه من اعلم قريش بأيامها ، ومآثرها ، ومثالبها ، وأنسابها ، برز اسمه في الجاهلية وكان في قريش اربعة يتحاكم الناس إليهم في المنافرات : عقيل بن ابي طالب ، ومخرمة بن نوفل ، وحويطب بن عبد العزى ، وعامر بن حذيفة ، والى عقيل ينتسب بنو عقيل .

ومن اولاد عبد المطلب المشهورين بالشجاعة والشهامة وبصدق الجهاد ومضاء العزيمة ، حمزة بن عبد المطلب ، ابو عمارة ، وقد علم يوماً ان أبا

---

(١) ابن سعد : الطبقات جـ ١ ص ٦٣ . (٢) سيرة ابن هشام : جـ ١ ص ١٤٢ . (٣) ابن سعد : جـ ١ ص ١٠٠ . عيون الأثر : جـ ١ ص ٤٠ .

جهل تعرض للنبي (ص) ونال منه ، فقصده حمزة بن عبد المطلب وضربه ، وقدم على الرسول (ص) واظهر اسلامه ، وهاجر مع الرسول وجاهد جهاداً صادقاً في موقعة بدر ، وكان شعار حمزة في الحرب ريشة نعامة يضعها على صدره [١] ، وفي بدر انتصر على عدو الاسلام شيبة بن ربيعة وقتله ، وشارك في قتل عتبة بن ربيعة وقتل طعيمة بن عدي ، وشارك في معركة أحد واستشهد فيها .

والعباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، من الشخصيات البارزة في بيت عبد المطلب خاصة وقريش عامة ، وإليه ينتسب الخلفاء العباسيون ، كان ممن حضر بيعة العقبة مع الانصار قبل اسلامه ، وشهد بدراً مع المسلمين مكرها فافتدى نفسه وافتدى ابن اخيه عقيل بن ابي طالب ، ويقال انه اسلم وكتم اسلامه وصار يكتب الى الرسول (ص) بالاخبار ثم هاجر قبل الفتح بقليل وشهد الفتح وثبت يوم حنين ، مات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين للهجرة [٢] . ومن اشهر اولاده (عبد الله) ويعرف (حبر الأمة) ونشأ في بدء عصر النبوة وكان ممن لازم الرسول (ص) وروى عنه الاحاديث الصحيحة . ولد في شعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين [٣] ، وقد امتاز عبد الله بن العباس بطلب العلم وتعليم الناس وتفقيههم في امور دينهم [٤] ، وشهد عبد الله بن العباس الجمل ، وصفين ، والنهروان ، مع الامام علي بن أبي طالب (ع [٥]) ، وكان عاملاً على البصرة في خلافة الامام علي (ع) [٦] . وتوفي ابن عباس سنة ثمان وستين للهجرة بالطائف وصلى عليه محمد بن الحنفية ، وكبر عليه اربعاً وقال : « اليوم مات رباني هذه الأمة » وضرب على قبره فسطاطاً [٧] . وكان عبد الله بن عباس قد عمي

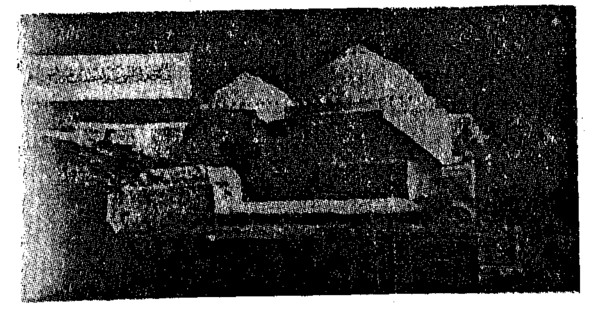
---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين : ج ٣ ص٥٣ . (٢) ابن حجر : الاصابة ج ٢ ص ٢٦٣ . (٣) الصفدي : نكت الهميان ص ١٨٠ . (٤) ابن سعد : الطبقات ج ٤ ص ١٨٠—١٨٧ . (٥) الصفدي : ص ١٨٢ . (٦) ابن الأثير : الكامل : ج ٣ ص ١٩٤ و ٢٠٠ . (٧) الصفدي : ص ١٨٠ .

آخر عمره ، وقال له يوماً معاوية بن ابي سفيان : ما بالكم تُصابون في ابصاركم يا بني هاشم؟ فقال له : كما تصابون في بصائركم يا بني أمية .

ومن أولاد عبد المطلب (ابو لهب) عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم وهو يُعد من الشخصيات الكبيرة في العصر الجاهلي كما كان من اشد المشركين أذى للرسول محمد ولأصحابه [٢] ، وفيه نزل قوله تعالى : (تبت يدا أبي لهب ، وتب ، ما اغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمّالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد) ، وكان من المستهزئين بالرسول والمسلمين ، عظيم التكذيب له دائم الأذى ، فكان يطرح العذرة والنتن على باب النبي (ص) وكان جاره ، فكان رسول الله (ص) يقول : أي جوار هذا يا بني عبد المطلب ، فرآه يوماً حمزة فأخذ العذرة وطرحها على رأس أبي لهب ، فجعل ينفضه عن رأسه ويقول : صاحبي احمق ، واقصر عما كان يفعله لكنه يضع من يفعل ذلك . ومات ابو لهب بمكة عند وصول الخبر بانهزام المشركين ببدر بمرض يعرف بالعدسة .

وعبد الله ، هو اصغر اولاد عبد المطلب بن هاشم ، ابو قُثَم ، الملقب بالذبيح والد رسول الله محمد (ص) وكان ابوه قد نذر لئن ولد له عشرة ابناء وشبوا في حياته لينحرن احدهم عند الكعبة ، فشب له عشرة ، فذهب بهم الى هُبل ، فضربت القداح بينهم ، فخرجت على عبد الله ، وكان أحبهم إليه ففداه بمئة من الابل ، فكان يعرف بالذبيح . وزوّجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ، وكان عبـــد الله يمتهن التجارة ، وخرج عبد الله بن عبد المطلب الى الشام في قافلة من قوافل قريش يحملون تجارات ، ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا ، فمرو بالمدينة وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض ، فقال انا اتخلف عن



(١) المرجع السابق ص ١٨٢ .
(٢) ابن سعيد : المجد / ص ١٥٧ .

اخوالي بني عديّ بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً شهراً ، ومضى أصحابه ، فقدموا مكة ، فسألهم عبد المطلب عن عبد الله فقالوا : ـ خلفناه عند اخواله بني عدي بن النجار وهو مريض ، فبعث إليه عبد المطلب اكبر ولده الحارث فوجده قد توفي ، ودفن في دار النابغة . وكان لعبد الله يوم توفي خمس وعشرون سنة ، ورسول الله (ص) يومئذ حَمْل [1] .

بنو عامر

وبنو عامر ، وهم اولاد عامر بن لؤي بن غالب من قريش ، كان له من الولد ، حسل وبغيض ، فمن بني حسل سهيل بن عمرو [2] ، وسهيل خطيب قريش واحد سادتها في الجاهلية ، اسره المسلمون في معركة بدر وافتُدي ، وقد أوفدته قريش لمفاوضة محمد (ص) وابرام صلح معه ، ذلك الذي عرف في التاريخ بصلح الحديبية ، في السنة السادسة من الهجرة النبوية ، وأسلم يوم الفتح في السنة الثامنة ، مات بالطاعون في الشام سنة ثمان عشرة للهجرة [3] ، وذكر ان سهيل بن عمرو كان عند البيت الحرام لما فتح الرسول محمد (ص) مكة ودخل البيت ثم خرج فوضع يده على عضادتي الباب فقال : ماذا تقولون ؟. فقال سهيل بن عمرو : نقول خيراً ونظن خيراً ، أخ كريم وابن اخ كريم . ويروى ايضاً ان عمر بن الخطاب قال للنبي (ص) دعني انزع ثنيتي سهيل بن عمرو فلا يقوم علينا خطيباً ، فقال : « دعها فلعلها أن تسرك يوماً » فلما مات النبي (ص) ، قام سهيل ابن عمرو ، فقال : من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت .

ومن بني عامر ، عمرو بن عَبْد وَدّ ، كان فارس قريش الكبير ،

(١) ابن سعد : الطبقات جـ ١ ص ٨٣ . ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٥ . (٢) نهاية الارب : ص ٣٠٦ - ٣٠٧ . (٣) ابن الاثير : جـ ٢ ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

خرج يتقدم صفوف قريش الى قتال المسلمين في معركة الخندق سنة خمس للهجرة [١] ، وتقدم الى صفوف المسلمين متحدياً وطالباً البراز ، فخرج إليه بطل الاسلام الكبير الامام علي بن ابي طالب (ع) وانتصر عليه وصرعه [٢] ، وكان لانتصار الامام علي الأثر الكبير في كسب انتصار موقعة الخندق لصالح المسلمين .

ومن بني عامر ، عمرو بن أم مكتوم ، وكان عمرو وهو مؤذن الرسول (ص) وامه أم مكتوم اسمها عاتكة بنت عبد الله بن عاتكة بن عامر بن مخزوم [٣] ، وهو ابن خال خديجة أم المؤمنين [٤] ، وكان ممن قدم المدينة مع مصعب بن عُمير قبل رسول الله (ص) ، واستخلفه الرسول (ص) على المدينة في غزواته ثلاث عشرة مرة ، واستخلفه في خروجه الى حجة الوداع وشهد القادسية ومعه اللواء وقتل بها شهيداً ، وقال الواقدي : رجع الى المدينة ومات بها سنة خمس عشرة [٥] . وابن ام مكتوم هو المذكور في سورة (عبس وتولى) ونزلت فيه (غير اولي الضرر) لما نزلت (لا يستوي القاعدون) [٦] . واختلف في اسمه ، فأهل المدينة يقولون اسمه عبد الله ، واما اهل العراق فيقولون عمرو [٧] .

ومن بني عامر ، عبد الله بن سهيل بن عمرو ، وهو من الذين هاجروا الى الحبشة [٨] ، ويروى ان والده سهيل بن عمرو أخذه بعد ان رجع من الحبشة ففتنه عن دينه فأظهر الرجوع وخرج مع قريش الى بدر ، ففر الى المسلمين وكان احد الشهود بعد ذلك في صلح الحديبية ، ودخل مع المسلمين يوم فتح مكة ، وهو الذي اخذ الأمان لأبيه ، وشارك عبد الله بن سهيل مع

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢١٤ . (٢) المرجع السابق / ج ٢ ص ٢٢٥ . (٣) نكت الهميان : ص ٢٢١ . (٤) الاصابة : ج ٢ ص ٥١٦ / نكت الهميان ص ٢٢١ . (٥) نكت الهميان : ص ٢٢١ . (٦) الاصابة / ج ٢ ص ٥١٧ . (٧) الطبري : ذيل المذيل ص ٢٦ و ٤٧ .
(٨) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٣٢٩ .

المسلمين في حروب الردة ، واستشهد في معركة اليمامة [١] .

ومن الطريف ان من بني عامر ، عبد الله بن مخرمة بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن عامر بن لؤي القرشي العامري ، كان ممن هاجر الى الحبشة واستشهد هو الآخر في معركة اليمامة [٢] .

ومن بني عامر ، من هاجر الى الحبشة وشارك في معركة بدر واستشهد في معركة اليمامة ، سليط بن عمرو بن عبد شمس العامري [٣] .

ومن بني عامر ، ابو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى العامري ، من المسلمين الأولين ، وهاجر إلى الحبشة ومعه أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو ، وعاد الى المدينة وشهد بدراً ، وأقام بمكة بعد وفاة الرسول (ص) الى ان مات في خلافة عثمان بن عفان ، ولا يعلم احد من اهل بدر رجع الى مكة غيره [٤] .

بنو مخزوم

ومن قبائل قريش المشهورة ، بنو مخزوم ، اولاد مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ، وكان له من الولد عمرو وعمران وعامر [٥] ومن مشاهير بني مخزوم في الجاهلية هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر المخزومي ، وكانت قريش وكنانة ومن والاهم يؤرخون بثلاث حوادث ، : بناء الكعبة ، وعام الفيل ، وبموت هشام ، وهو قريب عهد من البعثة النبوية ، وصار ولده (الحارث) من الصحابة ، وشهد معركة بدر مع المشركين وكان فيمن انهزم [٦] ، واسلم يوم فتح مكة ، وخرج الى الجهاد

---

(١) الاصابة : جـ ٢ ص ٣١٤ — ٣١٥ . (٢) ابن هشام : السيرة جـ ١ ص ٣٢٩ . الاصابة : جـ ٢ ص ٣٥٧ . (٣) ابن هشام / جـ ١ ص ٣٢٩ . الاصابة / جـ ٢ ص ٧٠ . (٤) ابن هشام : السيرة / جـ ١ ص ٣٢٩ . الاستيعاب / جـ ٤ ص ٨٢ . (٥) نهاية الارب / ص ٣٧٩ . (٦) الاصابة / جـ ١ ص ٢٩٣ .

في فتوح الشام ، ومات في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ[١] ، وهو اخو أبي جهل[٢] .

ومن بني مخزوم الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ، من قضاة العرب في الجاهلية ومن زعماء قريش ، وكان على جانب كبير من الثراء ، وكانت قريش جميعها تكسو البيت جميعها ، والوليد يكسوه وحده[٣] ، وعندما بدأت قريش في تهديم الكعبة بقصد بنائها ، كان الوليد بن المغيرة المخزومي أول من ضرب فيها بمعول[٤] . وادرك الاسلام واعلن حربه الشديدة على المسلمين ، وقاوم الدعوة مقاومة عنيفة . وكان يقول : أيُنزل على محمد وأترك ، وأنا لبيب قريش وسيدها ، ويترك ابو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ، ونحن عظيما القريتين[٥] . فأنزل الله تعالى فيه (وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) الى قوله تعالى : — (خيرٌ مما يجمعون)[٦] . ومات الوليد بن المغيرة بعد الهجرة النبوية بثلاثة اشهر[٧] .

ومنهم الوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ، وهو أخو خالد بن الوليد ، ادرك الاسلام ولكنه ظل على وثنيته ، وحارب المسلمين في موقعة بدر فأسره المسلمون ، فافتداه اخواه هشام وخالد ، فلما افتدي اسلم وعاتبوه في ذلك ، فقال : ما كنت لأسلم حتى أفتدى ، ولا تقول قريش إنما اتبع محمداً فراراً من الفداء ، وحبسه اخواه ثم أفلت من أسرهم ولحق بالنبي (ص) ومات بالمدينة في حدود السنة السابعة للهجرة[٨]

ومن مشاهير بني مخزوم ، عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي المعروف

---

(١) الاصابة / جـ ١ ص ٢٩٣ . (٢) الاستيعاب / جـ ١ ص ٣٠٧ . (٣) ابن الأثير / الكامل / جـ ٢ ص ٤٨ . (٤) اليعقوبي / جـ ٢ ص ١٤ . (٥) النويري : نهاية الارب / جـ ١٦ ص ٢٧٣
(٦) سورة الزخرف الآية ٣١ – ٣٢ . (٧) ابن الأثير : جـ ٢ ص ٤٨ . (٨) الاصابة جـ ٣ ص٠٣

بأبي جهل ، وكان اشد الناس عداوة للنبي (ص) وأكثرهم اذى له ولاصحابه [١] ومن جرائمه في حق المسلمين انه قتل السيدة الجليلة سمية ام عمار بن ياسر ، وكانت قريش تهابه وتقدمه ، فقد سوّدته ولم يطرّ شاربه وادخلته دار الندوة مع الكهول [٢] .

واورد ابن هشام قصة استماع أبي سفيان وأبي جهل والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، حليف بن زهرة ، للرسول (ص) وهو يصلي من الليل في بيته ، فسأل الأخنس بن شريق أبا جهل عن رأيه فيما سمعه من محمد (ص) ؟ فقال ابو جهل : ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذينا على الرُّكَب ، وكُنّا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبيّ يأتيه الوحيُ من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ، ولا نصدقه [٣] .

وخرج ابو جهل مع المشركين الى قتال المسلمين في السنة الثانية للهجرة حيث وقعت معركة بدر الخالدة والتي انتصر فيها المسلمون انتصارهم الرائع وهلك فيها كبار مشركي مكة وفي مقدمتهم ابو جهل ، قتله مُعوّذ ابن عفراء وعبدالله بن مسعود [٤] ، وبذلك يكون المسلمون قد تخلصوا من عدو لدود لهم .

ومن شخصيات بني مخزوم ، الاسود بن عبد الأسد المخزومي وكان رجلاً شرساً سيّء الخلق ، ومن كبار مشركي مكة ، خرج لقتال المسلمين في بدر ووقف امام المشركين يقول : أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، او لأهدمنه ، او لأموتن دونه ، فلما خرج ، خرج اليه حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطَنّ قدمه بنصف ساقه ،

---

(١) ابن الأثير / جـ ٢ ص ٤٩ . (٢) عيون الاخبار / جـ ١ ص ٢٣٠ . (٣) ابن هشام : السيرة / جـ ١ ص ٣١٥ – ٣١٦ . (٤) المرجع السابق / جـ ١ ص ٦٣٤ و ٦٣٥ .

وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه ، ثم حبا الى الحوض ، حتى اقتحم فيه ، يريد ان يُبرّ يمينه ، وأتبعه حمزة فضربه ، حتى قتله في الحوض[١] .

ومن بني مخزوم ، خالد بن الوليد بن المغيرة ، وكان من المشركين المعادين للاسلام والمسلمين ، وقاتل المسلمين في عدة مواقع وكان الذي يقود ميمنة قريش في معركة احد[٢] ، وكان يتربص بالرماة الذين وضعهم الرسول (ص) على جبل أحد ، وتمكن من السيطرة على الجبل وقتله المسلمين . وأسلم خالد بن الوليد قبل فتح مكة بقليل ، فقد ورد عن عمرو بن العاص قوله : ثم خرجت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأسلم ، فلقيتُ خالد بن الوليد ، وذلك قبيل الفتح ، وهو مقبل من مكة[٣] . ويؤيد هذا القول ما جاء في كتاب الاصابة ، من ان خالد ابن الوليد أسلم في سنة سبع بعد موقعة خيبر وقيل قبلها[٤] ، وساهم خالد في الجهاد وشارك في معركة مؤتة ، وحارب المرتدين في اليمامة ، وأمره الخليفة ابو بكر بالتوجه الى فتح العراق ، كما شارك في فتوح الشام ، وعزله الخليفة عمر بن الخطاب حين تولى الخلافة سنة ١٣ هـ[٥] . ومات بحمص سنة ٢١ هـ[٦] .

بنو الحارث

وبنو الحارث ، بطن من قريش وهم ابناء الحارث بن فهر بن مالك ابن النضر ، وكان للحارث هذا من الولد ضبة وضرب والخلج[٧] . ومن

(١) ابن هشام / السيرة جـ ١ ص ٦٢٤ . (٢) ابن الأثير : الكامل : جـ ٢ ص ١٠٥ .
(٣) ابن هشام : السيرة / جـ ١ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ . (٤) الاصابة : جـ ١ ص ٤١٢ — ٤١٣ .
(٥) الواقدي / فتوح الشام / جـ ١ ص ٥٨ . (٦) ابن الأثير : جـ ٣ ص ١٠ . (٧) نهاية الارب : ص ٤٨ — ٤٩ .

مشاهيرهم ، ابو عبيدة عامر بن الجراح ابن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث ، من الصحابة الكرام ، وكان اسلامه هو وعثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن عوف وابو سلمة بن عبد الأسد في ساعة واحدة ، وذلك قبـــل دخول النبي دار الارقم بن ابي الأرقم [١] . وشهد معظم الغزوات الاسلامية ، وقيل انه قتل اباه في موقعة بدر [٢] ، وكان احد قادة فتوح الشام زمن الخليفة ابي بكر (رض) [٣] ، وان عمر بن الخطاب اول ما تولى الخلافة أمر بعزل خالد بن الوليد وتولية ابي عبيدة عامر بن الجراح القيادة العامة [٤] . وتوفي بطاعون عمواس سنة ثمان عشرة للهجرة وهو ابن ثمان وخمسين سنة [٥] .

تلك جولة عامة في تاريخ القبائل العربية التي استوطنت مكة منذ اقدم العصور وحتى انبثاق فجر الاسلام .

---

(١) الاصابة : جـ ٢ ص ٢٤٣ . (٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٤٤ . (٣) الواقدي : فتوح البلدان جـ ١ ص ٨ . (٤) المرجع السابق / جـ ١ ص ٥٩ . (٥) البلاذري / ص ١٤٦ .

مكة في أشهر الرحلات العربية

كتبه

الدكتور صفاء خلوصي

دكتوراه من جامعة لندن والأستاذ بكلية التربية
من جامعة بغـــداد



مكة في رحلة ابن جبير*

لم يأل الرحالة العرب جهداً في الاهتمام بالعتبات المقدسة ولا سيما مكة والمدينة وكربلاء والنجف والكاظمين ، وعلى رغم أهمية ما ورد من معلومات حولها جميعاً فاننا سنخص بالذكر في هذا الفصل مكة والكاظمين فحسب تاركين عداهما لكتاب آخر أو مناسبات أخرى ، ولنبدأ بمكة في رحلة ابن جبير الاندلسي البلنسي (ت ٥٣٩ هـ — ١١٤٤ م — ٦١٤ هـ — ١٢١٧ م)[1] يقول في باب « عدل صلاح الدين » :

---

* تختلف الرحلات في مضامينها وأخبارها اختلافاً يخرج بعضها عن حيز الواقع ويميل به الى الرواية التي لا ينسجم مضمونها والحوادث التاريخية ، والواقع العلمي الذي نعتمده في تأليف موسوعة العتبات المقدسة ، وقد رأينا ان ننقلها كما هي وكما وردت في كتب الرحالة كنماذج لما يورده الرحالون في كتبهم ليأخذ منها القارىء الواقع ويصفح عن غير الواقع الذي لا يضيع عليه ، ثم ان هذه الرحلات ليست كل الرحلات التي قام بها الرحالون الى مكة ، وانما هي اشهر الرحلات واهمها في التاريخ العربي .
الخليلي

(١) اورد ابن جبير ذكر مكة في الصفحات الآتية من رحلته : ٣١، ٣٤، ٥٣، ٥٧، ٦١، ٧٣، ٧٦، ٨٠، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ٨٩، ٩٣، ٩٦، ٩٩، ١٠٢، ١٠٦ — ١١٠، ١١٥، ١١٩، ١٢٢ — ١٢٦، ١٣١، ١٣٦ — ١٣٩، ١٤٣، ١٤٨ — ١٥٠، ١٥٦، ١٦١، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٩، ٢٠٠، ٢١٣، ٢٩٩، ٣١٧، ٣٢٠ (طبعة دار صادر ، دار بيروت ، ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م) .

ومن مفاخر هذا السلطان المُزْلفة[1] من الله تعالى وآثاره التي ابقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا : ازالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين ، فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استيدائها عَنَتاً مجحفاً ويسامون فيها خطة خسف باهظة ، وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته او لا نفقة عنده فيُلزَم اداء الضريبة المعلومة ، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس ، ويعجز عن ذلك ، فيُتناوَل بأليم العذاب بعَيْذاب ؛ فكانت كاسمها مفتوحة العين ، وربما اختُرِع له من انواع العذاب التعليق من الانثيين او غير ذلك من الامور الشنيعة ، نعوذ بالله من سوء قَدَره ؛ وكان بجُدّه امثال هذا التنكيل واضعافه لمن لم يؤد مكسه بعيذاب ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الأداء ، فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين ودفع عوضاً منه ما يقرم مقامه من اطعمة وسواها ؛ وعُيّن مَجْبيّ موضع معين بأسره لذلك وتكفل بتوصيل جميع ذلك الى الحجاز ، لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة عمرهما الله ، فعوّض من ذلك اجمل عوض ، وسهّل السبيل للحجّاج وكانت في حيّز الانقطاع وعدم الاستطلاع ، وكفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطباً أليماً .

وتحت عنوان : « ذكر ما استدرك خبره مما كان أغفل » يقول (ص ٣٤) :

انّا لما حللنا الاسكندرية في الشهر المؤرخ اولاً عاينا مجتمعاً من الناس عظيماً بروزاً لمعاينة اسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم الى اذنابها وحولهم الطبول والأبواق ، فسألنا عن قصتهم فأخبرنا بأمر تتفطر له الأكباد اشفاقاً وجزعاً ؛ وذلك ان جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب في اقرب المواضع التي لهم من بحر القُلزُم (اي البحر الأحمر)

(١) اي المقربة .

ثم حملوا انقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه ، فلما حصلوا بساحل البحر سمّروا مراكبهم واكملوا انشاءها وتأليفها ودفعوها في البحر وركبوها قاطعين بالحجاج وانتهوا الى بحر النعم[1] فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركباً ، وانتهوا الى عَيْذاب فأخذوا فيها مركباً كان يأتي بالحجاج من جُدّة ، واخذوا ايضاً في البحر قافلة كبيرة تأتي من قوص الى عيذاب ، وقتلوا الجميع ولم يُحيوا احداً ، واخذوا مركبين كانا مقبلين بتُجّار من اليمن ، واحرقوا اطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة اعزهما الله ، واحدثوا حوادث شنيعة لم يُسمع مثلها في الاسلام ولا انتهى رومي الى ذلك الموضع قط .

ويذكر في الفصل الخاص بـ « صفة جُدّة » ما يلي (ص ٥٣) :

وجُدّة هذه قرية على ساحل البحر المذكور اكثر بيوتها اخصاص وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين وفي اعلاها بيوت من الاخصاص كالغرف ولها سطوح يستراح فيها بالليل من اذى الحر ، وبهذه القرية آثار قديمة تدل على انها كانت مدينة قديمة ، واثر سورها المحدق بها باقٍ الى اليوم ؛ وبها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يُذكر انه كان منزل حوّاء ام البشر ، صلى الله عليها ، عند توجهها الى مكة ، فبني ذلك المبنى عليه تشهيراً لبركته وفضله ، والله اعلم بذلك .

وفي صدد رحلته « من جدة الى الحرم الشريف » يذكر مكة بقوله :

« وفي عشيّ يوم الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور ، وهو الثاني من شهر أغُشْتْ ، (اغسطوس) ، كان انفصالنا من جدّة بعد ان ضمن الحجاج بعضهم بعضاً ، وثُبتت اسماؤهم في زمام[2] عند قائد جُدّة عليّ ابن موفّق ، حسبما نفذ اليه ذلك من سلطانه صاحب مكة مُكثر بن عيسى

---

(١) لا ذكر لهذا البحر بين البحار وقد يكون اسمه هنا مصحفاً .

(٢) ربما يقصد بالزمام السجل .

المذكور، وهذا الرجل مكثر من ذرية الحسن بن عليّ ، رضوان الله عليهما ، لكنه ممن يعمل غير صالح ، فليس من اهل سلفه الكريم ، رضي الله عنهم[١] .

ودخلنا مكة ، حرسها الله ، في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور ، وهو الرابع من شهر أُغُشت ، على باب العمرة ، وكان اسراؤنا تلك الليلة المذكورة ، والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه ، والليل قد كشف عنا قناعه والأصوات تصك الآذان بالتلبية من كل مكان ، والألسنة تضج بالدعاء وتبتهل الى الله بالثناء ، فتارة تشتد بالتلبية ، وآونة تتضرع بالأدعية ، فيا لها ليلة كانت في الحسن بيضة العُقْر[٢] ، فهي عروس ليالي العمر ، وبكر بُنَيّات الدهر ، الى ان وصلنا في الساعة المذكورة من اليوم المذكور ، حَرَم الله العظيم ومُبَوَّأ[٣] الخليل ابراهيم ، فألفينا الكعبة الحرام عروساً مجلوّة مزفوفة الى جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمن ، فطُفنا طواف القدوم ، ثم صلينا بالمقام الكريم ، وتعلّقنا بأستار الكعبة عند الملتزَم ، وهو بين الحجر الأسود والباب ، وهو موضع استجابة الدعوة ، ودخلنا قبة زمزم وشربنا من مائها ، وهو لما شُرِب له ، كما قال ، صلّى الله عليه وسلم ، ثم سعينا بين الصفا والمروة ، ثم حلقنا واحللنا ، فالحمد لله الذي كرّمنا بالوفادة عليه وجعلنا ممن انتهت الدعوة الابراهيمية اليه[٤] ، وهو حسبنا ونعم الوكيل[٥] .

شهر جمادى الاولى ، عرّفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاثنين الثاني والعشرين لأغشت ، وقد كمل لنا بمكة ، شرّفها الله تعالى ، ثمانية عشر يوماً ، فهلال هذا الشهر اسعد هلال اجتلته

---

(١) ص ٥٧

(٢) اي لا نظير لها . (٣) المبوأ : المنزل .

(٤) يريد بالدعوة الابراهيمية الاسلام ، نسبة الى ابراهيم الخليل (ع) . (٥) ص ٥٨ .

ابصارنا فيما سلف من اعمارنا [١] .

ذكر المسجد الحرام والبيت العتيق ، كرمه الله وشرفه

ومن آيات البيت العتيق انه قائم وسط الحرم كالبرج المشيّد وله التنزيه الأعلى ، وحمام الحرم لا تُحصى كثرة ، وهي من الأمن بحيث يُضرب بها المثل ، ولا سبيل ان تنزل بسطحه الأعلى حمامة ولا تحل فيه بوجه ولا على حال فترى الحمام يتجلى على الحرم كله ، فاذا قرُبتَ من البيت عرّجت عنه يميناً أو شمالاً والطيور سواها كذلك ، وقرأتُ في اخبار مكة انه لا ينزل عليه طائر الا عند مرض يصيبه فاما ان يموت لحينه او يبرأ فسبحان من أورثه التشريف والتكريم [٢] .

ومن آياته ان بابه الكريم يُفتح في الأيام المعلومة المذكورة ، والحرم قد غصّ بالخلق ، فيدخله الجميع ولا يضيق عنهم بقدرة الله ، عز وجل ، ولا يبقى فيه موضع الا ويصلي فيه كل احد ؛ ويتلاقى الناس عند الخروج منه ؛ فيسأل بعضهم بعضاً : هل دخل البيت ذلك اليوم ؟ فكلّ يقول : دخلت وصليت في موضع كذا وموضع كذا حيث صلّى الجميع ؛ ولله الآيات البينات والبراهين المعجزات ، سبحانه وتعالى .

ومن عجائب اعتناء الله تبارك وتعالى به أنه لا يخلو من الطائفين ساعة من النهار ولا وقتاً من الليل ؛ فلا تجد من يُخبر انه رآه دون [٣] طائف به ، فسبحان من كرّمه وعظّمه وخلّد له التشريف الى يوم القيامة .

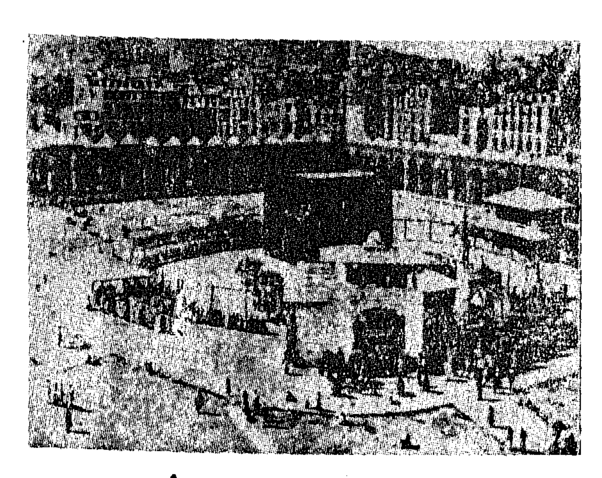
وفي القبة العباسية ... خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع وفيه

---

(١) ص ٥٩ .

(٢) ص ٧٥ — ٧٦ .

(٣) هذه العبارة رد على اولئك الذين لا يستسيغون استعمال كلمة « دون » في مثل هذا الموضع ويفضلون عليها لفظة « بلا » .


وبازاء الحرم الشريف ديار كثيرة لها أبواب على الحرم

مُصحف احد الخلفاء الأربعة[١] اصحاب رسول الله (ص) وبخط يد زيد بن ثابت (رض) منتَسخٌ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله (ص) وينقص منه ورقات كثيرة ، وهو بين دفتي عود مجلد بمغاليق من صُفر ، كبير الورقات واسعها ، عايناه وتبركنا بتقبيله ومسح الخدود فيه . نفع الله بالنية في ذلك.

واعلمنا صاحب القبة المتولي لعرضه علينا : ان اهل مكة متى أصابهم قحط او نالتهم شدة في اسعارهم اخرجوا المصحف المذكور وفتحوا باب البيت الكريم ووضعوه في العتبة المباركة مع المقام الكريم : مقام الخليـل ابراهيم ، صلى الله على نبينا وعليه ، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم داعين متضرعين . بالمصحف الكريم والمقام العظيم الى الله متوسلين ، فلا ينفصلون عن مقامهم ذلك الا ورحمة الله عز وجل قد تداركتهم والله لطيف بعباده ، لا إله سواه .

وبازاء الحرم الشريف ديار كثيرة لها ابواب يُخرج منها اليه . وناهيك بهذا الجوار الكريم ! كدار زبيدة ودار القاضي ودار تُعرف بالعَجلـة وسواها من الديار ، وحول الحرم ايضاً ديار كثيرة تُطيف بكلها مناظر وسطوح يُخرج منها الى سطح الحرم فيبيت اهلها فيه ويُبرّدون ماءهم في اعالي شُرُفاته ، فهم من النظر الى البيت العتيق دائماً في عبادة متصلة ، والله يهنئهم ما خصهم به من مجاورة بيته الحرام بمنه وكرمه .

والفيت بخط الفقيه الزاهد الورع ابي جعفر الفنكي القـرطبي : ان

---

(١) هو مصحف عثمان بن عفان .

ذرع المسجد الحرام في الطول والعرض ما اثبتّه اولاً ، وطول مسجد رسول الله (ص) ثلاثمائة ذراع ، وعرضه مئتان ، وعدد سَواعديه ثلاثمائة ، ومناراته ثلاث ، فيكون تكسيره اربعة وعشرين مرجعاً[١] من المراجع المغربية ، وهي خمسون ذراعاً في مثلها ، وطول مسجد بيت المقدس ، اعاده الله للاسلام ، سبعمائة وثمانون ذراعاً ، وعرضه اربعمائة وخمسون ذراعاً وسواريه اربعمائة واربع عشرة سارية ، وقناديله خمسمائة وابوابه خمسون باباً ، فيكون تكسيره من المراجع المذكورة مائة مرجع واربعين مرجعاً وخُمسي مرجع[٢] .

(١) المرجع مقياس للأراضي استعمل في المغرب . (٢) ص ٨٠ – ٨١ .

ذكر مكة شرفها الله تعالى وآثارها الكريمة، وأخبارها الشريفة [1]

هي بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها ، وهي بطن واد مقدس ، كبيرة مستطيلة ، تسع من الخلائق ما لا يُحصيه الا الله عز وجل .

ولها ثلاثة ابواب : اولها باب المَعْلَى ، ومنه يُخرج الى الجبّانة المباركة ، وهي بالموضع الذي يُعرف بالحَجون . وعن يسار المار اليها جبل في اعلاه ثنية عليها علم شبيه بالبرج ، يُخرج منها الى طريق العُمرة ، وتلك الثنية تُعرف بكَداء ، وهي التي عني حسّان بقوله في شعره (من الوافر) :

تثيرُ النقعَ موعدُها كَداءُ [2]

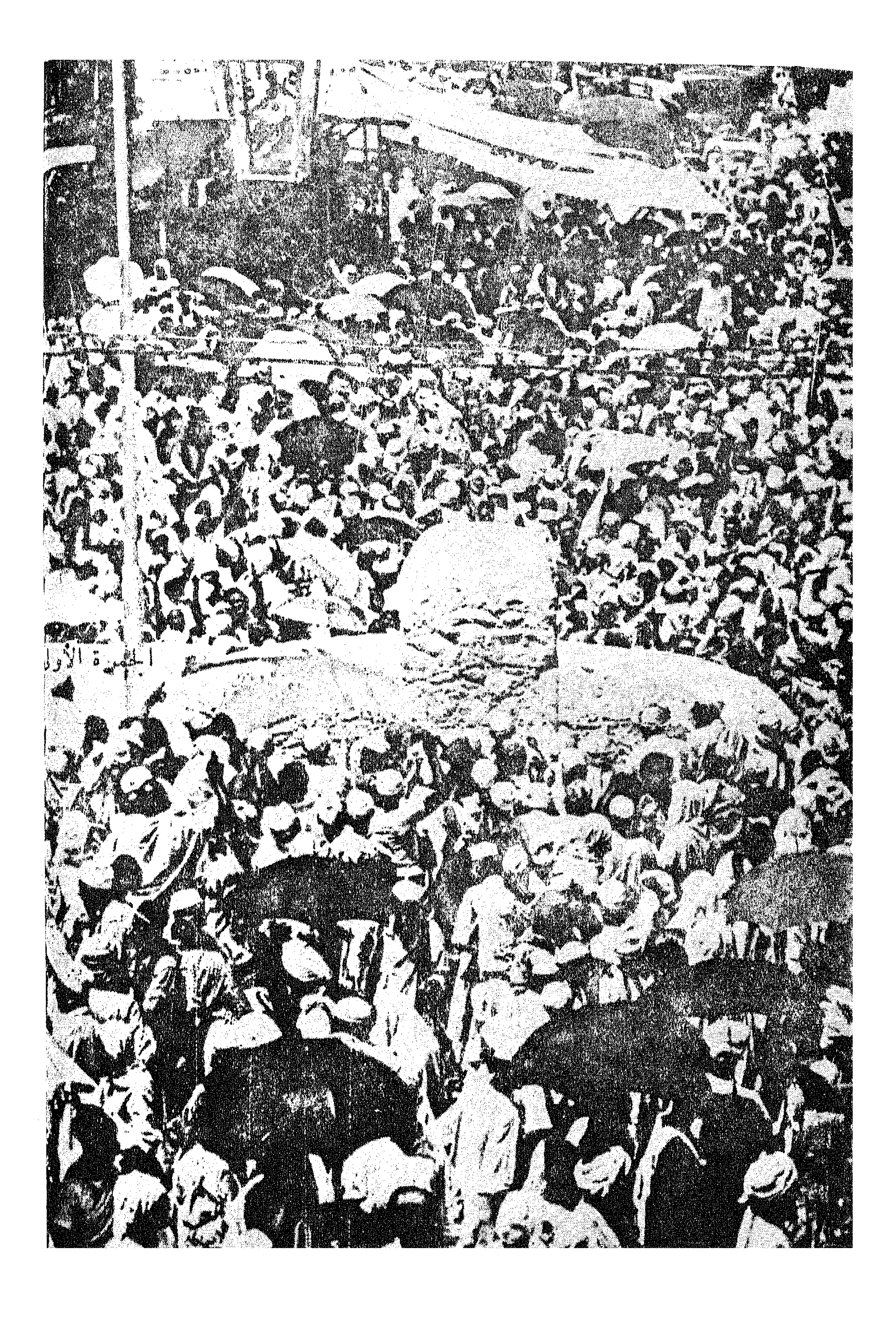
فقال النبي (ص) يوم الفتح : ادخلُوا من حيث قال حسان ، فدخلوا من تلك الثنية ، وهذا الموضع الذي يُعرف بالحجون هو الذي عناه الحارث ابن مُضاض الجرهمي بقوله (من الطويل) :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا ... أنيس ولم يسمُر بمكةَ سـامرُ
بلى نحن كنا اهلَها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العواثر

---

(١) ص ٨٧ . (٢) هو عجز بيت لحسان بن ثابت صدره : عدمنا خيلنا ان لم تروها .




الجمرة الأولى

وبالجبّانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والاولياء والصالحين قد دَثَرَت مشاهدهم المباركة وذهبت عن اهل البلد اسماؤهم وفيه الموضع الذي صَلَبَ فيه الحجاج بن يوسف ، جازاه الله ، جثة عبد الله ابن الزبير ، رضي الله عنهما ؛ وعلى الموضع بقية علم ظاهر الى اليوم ، وكان عليه مبنى مرتفع ، فهدمه أهل الطائف غيرة منهم على ما كان يُجدّد من لعنة صاحبهم الحجاج المذكور ؛ وعن يمينك اذا استقبلت الجبانة المذكورة مسجد في مسيل بين جبلين ، يقال انه المسجد الذي بايعت فيه الجن النبي صلى الله عليه وسلم وشرف وكرّم .

وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف ، وطريق العراق والصعود الى عرفات ، جعلنا الله ممن يفوز بالموقف فيها ، وهذا الباب المذكور بين الشرق والشمال ، وهي الى المشرق أميل .

ثم باب المَسْفَل : وهو الى جهة الجنوب ، وعليه طريق اليمن ، ومنه كان دخول خالد بن الوليد يوم الفتح .

ثم باب الزاهر ويعرف ايضاً بباب العُمرة ، وهو غربي ، وعليه طريق مدينة الرسول (ص) وطريق الشام وطريق جُدّة ، ومنه يُتوجّهُ الى التنعيم وهو اقرب ميقات المعتمرين ، يُخرج من الحرم اليه على باب العمرة ، ولذلك ايضاً يسمى هو بهذا الاسم .

والتنعيم من البلدة على فرسخ ، وهو طريق حسن فسيح ، فيه الآبار العذبة التي تُسمى بالشُبيكة .

وعندما تخرج من البلدة بنحو ميل تلقى مسجداً بازائه حجر موضوع على الطريق كالمصطبة يعلوه حجر آخر مُسنَد فيه نقش دائر الرسم يقال انه الموضع الذي قعد فيه النبي (ص) مستريحاً عند مجيئه من العمرة فيتبرك الناس بتقبيله ومسح الخدود فيه ... ثم بعد هذا الموضع بمقدار غَلْوة تلقى على قارعة الطريق من جهة اليسار للمتوجه الى العمرة قبرين قد علتهما

اكوام من الصخر عظام يقال انهما قبرا ابي لهب وامرأته ، لعنهما الله ، فما زال الناس في القديم الى هلمجرا يتخذون سنة رجمهما بالحجارة حتى علاهما من ذلك جبلان عظيمان[١] .

ثم تسير فيهما بمقدار ميل وتلقى الزاهر ، وهو مبنى على جانبي الطريق ، يحتوي على دار وبساتين ، والجميع ملك احد المكيين وفي الموضع بئر عذبة .

وعن جانبي الطريق في هذا الموضع جبال اربعة ، جبلان من هنا ، وجبلان من هنا ، عليها اعلام من الحجارة ، وذكر لنا انها الجبال المباركة التي جعل ابراهيم (ع) عليها اجزاء الطير ثم دعاهن حسبما حكى الله ، عز وجل ، سؤاله اياه جل وتعالى ان يريه كيف يحيي الموتى ؛ وحول تلك الجبال الأربعة جبال غيرها ، وقيل : ان التي جعل ابراهيم عليها الطير سبعة منها ، والله اعلم .

وعند اجازتك الزاهر المذكور تمر بالوادي المعروف بذي طوى الذي ذُكر ان النبي (ص) نزل فيه عند دخوله مكة وحوله آبار تعرف بالشُبيكة ، وفيه مسجد يقال انه مسجد ابراهيم (ع) فتأمل بركة هذا الطريق ومجموع الآيات التي فيه والآثار المقدسة التي اكتنفته .

وتجيز الوادي الى مضيق تخرج منه الى الاعلام التي وضعت حَجْزاً بين الحِل والحرام ، فما داخلها الى مكة حرَم وما خارجها حل ، وهي كالأبراج مصفوفة كبار وصغار واحد بازاء الآخر ، وعلى مقربة منه تأخذ من اعلى الجبل الذي يعترض عن يمين الطريق في التوجه الى العمرة ، وتشق الطريق الى اعلى الجبل عن يساره ، ومنه ميقات المعتمرين وفيها مساجد مبنية بالحجارة يصلي المعتمرون فيها ويُحرمون منها .

ومن عجيب ما عُرض علينا بباب بني شيبة المذكور عتَبٌ من الحجارة

(١) ص ٨٨ .

العظام طوال كأنها مصاطب صفت امام الابواب الثلاثة المنسوبة لبني شيبة ، ذكر لنا انها الأصنام التي كانت قريش تعبدها في جاهليتها ، وكبيرها هُبَل بينها ، قد كبّت على وجوهها ، تطؤها الأقدام وتمتهنها بأنعلتها العوام ؛ ولم تُغنِ عن انفسها فضلاً عن عابديها شيئاً فسبحان المنفرد بالوحدانية لا اله سواه ؛ والصحيح في امر تلك الحجارة ان النبي (ص) امر يوم فتح مكة بكسر الاصنام واحراقها ، وهذا الذي نقل الينا غير صحيح وانما تلك التي على الباب حجارة منقولة وعُني القوم بتشبيهها الى الاصنام لعظمها .

ومن جبال مكة المشهورة ، بعد جبل ابي قبيس ، جبل حِراء ، وهو في الشرق على مقدار فرسخ او نحوه مشرف على مِنىً ، وهو مرتفع في الهواء عالي القنة ، وهو جبل مبارك ، كان النبي (ص) كثيراً ما يتتابه[1] ويتعبد فيه ، واهتز تحته فقال له النبي (ص) : « اسكُن حِراء ، فما عليك الا نبيّ وصدّيق وشهيد » . ... واول آية نزلت من القرآن على النبي (ص) في الجبل المذكور وهو آخذ من الغرب الى الشمال ، ووراء طرفه الشمالي جبّانة الحجون ... وسور مكة انما كان من جهة المَعْلى وهو مدخل الى البلد ، ومن جهة المَسْفل وهو مدخل ايضاً اليه ؛ ومن جهة باب العمرة وسائر الجوانب جبال لا يحتاج معها الى سور ؛ وسورها اليوم منهدم إلا آثاره الباقية وابوابه القائمة .

ذكر بعض مشاهدها المعظمة وآثارها المقدسة

مكة ، شرفها الله ، كلها مشهد كريم ، كفاها شرفاً ما خصها الله به من مثابة[2] بيته العظيم وما سبق لها من دعوة الخليل ابراهيم وانها حرم الله وامنه ، وكفاها انها منشأ النبي (ص) الذي آثره الله بالتشريف والتكريم

---

(١) يأتي اليه مرة بعد أخرى .

(٢) المثابة : مجمع الناس .

وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم ، فهي مبدأ نزول الوحي والتنزيل واول مهبط الروح الامين جبريل ، وكانت مثابة انبياء الله ورسُله الاكرمين ، وهي ايضاً مسقط رؤوس جماعة من الصحابة القرشيين المهاجرين الذين جعلهم الله مصابيح الدين ونجوماً للمهتدين .

فمن مشاهدها التي عايناها قبّة الوحي ، وهي في دار خديجة ام المؤمنين (رض) ، وبها كان ابتناء النبي (ص) بها ، وقبة صغيرة ايضاً في الدار المذكورة فيها كان مولد فاطمة الزهراء (ع) ، وفيها ايضاً ولدت سيدي شباب اهل الجنة : الحسن والحسين (ع)[1] وهذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها .

ومن مشاهدها الكريمة ايضاً مولد النبي (ص) والتربة الطاهرة التي هي اول تربة مست جسمه الطاهر ، بُني عليها مسجد لم يُر احفل بناء منه ، اكثره ذهبٌ منزّلٌ به ، والموضع المقدس الذي سقط فيه ، صلى الله عليه وسلم ، ساعة الولادة السعيدة المباركة التي جعلها الله رحمة للأمة اجمعين ، محفوف بالفضة ؛ فيا لها تربة شرفها الله بأن جعلها مسقط اطهر الأجسام ومولد خير الانام ، صلى الله عليه وعلى آله واهله واصحابه الكرام وسلّم تسليماً ؛ يفتح هذا الموضع المبارك فيدخله الناس كافة متبركين به في شهر ربيع الأول ويوم الاثنين منه ، لأنه كان شهر مولد النبي (ص) وفي اليوم المذكور ولد (ص) ، وتفتح المواضع المقدسة المذكورة كلها وهو يوم مشهور بمكة دائماً .

ومن مشاهدها الكريمة ايضاً دار الخَيْزُران ، وهي الدار التي كان النبي (ص) يعبد الله فيها سراً مع الطائفة الكريمة المبادرة للاسلام من اصحابه ، رضي الله عنهم ...

وعلى مقربة من دار خديجة (رض) ... وفي الزقاق الذي الدار المكرمة .

(١) في سائر التواريخ ان الحسن والحسين (ع) ولدا في المدينة .

فيه مصطبة فيها متكأ يقصد الناس اليها ويصلون فيها ويتمسحون بأركانها ؛ لان في موضعها كان موضع قعود النبي (ص).

ومن الجبال التي فيها اثر كريم ومشهد عظيم الجبل المعروف بأبي ثور ، وهو في الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ او ازيد وفيه الغار الذي اوى اليه النبي (ص)... وقرأت في كتاب «أخبار مكة» لأبي الوليد الأزرقي : ان الجبل نادى النبي (ص) : «إليّ يا محمد ! إليّ يا محمد ! فقد آويت قبلك نبياً» ...

واكثر الناس ينتابون هذا الغار المبارك ويتجنبون دخوله من الباب الذي احدث الله عز وجل فيه . ويرومون دخوله من الشق الذي دخل النبي (ص) منه تبركاً به ، فيمتد المحاول لذلك على الأرض ويبسط خده بازاء الشق ويولج يديه ورأسه اولاً ثم يعالج ادخال سائر جسده فمنهم من يتأتى له ذلك بحسب قضافة [1] بدنه . ومنهم من يتوسط بدنه فم الغار فيعضّه [2] فيروم الدخول او الخروج فلا يقدر فينشب [3] ويلاقي مشقة وصعوبة . حتى يُتناوَل بالجذب العنيف من ورائه .

فالعقلاء من الناس يجتنبونه لهذا السبب . ولا سيما ويتصل به سبب آخر مخجل فاضح . وذلك ان عوّامّ الناس يزعمون ان الذي لا يسع عليه ويُمتسك فيه ولا يلجه ليس لِرشدة [4] . جرى هذا الخبر على ألسنتهم حتى عاد عندهم قطعاً على صحته لا يشكّون ، فبحسب المتنشب فيه المتعذر ولوجه عليه ما يكسوه هذا الظن الفاضح المخجل . زائداً الى ما يكابده بدنه من اللّز في ذلك والمّضيق إشرافه منه على المنية توجعاً وانقطاع نَفَس وبَرْحَ ألم . فالبعض من الناس يقولون في مثَل : «ليس يصعد جبل ابي ثور الا ثور» .

---

(١) القضافة : النحافة . (٢) اي يمسك به (٣) يعلق .
(٤) اي ابن زنا .

وعلى مقربة من هذا الغار في الجبل بعينه عمود منقطع من الجبل ، قد قام شبهَ الذراع المرتفعة بمقدار شبه القامة ، وانبسط في اعلاه شبهَ الكف ، خارجاً عن الذراع ، كانّه القبة المبسوطة ، بقدرة الله عز وجل ، يستظل تحتها نحو العشرين رجلاً ، وتُسمى قبّة جبريل ، صلىّ الله عليه وسلم [١] ...

وذكروا ان الامام ابا حامد الغزّالي دعا الله عز وجل بدعوات ، وهو في حرمه الكريم ، في رغبات رفعها الى الله جلّ وتعالى ، فأُعطي بعضاً ومُنِع بعضاً ؛ وكان مما مُنِعَ نزولُ المطر وقت مُقامه بمكة ، وكان تمنى ان يغتسل به تحت الميزاب ويدعو الله عز وجل عند بيته الكريم في الساعة التي أبواب سمائه فيها مفتوحة فمُنع ذلك وأجيب دعاؤه في سائر ما سأله ؛ فله الحمد وله الشكر على ما أنعم به علينا ؛ ولعل عبداً من عباده الصالحين الوافدين على بيته الكريم خصه الله بهذه الكرامة [٢] ، فدخلنا جميع المذنبين ، في شفاعته ، والله ينفعنا بدعاء المخلصين من عباده ولا يجعلنا ممن شقي بدعائه ؛ انه منعم كبير .

ذكر ما خص الله تعالى به مكة من الخيرات والبركات

هذه البلدة المباركة سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليليّة الابراهيمية وذلك ان الله عز وجل يقول حاكياً عن خليله (ص) : « فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم ، وارزُقهم من الثمَرات ، لعلهم يشكُرُون »[٣] وقال عز وجل : « أوَلَمْ نمكّنْ لهم حرماً آمناً يُجبَى اليه ثمراتُ كل شيء »[٤] فبرها من ذلك فيها ظاهر متصل الى يوم القيامة ، وذلك ان افئدة الناس تهوي اليها من الأصقاع النائية والاقطار الشاحطة [٥] فالطريق اليها ملتقى الصادر والوارد

---

(١) ص ٩٥ . (٢) لعل ابن جبير هو هذا العبد الصالح الذي استجيب دعاؤه ولكن تواضعه منعه من ذكر ذلك .

(٣) سورة ابراهيم ، الآية ٣٧ . (٤) سورة القصص ، الآية ٥٧ . (٥) ص ٩٦ .

ممن بلغته الدعوة المباركة والثمرات تجبى اليها من كل مكان ، فهي اكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر .

ولم يكن لها من المتاجر الا اوانَ الموسم ففيه يجتمع اهل المشرق والمغرب ، فيباع فيها في يوم واحد ، فضلاً عمّا يتبعه ، من الذخائر النفيسة كالجواهر ، والياقوت ، وسائر الأحجار ، من انواع الطيب : كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية ، الى غير ذلك من جَلَب الهند والحبشة [1] ، الى الأمتعة العراقية واليمانية ، الى غير ذلك من السلع الخراسانية ، والبضائع المغربية ، الى ما لا ينحصر ولا ينضبط ، ما لو فرّق على البلاد كلها لا قام لها الاسواق النافقه ولعم جميعها بالمنفعة التجارية ، كل ذلك في ثمانية ايام بعد الموسم ، حاشا ما يطرأ بها مع طول الايام من اليمن وسواها ؛ فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر الا وهي موجودة فيها مدة الموسم فهذه بركة لا خفاء بها وآية من آياتها التي خصّها الله بها .

واما الارزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نظن ان الاندلس اختصت من ذلك بحظّ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغَصّ بالنعم والفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطّيخ والقثاء والخيار الى جميع البقول كلها كالباذنجان واليقطين والسَلْجَم [2] والجَزَر والكُرنُب الى سائرها ، الى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة ، واكثر هذه البقول كالباذنجان والقثاء والبطّيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام ، وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره ، ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة في حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود في سائر البلاد ، فالعجب من ذلك يطول .

---

(١) اي ما يجلب منهـا .
(٢) أي اللفت وهو المعروف عندنا في العراق بالشلغم .

ومن اعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل ، وكل فواكهها عجب ، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة ، و ذلك لأن رائحته من اعطر الروائح وأطيبها ، يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت اليك ، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب ريّاه عن اكلك اياه ، حتى اذا ذقته خُيّل اليك انه ستيب بسكر مذاب او بجني النحل اللباب ، ولعل متصفح هذه الاحرف يظن ان في الو صف بعض الغلو ، كلا لعمرُ الله ! انه لاكثر مما وصفتُ وفوق ماقلتُ، وبها عسل[1] اطيب من الماذيّ المضروب به المثل يعرف عندهم بالمسعودي .

وانواع اللبن بها في نهاية الطيب ، وكل ما يصنع منها من السّمن ، فانه لا تكاد تميزه من العسل طيباً ولذاذة ، ويجلب اليها قوم من اليمن يُعرفون بالسّرو نوعاً من الزبيب الاسود والاحمر في نهاية الطيب ويجلبون معه من اللوز كثيراً .

وبها قصب السكر ايضاً كثير ، يُجلب من حيث تُجلب البقول التي ذكرناها والسكر بها كثير مجلوب وسائر النعم والطيبات من الرزق والحمد لله .

واما الحلوى فيُصنع منها انواع غريبة من العسل والسكر والمعقود على صفات شتى . انهم يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة ؛ وفي الاشهر الثلاثة : رجب وشعبان ورمضان يتصل منها اسمطة[2] بين الصفا والمروة ، ولم يشاهد احد اكمل منظراً منها لا بمصر ولا بسواها ، قد صورت منها تصاوير انسانية وفاكهية وجُليت في منصّات كأنها العرائس ونضّدت بسائر انواعها المنضّدة الملونة ، فتلوح كأنها الأزاهر حسناً ، فتقيّد الابصار وتستنزل الدرهم والدينار .

---

(١) العسل الابيض او جيده .
(٢) واحدها سماط بمعنى المائدة.

واما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب ، قد وقع القَطْعُ من كل مَنْ تطوّف على الآفاق وضرب نواحي الأقطار أنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا ، وما ذاك والله اعلم الا لبركة مراعيها ؛ هذا على افراط سمنه ، ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهي ذلك المنتهى في السمنة لَلَفَظَتْهُ الأفواه زَهَماً [1] ولعافته وتجنّبتْه .

والأمر في هذا بالضد ، كلما ازداد سِمناً زادت النفوس فيه رغبةً والنفس له قبولاً فتجده هنيئاً رخصاً يذوب في الفم قبل أن يُلاك مضغاً ، ويسرع لخفته عن المعدة انهضاماً ؛ وما ارى ذلك الا من الخواص الغريبة وبركة البلد الأمين قد تكفّلت بطيبه لا شك فيه ؛ والخَبَرُ عنه يضيق عن الخُبْر له ، والله يجعل فيه رزقاً لمن تشوّق بلدته الحرام ، وتمنّى هذه المشاهد العظام ، والمناسك الكرام ، بعزّته وقدرته .

وهذه الفواكه تجلب اليها من الطّائف ، وهي على مسيرة ثلاثة ايام منها ، على الرفق والتّؤدة ، ومن قرى حولها ؛ واقرب هذه المواضع يُعرف بأدُم ، هو من مكة على مسيرة يوم أو ازيد قليلاً ، وهو من بطن الطائف ، ويحتوي على قرى كثيرة ، ومن بطن مَرّ ، وهو على مسيرة يوم او اقل ؛ ومن نخلة ، وهي على مثل هذه المسافة ، ومن اوأية بقرب من البلد كعين سليمان وسواها ، قد جلب الله اليها من المغاربة ذوي البصارة [2] بالفلاحة والزراعة فاحدثوا فيها بساتين ومزارع ، فكانوا أحد الاسباب في خصب هذه الجهات ، وذلك بفضل الله عز وجل ، وكريم اعتنائه بحرمه الكريم ، وبلده الأمين .

ومن اغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله واجرينا الحديث باستطابته ولا سيما لكوننا لم نعهده ، الرّطب ، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر في شجرة

(١) اي تخمة من الدسم.
(٢) البصارة : المعرفة .

يُجنى ويؤكل ، وهو في نهاية من الطيب واللذاذة ، لا يُسأم التفكه به . وإبّانه عندهم عظيم ، يخرج الناس اليه كخروجهم الى الضيعة او كخروج اهل المغرب لقراهم ايام نضج التين والعنب ، ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه يُبسط على الأرض قدر ما يجف قليلاً ثم يُركَم بعضُه على بعض في السلال والظّروف ويُرفع .

ومن صُنع الله الجميل لنا وفضله العميم علينا أنّا وصلنا الى هذه البلدة المكرمة فألفينا كلّ من بها من الحجاج المجاورين ممّن قدم عهده فيها وطال مقامه بها يتحدث على جهة العجب بأمنها من الحرّابة المتلصصّين فيها على الحاج المختلسين ما بأيديهم والذين كانوا آفة الحرم الشريف ، لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلا أُختُلِس من يديه او من وسطه بحيل عجيبة ولطافة غريبة ، فما منهم إلا احذّ يد القميص ، فكفى الله في هذا العام شرهم إلا القليل ، وأظهر أميرُ البلد التشديد عليهم فتوقف شرّهم ، وبطيب هوائها في هذا العام ، وفتور حمَارة قيظها المعهود فيها ، وانكسار حدّة سمومها ، وكنّا نبيت في سطح الموضع الذي كنا نسكنه ، فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه الى دثار يقينا منه . وذلك مستغرَب بمكة .

وكانوا ايضاً يتحدثون بكثرة نعيمها في هذا العام ، ولين سعرها ، وأنها خارقة للعوائد السالفة عندهم . كان سوم الحنطة اربعة اصواع بدينار مؤمنيّ ، وهي أوْبتان من كيل مصر وجهاتها ، والأوْبتان قَدَحان ونصف قدح من الكيل المغربي . وهذا السعر في بلد لا ضيعة فيه ولا قوام معيشة لاهله إلا بالميرة المجلوبة اليه سعر لاخفاء بيُمنه وبركته على كثرة المجاورين فيها في هذا العام وانجلاب الناس اليها وترادفهم عليها . فحدّثنا غيرُ واحد من المجاورين الذين لهم بها سنون طائلة انهم لم يَرَوا هذا الجمع بها قط ، ولا سُمع بمثله فيها . والله يجعله جمعاً مرحوماً معصوماً بمنّه .

وما زال الناس فيها يسلسلون أوصاف احوالها في هذه السنة وتمييزها عما سلف من السنين . حتى لقد زعموا أنّ ماء زمزم المبارك زاد عذوبة

ولم يكن قبل بصادقها .

وهذا الماء المبارك في امره عجب ، وذلك أنك تشربه عند خروجه من قرارته ، فتجده في حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئاً ، وتلك فيه من الله تعالى آية وعناية ، وبركته اشهر من أن تحتاج لوصف واصف وهو لِما شُرِب له كما قال ، صلى الله عليه وسلم ، أروى الله منه كل ظاميء اليه ، وبعزته وكرمه .

ومن الأمور المجربة في هذا الماء المبارك أن الانسان ربما وجد مَسّ الاعياء ، وفتور الاعضاء ، إما من كثرة الطواف ، او من عمرة يعتمرها على قدميه ، او من غير ذلك من الأسباب المؤدية الى تعب البدن ، فيصب من ذلك الماء على بدنه فيجد الراحة والنشاط لحينه ويذهب عنه ما كان أصابه .

شهر جمادى الآخرة

استهل هلال ليلة الاربعاء ، وهو الحادي والعشرون من شهر ستنبر العجمي ، (سبتمبر) ، ونحن بالحرم المقدس ، زاده الله تعظيماً وتشريفاً . وفي صبيحة الليلة المذكورة وافى الأمير (مكثر) باتباعه وأشياعه ، على العادة السالفة المذكورة في الشهر الأول ، وعلى ذلك الرسم بعينه ، والزمزمي المفرد بثنائه والدعاء له فوق قبّة زمزم ، يرفع عقيرته بالدعاء والثناء عند كل شوط يطوفه الأمير ، والقُراء أمامه ، الى أن فرغ من طوافه ، واخذ في طريق انصرافه .

ولاهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة ، عند مستهل كل شهر من شهور العام ، يتصافحون ويهنيء بعضهم بعضاً ويتغافرون ويدعو بعضهم لبعض ، كفعلهم في الأعياد ؛ هكذا دائماً . وتلك طريقة من الخير واقعة في النفوس ، تجدد الاخلاص وتستمد الرحمة من الله ، عز وجل ، بمصافحة المؤمنين بعضهم بعضاً وبركة ما يتهادونه من الدعاء ، والجماعة رحمة ، ودعاؤهم من الله بمكان .

جمال الدين وآثاره السنية

ولهذه البلدة المباركة حمّامان : احدهما ينسب للفقيه الميّانشيّ ، احد الأشياخ المُحلّقين بالحرم المكرّم ، والثاني ، وهو الأكبر ، يُنسب لجمال الدين ، وكان هذا الرجل كصفته جمال الدين ، له ، رحمه الله ، بمكة والمدينة ، شرّفهما الله ، من الآثار الكريمة والصنائع الحميدة والمصانع المبنية في ذات الله المشيده ما لم يسبقه احد اليه فيما سلف من الزمان ولا أكابر الخلفاء فضلاً عن الوزراء .

وكان ، رحمه الله ، وزير صاحب الموصل ، تمادى على هذه المقاصد السنية المشتملة على المنافع العامة للمسلمين في حرم الله تعالى وحرم رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، اكثر من خمس عشرة سنة ، ولم يزل فيها باذلاً أموالاً لا تحصى في بناء رباع بمكة مُسبّلة في طرق الخير والبر ، مؤبّدة ، مُحبّسة ، واختطاط صهاريج للماء ، ووضع جباب في الطرق يستقر فيها ماء المطر ، الى تجديد آثار من البناء في الحرمين الكريمين .

وكان من اشرف افعاله أن جلب الماء الى عرفات وقاطع عليه العرب بني شعبه ، سكان تلك النواحي المجلوب منها الماء ، بوظيفة من المال كبيرة على ان لا يقطعوا الماء عن الحاج ، فلما توفي الرجل ، رحمة الله عليه ، عادوا الى عادتهم الذميمة من قطعه .

ومن مفاخره ومناقبه أيضاً أنه جعل مدينة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، تحت سورين عتيقين أنفق فيهما أموالاً لا تحصى كثرة . ومن أعجب ما وفقه الله تعالى إليه أنه جدّد ابواب الحرم كلها . وجدّدَ باب الكعبة المقدسة وغشّاهُ فضةً مذهبةً وهو الذي فيه الآن حسبما تقدّم وصفهُ ، وجلّلَ العتبةَ المباركة بلوح ذهب إبريز ، وقد تقدّم ذكرهُ ايضاً . فأخذ البابَ القديمَ وأمرَ بأن يُصنع له منه تابوت يدفن فيه . فلما حانت وفاتُه أوصى بأن يوضَعَ في ذلك التابوت المبارك ويُحتجّ به ميّتاً . فسيقَ الى عرفات

ووُقف به على بعد وكشف عن التابوت ، فلما أفاضَ الناسُ أُفيض به وقُضيت له المناسكَ كلها وطِيفَ به طواف الأفاضة ، وكان الرجل ، رحمه اللهُ ، لم يَحجّ في حياته . ثم حُمل إلى مدينة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وفُتح فيها موضع يلاحظ الروضة المقدسة ، وأُبيحَ لهُ ذلك على شدة الضنانة بمثله لسابق أفعاله الكريمة ودُفِن في تلك الروضة وأسعده اللهُ بالجوار الكريم ، وخصّهُ بالمواراة في تربة التقديس والتعظيم ، واللهُ لا يضيع أجر المحسنين ، وسنذكر تاريخ وفاته إذا وقفنا عليه من التاريخ الثابت في روضته ، إن شاء الله عز وجل ، وهو وليّ التيسير ، لا ربَّ غيرُه .

ولهذا الرجل ، رحمه الله ، من الآثار السنية والمفاخر العلية التي لم يسبقه إليها الأكابر الأجواد ، وسراة الأمجاد فيما سلف من الزمان ما يفوت الاحصاء ويستغرقُ الثناء ، ويستصحب طول الأيام من الألسنة الدعاء ، وحسبك أنّه اتسع اعتناؤه بإصلاح عامة طرق المسلمين بجهة المشرق من العراق إلى الشام إلى الحجاز ، حسبما نذكره ، وأستنبط المياه ، وبنى الجباب ، واختطّ المنازل في المفازات وأمر بعمارتها مأوىً لأبناء السبيل وجميع المسافرين ، وابتنى بالمدن المتصلة من العراق إلى الشام فنادق عيّنها لنزول الفقراء أبناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الأكرية ، وأجرى على قومه تلك الفنادق والمنازل ما يقومُ بمعيشتهم ، وعيّن لهم ذلك في وجوه تأبّدت لهم ، فبقيت تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها إلى الآن . فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرفاق وملئت ثناءً عليه الآفاق .

وكان مدةَ حياته بالموصل ، على ما أخبرنا به غيرُ واحد من ثقات الحجاج التجار ممن شاهد ذلك ، قد اتخذ دار كرامة واسعة الفناء فسيحة الأرجاء يدعو إليها كل يوم الجَفَلى[1] من الغرباء فيعمهم شبعاً وريّاً ، ويرد الصادر

---

(١) الجفلى : الدعوة العامة .

والوارد من أبناء السبيل في ظله عيشاً هنيئاً ، لم يزل على ذلك مدة حياته ، رحمه الله ، فبقيت آثاره مخلدة ، وأخباره بالسنة الذكر مجددة ، وقضى حميداً سعيداً ، والذكر الجميل للسعداء حياة باقية ، ومدة من العمر ثانية ، والله الكفيل بجزاء المحسنين إلى عباده ، فهو أكرم الكرماء ، وأكفل الكفلاء .

الأمور المحظورة في الحرم

من الأمور المحظورة في الحرم الشريف ، زاده الله تعظيماً وتكريماً ، أن النفقة فيه ممنوعة ، لا يجد المتأجّر من ذوي اليسار إليها سبيلاً في تجديد بناء أو اقامة حطيم أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك .

ولو كان الأمرُ مباحاً في ذلك لجعل الراغبون في نفقات البر من أهل الجدة [١] حيطانه عسجداً وترابه عنبراً ، لكنهم لا يجدون السبيل إلى ذلك ، فمتى ذهبَ أحدُ أرباب الدنيا إلى تجديد أثر من آثاره أو إقامة رسم من رسومه اخذ اذن الخليفة في ذلك . فان كان مما ينقش عليه او يرسم فيه طرز باسم الخليفة ونفوذ امره بعمله ولم يذكر اسم المتولي لذلك . ولا بد مع ذلك من بذل حظ وافر من النفقة لأمير البلد ربما يوازي قدر المنفوق فيه ، فتتضاعف المؤونة على صاحبه وحينئذ يصل الى غرضه من ذلك .

ومن اغرب ما اتفق لأحد دهاة الأعاجم ، ذوي الملك والثراء ، انه وصل الى الحرم الكريم ، مدة جد هذا الأمير مكثر ، فرأى تنور بئر زمزم وقبتها على صفة لم يرضها فاجتمع بالأمير وقال اريد ان اتأنق في بناء تنور زمزم وطيه وتجديد قبته وابلغ في ذلك الغاية الممكنة وانفق عليه من صميم مالي ، ولك علي في ذلك شرط ابلغ بالتزامه لك الغرض المقصود ، وهو أن تجعل ثقة من قبلك يقيد مبلغ النفقة في ذلك .فاذا إستوفي البناء التمام ،

---

(١) الغنى .

وانتهت النفقة منتهاها . وتحصلت محصاه ، بذلك لك مثلها جزاء على اباحتك لي ذلك .

فاهتز الأمير طمعاً ، وعلم ان النفقة في ذلك تنتهي الى آلاف من الدنانير ، على الصفة التي وصفها له ، فأباح له ذلك ، وألزمه مقيداً بحصي قليل الانفاق وكثيره . وشرع الرجل في بنائه واحتفل واستفرغ الوسع وتأنق وبذل المجهود ، فعل من يقصد بفعله ذات الله عز وجل ويقرضه قرضاً حسناً ، والمقيد يسود طواميره بالتقييد . والأمير يتطلع الى ما لديه ، ويؤمل لقبض تلك النفقات الواسعة بسط يديه ، الى أن فرغ البناء على الصفة التي تقدمّ ذكرها اولاً عند ذكر بئر زمزم وقبته ، فلما لم يبق الا ان يصبح صاحب النفقة بالحساب ويستقضي منه العدد المجتمع فيها ، خلا منه المكان ، واصبح في خبر كان ، وركب الليل جملاً ، واصبح الأمير يقلب كفيه ، ويضرب اصدريه ، ولم يمكنه ان يحدث في بناء وضع في حرم الله تعالى حادثاً يحيله او نقضاً يزيله ، وفاز الرجل بثوابه وتكفل الله به في انقلابه وتحسين مآبه : « ومـــا انفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » وبقي خبر هذا الرجل مع الأمير يتهادى غرابة وعجباً ويدعو له كل شارب من ذلك الماء المبارك .

شهر رجب الفرد

استهل هلاله ليلة الخميس الموفي عشرين لشهر اكتوبر بشهادة خلق كثير من الحجاج المجاورين والأشراف اهل مكة ، ذكروا انهم رأوه بطريق العمرة ومن جبل قعيقعان وجبل ابي قبيس ، فثبتت شهادتهم بذلك عند الأمير والقاضي ، واما من المسجد الحرام فلم يبصره أحد . وهذا الشهر المبارك عند اهل مكة موسم من المواسم المعظمة وهو اكبر اعيادهم ، ولم يزالوا على ذلك قديماً وحديثاً يتوارثه خلف عن سلف متصلاً ميراث ذلك الى الجاهلية لأنهم كانوا يسمونه منصل الأسنة . وهو أحد الأشهر الحرم

وكانوا يحرمون القتال فيه وهو شهر الله الأصم ، كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

العمرة الرجبية

والعمرة الرجبية عندهم اخت الوقفة العرفية ، لأنهم يحتفلون لها الاحتفال الذي لم يسمع بمثله ويبادر اليها اهل الجهات المتصلة بها فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم الا الله عز وجل فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدي ذكره غرابة وعجباً . شاهدنا من ذلك امراً يعجز الوصف عنه ، والمقصود منه الليلة التي يستهل فيها الهلال مع صبيحتها . ويقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام ، فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار . وذلك لأنّا عاينا بشوارع مكة وازقتها ، من عصر الاربعاء . وهي العشية التي ارتقب فيها الهلال ، قد امتلأت هوادج مشدودة على الابل مكسوة بأنواع كسا الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة احوال اربابها ووفرهم ، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته ، فأخذوا في الخروج الى التنعيم ميقات المعتمرين فسالت تلك الهوادج في اباطح مكة وشعابها ، والابل قد زينت تحتها بأنواع التزيين واشعرت بغير هدي بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره . وربما فاضت الاستار التي على الهوادج حتى تسحب اذيالها على الأرض .

ومن اغرب ما شاهدناه من ذلك هو هودج الشريفة جمانة بنت فليتة عمة الأمير مكثر ، فان اذيال ستره كانت تنسحب على الأرض انسحاباً وغيره من هوادج حرم الأمير وحرم قواده ، الى غير ذلك من هوادج لم نستطع تقييد عدتها عجزاً عن الاحصاء . فكانت تلوح على ظهور الابل كالقباب المضروبة فيخيل للناظر اليها أنها محلة قد ضربت ابنيتها من كل لون رائق .

ولم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة الا من خرج للعمرة من اهلها ومن

المجاورين ، وكنا في جملة من خرج ابتغاء بركة الليلة العظيمة فكدنـــا لا نتخلص الى مسجد عائشة من الزحام وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج . والنيران قد اشعلت بحافتي الطريق كله، والشمع يتقد بين ايدي الابل التي عليها هوادج من يشار اليه من عقائل نساء مكة .

فلما قضينا العمرة وطفنا وجئنا للسعي بين الصفا والمروة ، وقد مضى هدء من الليل ، ابصرناه كله سرجاً ونيراناً وقد غص بالساعين والساعيات على هوادجهن ، فكنا لا نتخلص الا بين هوادجهن وبين قوائم الابل لكثرة الزحام واصطكاك الهوادج بعضها على بعض . فعاينا ليلة هي اغرب ليالي الدنيا ، فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجباً يحدث به ولا عجباً يذكره مرأى الحشر يوم القيامة لكثرة الخلائق فيه ، محرمين ملبين ، داعين الى الله عز وجل ضارعين والجبال المكرمة التي بحافتي الطريق تجيبهم بصداها ، حتى سُكّت المسامع ، وسُكبت من هول تلك المعاينة المدامع ، وذابت القلوب الخواشع .

وفي تلك الليلة مُلِيء المسجد الحرام كله سُرُجاً فتلألأ نوراً ، وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير امر بضرب الطبول والدبادب [١] والبوقات اشعاراً بأنها ليلة الموسم .

ويوضح ابن جبير انه في صبيحة ليلة الخميس خرج الى العمرة في احتفال لم يُسمع بمثله انحشد له اهل مكة على بَكْرَة ابيهم فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة وحارة وحارة شاكّين في الأسلحة فرساناً ورجّالة فاجتمع منهم عدد لا يُحصى كثرة ... فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب ، فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالاسلحة عليها ... فلما كان اليوم الثاني ، وهو يوم الجمعة ، كان طريق العمرة في العمارة قريباً من أمسه ، راكبين

(١) الواحد دبداب : نوع من الطبول .

وماشين، رجالاً ونساءً، والنساء الماشيات المتأجّرات كثيرات يسابقن الرجال في تلك السبيل المباركة، تقبّل الله من جميعهم بمنّه.

وفي اثناء ذلك يلاقي الرجال بعضهم بعضاً فيتصافحون ويتهادون الدعاء والتغافرُ ببنيهم، والنساء كذلك. والكل منهم قد لبس افخر ثيابه واحتفل إحتفال اهل البلاد للأعياد؛ واما اهل البلد الأمين فهذا الموسم عيدهم، له يَعْبَأون وله يحتفلون، وفي المباهاة فيه يتنافسون وله يعظّمون، وفيه تَنْفُق اسواقهم وصنائعهم. يقدّمون النظر في ذلك والاستعداد له بأشهر.

ثم يستطرد الرحالة ابن جبير للتحدث عن قبائل من اليمن تعرف بالسرو وهم اهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسَراة كانها مضافة لسَراة الرجال ... وتجمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة ... ولولا هذه الميرة لكان اهل مكة في شظف من العيش؛ ومن العجب في امر هؤلاء المائرين انهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم. انما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمَل، فأهل مكة يُعدّون لهم من ذلك مع الأقنعة والملاحف المِتان وما اشبه ذلك مما يلبسه الاعراب.

والعُمرة في هذا الشهر كله متصلة ليلاً ونهاراً ... فاذا كان اليوم التاسع والعشرون منه أفرد للنساء خاصة. فيظهر للنساء بمكة في ذلك اليوم احتفال عظيم فهو عندهم يوم زينتهم المشهور المستعدّ له.

عمرة الاكمة

وفي ليلة الثلاثاء السابع والعشرين منه. اعني من رجب. ظهر لأهل مكة ايضاً احتفال عظيم في الخروج الى العمرة لم يقصر عن الاحتفال الأوّل ... وهذه العمرة يسمونها عمرة الأكمة؛ والأصل في هذه العمرة الأكمية عندهم ان عبد الله بن الزبير لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشياً حافياً معتمراً

واهل مكة معه ... وجعل طريقه على ثنيّة الحجون المفضية الى المَعْلى التي كان دخول المسلمين يوم فتح مَكّةَ منها ... فبقيت تلك العمرة سنة عند اهل مكة في ذلك اليوم بعينه وكان يوم عبد الله ، رضي الله عنه ، مذكوراً مشهوراً لانه اهدى فيه كذا وكذا بَدَنَة ... ولم يبق من اشراف مكة وذوي الاستطاعة فيها الا من اهدى واقام اهلها اياماً يَطْعَمُون ويُطعِمون ويتَنَعّمون وينعمون شكراً لله عز وجل .

يوم طواف النساء .

وفي اليوم التاسع والعشرين منه وهو يوم الخميس افرد البيت للنساء خاصة ... ولم تبق امرأة بمكة الا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم[١] ... وظهر من تزاحمهن ما ظهر من السّرو اليمنيين مُدة مُقامهم بمكة وصعودهم يوم فتح البيت المقدس[٢] .

زيادة ماء زمزم

وفي يوم الجمعة الثاني من ذلك اليوم اصبح بالحرم امر عجيب وذلك انه لم يبق بمكة صبيّ إلاّ وصبحه واجتمعوا كلهم في قبة زمزم ، وينادون بلسان واحد : هللوا وكبّروا يا عباد الله فيهلل الناس ويكبرون ... والناس والنساء يزدحمون على قبة البئر المباركة لأنهم يزعمون بل يقطعون قطعاً جهلياً لا قطعاً عقلياً ، ان ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان ... وكان من الاتفاق ان اعتنينا بهذا الأمر لغلبة الاستفاضة التي سمعناها في ذلك واستمرارها مع سوالف الأزمنة عند عوام أهل مكة ؛ فتوجه منا ليلة الجمعة من أدلى دلوه في البئر المباركة الى ان ضرب في صفح الماء وانتهى الحبل الى حافة التنور وعقد فيه عقداً يصح عندنا القياس به في ذلك ، فلما كان في

---

(١) ص ١١٥ . (٢) ١١٦ .

صبيحتها وتنادى الناس بالزيادة ، الزيادة الظاهرة ، خلص احدنا في ذلك الزحام على صعوبة ومعه من استصحب الدلو وادلاه فوجد القياس على حاله لم ينقص ولم يزد ، بل كان من العجب ان عاد للقياس ليلة السبت فالقاه قد نقص يسيراً لكثرة ما امتاح الناس منه ذلك اليوم [١] .

وهذه الليلة المباركة ، اعني ليلة النصف من شعبان عند اهل مكة معظمة للاثر الكريم الوارد فيها ، فهم يبادرون فيها الى اعمال البر من العمرة والطواف والصلاة افراداً وجماعة [٢] .

شهر رمضان

ويرى ابن جبير رمضان في مكة وقد استهل هلاله ليلة الاثنين التاسع عشر لكانون الاول (ديسمبر) ، وكان صيام اهل مكة له يوم الاحد بدعوى في رؤية الهلال لم تصح .

والمؤذن الزمزمي يتولى التسحير في الصومعة التي في الركن الشرقي من المسجد بسبب قربها من دار الامير ... وفي ديار مكة كلها سطوح مرتفعة ، فمن لم يسمع نداء التسحير ممن يبعد مسكنه من المسجد يبصر قنديلين يقدان في اعلى الصومعة فاذا لم يصبرهما علم ان الوقت قد انقطع [٣] .

ويشير الى طواف الأمير « مُكثر » ليلة الثلاثاء الثاني من الشهر مع العشي مودعاً ... والمتحدَّثُ به في وجهته قصدُ اليمن لاختلاف وقع فيها وفتنة حدثت من امرائها ، لكن وقع في نفوس المكيين منه ايجاس خيفة واستشعار خشية ؛ وفي ضحوة يوم الاربعاء الثالث من الشهر المبارك سمعت دبادب الامير مكثر وأصوات نساء مكة يولولن عليه [٤] ... وكان هذا اليوم بمكة من الايام الهائلة المنظر العجيبة المشهد الغريبة الشأن .

---

(١) ص ١١٩ . (٢) ص ١١٩ . (٣) ص ١٢٣ . (٤) ص ١٢٤ .

تراويح رمضان

وهذا الشهر المبارك قد ذكرنا اجتهاد المجاورين للحرم الشريف في قيامه وصلاة تراويحه وكثرة الأئمة فيه ، وكل وترٍ من الليالي العشر الأواخر يُختم فيها القرآن ، فاولها ليلة احدى وعشرين ، ختَتَم فيها احد ابناء أهل مكة وحضر الختمة القاضي وجماعة من الاشياخ فلما فرغوا منها قام الصبي فيهم خطيباً ؛ ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشرين وكان المختم فيها احد ابناء المكيين ذوي اليسار غلاماً لم يبلغ سنّهُ الخمس عشرة سنة فاحتفل ابوه لهذه الليلة احتفالاً بديعاً [1] .

ويذكر ابن جبير بعض احتفالات مكه ويوضّح كيف احدق بشُرفات الحرم كلّها صبيان مكة ، وقد وضعت بيد كل منهم كرةٌ من الخِرَق المشبعة سليطاً [2] فوضعوها متقدة في رؤوس الشرفات واخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الاربع فجعلت كل طائفة تتباري صاحبتها في سرعة ايقادها ، فيخيل للناظر ان النار تشب من شرفة الى شرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المرتمي الابصار .

ويصف لنا عيد الفطر في مكة [3] ومناسك الحج [4] وانفصال الحاج الى مكة ، ويبين وصوله الى مكة قريب الظهر ، ويروى قصة صعوده الى جبل ثور لمعاينة الغار المبارك وولوجه إياه من الموضع الذي يعسُرُ الولوج منه على البعض من الناس تبركاً بمس بشرة البدن بموضع مسه الجسم المبارك لان مدخل النبي (ص) كان منه ، وكان الاعتقاد السائد ان الذي لا يستطيع ولوجه من هذا الموضع مولود لغير رشدة [5] ... وهذا الجبل صعب المرتقى جداً يقطع الانفاس تقطيعاً لا يكاد يبلغ منتهاه الا وقد القى بالايدي اعياء

---

(١) ص ١٢٧ . (٢) السليط الزيت الجيد .
(٣) ص ١٣٤ . (٤) ١٣٥ . (٥) اي غير شرعي .

وكلالاً وهو من مكة على مقدار ثلاثة اميال ، وعلى ذلك القدر هو جبل حراء منها [١] .

وفي يوم الجمعة بعده كان وصول السرو اليمينيين في عدد كثير مؤملين زيارة قبر الرسول (ص) وقد جلبوا ميرة الى مكة على عادتهم فاستبشر الناس بقدومهم استبشاراً كثيراً . حتى أنهم اقاموه عوض نزول المطر[٢]

ويعرض لذكر مسجد مولد النبي ، ودار خديجة الكبرى [٣] وفيها مولد فاطمة (ع) وهو بيت صغير مائل للطول ، وفي البيت المذكور مولد الحسن والحسين ابنيها (ع) ومسقط شلو الحسن لاصق بمسقط شلو الحسين وعليهما حجران ماثلان الى السواد كأنهما علامتان للمولدين المباركين الكريمين .

ويستطرد ابن جبير ليذكر لنا مجيء السرويين اليمنيين وتوجههم لزيارة التربة المباركة طيبة من عند رسول الله (ص) ووصولهم في اسرع مدة اذ قطعوا الطريق من مكة الى المدينة في يسير ايام ، ووصول طوائف أخرى للحج خاصة لضيق الوقت عن الزيارة فاقاموا بمكة [٤] .

ويتحدث عن فساد ظهر في اشرف بقاع الأرض في زمانه فقد عزل زعيم الشيبي عن منصبه ولم يلبث ان عاد اليه بخمسمائة دينار مكية استقرضها ودفعها لاولي الأمر .

ويعرج على الحديث عن دار الخيزُران التي كان منها منشأ الاسلام وهي بازاء الصفا ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل اليها كان مسكن بلال (رضي)

وفي أيام ابن جبير وصل الامير عثمان بن علي صاحب عدن خرج منها فاراً أمام سيف الاسلام ... ووصل مكة بِعير موقرة متاعاً ومالاً دخلت

---

(١) ص ١٣٩ . (٢) ص ١٤٠ . (٣) ص ١٤١ — ١٤٥ .
(٤) ص ١٤٣ . (٥) ١٤٤ — ١٤٥ .

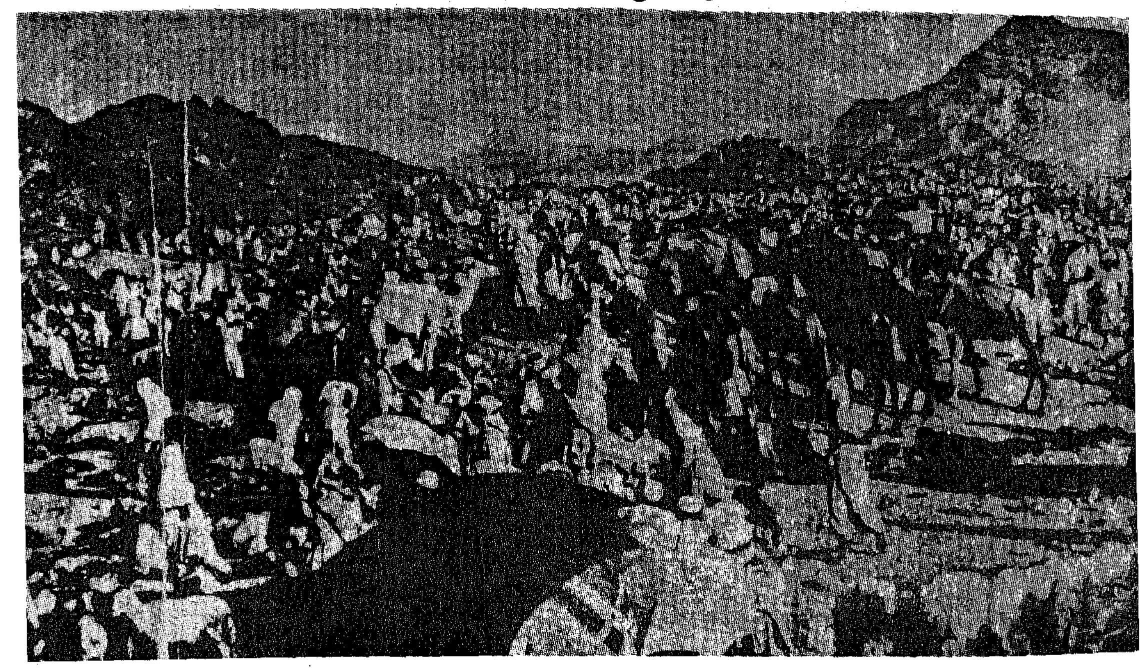
على اعين الناس الى داره التي ابتناها بها بعد ان قدّم نفيس ذخائره ومدخّر ماله وجملة رقيقه وخدمه ليلاً.

ولما كان يوم الاربعاء السابع من ذي الحجة، وصل المبشّر وكانت نفوس اهل مكة قد اوجست خيفة لبطئه حذراً من حقد الخليفة على اميرهم مكثر لمذموم فعل صدر عنه، فكان وصول هذا البشير اماناً وتسكيناً للنفوس الشاردة فوصل مبشراً ومؤنساً واعلم برؤية الهلال ليلة الخميس المذكور؛ فلما كان يوم الخميس بكّر الناس بالصعود الى منى وتمادوا منها الى عرفات ... واتصل صعود الناس ذلك اليوم كله والليلة كلها الى يوم الجمعة كله فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصى عدده الا الله عز وجل؛ ومزدلفة بين منى وعرفات، من منى اليها ما من مكة الى منى، وذلك نحو خمسة أميال ومنها الى عرفات مثل ذلك اواشف قليلاً وتسمى المشعر الحرام ...

ويشير في كلامه الى «جبل الرحمة»[١] والى وصول الأمير العراقي

(١) ص ١٥١ – ١٥٣.

اجتماع الحجاج في عرفة السنوات القديمة نقلا عن اميل ايسين.



والأمراء الأعاجم الخراسانين [١] ثم يرجع القول الى استيفاء حال النفرْ عشية الوقفة المذكورة بعرفات ، وذلك ان الناس نفروا منها بعد غروب الشمس فوصلوا مزدلفة مع العشاء الآخرة فجمعوا بها بين العشائين .

ولما كان اليوم الثالث يتعجل الناس في الانحدار الى مكة بعد أن كمل لهم رمي تسع واربعين جمرة - نفروا الى مكة فمنهم من صلى العصر بالأَبْطَحْ ، ومنهم من صلاّها بالمسجد الحرام ... وقد كانت في يوم الانحدار المذكور بين سودان اهل مكة والاتراك العراقيين جولةٌ وهوشة وقعت فيها جراحات وسُلّت السيوف فوقى الله شر تلك الفتنة بتسكينها سريعاً [٢] .

ويستطرد الرحالة الشهير في حديثه الى « كسوة الامير العراقي للكعبة » ففي يوم السبت ، يوم النحر ، سِيقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الامير العراقي الى مكة على اربعة جمال .

ثم يتكلم عن « يوم الاعاجم العراقيين » [٣] و « سوق المسجد الحرام » [٤] ... لينتهي الى « يوم الرحيل » ففي عشي يوم الاحد وهو اول ابريل (نيسان) كان مسير ابن جبير وصحبه الى محلة الامير العراقي بالزاهر ، وهو على نحو الميليين من البلد وقد كمل اكتراؤهم الى الموصل وهي على بعد عشرة ايام من بغداد ... فكانت مدة مقامهم بمكة من يوم وصولهم اليها وهو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة ٧٩ الى يوم اقلاعهم وهو يوم الخميس الثاني والعشرين لذي الحجة من السنة المذكورة ثمانية اشهر وثُلث أشهر .

---

(١) ص ١٥٣ - ١٥٥ . (٢) ص ١٥٧ . (٣) ص ١٥٨ . (٤) ص ١٦٠ .

ابن بطوطه ومكة

وبعد نحو مائتي سنة من وفاة ابن جبير اي في سنة ٧٢٥ هـ على وجه الضبط قام الرحالة ابن بطوطة (٧٠٣ هـ – ٧٧٩ هـ) بالحج الى مكة وزيارة قبر الرسول (ص) ويبدو ان الحج عند المسلمين كان الدافع الاكبر لظهور فكرة السياحات في مختلف اقطار العالم ووضع المؤلفات فيها؛ وقد ولد ابن بطوطه في طنجه وخرج من بلده في سن الثانية والعشرين ثم أخذ في الرحلة فبدأ بالحرمين الشريفين فالشام فالعراق ففارس فآسيا الصغرى فجنوب روسيا فافغانستان الى دهلى والصين وقد استهل ابن بطوطة كلامه في مكة بقوله[1]:

« وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها[2]، وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ، و (الاخشبان) من جبالها هما جبل أبي قبيس وهو

---

(١) طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م وهي بعنوان « رحلة ابن بطوطه المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار »، ص ٨٠.

(٢) تشبهها من هذه الناحية مدينة في غربي الولايات المتحدة اسمها البوكيركي Albukerki مختفية عن الانظار لا يراها القادم الا بغتة حين يصل اليهـا!

في جهة الجنوب منها وجبل قعيقعان وهو في جهة منها وفي الشمال منها الجبل الاحمر ومن جهة ابي قبيس اجياد الاكبر ، واجياد الاصغر ، وهما شعبان والخندمة وهي جبل (والمناسك كلها منى ، وعرفه والمزدلفة) بشرقي مكة ، ولمكة من الأبواب ثلاثة : باب المعلى باعلاها ، وباب الشبيكة من اسفلها ، ويعرف ايضاً بباب العمرة وهو الى جهة المغرب وعليه طريق المدينة ، ومصر ، والشام ، وجده ومنه يُتوجه الى التنعيم وباب المسفل وهو من جهة الجنوب ...

ويمضي ابن بطوطه بهذا الاسلوب في وصف جغرافية مكة وطوبو غرافيتها اي تخطيطها وما يتوفر فيها من الفواكه والحاصلات ، وهو في اكثر ما يذكر ينقل من رحلة ابن جبير اما مباشرة بالحرف الواحد او باقتباس المعنى ؛ وابن بطوطه اكثر تفصيلاً ومتعة لكثرة ما يورد من حكايات ونوادر وحوادث ويلوح لنا انه اقل صدقاً ودقة .

وبعد ان يذكر « المسجد الحرام »[1] وموقعه ينتقل الى ذكر « الكعبة »[2] و « الميزاب »[3] و « الحجر الأسود » و « المقـــام الكريم[4] » و « الحجر والمطاف » و « زمزم » فيذكر ان قبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود وبينهما اربع وعشرون خطوة والمقام الشريف عن يمين القبة ومن ركنها اليه عشر خطى.وداخل القبة مفروش بالرخام الابيض ، وتنور البئر المباركة في وسط القبة مائلاً الى الجدار المقابل للكعبة الشريفة وهو من الرخام البديع الالصاق مفروغ بالرصاص ... وعمق البئر احدى عشرة قامة ، وهم يذكرون ان ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة[5] .

---

(١) ص ٨٠ . (٢) ص ٨١ . (٣) ص ٨٢ . (٤) ص ٨٣ .

(٥) هكذا نجد فكرة تزايد مائها يصبح عنه ابن بطوطه كل ليلة جمعة بعد ان كانت عند ابن جبير في منتصف شعبان فقط ومع ذلك فقد شكك ابن جبير في هذا الشياع .

الخليلي

ثم ينتقل الرحالة الى ذكر «أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد[١] و «الصفا والمروة»[٢] وذكر «الجبّانة المباركة»[٣] خارج باب المعلى ويعرف ذلك الموضع بالحجون واياه عنى الحارث بن مضاض الجرهمي بقوله (من الطويل): كان لم يكن بين الحجون الى الصفا .. الخ وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين، والعلماء، والصالحين والاولياء، الا ان مشاهدهم دثرت وذهب عن أهل مكة علمها فلا يعرف منها الا القليل فمن المعروف منها قبر خديجة بنت خويلد، وبمقربة منه قبر ابي جعفر المنصور، وفيها الموضع الذي صلب فيه عبدالله بن الزبير.

ويستطرد ابن بطوطه فيلم «ببعض المشاهد خارج مكة»[٤] فمنها (الحجون) الذي ألمعنا اليه ومنها (المحصب) وهو ايضاً الابطح وهو يلي الجبانة المذكورة وفيه خيف بني كنانة الذي نزل به رسول الله (ص) ومنها ذو طوى وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصحاص دون ثنية كداء.

ويعرّج على ذكر «الجبال المطيفة بمكة»[٥] ويأتي على خبر الغار المبارك وكيف ان بعضهم لا يدخله خوف الفضيحة التي ذكرها ابن جبير فيكتفي بالصلاة امامه[٦] ولكن ابن بطوطه يكشف سر استطاعة او عدم استطاعه الولوج إلى الغار وذلك ان من دخل من ذلك الشق منبطحاً على وجهه وصل رأسه الى ذلك الحجر فلم يمكنه التولج ولا يمكنه ان ينطوي الى العلو ووجهه وصدره يليان الارض فذلك هو الذي ينشب ولا يخلص الا بعد الجهد والجذب الى خارج ومن دخل مستلقياً على ظهره امكنه لأنّه اذا وصل رأسه الى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعداً فكان ظهره

---

(١) ص ٨٥ . (٢) ص ٨٦ . (٣) ص ٨٧ .
(٤) ص ٨٧ . (٥) ص ٨٨ – ٩٠ . (٦) ص ٨٩ .

مستنداً الى الحجر المعترض واوسطه في الشق ورجلاه من خارج الغار ثم ينهض قائماً بداخل الغار .

ولا ينسى ابن بطوطه سرد « فضائل اهل مكه » من ايثارهم الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار ، والعفة ، والظرف ، والنظافة ؛ ثم يذكر « المجاورين بمكة »[١]

ويعرج على « ذكر عادة اهل مكة في صلواتهم ومواضع ائمتهم » ،[٢] وعادتهم في الخطبة وصلاة الجمعة ، وفي استهلال الشهور ، وفي شهر رجب ، وعمرة رجب و « احرام الكعبة » ، ثم يسرد شعائر الحج واعماله[٣] ويتحدث عن « كسوة الكعبة » ، مختتماً الحديث بانفصاله عن مكة المكرمة بصحبته امير ركب العراق البهلوان محمد الحُوَيْح الموصلي[٤] .

(١) ص ٩٤ – ٩٥ .
(٢) ص ٩٨ – ٩٩ . (٣) ١٠٤ – ١٠٦ . (٤) ص ١٠٦ – ١٠٩ .

مكة في رحلة ناصر خسرو الموسومة بـ (سفرنامي)

رحلة ناصر خسرو علوي ، من الرحلات المشهورة التي دونت بالفارسية وقام بترجمتها الدكتور يحي الخشاب[1] ، وهي رحلة شاعر فارسي تقع حوادثها بين سنة ٤٣٧ و ٤٤٤ هـ فتكون بذلك قد سبقت رحلة ابن جبير بما ينوف على المائة عام ، وهي بدون شك تقف في مصاف رحلة ابن فضلان[2] رسول المقتدر بالله العباسي الى بلاد البلغار القديمة ، ورحلة ابن جبير في القرن السادس للهجرة ورحلة ابي الحسن الهروي الموصلي في القرن ذاته ورحلة البـَلَوي المغربي وابن بطوطة المغربي في القرن الثامن للهجرة .

بلغ ناصر خسرو مكه[3] في يوم الأحد السادس من ذى الحجة ونزل

---

(١) القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الاولى ، ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م ، عدتها ١٠٧ صفحات .

(٢) كانت هذه الرحلة في القرن الثالث للهجرة فهي لذلك تعد اقدم ما عرفنا من رحلات على عهد المسلمين .

(٣) ورد ذكر مكة في السفرنامه في الصفحات الآتية : ١٩، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٣٠، ٣٦، ٣٧، ٤٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٥ هـ، ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٨١، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩٣، ١٠٧ فضلا عن صفحات مقدمة المترجم وهي : ط ، ي ، م .

عند باب الصفا ، وكان بمكة قحط [١] ، فكانت الاربعة امنان من الخبز بدينار نيسابوري ، وقد هاجر منها المجاورون ولم يفد عليها حاج من اي بلد ، وقد ادى فريضة الحج يوم الاربعاء في عرفات ، ولبث بمكة يومين ؛ وخرج من الحجاز خلق كثير مما أصابهم من الجوع والفقر ، وتفرقوا في البلاد ؛ ثم توجه ناصر خسرو ناحية مصر وقد هاجر اليها من الحجاز في ذلك العام خمسة وثلاثون الف آدمي .

وفي شهر رجب سنة اربعين واربعمائة (ديسمبر سنة ١٠٤٨) قرأوا على الناس مرة اخرى مثالاً للسلطان بان في الحجاز قحطاً ، وليس من الخير ان يسافر الحجاج ، فلم يسافروا [٢] ، ولكن السلطان لم يقصر البتة في ارسال ما كان يرسله كل سنة من الكسوة واجور الخدم والحاشية ، وامراء مكة والمدينة وصلة امير مكة وقد كانت ثلاثة آلاف دينار في الشهر ، وكانت ترسل اليه الخيول والخلع مرتين في السنة وعهد بهذا في هذه السنة الى رجل اسمه القاضي عبدالله ، من قضاة الشام وقد ذهب ناصر خسرو معه عن طريق القلزم وهذه هي رحلته الثانية ، الى مكة ، وكان موعد الحج قد قرب كثيراً وكان الجمل يؤجر بخمسة دنانير فسار مسرعاً ... فبلغها في الثامن من ذي الحجة وادى فريضة الحج وقد حدث ان قافلة عظيمة اتت للحج من بلاد المغرب ، وفي اثناء عودة حُجاجها ، عند باب المدينة المنورة ، طلب العرب « الخفارة » منهم ، فقامت الحرب بينهم ، وقتل من المغاربة اكثر من الفي رجل ، ولم يعد كثير منهم الى المغرب .

ومن طريف ما يذكره ناصر خسرو ان جماعة من أهل خراسان قاموا عن طريق الشام ومصر فبلغوا المدينة في سفينة ، وقد بقي عليهم ان يقطعوا مائة فرسخ واربعة حتى عرفات وهم في السادس من ذي الحجة ،

---

(١) خلافاً لوضع الرخاء والخصب الذي يصفه ابن جبير بعد قرن من الزمان .
(٢) ص ٦٧ .

فقالوا : ان كلا منا يدفع اربعين ديناراً لمن يرحلنا الى مكة في هذه الأيام الثلاثة الباقية لنلحق الحج ، فجاء الاعراب واوصلوهم الى عرفات في يومين ونصف يوم ، واخذوا اجورهم ذهباً ، وكانوا قد شدوهم الى جمال سريعة ، واتوا بهم من المدينة الى عرفات ؛ وقد هلك اثنان منهم ، وكانوا موثقين على الجمال ، وكان اربعة منهم نصف أموات ، وقد بلغوا عرفات ... ساعة صلاة العصر ، وكانوا لا يستطيعون الوقوف او الكلام . قالوا : « انا توسلنا كثيراً في الطريق ان يأخذ هؤلاء الاعراب الذهب الذي اشترطنا وان يتركونا ، فانه لا طاقة لنا على مواصلة السفر ، ولكنهم لم يسمعوا لنا وساقونا على هذا النحو » ، ومهما يكن ، فقد حج هؤلاء الأربعة وعادوا عن طريق الشام .

وقد وصف ناصر خسرو ، على نحو ما فعل بعده ابن جبير وابن بطوطه « المسجد الحرام والكعبة »[1] و « باب الكعبة » ثم وصف « الكعبة من الداخل »[2] ، و « بئر زمزم »[3] وجاء على وصف « فتح باب الكعبة » (« وعمدة الجعرانة ») وهي مكان على اربعة فراسخ من شمال مكة كان به النبي (ص) مع جيشه في السادس عشر من ذي القعدة فاحرم منه وجاء الى مكة واعتمر .

وقد ذكر ناصر خسرو ان الكعبة تقوم وسط المسجد الحرام وان المسجد الحرام يقوم وسط مكة ، والمسجد ممتد طولاً من الشرق الى الغرب وعرضاً من الشمال الى الجنوب ، وسوره ليس قائم الزوايا ، بل اركانه مقوسة ، تميل الى الاستدارة ، وذلك حتى تكون وجوه جميع المصلين شطر الكعبة في اي جهة كانوا يصلون بالمسجد .

ولم نجد في سائر اوصافه للكعبة المشرفة وما يتصل بها اكثر مما مر بنا في رحلتي ابن جبير وابن بطوطه .

---

(١) ص ٧٩ — ٨٢ . (٢) ص ٨٢ — ٨٤ . (٣) ص ٨٤ — ٨٥ .

(رحلات) عبد الوهاب عزّام

اما في عصرنا الحديث ، فقد ظهرت « رحلات » الدكتور عبدالوهاب عزام [1] وقدكتب الفصل الخاص بمكة باسلوب شعري خيالي لطيف [2] ، فيقول :

« الليل مهوّد وسنان ، ترى العين سكونه ، ويحسّ القلب سكينته ؛ ... وتبدو في سكون الليل ونور القمر قمم الجبال : خندمة وابي قبيس واجياد [3] .

هذا هو المسجد الحرام ! فهل تقع العين الا على مصلٍ خاشع ، وطائفٍ بالكعبة واله ، وقارىء تنطق بضراعته الآيات ، وداعٍ يُرسل قلبه في كلماتٍ ؟

أنْظُرُ فلا اجد في هذا البناء تمثالاً ولا صنماً ولا وثناً ولا صورة ولا نقشاً . انما هو التوحيد في خلوصه ، والعقيدةُ في يُسرها ، والاسلام في فطرته ؛ بيت لعبادة الله يؤمه عباد الله . »

---

(١) مطبعة الرسالة ١٣٥٨ ﻫ / ١٩٣٩ م .
(٢) ص ٣١٥ – ٣٤٥ .
(٣) جبال في مكة .

وبهذا الاسلوب يستمر ليقول[1] تحت عنوان : « في خَيف منى » :

هذا ثاني ايام التشريق ومنى غاصة بمضاربها قد اجتمع اليها الحجيج من أرجاء الارض ... وقد ادينا بحمد الله المناسك ولم يبق الا رمي الجمار . لبثنا قليلاً ثم هبطنا الى فجوة بين الصخور تسمى غار المرسلات ؛ يقال ان السورة الكريمة « والمرسلات عرفاً » اوحيت الى صاحب الرسالة صلوات الله عليه هناك .

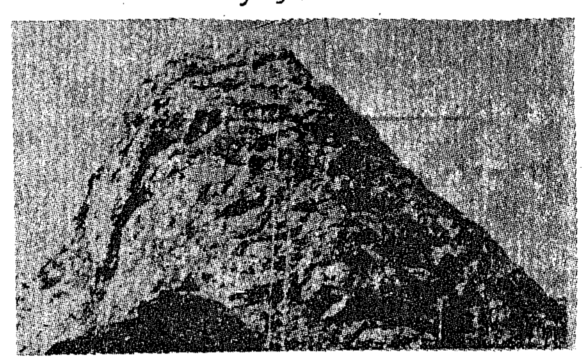
وما زال الاستاذ عزام يصعد حتى بلغ مسجد الخيف وهو مسجد برّي عُطل من الزينة ، فراشه الحصباء ، ورأى عن شماله المحصّب حيث العقبات الثلاث التي ترمى فيها الجمرات ؛ والى اليمين يمتد وادي منى بين سطرين من الجبال الشاهقة يساير فيها الطرفُ اسراب الحمام الى ان يكلّ .

واما الجبل الشامخ الذي يمتد على جانب الوادي الايسر فهو ثبير وكم ردد التاريخ والشعر ذكر ثبير ![2]

وتغلب على رحلة الدكتور عزّام مسحة من تاريخ الادب الجاهلي وصدرالاسلام[3] ويشير الى الفاظ من نحو « بَشام »[4] و « سَلَم »[5] و « ريع »[6] ترد في حديث أعرابي معه فيقول الدكتور الرحالة : « لو اتسع الوقت لاخذنا كثيراً من اللغة من هذا الاعرابي ، فمن كان يظن ان هذه الفاظ ميتة في المعاجم فليعلم انها لاتزال حية في أفواه كثير من العرب ! »[7]

ثم ينتقل الى الحديث عن غار حراء »[8] وكله اسلوب خطاب وذكريات

غـار حراء



---

(١) ص ٣١٩ . (٢) ص ٣٢١ . (٣) لاحظ بصورة خاصة ص ٣٢٢ – ٣٢٣ . (٤) نوع من العود . (٥) نوع من الشجر . (٦) الريع : المكان المرتفع . (٧)ص ٣٢٥ .(٨) ص٣٢٥ .

وخيال صوفيّ يختمه بقوله : «أيها الغار ، يا مولد الحق ، ومطلع النبوة ومأوى محمد ! لولا أن محمداً الكريم نهانا لقبّلت احجارك واكتحلت بترابك !

أيها الغار ! من لي فيك بخلوة ، من لي بخلوة فيك ! »[1]

وقد خصص القسم الرابع للحديث عن الحج[2] والخامس للمدينة المنورة[3] .

(١) ص ٢٣٠ . (٢) ص ٢٣٠ – ٢٣٧ . (٣) ص ٢٣٩ – ٢٤٥ .

مكة في رحلة السائح الهروي[1]

يقول السائح الهروي في حديثه عن مكة ان «بها الكعبة المعظمة» وقيل سميت كعبة لان ابراهيم «عم» لما بناها جعل طولها في السماء تسع أذرع ، وجعل من الركن الاسود الى الركن الشمالي مما يلي بابها اثنتين وثلاثين ذراعاً ، ومن الجانب الغربي احدى وثلاثين ذراعاً ، ومن الركن الذي فيه الحجر الاسود الى الركن الذي تجاهه من جهة الجنوب اثنتين وعشرين ذراعاً ومن الجانب الشمالي تجاهه عشرين ذراعاً ، ودورها مائة وخمس أذرع ولم تزل كذلك الى ان هدمتها قريش وعمرتها قريش في عهد رسول الله «صلعم» وصغروها عما كانت عليه اولاً ، وبقي منها في الحجر ست اذرع ونصف وزادوا في ارتفاعها تسع اذرع فصار ارتفاعها ثمان وعشرة ذراعاً[2] .

ويقول انه «كان بها صور الملائكة والأنبياء (عم) والشجرة وصورة

(١) وهو كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات لابي الحسن بن علي بن ابي بكر الهروي المتوفى بحلب سنة ٦١١ هـ ، وقد عنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل- طومين ، طبع بدمشق ١٩٥٣ ، وعدة الكتاب ١٠٠ صفحة عدا الفهارس ، وهو من منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق . (٢) ص ٨٥ .

ابراهيم (عم) والازلام بيده وصورة عيسى بن مريم وامه (عم) فلما كان عام الفتح امر رسول الله (صلعم) فطُمست جميع الصور ما عدا صورة المسيح وامه وكان بها قرنا الكبش الذي ذبحه ابراهيم(عم) معلقة داخل الكعبة وبقيت كذلك الى عهد ابن الزبير فاحترقت ولما بناها ابن الزبير ادخل الحِجْر فيها فبقيت عريضة قصيرة فزاد في ارتفاعها تسع اذرع فطولها في السماء سبع وعشرون ذراعاً وهي سبعة وعشرون سافاً من الحجارة ... فلما قتله الحجاج خرّب ما عمره ابن الزبير في الحِجْر ... وسدّ باب الكعبة الغربيّ »[1].

ويقول مؤلف الكتاب : رأيت الباب الذي فتحه ابن الزبير غربي الكعبة وسدّه الحجاج ، وعتَبَتَهُ على حالها وعددت حجارتها المسدود بها وذرعت دائر مدينة مكة ومدينة يثرب – حرسهما الله تعالى – وذرعت طول الآبار المشهورة بمكة فلما غرقت كتبي عجزت عن اثبات ذلك .

ثم يعدد المشاهد والمقابر واضرحة الصحابة والاولياء الصالحين ويبين مواضعها من مكة ويكاد يفوق سائر السيّاح بالارقام والقياسات التي أجراها هو بالفرات[2] ، ولكن تعوزه حيوية ابن بطوطة وابن جبير في كتابيهما ، فلا يوجد في هذه الرحلة ما هو ملموس من رونق وجمال اسلوب أدبي ناصع في الرحلتين آنفيّ الذكر .

(١) ص ٨٥ – ٨٦ . (٢) ص ٨٦ – ٨٩ .

منازل مكة

كتبه
الدكتور حسين علي محفوظ
دكتوراه الدولة من جامعة طهران
والمفتش الاختصاصي بوزارة التربية سابقاً
والاستاذ بكلية الآداب في جامعة بغداد اليوم

منازل مكة

منازل مكة في مصطلح الجغرافيا ــ الطرق اليها ؛ وقد تعرضت أكثر كتب الجغرافيا والمسالك لها .

أما المقدسي ، فقد ذكر مملكة الإسلام في كتابه « أحسن التقاسيم » . وحرّر طرقها المعروفة ، وقسمها أربعة عشر اقليماً ؛ هي :

(أ) أقاليم العرب :

١ ــ جزيرة العرب . ٢ ــ العراق . ٣ ــ اقور . ٤ ــ الشام . ٥ ــ مصر . ٦ ــ المغرب .

(ب) أقاليم العجم :

١ ــ المشرق . ٢ ــ الديلم . ٣ ــ الرحاب . ٤ ــ الجبال . ٥ ــ خوزستان . ٦ ــ فارس . ٧ ــ كرمان . ٨ ــ السند .

والطرق إلى مكة منها ، أربعة ؛ هي :

١ ــ طريق العراق من الكوفة الى المدينة ، وهو طريق أقاليم العجم ــ

أيضاً . ٢ – طريق الشام . ٣ – طريق مصر ، وهو طريق المغرب – أيضاً . ٤ – طريق الجزيرة .

وأما ابن رستة ، فقد ذكر في « الأعلاق النفيسة » :

أ – الطريق من مدينة السلام الى إقصى خراسان وغيرها .

١ – المسافة من مدينة السلام إلى الري . ٢ – الطريق من الريّ إلى نيسابور . ٣ – الطريق من نيسابور إلى طوس . ٤ – الطريق من نيسابور إلى هراة . ٥ – الطريق من هراة إلى كرمان . ٦ – الطريق من هراة إلى سجستان .

ب – الطريق من بغداد إلى مكة : ج – الطريق من المدينة إلى مكة . د – الطريق من الكوفة إلى البصرة . هـ – الطريق من البصرة إلى مكة . و – الطريق من البحرين إلى مكة . ز – الطريق من مصر إلى مكة :

١ – على ساحل البحر على طريق سوان : ٢ – من فسطاط مصر إلى المدينة .

ح – الطريق من دمشق إلى المدينة . ط – الطريق من مكة إلى الطائف . ى – الطريق من البصرة إلى اليمامة . ك – الطريق من بغداد إلى البصرة . ل – الطريق من واسط إلى سوق الأهواز .

١ – من سوق الأهواز إلى فارس . ٢ – من سوق الأهواز إلى ازم إلى فارس . ٣ – من سوق الأهواز إلى رامهرمز إلى فارس . ٤ – من باذ بين (على خمسة فراسخ من واسط) إلى ارّجان .

م – الطريق من الاهواز إلى فارس . ن – الطريق من الاهواز إلى شيراز . س – الطريق من ارجان إلى شيراز . ع – الطريق من اصبهان إلى الري .

واما اليعقوبي ؛ فقد ذكر في « البلدان » مسافة ما بين كل بلد وبلد ، ومصر . وابتدأ بالعراق ، وذكر بغداد ، وسر من رأى . ثم ذكر سائر البلدان . وقسم الأقطار على أربعة اقسام :

أ — الربع الأول ؛ ربع المشرق :

١ — الجبل . ٢ — اذربيجان . ٣ — قزوين . ٤ — زنجان . ٥ — قم . ٦ — اصبهان . ٧ — الري . ٨ — طبرستان . ٩ — جرجان . ١٠ — سجستان . ١١ — خراسان . ١٢ — ما اتصل بخراسان ؛ من التبت ، وتركستان .

ب — الربع الثاني ؛ الربع القبلي :

١ — الحجاز . ٢ — المدينة . ٣ — مكة . ٤ — الطائف .

ج — الربع الثالث ؛ ربع الشمال :

١ — المدائن . ٢ — واسط . ٣ — البصرة . ٤ — الأبلة . ٥ — اليمامة ٦ — البحرين . ٧ — عمان . ٨ — السند . ٩ — الهند .

د — الربع الرابع ؛ (ربع الغرب)

واما ابو الفرج قدامة بن جعفر ؛ فقد تعرّض في كتاب « الخراج » لعلم الطرق . وعدد اسماء المواضع ، وذكر المنازل ، وعدد الأميال والفراسخ . وبدأ بالطريق المأخوذ من :

١ — مدينة السلام (إلى الكوفة ثم إلى المدينة ثم) إلى مكة . ٢ — من المدينة إلى مكة . ٣ — من مصر إلى مكة . ٤ — من دمشق إلى مكة . ٥ — من اليمامة إلى مكة . ٦ — من صنعاء إلى مكة . ٧ — من مخلاف خولان إلى مكة . ٨ — من عمان إلى مكة : أ — طريق الساحل . ب — طريق الجادة . ٩ — الطريق إلى نواحي المشرق : أ — الأهواز . ب — فارس .

ج – اصبهان . د – كرمان . هـ – سجستان . و – ما والاها إلى نواحي الشمال ، والمغرب .

واما ابن حوقل فقد فصل بلاد الاسلام في « صورة الأرض » اقليما اقليما ، وصقعا صقعا ، ورسم جميع ما تشتمل عليه من الطرق ، والسبل ، والمسالك ، والمسافات والمراحل . والبلاد التي عددها هي :

١ – ديار العرب . ٢ – بحر فارس . ٣ – المغرب . ٤ – الاندلس . ٥ – صقلية . ٦ – مصر . ٧ – الشام . ٨ – بحر الروم . ٩ – الجزيرة . ١٠ – العراق . ١١ – خوزستان . ١٢ – فارس . ١٣ – كرمان . ١٤ – السند . ١٥ – أرمينية والران واذربيجان . ١٦ – الجبال . ١٧ – الديلم ، وطبرستان . ١٨ – بحر الخزر . ١٩ – مفازة خراسان وفارس . ٢٠ – سجستان . ٢١ – خراسان . ٢٢ – ما وراء النهر .

واما ابن خرداذبة ؛ فقد اوضح في كتاب « المسالك والممالك » . مسالك الارض ، وممالكها ، والمسير بين ذلك منها ، ورسوم طرقها . وذكر قبلة اهل كل بلد ، وابتدأ بالسواد ، ثم المشرق ... وذكر :

١ – الطريق من مدينة السلام إلى إقاصي خراسان . ٢ – طريق الشاش والترك . ٣ – الطريق إلى الكور الجبلية و[illegible] والأهواز وفارس . ٤ – الطريق من شيراز إلى كرمان ثم إلى سجستان . ٥ – الطريق من شيراز إلى نيسابور . ٦ – الطريق من شيراز إلى درابجرد . ٧ – الطريق من الفهرج إلى السند . ٨ – الطريق من الاهواز إلى اصبهان . ٩ – الطريق من اصبهان إلى الري . ١٠ – الطريق من بغداد إلى البصرة . ١١ – الطريق من البصرة إلى عمان على الساحل . ١٢ – الطريق من البصرة إلى المشرق . ١٣ – الطريق إلى الصين . ١٤ – الطريق من مدينة السلام إلى المغرب .

١٥ – الطريق من الفسطاط إلى المغرب . ١٦ – الطريق من بغداد إلى الرقة . ١٧ – الطريق من نصيبين إلى أرزن . ١٨ – الطريق من الجزيرة إلى الساحل . ١٩ – الطريق من الكوفة إلى دمشق . ٢٠ – الطريق من مدينة السلام إلى مكة . ٢١ – الطريق من مكة إلى اليمن . ٢٢ – الطريق من البصرة إلى مكة . ٢٣ – الطريق من اليمامة إلى مكة . ٢٤ – الطريق من عمان إلى مكة . ٢٥ – الطريق من مصر إلى مكة . ٢٦ – الطريق من دمشق إلى مكة . غير عشرات الطرق الأخرى التي ذكرها في أثناء ذلك .

وخصّ حمد الله المستوفي القزويني الطرق وكمية مسافتها بفصل مطوّل ممتع ، في كتاب « نزهة القلوب » الذي ألفه سنة ٧٤٠ هـ ؛ فقسم الطرق إلى :

أ – الطريق الجنوبية ، وهي القبلية :

١ – من السلطانية إلى النجف . – من السلطانية إلى همدان . – من همدان إلى قصر شيرين . – من قصرشيرين إلى بغداد . – من بغداد إلى النجف .

٢ – من النجف إلى مكة . ٣ – من مكة إلى المدينة . – بطريق الجادة . بطريق بدر .

من المدينة إلى النجف . ٥ – من واسط إلى الثعلبيــة ثم إلى مكة . ٦ – من بغداد إلى سائر البلاد ؛ ثم إلى البصرة . ٧ – من البصرة إلى البحرين . ٨ – من البصرة إلى قيس . ٩ – من بغداد إلى اصفهان . ١٠ – من بغداد إلى رحبة الشام . ١١ – من بغداد إلى الموصل .

ب – الطريق الشرقية :

١ – من السلطانية إلى جيحون : – من السلطانية إلى الري وورامين .

— من ورامين إلى رباط مهمان دوست. — من مهمان دوست؛ بطريق جاجرم إلى نيسابور. — من نيسابور إلى سرخس. — من سرخس؛ بطريق بلخ إلى جيحون.

٢ — من بسطام إلى خوارزم؛ بطريق جرجان ودهستان ٣ — من نيسابور إلى هرات. ٤ — من نيسابور إلى ترشيز وقهستان. ٥ — من هرات إلى سيستان. ٦ — من هرات إلى مرو. ٧ — من مرو إلى بلخ. ٨ — من مرو إلى خوارزم

ج — الطريق الشمالية؛ من السلطانية إلى باب الأبواب

من السلطانية إلى اردبيل. — إلى قراباغ أرّان. — من قراباغ إلى تبريز بطريق اهر.

د — الطريق الغربية؛ من السلطانية إلى قونية:

— من السلطانية إلى تبريز. — من تبريز إلى ارزن الروم. — من ارزن الروم إلى ارزنجان ومن ارزنجان إلى سيواس.

هـ — الطريق ما بين الشرق والجنوب؛ من السلطانية إلى قيش:

— من السلطانية إلى ساوة. — من ساوة إلى كاشان. — من كاشان إلى اصفهان. — من اصفهان إلى يزدخواست. — من يزدخواست بالطريق الصيفية إلى شيراز. — من شيراز إلى قيش. — من قيش إلى سرداب. — من شيراز إلى كازرون. — من شيراز إلى هرموز. — من شيراز إلى شبانكاره. — من شيراز إلى ابرقوه. — من ابرقوه إلى يزد. — من شيراز إلى نوبنجان. — ثم إلى تستر

و — الطريق ما بين الغرب والجنوب؛ من السلطانية إلى قلعة بيرة.

هذا — وعمدة الطرق إلى مكة :

١ — طريق الكوفة . ٢ — طريق البصرة . ٣ — طريق الشام . ٤ — طريق مصر . ٥ — طريق اليمن . ٦ — طريق جدة . ٧ — طريق المدينة .

أما طريق الكوفة ؛ وهوطريق جميع أهل المشرق :

فمن الكوفة إلى القادسية ١٥ ميلاً

ثم إلى العذيب ٦ أميال

ثم إلى المغيثة ٢٤ ميلاً .

والمتعشى وادى السباع على ١٥ ميلاً .

ثم إلى القرعاء ٣٢ ميلاً .

والمتعشى مسجد سعد على ١٤ ميلاً .

ثم إلى واقصة ٢٤ ميلاً .

والمتعشى بالطرف على ١٤ ميلاً .

ثم إلى العقبة ٢٩ ميلاً .

والمتعشى القبيبات على ١٤ ميلاً .

ثم إلى القاع ٢٤ ميلاً .

والمتعشى بالجلحاء على ١٣ ميلاً .

ثم إلى زبالة ٢٤ ميلاً .

والمتعشى بالجريسى على ١٤ ميلاً .

ثم إلى الشقوق ٢١ ميلاً

والمتعشى التنانير على ١٤ ميلاً .

ثم إلى البطان — وهي قبر العبادى — ٢٩ ميلاً .

والمتعشى بردين على ١٤ ميلاً .

ثم إلى الثعلبية – وهي ثلث الطريق – ٢٩ ميلاً.
والمتعشى بالمهلبية على ١٤ ميلاً.
ثم إلى الخزيمية ٣٢ ميلاً.
والمتعشى الغميس على ١٤ ميلاً.
ثم إلى الأجفر ٢٤ ميلاً.
والمتعشى بطن الأعز على ١٥ ميلاً.
ثم إلى فيد – وهي نصف الطريق – ٣٦ ميلاً.
والمتعشى القرائن على ٢٠ ميلاً.
ثم إلى توز ٣١ ميلاً.
والمتعشى بالقرنتين على ١٧ ميلاً.
ثم إلى سميراء ٢٠ ميلاً.
والمتعشى بالفحيمة على ١٣ ميلاً.
ثم إلى الحاجر ٣٣ ميلاً.
والمتعشى العباسية على ١٥ ميلاً.
ثم إلى معدن القرشي – والعامة تسميه «معدن النقرة» ٣٤ ميلاً.
والمتعشى ترورى على ١٧ ميلاً.

الطريق الى المدينة

من المعدن إلى العسيلة ٤٦ ميلاً.
ثم إلى بطن نخل ٣٦ ميلاً.
ثم إلى الطرف ٢٢ ميلاً.
ثم إلى المدينة – وهي طيبة – ٣٥ ميلاً.

طريق الجادة من المدينة الى مكة

من المدينة إلى الشجرة — وهي ميقات اهل المدينة — ٦ أميال .

ثم إلى ملل ١٢ ميلاً .

ثم إلى السيالة ١٩ ميلاً .

ثم إلى الرويثة ٣٤ ميلاً .

ثم إلى السقيا ٣٦ ميلاً .

ثم إلى الأبواء ٢٩ ميلاً .

ثم إلى الجحفة — وهي ميقات اهل الشام — ٢٧ ميلاً .

ثم إلى قديد ٢٧ ميلاً .

ثم إلى عسفان ٢٤ ميلاً .

ثم إلى بطن مرّ ٣٣ ميلاً .

ثم إلى مكة ١٦ ميلاً .

طريق الجادة من معدن النقرة الى مكة

منها إلى مغيثة الماوان ٣٣ ميلاً .

والمتعشى السمط على ١٦ ميلاً .

ثم إلى الربذة ٢٤ ميلاً .

والمتعشى أريمة على ١٤ ميلاً .

ثم إلى معدن بني سليم ٢٤ ميلاً .

والمتعشى شروری على ١٢ ميلاً .

ثم إلى السليلة ٢٦ ميلاً .

والمتعشى بالكنابين على ١٣ ميلاً .

ثم إلى العميق ٢١ ميلاً .

والمتعشى السنجة على ١٢ ميلاً .
ثم إلى الافيعية ٣٢ ميلاً .
والمتعشى الكراع على ١٥ ميلاً .
ثم إلى المسلح ــ وهي ميقات اهل العراق ــ ٣٤ ميلاً .
والمتعشى الكبرانة على ١٤ ميلاً .
ثم إلى الغمرة ١٨ ميلاً .
والمتعشى القصر على ٨ أميال .
ثم إلى ذات عرق ٢٦ ميلاً .
والمتعشى أوطاس على ١٢ ميلاً .
ثم إلى بستان بني عامر ٢٢ ميلاً .
والمتعشى غمر ذي كندة على ١١ ميلاً .
ثم إلى مكة ٢٤ ميلاً .
والمتعشى مشاش على ١١ ميلاً .

والطريق من مدينة السلام ــ بغداد ــ إلى الكوفة :

من بغداد إلى جسر كوثى ٧ فراسخ .
ثم إلى قصر ابن هبيرة ٥ فراسخ .
ثم إلى سوق اسد ٧ فراسخ .
ثم إلى شاهي ٧ فراسخ .
ثم إلى الكوفة ٥ فراسخ .

فذلك ٣١ فرسخاً . فمن بغداد إلى مكة ٢٧٥ فرسخاً وثلثا فرسخ . تكون أميالاً ٨٢٧ ميلاً .

واما الطريق من البصرة الى مكة

من البصرة إلى المنجشانية ، ثم إلى الحفير ، ثم إلى الرحيل ، ثم إلى الشجي ، ثم إلى الخرجاء ، ثم إلى الحفر ، ثم إلى ماوية ، ثم إلى ذات العشر ، ثم إلى الينسوعة ، ثم إلى السمينة ، ثم إلى النباح ، ثم إلى العوسجة ، ثم إلى القريتين ، ثم إلى رامة ، ثم إلى إمرة ، ثم إلى طخفة ، ثم إلى ضرية ، ثم إلى جديلة ، ثم إلى فلجة ، ثم إلى الدفينة ، ثم إلى قبا ، ثم إلى مران ، ثم إلى وجرة ، ثم إلى اوطاس ، ثم إلى ذات عرق ، ثم إلى بستان بني عامر ، ثم إلى مكة .

واما الطريق من مصر الى مكة

من الفسطاط إلى الجب ، ثم إلى البويب ، ثم إلى منزل ابن بندقة ، ثم إلى عجرود ، ثم إلى الذنبة ، ثم إلى الكرسي ، ثم إلى الحفر ، ثم إلى منزل ، ثم إلى أيلة ، ثم إلى حقل ، ثم إلى مدين ، ثم إلى الأغراء ، ثم إلى منزل ، ثم إلى الكلابة ، ثم إلى شغب ، ثم إلى بدا ، ثم إلى السرحتين ، ثم إلى البيضاء ، ثم إلى وادي القرى ، ثم إلى الرحيبة ، ثم إلى ذي المروة ، ثم إلى المرّ ، ثم إلى السويداء ، ثم إلى ذي خشب ، ثم إلى المدينة ، ثم إلى المنازل التي قد مرّ ذكرها إلى مكة .

واما الطريق من دمشق الى مكة

من دمشق إلى منزل ، ثم إلى منزل ، ثم إلى ذات المنازل ، ثم إلى سرْغ ، ثم إلى تبوك ، ثم إلى المحدثة ، ثم إلى الأقرع ، ثم إلى الجنينة ، ثم إلى الحجر ، ثم إلى وادي القرى ، ثم إلى الرحيبة ، ثم إلى ذى المروة ، ثم إلى المرّ ، ثم إلى السويداء ، ثم إلى ذي خشب ، ثم إلى المدينة ، ثم إلى المنازل التي قد مرّ ذكرها إلى مكة .

واما الطريق من اليمن الى مكة

من صنعاء إلى اثافث ، ثم إلى خيوان ، ثم إلى الأعمشية ، ثم إلى صعدة ، ثم إلى عرقة ، ثم إلى المهجرة ، ثم إلى سروم راح ، ثم إلى الثجة ، ثم إلى كتنة ، ثم إلى يبمبم ، ثم إلى بنات حرب، ثم إلى جُسداء ، ثم إلى بيشة ، ثم إلى تبالة ، ثم إلى رنية ، ثم إلى كرى ، ثم إلى تربة ، ثم إلى صفن ، ثم إلى الفتق ، ثم إلى قرن المنازل ، ثم إلى بئر ابن المرتفع ، ثم إلى مكة .

أما المنازل ؛ التي سلكتها ام جعفر « زبيدة » سنة حجها ؛ وقد نزلها أحمد بن عمرو ؛ فهي : نهر عيسى . الفرات . نهر سورا . نهر أبا . الفرات الأسفل . الكوفة . القادسية . المغيثة . القرعاء . واقصة . العقبة . القاع . زبالة . الشقوق . بطان . الثعلبية . الخزيمية ؛ من زرود . الأجفر . فيد . توز . سميرا . الحاجر . النقرة . مغيثة الماوان . الربذة . السليلة . العمق . المعدن . افيعية . المسلح . الغمرة ذات عرق . البستان . المشاش . مكة — منى — عرفات — المزدلفة — المشعر . بطن مر . عسفان . فديد . الجحفة . الأبواء . السقيا . الروحاء . السيالة . ملل . المدينة . الطرف . بطن نخل . العسيلة . المحدث . ثم الطريق الأول نحو العراق .

مكة في الشعر

جمعه ونسقه
حسب الحروف الهجائية

فؤاد عباس

من خريجي الجامعة الاميركية ببيروت
والمفتش الاختصاصي
في وزارة التربية العراقية



ابو العلاء المعري *

استغفر الله في أمْــني واوجالي　　من غفلتي وتوالي سوء اعمــالي
قالوا هرمْتَ ولم تطرق (تهامة) في　　مُشاة وفد ولا رُكبان أجمال
فقلت : إنّي ضريرٌ والذين لهــم　　رأيٌ رأوا غيرَ فرْض حجّ امثالي
ما حجّ جدّي ولم يَحْجُجْ أبي وأخي　　ولا ابنُ عمّي ولم يعرفْ (مِنىً) خالي[1]

* هذه نماذج من الشعر الذي ورد فيه اسم مكة نثبتها هنا كما اثبتنا ما قبلها في النجف وكربلا لاعلى سبيل الانتقاء ولا الحصر ، وانما نريد ان نتخذ منها صورة من الصور لكيفية التطرق الى اسم مكة المكرمة عند الشعراء في المناسبات التي تقتضي ذلك وقد اوردناها حسب الحروف الهجائية التي تبدأ بها اسماء قائليها دون التقيد بالزمن،　　الخليلي

(١) في ابيات المعري -كما لا يخفى- شيء من الدعابة والتفكه اكثر مما فيها من الجد والواقع ، ومثله ابيات للاخطل فهو بالرغم من كونه مسيحياً ليس من شأنه الصلاة والصوم والحج على طريقة المسلمين ومن البدهي انه لا يصلي ولا يصوم ولا يحج فانه قال ما قال على سبيل الدعابة وليس على سبيل التحدي كما قد يفهم من ابياته هذه :

ولست بصائم رمضان عمري　　ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بزاجر عيساً بكوراً　　الى بطحاء مكة للنجاح
ولست بقائم كالعير ادعو　　قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولا　　وادعو عند منبلج الصباح

الخليلي

وحجٌّ عنهم قضاءٌ بعدما ارتحلوا   قومٌ سيقضون عنّي بعد ترحالي
فان يفوزوا بغفران أفُزْ معهم   أولا فانّي بنارٍ مثلهم صال
ولا أروم نعيماً لا يكون لهـم   فيه نصيبٌ وهم رهطي واشكالي [1]

* * *

سيسأل ناسٌ ما قريشٌ ومكـةٌ   كما قال ناسٌ ما جديسٌ وما طَسْم
أرى الوقتَ يَفنِي أنفساً بفنائـه   ويمحو فما يبقى الحديثُ ولا الرسْمُ [2]

* * *

مكة أقوتْ من بني الدردبيسْ   فما لجنّيّ بهـا من حسيسْ [3]

احمد بن ابراهيم

الخازن بالزهراء (يمدح الخليفة الحكم المستنصر) :

ليهنئك أن لم يبق في الأرض ناكثٌ   ولا مشرك إلاّ أتاك بـلا عهد
ولم يبق إلاّ أن يحـلّ بمكّة   فيطرد عنها المستحقّين للطرد [4]

احمد شوقي

تجلّى مولد الهادي وعمّت   بشائره البوادي والقِصابا
وأسدت للبريّـة بنت وَهْبٍ   يداً بيضاء طوّقت الرقابـا

---

(١) الجامع في اخبار ابي العلاء المعري – دمشق ١٩٦٢ – ١/٥١٣ – ٥١٤ . لا توجد هذه الابيات في اللزوميات ، ولا في ديوان سقط الزند . (٢) المصدر السابق ص ١/٥٥٩ .
(٣) رسالة الغفران (تحقيق بنت الشاطي) الطبعة الاولى . القاهرة ١٩٥٠ ص : ١٩٧ – ٢١٤ حيث توجد قصة الجن واشعارهم ، وانظر : ذكرى ابي العلاء – طه حسين – مصر ١٩٢٢ ص ٢٩٤ . (٤) المقتبس – في اخبار بلد الاندلس ، لابن حيان القرطبي ببيروت ١٩٦٥ ص : ٢٢ – ٢٣ .

فقام علـى سماء البيت نـوراً   يضيء جبال (مكة) والشعابا[١]

* * *

ما للشباب وللماضي يمـرّ بهم   فيه على الجيَف الأحزابُ والشيعُ
شريف مكة حـرّ في ممالكـه   فهل ترى القوم بالحرّية انتفعوا ؟[٢]

* * *

وقال يخاطب الاستانة حين نقل الكماليون العاصمة الى انقرة ويشير الى فتوى شيخ الاسلام بقتالهم :

هدروا دماء الذائدين عـن الحمى   بلسان مُفتي النار لا مُفتيك
شربوا على سرّ العدوّ وغـرّدوا   كالبـوم خلف جدارك المدكوك
لو كنتِ (مكةّ) عندهم[٣] لرأيتهم   (كمحمد) و (رفيقه) هجروك[٤]

* * *

وقال في قصيدته التي يعارض بها قصيدة البوصيري :

سائل حراء وروح القدس هل علما   مصون سرّ عن الادراك منكتم
كم جيئة وذهابٍ شرّفت بهما   بطحاء مكة في الاصباح والقمم
هناك أذّنَ للـرحمن فامتلأت   اسماع (مكة) من قدسيّة النغم[٥]

امية بن ابي الصلت

كان عبد الله بن جدعان من مطعمي قريش كهاشم بن عبد مناف ، وهو اول من عمل الفالوذج للاضياف ، فقال فيه امية بن ابي الصلت يمدحه :

لـه داعٍ بمكّة مشمعلّ   وآخرُ فوق دارته ينـادي

---

(١) الشوقيات ١/ ٧٣ القاهرة ١٩٥٣ . (٢) المصدر السابق ١/ ١٨٨ (٣) الضمير في (عندهم) يعود للكماليين . (٤) المصدر السابق ١/ ٢٠٧ (٥) المصدر السابق ١/ ٢٣٦

إلى رُدُحٍ من الشيزَى مـلاءٍ لُبابَ البُرّ يُلْبَكُ بالشهاد [١]

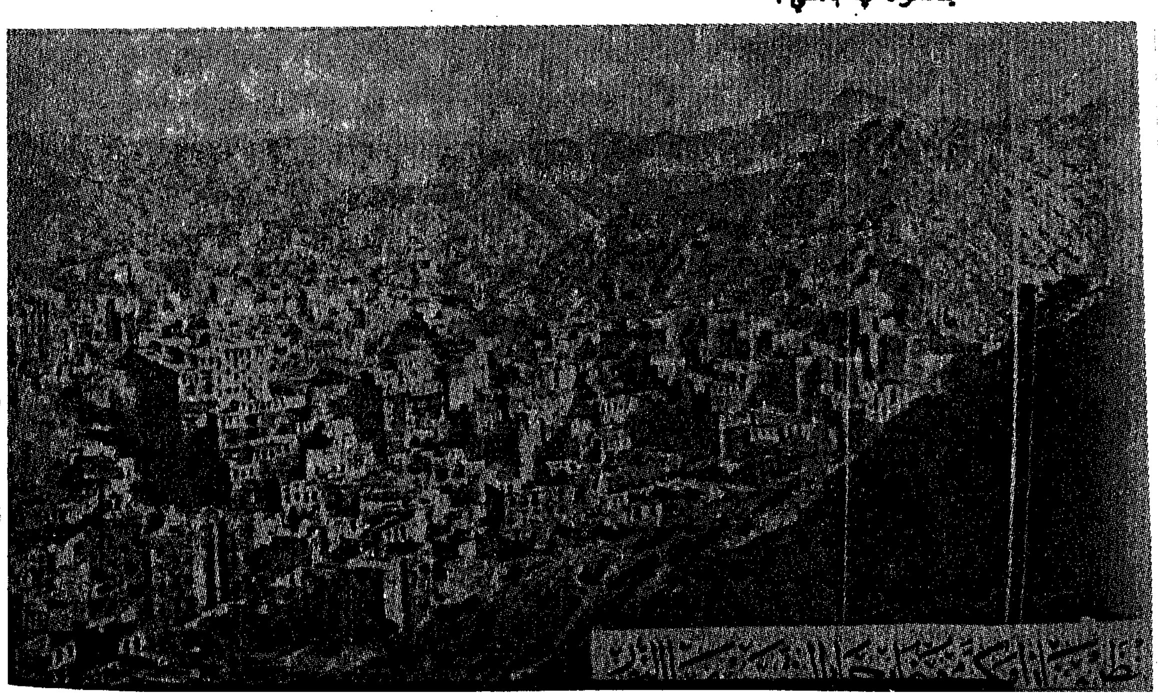
جرهمي شاعر

يا عمرو لا تظلم بمــكّة إنّها بلدٌ حـرام
سائل بعادٍ اين هم ؟ وكذاك تُخْتَرَم الانام
وبني العماليق الذيــنَ لهم بها كان الســوام [٢]

الحارث بن خالد

من كان ذا شجن بالشام يحبسه فان في غيره أمسى لي الشجنُ
وان ذا القصر حقّاً ما به وطني لكن بمكّة امسى الأهل والوطن
من ذا يسائل عنا ايــن منزلنا (فالاقحوانة) منا منزلٌ قمن [٣]

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي . القاهرة ١٩٦٥ ص : ٦٠٩ .
(٢) اخبارمكة ، للازرقي . طبع مدنية غوتنجن (المانيا) سنة ١٨٥٨ . ص : ١/٥٨ .
(٣) المصدر السابق : ١/٤٨٦ و (الاقحوانة) : مجلس كان يجلس فيه من خرج من مكة يتحدثون فيه بالعشي .



ابن حجر العقسلاني

(شهاب الدين احمد بن علي) يمدح النبي (ص) :

وبفتح مكة قد عفا عمّن هفــا   فأتوه بالتّرغيب والتّرهيب
لم يحتموا من ميم طَعْنَاتٍ ولا   ألِفَاتِ ضَرْبَاتٍ ولام حروب [١]

* * *

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة   بمكة أشفي ذا الفؤاد المفنّدا ؟
وهل اردن مــاء النعيم بزمزم   وهل لي ان اروى واسعى واسعدا ؟ [٢]

حسان بن ثابت

وقال في قوم من بني كعب من خزاعة كان النبي (ص) ادخلهم في حلفه يوم الحديبية فغدرت بهم قريش :

عناني ولم اشهد ببطحاء مكّةٍ   رعاة بني كعب تُحَزّ رقابهــا
ولو شهد البطحاء منــا عصابةٌ   لهان علينا يوم ذاك ضرابهــا [٣]

الحصري القيرواني

(ابو الحسن علي بن عبد الغني) الضرير ابن اخت صاحب كتاب زهرة الآداب .

يا حرفة الشـــعراء إنك منهم   حيث ابتغوا رزقاً لبالمرصاد [٤]

---

(١) ديوان ابن حجر . حيدرآباد سنة ١٩٦٢ ص : ٩ واللام : الحرف المعروف وأيضاً جمع لامة وهي الدرع ، ففيه تورية .
(٢) المصدر السابق . ص : ٢٩ .
(٣) ديوان حسان بن ثابت . طبعة ليدن سنة ١٩١٠ ص : ٦٤ .
(٤) ديوان الحصري القيرواني . مطبعة المنار (تونس) سنة ١٩٦٣ ص : ١٣٠ .

لو حلّ بالوادي المقدّس ركبهم   لشفاء غلّتهم بجفّ الوادي
ولو ابتغوا حلْقَ الرؤوس بمكةٍ   حضر (الرشيد) بها وغاب (الهادي) [1]

* * *

عسى مَن يوفّي النذور حجّاً ويقضى النَفَث
يزدني دعوة بمكّة إذ لا رفثْ؟
يغيث بها باكياً فأيّ الثرى لم يُغَثْ؟؟ [2]

السيد رشيد الهاشمي

قامت بقيامكم العرب   وزهت بفعالكم الكتب
غنّت بكم الاقلام وقد   رقصت لأغانيها القضب
اوصال الملك مقطعةٌ   وقلوب بنيه تضطرب [3]

ابن الزبعري السهمي

كانت قريش بيضة فتفلّقت   فالمح خالصها لعبد مَناف
(عمرو العلا) هشم الثريد لمعشر   كانوا بمكة مُسنتين عجافِ [4]

الشيخ صالح التميمي

قال ـ رحمه الله ـ دخلت بعد قتل محمد بك وعبد العزيز آل الشاوي

---

(١) اى حضر هارون وغاب موسى والمقصود انهم من سوء حظهم ابتغوا حلق رؤوسهم بمكة لما وجدوا (موسى) للحلاقة.

(٢) المصدر السابق : ٢٩٢ .

(٣) ديوان رشيد الهاشمي . بغداد سنة ١٩٦٤ ص : ٥٩ .

(٤) اخبارمكة ، للازرقي . ص : ١/٦٨ . ويعني بعمرو العلا هاشماً .

على دارهم وهي موحشةٌ منهم ، وقد نزل فارس الجرباء ، وخواصّهم بين غادٍ ورايح ، فقلت :

بالله يـا دار المكارم َما الذي اضنى ربوعك يا شفاء الانفس
عجباً لقومٍ يهرعون لمجلسٍ ونسوا بربعك طيب ذاك المجلس
قد قلت لمّا أن رأيت حجيجهم شتان (مكّتنا) [١] و (بيت المقدس) [٢]

شاعر

وأية ارض انت فيها ابنَ معمرٍ كمكّة لم يطـرق بشرّ حمامها [٣]

شاعر

ليالٍ تمنّى ان تكون حمامـةً بمكة يؤْويك السـتارُ المحرّم [٤]

شاعر

كأني لم أقطن بمكة سـاعةً ولم يلهني فيهـا ربيبٌ منعّم
ولم اجلس الحوضين شرقيّ زمزم وهيهات أنّى منك لا أين زمزم [٥]

عبد الباقي العمري

يمدح الامام علي (ع)

انت العليّ الذي فوق العلى رفعا ببطن مَكة وسط البيت اذ وضعا [٦]

---

(١) في الديوان المطبوع : (شتان مكتان) وهو خطأ بلا ريب ولا معنى له .
(٢) ديوان التميمي . مطبعة الزهراء/النجف سنة ١٩٤٨ ص- ٧٤ .
(٣و٤) ثمار القلوب ، للثعالبي : ٤٦٤ .
(٥) اخبار مكة . ١/٢٩٩ .
(٦) للترياق الفاروقي . مصر سنة ١٣١٦ هـ ، ص : ٩٧ .


الشيخ عبد الحسين الحويزي

عبد الحسين الحويزي

والهدى يوم فتح (مكة) نادى
بعلو التكبير والتهليل
وصناديدها غدت طلقاء
من يديه جيلاً ترى بعد جيل [1]

عبد الله بن ثور الخفاجي

فأصبح بطن مكة مقشعرّاً كأن الأرض ليس بها هشام [2]

عبد الله بن حسن بن حسن

أنسٌ حرائر ما هممن بريبة كظباء مكة صيدهنّ حرام
يُحسَبْن من لين الكلام زوانياً ويصدّهن عن الخنا الاسلام [3]

عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي

أمكة تفديك النفوس الكرائم ولا برحت تنهلّ فيك الغمائم
عليك سلام الله ما طاف طائفٌ بكعبتك العليا وما قام قائم [4]

---

(١) ديوان الحويزي – بيروت ١٩٦٤ ١/١١٠ ،
(٢) الكامل للمبرد . مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٦ ص : ٢/١٤٨ .
(٣) ثمار القلوب . ص : ٤٠٨ .
(٤) قلائد العقيان في محاسن الاعيان ، للفتح بن خاقان . طبعة باريس سنة ١٨٦٠ . ص : ٢٣٠ .

الشيخ عبد المحسن الكاظمي

يا أهل مكة والورى
ما تنقضي حجّاتها

في كل عامٍ عندكم
تقضي الفروض قضاتها

وبكلّ يـوم عندنا
حججٌ تضلّ هداتها

الجسر (مكّتنا) وكث
بان النقـا (عرفاتهـا)

و (منى) جزيرتنا التي
قطّع الحشا حصّياتها [١]



الشيخ عبد المحسن الكاظمي

الشيخ محمد علي كمونة

آثرنا أن نجتزىء من هذه القصيدة العامرة في رثاء الحسين (ع) ما يتعلّق بذكر كيفيّة الحجّ وذكر مناسكه في زمنه السفر على ظهور الابل .

نرى ظعناً يبغي (منىً) فا (لمحصبّا) فادني اليـه اليعملات وقرّبـا
وقوّض من بعد الاقامـة راحلاً يلفّ الربى بالبيد والبيد بالربـى
وجشمها شرق البـلاد وغربهـا اذ جاز منها سبسباً امّ سبسبا
ليقضي عليها من (منىً) غاية المنى فقد شاقه من (شعبه) ما تشعّبا

(١) ديوان الكاظمي – المجموعة الاولى – مطبعة ابن زيدون (لم يذكر مكان الطبع ولا زمانه) ص – ٣١٩ – ٣٢٠ .

وقد جنحت (للخيف) حتى كأنما قوائمها نيطت بأجنحة الصبّا
وارسلها وخداً الى ذلك الحمى بمنه الجناب الرحب حيّا ورحبا
وعرّس كيما يستريح ركابه باعطانها مما عراها وآتعبا
ولما حدا الحادي وهاج اهاجها رواقص للادلاج هجنٌ تطرّبا
ووجّه تلقاء (المعرّف) وجهه ليقضي به فرض (الوقوف) تقرّبا
ولما قضى (التعريف) والشمس آذنت — وقد ازف الترحال — ان تتحجّبا
وحيث (أفاض) الناس أرخى ركابه وألوى به (للمشعرين) وتنكّبا
وقد رقصت عند (المحسّر) من (منى
به وعلى اكوارها ماس مطربا
وضجّ فضجّ الناس كلٌّ مؤدّياً من (الذكر) ما نصّ الاله واوجبا
ومال الى جمع (الجمار) و (رميها) ولما رماها ساق (هدياً) وقرّبا
وطاف (ببيت الله) سبعاً إنابةً اليه وصلّى في (المقام) وعقّبا
وقد اوسع (الاركان) عند (استلامها)
دموعاً فخيل السيل قد بلغ الزبى
واكثر عند (المستجار) تنصّلاً الى ربّه مما أساءَ وأذنبا
وساغ اليه الورد من ماء (زمزم)
وأعذبُ بماء ورده ساغ مشربا
و (للسعي) بين (المروتين) مهرولا سعى وبجلباب الخضوع تجلببا
وسارع (للتقصير) غير مقصّرٍ وشرّق (للتشريق) ينحو (المحصّبا)
ولما قضى نسكاً (مناسك) حجّه نحا (يثربا) لا ابعد الله يثربا [١]

---

(١) ديوان ابن كمونة . النجف سنة ١٩٤٨ . ص : ٢٥ — ٢٧ .

عبد المطلب بن هاشم

نحن اهل الله في (بلدته) لم يزل ذاك على عهد (ابرَهَمْ)[١]
نعبد الله وفينا شيمةٌ صُلَّةُ القربى وايفاء الذممْ
ان للبيت لربّاً مانعاً من يرده بأثامٍ يُصْطَلَمْ

* * *

أمّ الغوث بن أخزم حين نذرت إن ولدت غلاماً لتجعلنّه عبداً للكعبة يخدمها فولدت الغوث ووفت بنذرها.

انّي جعلتُ ربِّ من بَنِيّهْ ربيطةً بمكّة العليّهْ
فباركنَّ لي به إلَيّهْ واجعله لي من صالح البريّهْ[٢]

قصي بن ربيعة

انا ابن العاصمين بني لُوَيّ بمكة مولدي وبها ربيت
ولي البطحاء قد علمت معدّ ومروتها رضيت بها رضيت[٣]

كعب بن زهير

من لاميته المشهورة : بانت سعاد

ان الرسول لنور يستضاء به مهنّد من سيوف الله مسلول
في عصبةٍ من قريشٍ قال قائلهم ببطن (مكة) لما اسلموا : زولوا
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ عند اللقاء ولا ميلٌ معازيل[٤]

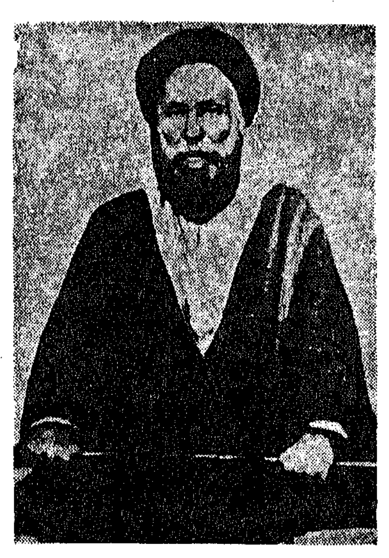
---

(١) اخبار مكة للازرقي : ١/٩٦ و (ابرهم) يعني ابراهيم الخليل.
(٢) المصدر السابق : ١/١٢٩.
(٣) المصدر السابق : ١/٦٤. (٤) ديوانه.

السيد محمد سعيد الحبوبي

قال راثياً (بعض الكبراء) وقد توفي بطريق مكّة المشرّفة *

سرى وحداء الركب حمد أياديه
وآب وما حادٍ لهم غير ناعيه
أحين غشى بطحاء مكة شيخها
فكانت تغني بالنسيب مغانيه
فكان كابراهيم زار (مقامه)
وفي (حجر)اسماعيل كان كبانيه
كأني بـه في مكة او مدينة
يلاقيه اهلوها فيدهش لاقيه
فمن مرتجٍ منه ومن مغرمٍ به
ومن آخذٍ عنه ومن واثقٍ فيه[1]


السيد محمد سعيد الحبوبي

مضاض بن عمرو الجرهمي (جاهلي)

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر
ولم يتربع واسطاً فجنوبه الى المنحنى من ذي الاراكة حاضر
بلى نحن كنّا اهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر
فسحّت دموع العين تبكي لبلدة بها حرمٌ وفيها المشاعر[2]

ابن ام مكتوم

قال وهو آخذ بخطام ناقة رسول الله (ص) وهو يطوف :

حبّذا مكة من وادي بها ارضي وعـوّادي
بهـا ترسخ اوتادي بها امشي بلا هادي[3]

* هذا الكبير هو رئيس مجتهدي عصره السيد معز الدين بن السيد مهدي القزويني . كانت وفاته سنة ١٣٠٠ هـ بعد قفوله من الحج قرب بلدة السماوة (محمد علي اليعقوبي – مجلة الغري النجفية . العدد : ٣ – ١١٩ ٢٢ كانون الاول سنة ١٩٤٢) .

(١) ديوان الحبوبي(الطبعة الثانية)بيروت . مطابع الوطن (لم تذكر سنة الطبع)ص : ١٨٨ – ١٩٣ . (٢) معجم البلدان (مكة) . وانظر : اخبار مكة للازرقي ص : ١/٥٦ –٥٧ .
(٣) اخبار مكة للازرقي . ص : ١/٤٨٦ .

مكة في المراجع الغربية

كتبه وترجمه من مختلف المصادر

جعفر الخياط

الحائز على درجة استاذ علوم M. S C. من جامعة كليفورنيا
ومدير التعليم الثانوي ، والمفتش الاختصاصي بوزارة التربية سابقاً
ومدير التعليم المهني حالاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مكة في المراجع الغربية

مقدمة [1]

تعتبر مكة المكرمة اول بلد مقدس في الاسلام ، ففيها أول الحرمين وثاني القبلتين ، وهي مهبط الوحي والتنزيل ومحط أنظار المسلمين . يتوجهون شطرها في صلواتهم ويحجون اليها من كل حدب وصوب . ولذلك فليس من العجيب ان تهفو لها قلوب المسلمين والمؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها ، وتخشع لها نفوسهم ، فيتمنون على الله مخلصين ان يمنحهم التوفيق من عنده لزيارتها ويكتب لهم حج البيت فيها قبل ان يتوفاهم الله اليه ، ويفارقوا هذه الحياة الدنيا .

وكيف لا تكون لهذا البلد الامين مثل هذه القدسية وهذا التبجيل عند

---

(١) في اقوال الغربيين الذين كتبوا عن مكة المكرمة كمؤرخين وسائحين كثير من الوقائع والحوادث التاريخية التي لم يكتبها احد غيرهم عن هذا البلد وجميع شؤونه واحواله ، كما ان في اقوال بعضهم كثيراً من التجني ومجانبة الواقع مما يستدعيه التعصب او الجهل بالشيء في بعض الاحيان ، وانه لمن الفائدة ان نأتي بما تيسر من اقوالهم كما هي وكما اوردوها في كتبهم لنعطي فكرة قريبة من الواقع خيراً كانت ام شراً عما هو مرتسم عن مكة في اذهان الغربيين من مؤرخيهم وسواحهم ، وسياسيهم ، الواقعين منهم وغير الواقعين . الخليلي

المسلمين ، وهو عنوان مجدهم وينبوع هدايتهم وعقيدتهم . وكيف لا ترنو اليه الابصار ، وتهفو له الأفئدة ، وهو الذي تمتزج ذكرياته الحافلة بتاريخهم العريق وتشتبك أحاسيسه بمجدهم التليد .

فقد كان لظهور الاسلام ، الذي تفجرت ينابيعه من بطاح مكة ووهادها القاحلة ، وللمعجزة الخالدة التي حققها محمد والمهتدون بهديه في نشر الأسلام بمثل تلك السرعة الخاطفة في الخافقين ، صدىً ما زال يرن في الغرب ويدوّي في أرجائه . فراح علماؤه ومستشرقوه يبحثون في كل ما له علاقة بهذه الدعوة ، التي اهتدى المسلمون بهديها واستضاءوا بنورها ، فأخذ العالم يدرس أحوال مكة التي انبثق منها ذلك النور ، ويمحص المؤرخون جميع ما يمت اليها بصلة . وقد بلغ من اهتمام الغربيين بمكة أن دخل اسمها في لغتهم واصبح كلمةً خاصة تدرج في القواميس لتدل على الجهة التي يتوجه اليها الناس أو يقصدونها بصفة دائمة .

ولم يكتفوا بذلك فقط ، وانما شد لها الرحالون الغربيون رحالهم أيضاً وقصدها السياح والمسافرون منهم فجازفوا بأنفسهم وأرواحهم ليدخلوا فيها ويحجوا اليها متنكرين . وقد حالف التوفيق عدداً منهم ، وفشل كثيرون غير هؤلاء ، فتكونت مما كتبوه ودونوه عن تلك الدراسات والمجازفات ثروة علمية يصعب على الباحث ان يحيط بها كلها ، لا سيما وان ما كتب لم يكن في لغة واحدة من اللغات الغربية الحية وانما كتب بلغات عدة أخصها الانكليزية والألمانية والفرنسية .

ولا يخفى ان الدوافع التي تدفع الغربيين الى الاهتمام بمكة وما يتصل بها من شؤون ، او الكتابة عنها ، هي دوافع معروفة أهمها : الأغراض التبشيرية ، او البحث العلمي ، او المجازفة والتطويح او التجسس والأغراض السياسية في الغالب . على اننا سنحاول في هذا البحث ان نورد نماذج مفيدة عن أهم ما كتب عن مكة باللغة الانكليزية على الأخص ، مع

التنبيه الى ان شيئاً غير يسير مما كتب في هذه اللغة يعتبر بعضه مترجماً عن الألمانية او الفرنسية او الأيطالية او الهولندية ، فضلاً عن استناد الكثير منه على المصادر العربية .

والملاحظ ان أهم المراجع الغربية التي تتطرق الى ذكر الكثير عن مكة المكرمة وشؤونها (دائرة المعارف الأسلامية) الموسعة والمختصرة ، التي يشرف على تحريرها المستشرقان المعروفان غيب وكريموز . فقد وجدت فيها خلاصة [١] شاملة تتناول تاريخ مكة في مختلف ادوارها ، وشؤون الحج فيها وما يتصل به من المناسك والطقوس وما أشبه . وسنورد هنا أهم ما جاء في هذه الخلاصة التي كتب معظمها المستشرق الفرنسي لامانس بالاشتراك مع الاستاذ فنسنك [٢] .

مكة قبل الهجرة

يبدأ هذان الاستاذان بحثهما بالقول ان مكة المكرمة قد خرجت من بين اشباح الماضي السحيق وفرضت نفسها على المؤرخين بولادة النبي محمد فيها ما بين سنتي ٥٧٠ و ٥٨٠ ميلادية . ويبدو ان الجغرافي اليوناني بطليموس كان يعرفها باسم « ماكورابا » لكنها كانت معروفة قبل زمانه بمدة طويلة . فقد كانت على ما يحتمل محطة من المحطات الواقعة في « طريق البخور » الذي كانت تسلكه القوافل المحملة بالمنتجات الشرقية المصدرة الى عالم البحر الابيض المتوسط ، ولا سيما العطور الثمينة منها . وتعزى الأهمية التي كانت تتمتع بها مكة الى كونها كانت واقعة في ملتقى الطرق التجارية الكبرى في تلك العصور الغابرة . فقد كانت هذه المدينة ، التي نشأت حول بئر

---

(١) Gibb, H. A. R., Kramers, J. H — Shorter Encyclopedia of Islam Leiden 1961.

(٢) H. Lammens & J. Wensinck.

زمزم والكعبة المقدسة ، تقع في موقع تنتهي فيه أطراف آسية التي تسكنها الأقوام البيضاء من جهة وأفريقية السوداء من جهة أخرى ، على مقربة من إحدى الفتحات التي تتخلل جبل الصراة ، وفي جوار ملتقىً للطرق كان يؤدي من بابل وسورية الى مرتفعات اليمن وسواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي . وبطريق البحر كانت تتصل بالقارة الأفريقية المجهولة .

ومما يذكر عن علاقات مكة الخارجية في تاريخها القديم ان سكانها كثيراً ما كانوا يدخلون في مفاوضات مع الدول المجاورة . وكانوا يحصلون منها على حسن المعاملة وحرية المرور لقوافلهم ، وهو ما كان يطلق عليه مؤرخو العرب « ضمانة كسرى وقيصر » . وكانوا يعقدون اتفاقيات كذلك مع النجاشي في الحبشة ، وشيوخ نجد الكبار ، وأقيال اليمن ، وملوك الحيرة والغساسنة . على أنهم لم يكن بوسعهم الحصول على معاملة « الباب المفتوح » في مفاوضاتهم مع الايرانيين والأغريق ، ولذلك كان التبادل التجاري يجري مع هؤلاء في الثغور الواقعة على الحدود او المدن التي تعين لهذا الغرض : ومن هذه المدن في فلسطين كانت غزة وأيلة وربما القدس أيضاً ، اما في سورية فقد كانت بصرى منفذهم الرئيس وسوقهم الكبرى .

وهناك في هذا المبحث أشارة الى ما جاء في الآية الكريمة عن « رحلة الشتاء والصيف » ، والى ان النسابة العرب يذكرون أسماء رؤساء قريش الذين توفقوا في الحصول على الرخص المطلوبة للمتاجرة بطريق المفاوضات . وكان البلد الذي يحصلون على رخصة للمتاجرة فيه يسمى عندهم « وجه » او « متجر » ، كما كان هناك مالا يحصى من القيود التي تحدد امتياز هذه المتاجرة . فلم تكن الدول الشرقية مثلاً تسمح لأهل مكة بالتجارة الحرة وكانت بيزنطة أكثر شكاً وارتياباً بالأجانب ، ولا سيما البدو منهم . ولذلك كان العرب يحصلون على حق المتاجرة لقاء تضحيات كبيرة وتكاليف غير يسيرة ، مثل دفع الضرائب الباهظة أو رسوم خاصة للكمارك والعبور أو وضع الرهائن .

وتقول دائرة المعارف الأسلامية في هذا الشأن ان مكة كانت تعوض ما تخسره في هذه المعاملات عن طريق فرض تكاليف ورسوم عديدة على التجار الأجانب الذين كانوا يفدون عليها ، مثل رسوم العشور والأقامة والمتاجرة والتجوال وغير ذلك . فقد كان على التاجر الأجنبي ان يدفع رسماً خاصاً قبل الدخول الى مكة مثلاً ، وكان هناك ، كما كان في تدمر أيضاً ، رسم آخر على الخروج وعلى تصدير البضائع .

سكان مكة

وتقول دائرة المعارف هذه ان سكان مكة في وقت الهجرة كانوا يدعون بتحدرهم كلهم من جد واحد يسمونه قريشاً أو فهراً ، وكان قريش يلقب بالنظير أيضاً . وقد كانت أصول قريش متواضعة ، لا يعرف الا القليل عنها . لكن المعروف انهم كانوا يؤلفون فرعاً من الفروع غير الثرية التي تتصل بكنانة ، الأرومة الأصلية . وكانوا في أول أمرهم يعيشون عيشة تاعسة في الجبال الوعرة التي تحيط بمنطقة مكة المقدسة . والمقول ان رئيساً يتحلى بالكثير من المزايا الحربية ، اسمه قصي ، جاء من شمال الحجاز فأنزلهم بقوة السلاح في مكة بعد ان انتزعها من سيطرة خزاعة .

ويمكن تمييز عشر بطون من قريش ، على ما يذكر هذا المبحث ، وهي : هاشم ، وأمية ، ونوفل ، وزُهدة ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعُدي ، وجُمح وسهم . وكان هؤلاء يشغلون في الدرجة الأولى مركز المدينة أو بطن الوادي ، أي البطحاء ، حيث يتجمع ماء زمزم ، وحول القعر الذي كانت تقوم فيه الكعبة . ولذلك صار يسمى أحدهم الأبطحي ، او البطاحي ، وصارت قريش تسمى « قريش البطاح » . وقد كانت المحلة الوسطى من مكة تعتبر محلة خاصة بالطبقة الارستقراطية من الناس ، أو محلة الأسر الكبيرة من قريش . وهناك بطون من هذه البطون العشر كانت خاملة الذكر ولم تشتهر الا بظهور الأسلام ، مثل تيم وعدي اللتين نبه ذكرهما بالخليفتين الراشدين

أبي بكر وعمر . اما البطون الأخرى ، التي يكتنف ارتباطها بالجد الأعلى شيء من الغموض فقد كانت تنتحي ارباض مكة عـلى سفوح الشعب الواطئة من الجبال المطلة على البلدة ، ولذلك كان يطلق عليهم « قريش الظواهر » . على ان هؤلاء كانوا ، مع تمتعهم باعتبار أقل مما كانت تتمتع به العشائر الأخرى من الأباطحة ، يتميزون عنهم بالشجاعة والبسالة في الحروب . ولهذا كانوا يقدمون للمجتمع القرشي أحسن الجنود وأشجعهم ، ولم يتخاوا عن ذلك الى سكان مكة الوسطى .

الحكومة والادارة

ليس من السهل ، على ما يقول كاتبا هذا البحث في دائرة المعارف ، الاهتداء الى دلائل واضحة تدل على وجود حكومة معينة في مكة يومذاك . على انه لا من ان يكون قد وجد نظام بسيط للسجلات او الوثائق (أرشيف) تحفظ فيه اتفاقيات التحالف والمتاجرة ، ومؤسسة خاصة تقوم بجباية الرسوم والضرائب من التجار الاجانب . وهناك ما يستدل منه على ان البعض من سكان مكة كانوا يشغلون وظائف شرفية بحتة من دون تمتع بسلطة قضائية ، غير انه لا يمكن التأكد من عددهم ولا من نوعية الوظائف التي كانوا يشغلونها .

ويقول لامانس ان حكومة مكة يومذاك يمكن ان تسمى « جمهورية التجار » ، وان أبا سفيان اذا كان يمكن ان يسمى فيها « شيخ قريش أو رئيسها » فأن عدداً آخر من معاصريه كان يمكن ان يمنحوا ألقاباً لا تقل عن هذا اللقب في المنزلة . كما يقول ان الطريقة التي دونت فيها حوادث السنين الثمان الأولى بعد الهجرة تثبت بطلان الانطباع الخاطيء بأنه كان يمسك زمام القوة في مكة بيديه . على ان الحقيقة هي انه كان اقدر رجال قريش الذين يمثلون بطونها الاصلية ، وأكثرهم ذكاءً . فهل كان هؤلاء الوجوه يكونون مجلساً أو هيئة رسمية منتظمة يا ترى ؟ ان هناك ما يدل على ان هذا

كان شيئاً حقيقياً ، حتى ان مكة كان فيها ، على ما يقال ، نوع من « مجلس شيوخ » أو « مجلس كبير » يسمى « دار الندوة » . ولم يكن هذا يعقد الا في الظروف الاستثنائية اوالطارئة . على ان الشؤون التي كانت تنطبع بالطابع العام والأهمية الشاملة كان يبتّ فيها عادةً في المجالس الخاصة ، أو مجالس الأسر ، او النادي اي « نادي القوم » الذي كان يطل على فناء الكعبة بورصة البلدة أو سوقها العام على ما يقول لامانس .

ويقول لامانس ، علاوة على ذلك ، أن القرآن لا يمكن ان يتصور وجود شيء من السلطة من دون وجود مجلس للوجوه او الأشراف معها ، أي الملأ . وتدل كثرة ورود هذا الاسم في القرآن الكريم على ان النبي الأعظم لا بد من ان يكون قد شاهد بنفسه هذا « الملأ » وهو يعمل أو يحكم . ولذلك يمكن أن نقول ان مكة كانت تحكمها أقلية الملأ . وكانت هذه القلة ، الأوليغاركية بالتعبير الحديث ، عبارة عن مجلس خاص يتألف من رؤساء اكبر الأسر وأكثرها ثراءً ونفوذاً فيها . وهذا هو سبب ذكر أمية ومخزوم عند ذكر هذا المجلس وتشكيله . ولا يمكن لأي أحد ان يحصل على العضوية فيه بالانتخاب ولا بالولادة ، وانما يحصل عليها بالخدمات التي يقدمها للمجموع والنفوذ الذي يحصل عليه بالثروة والقابلية الخاصة . وعلى هذه الشاكلة كان هذا المجلس قد رحب بانضمام ابن جدعان الثري جداً اليه ، برغم انتمائه الى تيم غير المتنفذة .

موقع مكة ومناخها

كانت مكة في وقت الهجرة تبدو بشكل هلال متطاول ينحني طرفاه نحو جناحي جبل قعيقعان ، وكانت وهي بهذا الشكل تنحصر ما بين سلسلة مزدوجة من الجبال الجرداء شديدة الانحدار . وكان مركز هذا الأخدود الذي لا يتحرك فيه الهواء بسهولة يتطابق تطابقاً ملائماً مع منخفض موجود في قعر الوادي اما مكة القديمة فقد كانت تشغل قعر هذا المنخفض الذي

الذي يسمى « الوادي » او « بطن مكة » ، كما كان وسط هـذا المنخفض يسمى « البطحاء » . وقد كانت بعض الابنية القائمة في هذه المحلة قريبة من الكعبة بحيث كانت ظلالها تختلط في الصباح والمساء بظلال المبنى المقدس . وفيما بين هذه البيوت والكعبة نفسها كان يمتد فضاء ضيق ينخفض في مستواه عن مستوى الارض المحيطة به . وكانت هذه البقعة المفتوحة تكون « المسجد » البدائي او المعبد المفتوح الى السماء الذي لم تكن بطحاء الجاهلية تعرف معبداً سواه ، كما كانت نهايات الأزقة الصغيرة المتصلة بهذا الفضاء تسمى « أبواب الحرم او المسجد » . وقد سميت باسماء البطون او القبائل النازلة حول الكعبة ، فكان يقال مثلاً « باب بني جمح » اوغير ذلك . وكانت جدران البيوت العائدة لتلك القبائل تعين حدود المسجد نفسه من جميع الجهات . ويقول لامانس ان مجلس الأسر الرئيسية لقريش ، او النادي الذي كان يؤلف « الملأ » كان يعقد عادةً في الطوابق الارضية من الأبنية المواجهة للكعبة .

اما في « الظواهر » والشعاب ، من بعد ذلك ، فقد كانت تنتشر بيوت الفقراء وأكواخهم الحقيرة بصورة تدل على الكثير من الفوضوية والانحطاط . وكانت مشكلة اولئك السكان الدائمة قلة الماء وندرة وجوده ، فان السكان كلهم كانوا يعتمدون على مقدار الماء المتغير ، الموجود في بئر زمزم . وكان هناك علاوة على ذلك عدد من الآبار الأخرى الموجودة في خارج البلد معظمها ، لكنها كلها كانت لا تكاد تكفي السكان في مواسم الحج على الأخص .

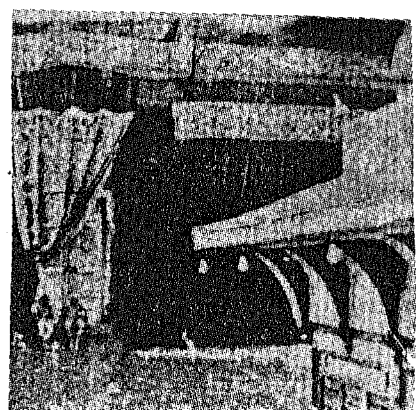
يضاف الى ذلك ان الامطار في منطقة مكة كانت وما زالت شحيحة ، ولا تسقط الا في فترات متباعدة . ولذلك فان فترات الجفاف التام كثيراً ما تمتد الى أربع سنوات متتالية ، غير ان بعض مواسم الشتاء تغزر فيها الأمطار فتصبح سيولاً مدمرة تصل الى حد لم يسمع بمثله من العنف والتخريب . إذ يقوم في شرق مكة جدار جبلي شديد الانحدار ، متألف من سلسلة من

الطبقات الصخرية والقمم التي تندمج في النهاية بجبل الصراة . وتقوم هذه القمم الوعرة وشعابها المختلفة بجمع مياه الأمطار الموسمية الغزيرة ، التي تأتي بالخصب والخير الى منطقة اليمن . وعلى طول هذه المنحدرات الخالية من الشجيرات والأعشاب تتكون عند سقوط الأمطار سيول غزيرة وشلالات متدفقة فتهبط في مجاريها المختلفة بسرعة وتنقض على الباطن الذي تقع الكعبة المشرفة في قعره . ثم تشق طريقها من « أبواب المسجد » فتغمر البقعة المحيطة بأماكن العبادة ، وترتفع بعد ذلك فتهاجم الكعبة نفسها . ويبدو أن قريشاً لم تكن تعبأ كثيراً بهذا الوضع قبل الهجرة ، او أنهم كانوا عاجزين عن الحيلولة دون وقوع الضرر منه . ولم تؤد الجهود التي بذلها الخلفاء بعد ذلك الى نتائج مرضية . والظاهر ان هذه الحالة ما تزال مستعصية حتى يومنا هذا فقد لاحظنا في أحد مؤلفات فيلبي وهو كتاب (اليوبيل العربي)[1] . وجود أشارة الى غرق المسجد الحرام والكعبة في شهر تموز ١٩٥٠ . وهناك في غير هذا الكتاب علاوةً على ذلك ، صورة معبرة تمام التعبير لمياه السيول التي اكتسحت المسجد الحرام وما يحيط بالكعبة المشرفة في ذلك الشهر فغمرتها الى عمق سبعة أقدام بالمياه ، حتى تسنى للناس ان يسبحوا فيها .

مالية مكة وحياتها الاقتصادية

وقد جاء في (دائرة المعارف الأسلامية) عن هذا الموضوع ان تمحيص الأدبيات الغزيرة التي كتبت عن السيرة النبوية العطرة ينم عن انطباع عام يدل على ان نشاطاً تجارياً فعالاً كان يتفجر من وادي مكة العقيم

المسجد الحرام وقد غمره سيل الامطار حتى استحال الى بحيرة يسبحون فيها



---

(١) Philby. H. St. John – Arabian Jubilee (London 1952) . الص ١١٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الضيق . وان الأشارات التي ترد في القرآن الكريم عن هذا الموضوع تؤكد على الانطباع نفسه وتؤيده . وقد احتفظ الرسول الأعظم طوال أيام حياته بما تعلمه من هذه الثقافة القرشية وتدرب عليه ، وهو لا يخرج في الأساس عن طابعه التجاري المتكشف في كل فرصة أو مناسبة .

ولذلك فان المرء ليأخذه العجب حينما يطلع على ما كان للكتابة والحساب من أهمية في حياة مكة الاقتصادية قبل الهجرة . فألى جنب « دفتر الحساب » كان الشيء البارز في كل دكان من دكاكينها وجود الميزان ، الذي لم يكن يستعمل لوزن السلع بقدر ما كان يستعمل للتأكد من الدفعيات التي تدفع لهم بجميع الأشكال بما فيها النقد . فلم يكن يوجد النقد بكثرة في أسواق مكة ، ولذلك كان التعاطي يتم بالأضافة الى النقد بالمعادن الثمينة وسبائك الذهب والفضة ، وبالتبر أو تراب الذهب . وهذا كله لا يمكن التأكد منه الا بواسطة الميزان ، اما في الحالات التي كانت تستدعي المزيد من الدقة فكان يستعان بخدمات الوزان الممتهن .

والملاحظ ان رأس المال كان على جانب كبير جداً من التداول في ذلك المجتمع المكي الخاص . فلم يكن ينشغل التاجر في اكتناز الثروة وادخارها في صناديقه المقفلة فقط ، وانما كانت له أيضاً عقيدة عمياء باستغلال رأس المال غير المتناهي ، عن طريق الأقراض . ولذلك كان الدلالون والوكلاء وأكثرية السكان يعيشون على الأقراض والأئتمان . وكانت المضاربة تستأثر برغبة الجميع فيها ، لا سيما مضاربة « الأسهام بالنصف » . وعلى هذه الشاكلة كان يمكن استثمار أبسط المبالغ وأقلها وتوظيفها للربح الى حد الدينار الذهب الواحد ، وحتى الى حد « النش » أو نصف الدينار .

وقد كانت العملات التي ترد الى مكة من أنواع مختلفة بجد الاختلاف ، من دينار الذهب البيزنطي (ديناريوس أوريوس) الى درهم الفضة الساساني والحميري . وكثيراً ما كانت هذه العملة تسوف وتستهلك فيقل وزنها ، او

تشوه معالمها ، بعد ان تكون قد ضربت في مختلف دور الضرب . ولذلك لم يكن غير الصراف المختص قادراً على التعرف على مختلف انواعها وتعيين مقاييس وأقيام الموجود منها في التداول بدقة وأحكام . وكانت هناك بالأضافة الى ذلك تعقيدات الاختلاف في معايير العملة وتذبذب أقيامها وأثمانها . فقد كانت البلاد الخاضعة للحكم البيزنطي مثل سورية ومصر تعتبر من « أهل الذهب » اي من البلاد التي تعتمد على التعاطي بمعيار الذهب في العملة ، بينما كانت بابل من « أهل الورق » أي من البلاد التي تعتمد على معيار الفضة الساساني . ولذلك كانت تنشط الحركة في أسواق مكة عشية رحيل القافلة الى الشام فيرتفع سعر الدينار ، لأن التاجر المكي كان من رجال المال الذين لا يختلفون في كل وقت ومكان . فهو حينما تسنح الفرصة يبادر الى استثمار رأس ماله في المتاجرة وتنظيم القوافل ويسلفها الى رؤساء القافلة أو التجار أو غيرهم .

ولما كانت مكة مدينةً تكثر فيها الحركة التجارية ويوجد فيها الصرافون والمصارف في الدرجة الأولى فقد كان فيها مؤسسات وأعراف تصلح لمثل هذا النوع من المعاملات . وكان من جملة هذه الربا أو الربح بأبشع أنواعه ، عن طريق إقراض الدينار بدينار والدرهم بدرهم أي الأقراض بنسبة مئة بالمئة . ولذلك احتجت قريش حينما حرم القرآن الربا بقولها انها لا ترى فيه سوى نوع من انواع البيع والشراء ، أو تأجير رأس المال . وكانت تشيع المضاربة كذلك ، المضاربة على أسعار التحويل وأحمال القوافل وحاصلات الحقول وقطعان الأغنام ، وعلى تزويد المدينة بالأزودة المطلوبة أيضاً . وكانت تؤلف جمعيات وهمية وتعقد صفقات للبيع تقترض من أجلها ما تحتاجه من المبالغ . ولذلك يقول المؤرخ سترابو « ان كل عربي لا بد ان يكون تاجراً أو دلالاً » . وحينما كان مواطنو مكة يساقون في حملات حربية كانوا يحملون معهم على الدوام بعض البضائع والسلع ، وهذا ما فعلوه حينما توجهت قوة من مكة لاسعاف قافلة بدر . ويقول كاتب البحث

في دائرة المعارف الأسلامية ان أول ما فعله المهاجرون عند وصولهم الى المدينة انهم سألو عن موقع السوق ، وأن النساء كن يشاركن الرجال في هذه الغرائز التجارية كذلك . فأن ام أبي جهل كانت تدير محلاً لبيع العطور ، وان هنداً زوجة أبي سفيان كانت تبيع السلع على الكلبيين في سورية . وقد كانت لنساء مكة أيضاً مصالح في القوافل الخارجة منها والداخلة فيها . فكن يجتمعن حول أبي سفيان عند رجوع القوافل من الخارج ليطلعن على مقدار الربح الذي يصيب الواحدة منهن لقاء ما وظفته من مال .

قوافل مكة

لقد كان تنظيم شؤون القوافل التجارية وتسييرها من المواضيع التي كانت تتناولها المناقشات غير المنتهية في «النادي» حول الكعبة. وكان رحيل القافلة وعودتها من الحوادث التي يهتم بها الجميع على سواء، لأن سكان مكة كلهم كانوا مرتبطين بها بشكلٍ من الأشكال. وكانت القافلة في أثناء سيرها الى الشام وغيرها تبقى على اتصال دائم بأم القرى عن طريق البدو الذين يصادفونها في الطريق، أو بواسطة رسل خاصين يرسلون لهذا الغرض. فقد انفذ ابو سفيان مثلاً رسولاً خاصاً من هؤلاء ليصف الى سكان مكة حراجة موقف القافلة حينما تصدى لها المسلمون في بدر، فكلفه ذلك عشرين ديناراً وهو مبلغ جسيم بالنسبة لمقاييس تلك الأيام لكنه كان يتناسب مع جسامة المبلغ الذي كانت توظفه مكة في قافلتها التي كانت تقدر بخمسين ألف دينار.

وكانت قوافل مكة ذات حجم غير يسير في العادة . فلم تكن تستخدم فيها الخيول ولا البغال ، وانما كانت تقتصر على الأبل التي كان يرتفع عددها أحياناً حتى يصل الى (٢٥٠٠) . اما عدد الرجال ، من تجار وحراس وأدلاء ، فقد كان يتراوح بين مئة وثلاث مئة ، وقد كانت تشدد الحراسة على القافلة حينما تصل الى الأماكن التي كانت تكثر فيها عصابات « الصعاليك » ،

وكانت القوافل المكية تستجلب من اليمن منتجات الهند وحرير الصين والمنسوجات العدنية . وفيما عدا التبر ، أو تراب الذهب ، كانت صادرات أفريقية الرئيسية الى مكة العبيد والعاج . فأن مكة كانت تستجلب من أفريقية عمالها وجنودها المرتزقة من الاحابيش . اما في مصر وسورية فقد كان تجار قريش يتسوقون سلع المترفين من منتجات بلاد البحر الأبيض المتوسط الصناعية ، وعلى الأخص الأقمشة القطنية والكتانية والحريرية ، والأقمشة الملونة باللون الأرجواني البراق . وكان يؤتى من بصرى والشراة (في سورية) بالأسلحة والحبوب والزيت ، مما كان يرغب فيه البدو جد الرغبة . وقد كان سير القافلة بطيئاً في العادة ، لكن السلع التي كانت تحملها مثل الجلود والمعادن والخشب العطري لم يكن يخشى عليها من العطب ولا التأخر وكانت النفقات تقتصر على أجور الحيوانات والحراسة ورسوم العبرية والهدايا التي كانت تقدم الى رؤساء القبائل . ولذلك كانت نسبة الربح تصل الى مئة بالمئة في مثل هذه التجارة . وهذا ما كان ينطبق تمام الانطباق على قافلة بدر التي جاء كل دينار وظف فيها بدينار من الربح ، على ما يقول كاتب هذا البحث في دائرة المعارف الأسلامية .

ثروات مكة

وبالنظر للوضع التجاري الذي كانت تعرف به مكة المكرمة . على ما مر ذكره ، كان لا بد من ان يتجمع فيها شيء غير يسير من الثروة والمال

في صناديق متموليها الذين كانوا يعرفون بميلهم الخاص الى الادخار والتوفير وهنا تشير دائرة المعارف الأسلامية الى ان قوافل مكة لم تكن تحمل سوى بضائع غالية الثمن ، وان أصحابها كانوا من أبناء البيوتات الثرية من مثل أسرة أبي أحيحة الأموية التي كانت توظف في قافلة بدر وحدها مبلغ ثلاثين ألف دينار . ويشير هذا المرجع أيضاً الى أن بعض أسر مخزوم في مكة لم تكن أقل من أسر منافسيها الأمويين ثراءً ومالاً ، وان عبدالله بن جدعان التيمي كان حتماً من « مليونيرية » مكة في تلك الأيام بالنسبة لما يُروى ويذكر عنه . ويذكر مرجعنا هذا كذلك ان المشرفين على قافلة بدر من المتمولين لم يضعوا ثروتهم المذكورة كلها في هذه القافلة بطبيعة الحال ، لأنهم كانوا يستفيدون مما تبقى من ثرواتهم في أوجه استثمارية أخرى أيضاً مثل الاقراض بالربح الفاحش والمضاربة وغير ذلك . وكان من بين المليونيرية الآخرين في مكة الثريان المخزوميان الوليد بن المغيرة ، وعبدالله والد عمر بن أبي ربيعة الشاعر المعروف في صدر الأسلام .

وتأتي بعد هؤلاء في الثراء بعض الشخصيات المكية المشهورة مثل عبد الرحمن بن عوف الذي كان رأس ماله يبلغ ثمانية ألاف دينار ، والحارث بن عامر ، وأمية بن خلف . وكان الأول قد وظف ألف دينار في قافلة بدر المعروفة . بينما كان الثاني قد وظف فيها ألفي دينار . وأخيراً فقد كان هناك في مكة جمهور التجار الصغار والدلالين وأصحاب الحوانيت ، الذين كانوا يؤلفون البورجوازية الصغيرة في مكة على ما يقول مرجعنا . وكان البعض من المتمولين يضيف الى أشغاله بالتجارة اشرافه على بعض الأعمال الصناعية كذلك مثل صناعة الحديد والنجارة وما أشبه . ويقول كاتب البحث في هذا المرجع ان الذي يصح ان يتخذ نموذجاً لهذه الطبقة الخليفة أبو بكر الصديق الذي كان بزازاً في الجاهلية برأس مال قدره أربعون ألف درهم على ما يبدو . ومما يذكر بين الصرافين المتمولين كذلك العباس

بن عبد المطلب عم النبي ، غير أنه لا تتوفر تفصيلات كافية عنه في هذا الشأن .

ويقول مرجعنا أيضاً ان رجال مكة الذين دفعوا مبالغ جسيمة لتفدية أقاربهم الذين وقعوا أسرى عند المسلمين في موقعة بدر الكبرى لا بد من أنهم كانوا على درجة غير يسيرة من الثراء والغنى . فقد كلفهم ذلك مبلغاً لا يقل عن مئتي ألف درهم ، وتنازل رؤساء مكة عن حصصهم الأصلية في مشروع قافلة بدر البالغة حوالي خمسة وعشرين ألف دينار من أجل التهيؤ للانتقام من المسلمين في غزوة مقبلة . وقد فعلوا ذلك عن طيبة خاطر ، وبروحية المتمول الموسر الذي لا يبالي بالمجازفة والمضاربة بمقياس واسع من أجل الربح ، في الوقت الذي أبوا فيه أن يمسوا حصص المساهمين الصغار في القافلة .

هذا ولم تكن مكة قبل الهجرة تملك أية سفينة أو ميناء . على ان بعض السفن الأجنبية كانت تلقي مراسيها في أحوال استثنائية في خليج الشعيبة الصغير على ساحل البادية . وكان هذا هو المكان الذي غرقت فيه ذات يوم إحدى السفن البيزنطية ، فجيء بخشبها الى مكة وجُدد تشييد الكعبة به . والى هذا المكان توجه أيضاً المسلمون الأوائل الذين هاجروا الى الحبشة هاربين من قريش ، بعد ان سمعوا ان سفينتين كانتا قد ألقتا بمراسيهما فيه . ونادراً ما كانت السفن تقلع من ساحل جدة المقفر الذي كان أقرب من الشعيبة الى مكة . غير ان جدة أخذت مكان الشعيبة على عهد الخليفة عثمان بن عفان وأصبحت ميناءً لعاصمة القرشيين. وحينما استقر النبي الكريم في يثرب وقطع على قريش اتصالها بسورية لم يفكر رجال مكة مطلقاً بالتوجه الى البحر وركوب متنه ، بل اتخذوا طريق نجد الطويل اليها مسيراً بدلاً من طريقهم الأول .

بعد الهجرة

ان الحوادث التي وقعت خلال السنين الثمان التي أعقبت الهجرة يمكن تلخيصها ، على ما يقول مرجعنا ، بكفاح النبي محمد ضد خصومه . وقد

كان كفاحه هذا ، واستسلام مكة له بعد ذلك ، ضربة قاضية للازدهار الأقتصادي الذي كان يتمتع بخيراته أعيان مكة وسراتها . فقد أخذت الأسر الكبيرة تهاجر واحدة بعد أخرى الى المدينة ، التي أصبحت عاصمة الأسلام العتيدة . ثم ازداد هذا الاتجاه في عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل ، الذين أبقوا مقرهم العام ما بين الأنصار . اما علي فقد غادر الجزيرة العربية نهائياً واستقر في الكوفة . وحينما تولى رجال قريش مقاليد الحكم بأيديهم ، واصبحوا قادة للجيوش وحكاماً للمقاطعات والبلاد ، تخلوا عن اهتمامهم بالتجارة ولم يعد يُسمع شيء عن القوافل والاسواق المعروفة في الحجاز . فخلت مكة ولم تعد ترغش بالحياة من جديد إلا في موسم الحج التي كان يأتي فيها الخلفاء اليها على رأس الحجاج القادمين من بلادهم . وقد كان الاستيلاء على العراق آخر ضربة توجه للحياة الاقتصادية في غربي الجزيرة العربية فتقضي عليها نهائياً ، لأن التجارة الهندية استأنفت السير في طريقها القديم المار بالخليج العربي ووادي الرافدين وعاد اتصالها المباشر بأسواق الشرق الأوسط عن طريق البر .

مكة في العهد الاموي

غير ان الوضع في مكة قد تحسن في عهد الأمويين ، على ما يقول مرجعنا في دائرة المعارف الأسلامية . فقد أبدى معاوية اهتماماً فعالاً بمدينته ومسقط رأسه ، فشيد فيها الأبنية وأصلح الزراعة فيما حولها بحفر الآبار وأنشاء السدود لخزن المياه . وأصبحت مكة على عهد من جاء بعده من الأمويين ، ولا سيما بني مروان ، مدينةً للهو والراحة وملتقى للشعراء والموسيقيين الذين كان يجتذبهم اليه المجتمع الباهر المزدهي بأبناء الصحابة . إذ كان الكثيرون من الناس قد عادوا الى السكنى فيها بعد ان حصلوا على الثروة عند اشتغالهم في حكومات البلاد المستولى عليها . ولا يخفى ان اتصالهم بالمدنيات الأجنبية كان قد هذب طباعهم وجعلهم شديدي التأنق . فتعودوا على الاستحمام

الذي يتطلب توفر الماء الكافي له ، ولذلك كان لا بد من سحب المياه الى مكة من جبل الصراة . ويقرن اسم خالد القسري بهذا العمل الكبير الذي بدل وجه المدينة على ما تقول دائرة المعارف . فقد عمد الخليفتان عمر وعثمان من قبل الى الاستعانة بالمهندسين الأجانب لحل مشكلة السيول والفيضان ، فشيدوا الخزانات والقناطر في الاماكن العالية وحافظوا على المناطق المحيطة بالكعبة بالسدود . وأكمل الأمويون هذه الأعمال وهذبوها . فحفروا مجرىً جديداً للسيل ، وحاولوا التخفيف من حدته وعنفه بالحواجز التي اُقيمت في مستويات مختلفة . وقد كان همهم الأكبر في ذلك حماية منخفض البطحاء الذي تقوم الكعبة في وسطه . غير ان مهارة المهندسين في تلك الايام لم تكن كافية للتغلب على المشاكل الطوبوغرافية في المنطقة ، او تجنب التخريبات التي كانت تسببها امطار الشتاء التي تنزلها العواصف الرعدية الخاصة بالمنطقة . فقد احبطت الجهود المبذولة في هذا الشأن شدة انحدار الأرض الذي كان يعقده شكل البطحاء القابل لتصريف المياه .

والى جانب هذه الاصلاحات ، والاحتياطات المتخذة ضد السيول بذلت الجهود لتوسيع الفناء الضيق المحيط بالكعبة ، لان توسع شأن الاسلام وانتشاره كان يتطلب وجود مكان للعبادة يتناسب وادعاءاته الطويلة العريضة (كذا) . فقد أدت الاستملاكات التي بدأ بها عمر ، وانتهت في أيام الوليد الأول ، الى إنشاء الأواوين . ولذلك يمكن ان يقال ان تخطيط المسجد الحرام ووجود الفناء الواسع حول الكعبة كان من صنع الخليفة الأموي الذي استعان بالمهندسين المستقدمين من سورية ومصر . وكانت حاكمية الحجاز بمدنه الثلاث ، مكة والمدينة والطائف ، لا تناط الا بفرد من أفراد الأسرة المالكة بالنظر لأهميتها . وكان من بين من تولاها من هؤلاء سعيد بن العاص وأثنان ممن اصبحوا خلفاء بعد ذلك ، وهما مروان بن الحكم وعمر بن عبد العزيز . وفي الظروف التي لا يمكن تعيين أحد من أفراد الأسرة المالكة لها كان يعين الحكام الذين ثبتت أهليتهم بالتجربة مثل الحجاج وخالد القسري .

ومع ذلك فقد بقيت المدينة المنورة مركزاً للحكومة فغطت على مكة في عهد الأمويين نظراً لأهميتها السياسية ، ولأنها كانت موطناً للطبقة الارستقراطية المسلمة الجديدة .

وقد أدت ثورة عبدالله بن الزبير على عهد يزيد الى سوق الجيوش السورية الى مكة ، وكان الثائر هذا قد جعل مقره في فناء المسجد الحرام وكان يحمي الكعبة يومذاك عريش من الخشب فأدى اهمال أحد الجنود المكيين الى ان تشب النار فيها ، ولذلك اضطر ابن الزبير الى ان يعيد تشييد المبنى من جديد بعد ان أضاف الحجر اليه . وحينما قمع الحجاج ثورة ابن الزبير أعاد الكعبة الى أبعادها الأصلية ، فبقيت على تلك الحالة حتى يومنا هذا . وفي سنة ٧٤٧ للميلاد (١٢٩ هـ) استولى على مكة ثائر يماني ينتمي الى الخوارج من دون أن يلاقي مقاومة تذكر . على أنه سرعان ما دحرته جيوش مروان الثاني وذبح فيها . وفي سنة ٧٥٠ (١٣٢ هـ) انتقلت مكة مع سائر بلاد الخلافة الاسلامية الى عهدة الحكم العباسي .

مكة في عهد بني العباس وما بعده الى حد تولي الشرفاء (٧٥٠ – ٩٦١)

لم تكن الأحوال في مكة في بداية الحكم العباسي تختلف كثيراً عما كانت عليه في أيام الأمويين ، برغم انتقال مركز الثقل في الاسلام من دمشق الشام الى بغداد . فقد كان الحرمان يعين لهما في العادة أمراء من بني العباس أو اشخاص لهم اتصال وثيق بهم[1] . وكانت مكة والطائف في بعض الأحيان يحكمهما حاكم واحد ، يكون في الوقت نفسه أميراً للحج ، بينما كان يعين للمدينة حاكمٌ على حدة .

---

(١) ويستنفيلد (بالألمانية) Wustenfeld — Die Chronicken de Stadt Mekka. الص ١٨١ ، ج ٢ .

على ان بلاد الجزيرة العربية كان يعيش فيها منذ القرن الأول للهجرة عدد غير يسير من العلويين ، فظل بعض البارزين من هؤلاء يتحينون الفرص للثورة على السلطات الحاكمة وانتزاع الحكم منها . ولذلك نجد ان المنصور (٧٥٤ — ٧٧٤) قد حدثت له مشاكل من هذا القبيل في غرب الجزيرة العربية ، كما نجد في أواخر أيام الخليفة المهدي (٧٧٤ — ٧٨٥) ان رجلاً من الحسنيين يدعى الحسين بن علي ثار بالقرب من المدينة المنورة فشن هجوماً قوياً عليها . غير أنه قتل في فخ الكائنة على مقربة من مكة بعد أن جردت عليه الحكومة جيشاً كان يقوده أمير الحج العباسي نفسه ، فدفن في مكان يسمى اليوم « الشهداء » وأصبح يدعى بشهيد فخ .

وقد كان من عادة هارون الرشيد خلال الحجات التسع التي حجها في أيام خلافته ، ان يوزع الهبات ويصرف الأموال الطائلة في مكة . على أنه لم يكن العباسي الوحيد الذي كان يوزع الأموال في البلاد المقدسة ، وحينما استمر التوزيع مدة من الزمن أصبح له تأثير سيء في أخلاق المكيين . فلم يبق من أبناء الأسر القديمة أحد فيها تقريباً ، وأصبح السكّان الموجودون فيها متعودين على الاتكال على غيرهم في المعيشة بحيث كانوا على استعداد دائم للاستثارة في أي وقت كان . وكثيراً ما كان موقف المكيين هذا يستغل للأغراض السياسية المعروفة .

وفي عهد المأمون (٨١٣ — ٨٣٣) ثار العلويون من جديد بقيادة حسين الأفطس وابراهيم بن موسى ، فسيطروا على المدينة ومكة واليمن واستولوا على خزائن الكعبة (كذا) . ومما يدل على مقدار ما وصل اليه نفوذ العلويين وسطوتهم في تلك الأيام ان المأمون اضطر الى تعيين اثنين من العلويين لحاكمية مكة . وحينما أخذت الخلافة العباسية بالانحطاط والتدهور بعد وفاة المأمون بدأت تسود البلاد الاسلامية المقدسة فترة من الفوضوية التي كثيراً ما كانت تكون مصحوبة بالقحط أو المجاعة . وأصبح من عادة عدد من الحكام المسلمين ان يكونوا ممثلين في مواكب الحج كل سنة ، وان ترفرف أعلامهم

في سهل عرفات ، ولذلك فنادراً ما كانت المدينة المقدسة نفسها قادرةً على تجنب الاشتباك والاصطدام في كل فرصة أو مناسبة . وقد تأثرت حالة الأمن وسلامة القوافل الآتية بالحجاج تأثراً غير يسير ،وأصبح الحجاج غير آمنين على أنفسهم في الطرق .

وهنا يلاحظ ان مرجعنا يتحامل من دو ن مبرر علمي على العلويين في كل مناسبة ، ويعزو اليهم سبب الثورات والغزوات واختلال الأمن . ويخرج من ذلك الى القول بأن الدعوة العلوية قد قوي شأنها في العالم الاسلامي حينما تأسست أسرة حسنية مالكة في طبرستان . وكان تأثير هذا الحادث في مكة ان ثار اثنان من الحسنيين هما اسماعيل بن يوسف وأخوه محمد . وهاجما المدينة وجدة فأحدثا تخريبات غير يسيرة فيهما (٨٦٥) . .

وقد جلب ظهور القرامطة بعد ذلك مزيداً من البؤس والتعاسة الى هذه البلاد خلال خمسين السنة الأخيرة من الفترة التي انتهت بظهور الشرفاء فيها . وكان الخلفاء ، وهم يعانون كثيراً من المضايقة في عواصمهم ، غير قادرين بالمرة تقريباً حتى على التفكير في مد يد المساعدة للبلاد المقدسة او المبادرة لانجادها لأن ممثليهم فيها لم تكن توجد قوة كافية تحت تصرفهم . فقد قطع القرامطة الطريق على الحجاج من سنة ٩١٦ (٣٠٤ هـ) فصاعداً ، وفي سنة ٩٣٠ غزا (١٥٠٠) قرمطي مكة نفسها وذبحوا من سكانها بالألوف ، ثم نهبوا الحجر الأسود من الكعبة ونقلوه الى البحرين . ولم تخفت حماستهم ، أو تقل حدتهم ، إلا عندما أدركوا ان هذه الأعمال الشائنة لم تكن تقربهم من هدفهم الأصلي وهو القضاء على الحكومات الاسلامية فأعادوا الحجر الأسود الى مكانه في مكة سنة ٩٥٠ (٣٣٨ هـ) . وبذلك تخلصت مكة من خطر جسيم كان يهددها على الدوام . وقد شهدت السنة التالية تزايد نفوذ العلويين في القسم الغربي من الجزيرة العربية ، ولا سيما بعد ان تقدم شأن الحكم الفاطمي فيها وتعاظم نفوذ البويهيين في بغداد . ومنذ هذا الوقت

فصاعداً صار العلويون في مكة يلقبون بالشرفاء ، واحتفظ كلٌّ منهم بلقب « الشريف » حتى اليوم .

الموسويون الشرفاء

يبدأ حكم الشرفاء الموسويين في مكة بجعفر الذي تولى الحكم في احدى سنوات الفترة المنحصرة بين ٩٥١ و ٩٦٨ ، على ما يقول مرجعنا . لكن المعروف ان العلويين كانوا يسيطرون على الأراضي المقدسة قبل ذلك ، وان سلالة الشرفاء الحسنية تبدأ به في مكة بينما كان اسم الشرفاء في المدينة يطلق على الأسرة الحسينية الحاكمة فيها أيضاً .

ويدل تولي الشرفاء الحكم واستمرارهم فيه على الاستقلال النسبي الذي كانت تتمتع به الجهات الغربية من الجزيرة العربية بالنسبة لسائر أجزاء العالم الاسلامي ، من الناحيتين السياسية والدينية . وقد استعادت مكة بهذا رجحان كفتها على المدينة منذ ذلك اليوم . ومما يدل على مقدار القوة التي أبداها الشرفاء في المحافظة على استقلالهم تجاه القوى الخارجية ان مكة رفضت تقديم الولاء والطاعة للخليفة الفاطمي في مصر سنة ٩٧٦ . لكن هذا الخليفة سرعان ما أمر بمحاصرة مكة ومنع استيراد المواد المطلوبة لها من مصر حتى اضطر المكيون الى الرضوخ لمشيئته ، لأن الحجاز كان يعتمد على مصر في أقواته . اما الحادثة الثانية التي كانت تدل على شعور الشرفاء بالاستقلال فهي إقدام ابي الفتوح (٩٩٤ — ١٠٣٩) على اعلان الخلافة لنفسه في سنة ١٠١١ . وقد يكون الدافع لذلك ما بدر من الخليفة الحاكم بأمر الله في مصر من امارات الزندقة والالحاد على ما يقول مرجعنا في دائرة المعارف الاسلامية . لكن الخليفة الفاطمي اضطر أبا الفتوح الى الرضوخ في هذه المدة كذلك ، لأن شريفاً آخر من الشرفاء اغتصب الحكم لنفسه ولم يقطع أبو الفتوح استرداده منه الا بموازرة الحاكم بأمر الله نفسه . وقد انتهى عهد الموسويين الحسينيين هؤلاء بابنه شكر (١٠٣٩ — ١٠٦١) بعد أن مات

من دون عقب . والموسويون هم أبناء موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . وقد كانت وفاة شكر من دون عقب سبباً في حصول الفوضى والاضطراب ، ووقوع نزاع بين أفراد الأسرة الحسنية ، فعاد ذلك بأوخم العواقب على مكة . فقد ذهب بنو شيبة خلال ذلك الى حد أنهم أخذوا لأنفسهم جميع ما كان في بيت الله الحرام من معادن كريمة وأعلاق نفيسة على ما يقول كاتب البحث في دائرة المعارف الاسلامية . ولذلك اضطر الصليحي حاكم اليمن الى التدخل في الأمر ، وأعاد الأمن والنظام الى نصابهما في المدينة المقدسة . فبدا هذا التدخل التدخل الخارجي في نظر الحسنيين شيئاً غير محتمل ، وطلبوا الى الصليحي أن يقوم هو بتعيين واحد منهم للشرافة ويغادر مكة . فقبل بذلك وعين ابا هاشم محمداً (١٠٦٣ - ١٠٩٤) شريفاً أكبر فيها ، وبذلك تبدأ سلالة الهواشم من الشرفاء .

الشرفاء الهواشم

ينسب هذا الاسم الى أبي هاشم محمد ، شقيق الشريف الأول جعفر . وكان الأخوان هذان يتحدران من الجيل الرابع من أبناء موسى الثاني جد الشرفاء الموسويين . وقد ترتب على أبي هاشم هذا ان يدخل خلال السنين الأولى من سني حكمه في كفاح مستمر مع الدوحة السليمانية من الشرفاء الذين شعروا بالاهانة عند تعيينه في منصبه . وكان السليمانيون يتحدرون من نسل سليمان أحد أخوة موسى الثاني المار ذكره .

ولقد عرفت فترة الحكم التي تولى الحكم فيها أبو هاشم بالطريقة المعيبة التي عرض فيها التابعية على أعلى المتزايدين ، أي التابعية اما الى الخليفة الفاطمي في مصر أو الى السلجوقيين الذين كانوا يسيرون الخلافة في بغداد . وكان تأثير ما ترتب على ذلك من تدابير سيئاً على المكيين بطبيعة الحال ، لأن استيراد الأطعمة والأقوات من مصر قد توقف حالما توقف المسؤولون

في مكة عن ذكر الخليفة الفاطمي في الخطبة واستعاضوا عنه بذكر اسم الخليفة العباسي في بغداد . وقد تكرر ذلك مرات عديدة حتى مل السلاجقة من المهزلة ، فساقوا جنوداً من التركمان الى مكة . وقد أدت الكراهية المتبادلة ما بين الشريف والسلطان الى الاساءة الى الحجاج القادمين الى مكة من العراق ، فنظراً الى ان أمارة قوافل الحج قد نقلت بالتدريج من العلويين الى عهدة الجنود أو الموظفين الأتراك فان أبا هاشم لم يكن يتردد في بعض السنين عن مهاجمة الحجاج ونهبهم في الطريق .

اما خلف أبي هاشم فقد عُرفت مدة حكمه كذلك بالكثير من حوادث السلب والجشع . فان الرحالة المغربي ابن جبير يذكر أمثلة تقشعر لها الأبدان عن ذلك حينما حج الى مكة في سنتي ١١٨٣ و ١١٨٥ [١] . على أن الهواشم لم يكونوا حتى في تلك الأيام مستقلين تمام الاستقلال في حكمهم ، لأن الأيوبيين كانوا قبل ذلك بعشر سنوات قد استطاعوا ان يخلفوا الفاطميين في مصر ، وأخذوا يحالون السيطرة على البلاد الآسيوية القريبة منهم ، وحينما مر أخو صلاح الدين بمكة المكرمة في طريقه الى جنوبي الجزيرة العربية تخلى عن فكرته في الغاء شرافتها ، غير ان أمارة الحج الشرفية بقيت للأيوبيين وظلت أسماؤهم تذكر في الخطبة بعد اسمي الخليفة العباسي والشريف . وقد عمد الأمير الأيوبي نفسه في ١١٦٦ الى الغاء الطريقة الشيعية في الأذان (كان الشرفاء يومذاك من الزيدية) ، وسك النقود باسم صلاح الدين ، ثم ألقى الرعب في قلوب أفراد الحرس الشريفي ، الذين كانوا ما فتئوا يرتكبون جرائم القتل والسرقة حتى ذلك الوقت ، بانزال العقوبات الصارمة فيمن يسيء منهم . وكان من نتائج التابعية الأيوبية أيضاً رجحان كفة المذهب الشافعي وانتشاره في البلاد المقدسة .

---

(١) راجع رحلة ابن جبير من هذا الجزء .

الخليلي

حكم قتاده ونسله

وفي الوقت، الذي كانت تحدث فيه الأحداث المار ذكرها كان قتادة ، وهو رجل من نسل موسى الثاني جد الموسوية والهواشم ، ينبه ذكره ويتعاظم شأنه في ينبع بالحجاز ، وامتد نفوذه بعد ذلك الى مكة فكثر اتباعه فيها . وتقول بعض المراجع ان ابنه حنظلة كان يعد العدة من جميع الوجوه لانزال ضربة حاسمة بالمدينة المقدسة والمسيطرين فيهـــا . لكن مراجـــع أخرى تقول ان قتادة استولى على مكة في يوم ٢٧ رجب حينما كان معظم سكانها منشغلين في تأدية العمرة بمناسبة ذكرى انتهاء عبد الله بن الزبير من تشييد الكعبة المشرفة ، التي جعل الاحتفال بها مطابقاً ليوم المعراج .

وقد كان استيلاء قتادة على مكة فاتحة عهد تولى فيه حكم البلاد المقدسة رجل عالي الهمة قوي الارادة ، تحدر الشرفاء المتتالون جميعهم من نسله . فقد أخذ يثبت أقدامه في البلاد ويحقق مطامعه فيجعل قطره مستقلاً من جميع الوجوه . لكنه لم يكتب له التوفيق التام في ذلك نظراً لأن الحجاز عاد فأصبح من جديد مسرحاً للأطماع والمطامح السياسية المتضاربة .

وقد بدأ قتادة على ما يقول مرجعنا في دائرة المعارف ، بتفويت الفرص على نفسه مع الدول المعظمة . فأساء معاملة ابن الملك العادل الأيوبي بطريقة فظة ، وأثار حفيظة الخليفة في بغداد بالموقف الذي وقفه تجاه الحجاج القادمين من العراق . على انه استطاع ترضية الخليفة بعد ذلك فعاد الوفد الذي أوفده للمثول بين يدي الخليفة محملاً بهداياه . وقد دعاه الخليفة لزيارة بغداد كذلك، ويقول بعض المؤرخين انه استجاب للطلب وتوجه الى بغداد ، لكنه غيّر رأيه قبل الوصول اليها فعاد أدراجه . والمقول أنه عبر عن رأيه بالعزلة التامة والحياة شعراً ونثراً ، على ما يذكر المستشرق الهولاندي سنوك هورغرونيه في كتابه عن مكة .

ويقال من جهة أخرى ان قتادة ساعد بكل قوته أحد الأئمة الحسنية

على تأسيس مملكة في اليمن . وبعد ان استولى حفيد من احفاد الملك العادل على هذه المنطقة مرة ثانية صار أيوبيو مصر وسورية والجنوب العربي يذكر اسمهم في خطبة مكة مع ذكر اسمي الخليفة والشريف . وقد انتهت حياة قتادة أخيراً في مذبحة أقدم ابنه الحسن عليها ليتخلص بها من منافسيه في الأسرة . على ان الأمير مسعوداً الأيوبي وضع حداً لأطماعه وجعل حكم مكة في أيدي قواده . وما ان توفي مسعود حتى عاد الحكم الى أيدي الشرفاء الذين سمح حكام اليمن لمنطقتهم بالاستقلال لدرجة ما بقصد اتخاذها درعاً حصيناً ضد مصر .

وفي حوالي منتصف القرن الثالث عشر للميلاد اتخذ العالم الاسلامي شكلاً جديداً بنتيجة وقوع حوادث خطيرة ، وظهور أشخاص جدد . فقد أزال هولاكو الطاغية الخلافة من بغداد في ١٢٥٨ واستولى عليها ، ولم تعد لموكب الحج القادم من بغداد آية أهمية سياسية . وانتقلت السلطة في مصر من الأيوبيين الى المماليك فأصبح السلطان بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) في الحال أقوى شخصية في العالم الاسلامي . وقد تسنى له ان يترك حكومة مكة في عهدة الشريف أبي نُمي لأنه كان رجلاً نشطاً استطاع ان يحكم بلاده بشدة وحزم خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر (١٢٥٤ — ١٣٠١) ، فأدى حكمه الطويل هذا الى تثبيت سلالة قتادة في دست الحكم .

على ان نصف القرن الذي أعقب وفاة أبي نُمي كان حافلاً بالمنازعات على الشرافة ما بين المدعين بها . وكانت المدة التي حكم فيها الشريف عجلان (١٣٤٦ — ١٣٧٥) مفعمة كذلك بالاضطراب السياسي الذي استطال أمده حتى اضطر السلطان المملوك في مصر ان يقسم ذات يوم على إبادة الشرفاء جميعهم . ولأجل ان يحول الشريف عجلان دون الاختلاف والنزاع بين الشرفاء بعد وفاته ابتدع طريقة تعيين ابنه أحمد مقدماً ليخلفه في الحكم . ومما يذكر عما فعله الشريف عجلان كذلك انه أخذ يعامل امام الزيدية في مكة ومؤذنيهم معاملة قاسية ، فكان ذلك يدل على ان شرفاء تلك الفترة

كانوا قد تخلوا عن العقيدة الزيدية التي كان يعتنقها آباؤهم واعتنقوا المذهب الشافعي الذي كان يروج أمره .

ومن أبناء عجلان وأخلافه الذين يجب ان يذكر شيء عنهم يجب أن نشير هنا الى الحسن (١٣٩٦ ـ ١٤٢٦) لأنه حاول ان يمد رواق سيطرته على الحجاز بأجمعه ليضمن مصالحه المالية بعناية ودقة ، وليكون في الوقت نفسه قادراً على عدم إفساح المجال للمصريين بالتدخل في شؤونه . وقد اختار السلطان من أبناء الحسن الثلاثة ، الذين كانوا يتنازعون على المنصب في حياة أبيهم ، بركات الأول ليكون وصياً في عهد أبيه ، وبعد عشرين سنة خلف أباه في الحكم واستطاع ان يحافظ على المنصب الى ان توفي سنة ١٤٥٥ . وقد اضطر الى ان يخضع لمشيئة السلطان ويقبل بوجود حامية تركية في مكة قوامها خمسون خيالاً تركياً . ويمكن اعتبار هذا الأمير طليعة الحكام الآخرين في مكة ، الذين حصلوا على نفوذ غير يسير أحياناً من تحت التابعية التركية .

ولقد تسنى لمكة أن تتمتع بفترة من الازدهار والرخاء في عهد محمد ابن بركات (١٤٥٥ ـ ١٤٩٧) الذي تولى في الوقت الذي تولى الحكم في مصر قائد بك ، وكان هذا قد خلد اسمه في مكة بانشاء عدة أبنية فيها . وفي عهد بركات الثاني بن محمد (١٤٩٧ ـ ١٥٢٥) تغيرت الحالة السياسية في العالم الاسلامي تغيراً أساسياً باستيلاء السلطان سليم العثماني على مصر في ١٥١٧ .

ومع ان استانبول قد أصبحت منذ ذلك الحين فصاعداً تحل في المحل الذي كانت تتمتع به بغداد في يوم من الأيام بالنسبة لمكة ، وبرغم عدم وجود التفاهم التام ما بين الأتراك والعرب يومذاك . فقد تمتعت مكة في بادىء الأمر بفترة من السلم والهدوء في عهد الشريفين محمد أبي نُمي (١٥٢٥ ١٥٦٦) والحسن (١٥٦٦ ـ ١٦٠١) . وامتدت ممتلكات الشرفاء تحت الحماية العثمانية من خيبر في الشمال الى حايل في الجنوب ، والى داخل نجد في الجهة الشرقية . على ان الاعتماد على مصر بقي موجوداً في الوقت نفسه ،

لكنه كان يضعف عندما تكون الحكومة قوية في استانبول والعكس بالعكس. ولم يكن هذا الاعتماد سياسياً فقط وانما كانت له صفة مادية ودينية أيضاً. فان الحجاز كان يعتمد في التزود بالأطعمة واستيراد الحبوب على مصر، ووجدت المؤسسات التي كانت لها صبغة دينية او تعليمية في السلاطين الأتراك حماةً لها.

على ان الجهة المعتمة في تابعية مكة للعثمانيين كانت تنطوي في تدخلهم في ادارة الأمور القضائية والشرعية. فبالنظر لاعتناق الشرفاء للمذهب الشافعي كان قاضي الشافعية في مكة يعد رئيساً لسائر القضاة. وكان هذا المنصب قد بقي لمدة قرون عديدة منحصراً في أسرة واحدة، لكن العثمانيين حينما تولوا حماية الحرمين أخذوا ينتدبون أعلى المتزايدين في استانبول لسد هذا المنصب في مكة، فكان لا بد للمكيين من أن يدفعوا ثمن هذا التدخل مع الربح بطبيعة الحال.

وبوفاة الشريف حسن حلت في مكة فترة جديدة حافـلة بالفوضى والحرب الأهلية. ويقول المؤرخون ان وجود كلمة «ذوو» في اسماء الشرفاء وجماعاتهم كان يدل على الاختلاف الحاد الموجود بينهم. فقد تركز النزاع على السلطة، الذي كانت تتخلله مشاجرات مع موظفي الدولة المسيطرة خلال القرن السابع عشر في العبادلة وذوو زيد وذوي بركات.

وكان زيد (١٦٣١ - ١٦٦٦) رجلاً جم النشاط والفعالية، يتحمل جميع ما يفعله الموظفون الأتراك، لكنه لم يستطع معارضة الأتراك بنجاح حينما أمروه باضطهاد الحجاج الايرانيين، على قول مرجعنا في دائـرة المعارف الاسلامية. فقد أدت الخصومة التي كانت موجودة يومذاك بين الأتراك والايرانيين الى ان يمتد تأثيرها حتى الى مكة بنتيجة الأمر الذي أصدره السلطان مراد الرابع بطرد الايرانيين من المدينة المقدسة وعدم السماح لهم بالحج في المستقبل. ولم يكن هذا الأمر يرضي الشرفاء ولا الطبقات العليا

من المجتمع في مكة ، وانما كان يطمئن رغبات الرعاع فقط ليتخذ وسيلة لسلب الايرانيين الميسرين . وحالما أمر الحاكم التركي في مكة بطرد الايرانيين سمح الشرفاء للشيعة باجراء مراسيم الحج والبقاء في البلدة . وكان الشرفاء يحابون على الشاكلة نفسها الزيدية الذين كثيراً ما كان الأتراك يحولون دون دخولهم الى مكة .

اما تأريخ مكة في الفترة الباقية التي تمتد الى وقت استيلاء الوهابيين فيكاد يكون عبارة عن نزاع ممل بين الأسر الشريفية المختلفة (ذوو زيد وذوو بركات وذوو مسعود) ، او بينهم وبين الموظفين العثمانيين في مكة نفسها أو جدة .

الشرفاء في أيام الاحتلال الوهابي

كان الشريف غالب (١٧٨٨ — ١٨١٣) أول من شهد حركة الوهابيين تتقدم تقدماً كاسحاً بشكلٍ يشبه السيل نحو ممتلكاته ، لكنه لم يدخر وسعاً في مقاومة خطرهم . فقد ساق جيوشه الى الشمال والشرق والجنوب ، وسار اخوانه وأنسباؤه الى ساحات الحرب ، ثم طلبت النجدة من أمراء الحج السوريين والمصريين في كل موسم من مواسم الحج المتتالية ، ولكن من دون جدوى . وفي ١٧٩٩ عقد الشريف غالب اتفاقية مع أمير الدرعية جددت بموجبها الحدود بين الطرفين مع الاشتراط بأن يسمح للوهابيين بالدخول الى البلاد المقدسة . على ان سوء التفاهم كان لا بد من أن يحصل في يومٍ في يومٍ من الأيام ، وفي ١٨٠٣ وصل جيش الأمير سعود الى المدينة المقدسة . وبعد ان انسحب الشريف غالب الى جدة دخل سعود الى مكة التي أعلن سكانها اعتناقهم الوهابية في الحال ، فهدمت القباب كلها وأُحرق جميع الموجود من التبغ والآلات الموسيقية ، ثم حذف من الآذان جمل الثناء على النبي كما يقول مرجعنا في دائرة المعارف الاسلامية .

غير ان (غالباً) عاد في تموز الى مكة ، لكنه أصبح سجيناً في داخلها بالتدريج لكثرة ما كان يحيط به من الأعداء . ثم بدأ الحصار الفعلي في آب فحلت محله فترة مؤلمة من المجاعة وتفشي الطاعون : فترتب على غالب في شباط السنة التالية ان يخضع للتابعية الوهابية ويحتفظ بمنصبه . ولم يحرك الباب العالي ساكناً خلال هذه الحوادث كلها ، ولم يفعل شيئاً حتى أعاد الوهابيون في ١٨٠٧ قوافل الحجاج القادمة من مصر وسورية مع المحملين ، وعند ذلك صدرت التعليمات الى الخديوي محمد علي بأن يعالج مشكلة الحجاز بعد ان يكون قد انتهى من مهمته في مصر . ولم يستطع هذا استرجاع مكة من الوهابيين الا في ١٨١٣ ، وهناك التقى بالشريف غالب الذي قدم له نصائح ملؤها الحذر. على ان غالباً سرعان ما وقع في الفخ الذي نصبه له محمد علي وابنه طوسون ، فنفي الى سلانيك التي عاش فيها الى أن قضى نحبه ١٨١٦ .

وكان محمد علي في الوقت نفسه قد نصب في مكانه يحيى بن أخيه سرو (١٨١٣ — ١٨٢٧) ، وبذلك انتهت أول فترة استولى فيها الوهابيون على مكة . فأصبح الحجاز مرةً أخرى تابعاً لمصر . وقد ظل محمد علي يتمتع بسمعة مشرفة في مكة مدة من الزمن لأنه أعاد تعمير المؤسسات الدينية التي خربها الوهابيون ، وأعاد استجلاب القمح من الخارج ثم عين الرواتب للذين كانوا يتميزون في الشؤون الدينية عن غيرهم .

وفي ١٨٢٧ اضطر محمد علي الى التدخل في شؤون الشرفاء الداخلية من جديد . فقد كان الشريف يحيى قد جعل من منصبه شيئاً غير محتمل بانتقامه من أحد أقربائه ، ولذلك عمد الوالي الى عزله ، وهو من ذوي زيد وتعيين شريف من العبادلة في مكانه يدعى محمد بن عون (١٨٢٧ — ١٨٥٠) . فكان عليه قبل كل شيء ان يدخل في النزاع التقليدي مع أقاربه ، وأدى حدوث نزاع بينه وبين وكيل محمد علي الى تنحية الاثنين وأخذهما الى القاهرة في ١٨٢٦ .

ولقد بقي الشريف في القاهرة الى ١٨٤٠ حينما تقرر في المعاهدة التي عقدت بين محمد علي والباب العالي ان يرتبط الحجاز بها من جديد ، فعاد محمد بن عون الى وطنه ومنصبه ، على ان تابعية مكة للعثمانيين قد أُدمجت في هذه المرة بوظيفة والي جدة ، فكان الاحتكاك والتصادم بينه وبين محمد ابن عون شيئاً لا مناص منه . لكن صداقة الشريف لمحمد علي قد ثبتت فائدتها له في هذه المرة ، فحصل على استحسان الترك وثنائهم عليه للحملات التي جردها ضد الأمير فيصل الوهابي في الرياض ، وضد العشائر الثائرة في العسير . كما مهدت غزواته في اليمن الطريق لسيطرة العثمانيين عليها .

وكان كبير أسرة ذوي زيد الشريف عبد المطلب (١٨٥١ – ١٨٥٦) قد استغل صداقته للصدر الأعظم في الوقت نفسه استغلالاً تاماً أدى به الى أبعاد العبادلة لصالح ذوي زيد . على ان عبد المطلب لم ينجح في المحافظة على علاقاته الطيبة مع أحد (الباشيين) الذين تحتم عليه التعامل معهما واحداً بعد آخر . فتقرر سنة ١٨٥٥ في استانبول إلغاء أمر تعيينه واستدعاء محمد بن عون ليحل في مكانه . فرفض عبد المطلب بادىء ذي بدء الاعتراف بصحة صدور الأمر ، وأيده في ذلك من كان يكره الأتراك في مكة لتحريمهم المتاجرة بالرقيق . على أنه تحتم عليه ان يتخلى عن منصبه في النهاية الى محمد بن عون ، الذي تولى الشرافة في ١٨٥٦ للمرة الثانية ، ولم تطل مدة بقائه فيها هذه المرة أكثر من سنتين . وقد حدث خلال الفترة المتقضية بين وفاته في مارث ووصول خلفه عبد الله الى مكة في تشرين الثاني أن قتل المسيحيون في جدة (١٥ تموز) ودفعت فديتهم .

وقد عُرف حكم عبد الله (١٨٥٨ – ١٨٧٧) الذي كان محبوباً من رعاياه بانتشار السلم في الحجاز ، وبوقوع حوادث بالغة الأهمية في الخارج . فقد كان فتح قناة السويس (١٨٦٩) يعني تحرر الحجاز من سيطرة مصر من جهة واتصاله باستانبول مباشرةً من جهة أخرى . كما كانت لتأسيس

الاتصالات التلغرافية بين الحجاز وسائر أنحاء العالم أهمية مماثلة . أما إعادة استيلاء الأتراك على اليمن فقد كان يقصد به تقوية الانطباع بأن الجزيرة العربية خاضعة للأتراك كلها الى الأبد .

ولقد انتهت المدة القصيرة التي تولى الحكم فيها حسين أخو عبد الله الأكبر (١٨٧٧ — ١٨٨٠) بقتله على يد رجل من الأفغان . فجيء بعده للشرافة من استانبول بالشريف عبد المطلب المتقدم في السن من جديد . ومع ان الرأي العام في الحجاز كان يعتبره بمنزلة القديسين فان حكمه سرعان ما ظهر تعسفه وبانت شدته فطالب وجوه البلد وأعيانه بعزله . فكانت النتيجة ان انتدب في ١٨٨١ القائد النشط عثمان نوري باشا مع ثلة من الجيش الى الحجاز ليكون قائداً للحامية فيه ، على ان تكون مهمته تمهيد الطريق لأعادة العبادلة الى الشرافة الكبرى . فخدع عبد المطلب وألقي القبض عليه ، ثم سجن في بيته في مكة الى أن مات في ١٨٨٦ .

وكان بود عثمان نوري باشا ، — الذي تعين والياً في تموز ١٨٨٢ — ، ان يرى صديقه عبد الله ، أحد العبادلة ، ينصب في دست الشرافة الكبرى بجانبه . على ان عون الرفيق (١٨٨٢ — ١٩٠٥) هو الذي عين في هذا المنصب . ولما كان الوالي على جانب كبير من النشاط والفعالية ، وبالنظر لأن الشريف عون كانت له أهميته ومنزلته برغم ميله الى العزلة ، فان حصول تصادم بينهما كان شيئاً لا مناص منه لا سيما وان لكل منهما كانت نفس الصلاحية في امور كثيرة مثل إدارة الشؤون القضائية والسهر على سلامة طرق الحجاج وأمنها . وبعد شيء غير يسير من الاحتكاك عزل عثمان نوري في ١٨٨٦ . فأعقبه جمال باشا لمدة قصيرة ، ثم جاء بعده صفوة باشا . ولم يستطع البقاء في دست الولاية إلى جنب عون الرفيق سوى أحمد راتب الذي كان يغمض عينيه عن كثير من الأشياء ويكتفي ببعض المنافع المادية . وبعد أن توفي عون اختير عبدالاله خلفاً له . على أنه مات قبل ان يبدأ برحلته من استانبول الى مكة . ولذلك فقد كان خلف عون الحقيقي ابن أخيه علي

(١٩٠٥ – ١٩٠٨) . وفي ١٩٠٨ أضاع كل من علي وأحمد راتب منصبه بوقوع الثورة التركية .

وبتولي الحسين (١٩٠٨ – ١٩١٦ – ١٩٢٤) . الذي هو من أبناء أخوة عون أيضاً ، يكون آخر شريف قد تولى الحكم في مكة . ولولا وقوع الحرب العالمية الأولى لسارت شرافته في طريقها المعتاد على وجه الاحتمال . وكان هذا قد اغتنم فرصة انشغال الدولة التركية انشغالاً تاماً بالحرب فأعلن استقلاله في ١٩١٦ . ثم حاول ان يمد سيطرته الى أبعد حد ممكن كمنقذ للعرب أولاً ، وبصفة ملك (٢٢ حزيران ١٩١٦) في الحجاز أو بلاد العرب كلها ، وأخيراً بصفة كونه خليفة للمسلمين . على انه سرعان ما اتضح ان سلطان نجد ، عبد العزيز السعود ، قد كتب له كما كتب لأجداده الوهابيين من قبل ان يكون له القول الفصل في مستقبل الجزيرة العربية وشؤونها . ففي أيلول ١٩٢٤ استولت قواته على الطائف ، ثم استولت على مكة في تشرين الأول . ففر الملك حسين الى العقبة أولاً ، وأُخذ من هناك الى قبرص في أيار ١٩٢٥ . غير ان علياً ابنه تراجع الى جدة ، فعمد ابن سعود الى محاصرتها ومحاصرة المدينة مدةً تقارب السنة تجنباً لاراقة الدماء والتعقيدات مع الدول الأوروبية . فاستسلمت المدينتان في كانون الأول ١٩٢٥ فأصبح ابن سعود منذ كانون الثاني ١٩٢٦ ملكاً في الحجاز ، وأصبح عنوان مملكته « مملكة الحجاز ونجد ، وتوابعهما » ، أمـــا اليوم فهي المملكة العربية السعودية . وبذلك تكونت وحدة سياسية جديدة عاصمتها مكة ، تضم مساحةً أكبر من أية مساحة كان يسيطر عليها الشرفاء في أي يومٍ من الأيام ، وتملك قوة داخلية أعظم من أية قوة نشأت في الجزيرة العربية منذ ان انتهى حكم العباسيين فيها حتى يومنا هذا .

مكة في يومها هـذا

ويقول مرجعنا في دائرة المعارف الاسلامية ان الحياة الدينية والاقتصادية في مكة كانت تتركز منذ القدم في حركة الحجاج والمسجد الحرام . وتنعكس وصفية مكة ، بصفتها عاصمة الاسلام الدينية في تنوع قوميات سكانها الحاليين تنوعاً غير يسير . فالى جانب أهل مكة الأصليين توجد فيها عناصر عربية أخرى كثيرة ، يبرز من بينها على الأخص عنصر الحضارمة المعروف بنشاطه وفعاليته . وهناك عدد كبير من الجاليات المسلمة التي جاءت من أنحاء العالم الإسلامي كافة لتستقر في المدينة المقدسة مدفوعةً بأسباب دينيه ودنيوية مختلفة . ومن بين هؤلاء يجب ان يذكر بصفة خاصة القادمون من الملايو ، الذين يعرفون عموماً باسم جاوة ، لأنهم جاءوا يقيمون في مكة إقامةً دائمة لأسباب دينية بحتة .

وحتى في يومنا هذا يكوّن (العبيد) ، لا سيما الأفريقيين ، عنصراً مهماً في مجتمع مكة . وقد كانت البنات الحبشيات من الأرقاء يقدرن بثمنٍ غالٍ على الدوام لأنهن يؤخذن جواري ومحظيات . على ان سوق النخاسة لم تعــد له تلك الأهمية التي كانت له من قبل . وتنتشر أكواخ العبيد المعتقين في الضواحي المحيطة بالبلد المقدس .

وتزدهر في مكة مهنة المطوفين الذين تعيش طبقتهم على حركة الحجاج في كل سنة ، وهؤلاء يعينون لهم وكلاء في جدة كذلك . غير ان هذا ينطبق على سكان مكة كلهم تقريباً ، لأنهم يرتبون أمورهم بحيث يؤجرون بيوتهم الى الحجاج خلال مدة غير يسيرة من السنة . فما يحل الشهر الثامن من السنة الهجرية حتى يصل الى البلدة عشرات الألوف من الحجاج ، ويزداد هذا العدد باطراد حينما يحل الشهر الثاني عشر . وبحلول محرم الحرام يعود المنظر في مكة الى سالف عهده من الهدوء الاعتيادي .

ولقد توسع الناس في الحجاز خلال مئتي السنة الأخيرة في تقديس الأموات وزيارة القبور باستمرار ، ففي البلاد أماكن عديدة لها اتصال بالذكريات المقدسة التي تختص بالنبي محمد وآل بيته ، وبالبارزين من المهاجرين والقديسين المتأخرين . وقد شيدت فوقها قباب عديدة صار الناس يزورونها ويترددون عليها بكثرة . غير ان الوهابيين قضوا على الكثير من هذه العادات والطقوس منذ أن تمّ استيلاؤهم على البلاد .

ومكة اليوم هي مركز الحكومة ومقرها ، مع ان إقامة الملك تكون في الرياض عادةً . وتصدر « أم القرى » جريدة الحكومة الرسمية مرةً في الاسبوع ، وهناك كذلك مطابع عديدة تقوم بطبع المؤلفات الوهابية والحنبلية في الغالب .

مكة في مراجع اجنبية اخرى

وهكذا تنتهي الخلاصة التاريخية التي توردها دائرة المعارف الاسلامية ومن أهم الكتب الغربية الأخرى التي تبحث في كثير من شؤون مكة وتاريخها بالتفصيل كتاب الكولونيل جيرالد ديغوري الموسوم (حكام مكة) . ويتطرق هذا المؤلف[١] الانكليزي الى جميع ما جاء في الخلاصة التاريخية المار

---

(١) De Gaury, Gerald Rulers of Mecca, London 1951.

ذكرها بشيء أكثر من التفصيل ، ولا سيما عن تاريخ بعض الشرفاء الكبار من مثل الأمير قتادة ، ومحمد أبي نُمي ، وبركات الأول ، وبركات الثاني . وزيد بن محسن ، وعبدالله بن سعيد ، وسرور وأخيه الشريف غالب ، ومحمد بن عون ، وعون الرفيق .

ومن جملة ما يأتي عليه ديغوري بالتفصيل موضوع تأسيس مكة ونشوئها . فهو بعد أن يصف طبيعة موقعها وأحوالها الجوية القاسية يروي ما يطلق عليه « الأسطورة المسلمة » حول قدسية مكة ، فيقول ان قافلة من قوافل بني جرهم لاحظت خلال سيرها نحو الجنوب في تلك الجهات أن عيناً من الماء كان يتدفق ماؤها في مكان مقفر لم يعهدوا وجود ماء فيه من قبل . فوقفت القافلة ، ثم انتدبت رجلين من رجالها للوقوف على جلية الأمر . وحينما ذهب الرجلان ألفيا قرب العين امرأة مع طفل ذكر بجنبها ، وقد فهما من كلامها ان اسمها هاجر وان العين تعود لها ولطفلها . وبترخيص من عندها خيمت جرهم حول العين ، وصارت تستعملها وتحافظ عليها حتى سميت باسم « زمزم » بعد ذلك . ويقول ديغوري ، نقلاً عن السر ليونارد وولي الآثاري الانكليزي المشهور ، أن ذلك يصادف حوالي سنة (٢٠٠٠) قبل الميلاد على وجه الاحتمال .

وقد نشأ اسماعيل بن هاجر عند بني جرهم ، وهي من قبائل الجنوب العربي ، ثم تزوج منهم وصار يعيش على الصيد والقنص [١] . ثم يقول ديغوري ان ابراهيم قد عاد للمرة الثالثة واشار على ابنه بأن يبني في تلك البقعة بيتاً . وانتخبوا نشزاً من الأرض وفعلوا ذلك . ثم جاء تبع الحميري ، ملك اليمن ، وصنع باباً للبيت مجهزاً بالأقفال ، وجاء الملك جبرائيل بالحجر الأسود

---

(١) ويورد هنا (ديغوري) قصة ابراهيم وكيف مر على بيت ابنه اسماعيل وهو غائب وما ترك له من الوصية عند زوجه مما قد مر في صدر هذا الجزء فاستغنينا عن ذكره .
الخليلي

ووضعه فيه . وكان هذا الحجر يلتمع فوق جبل أبي قبيس المطل على مكة ، ولم يكتسب لونه الأسود الا بعد نشوب نار من حوله في أيام الجاهلية بعد ان قلبت امرأة من الناس مبخرةً على الأرض . على ان قريشاً ، وهم أخلاف جرهم في مكة ، أعادت بناء البيت المقدس من جديد . ويقول ديغوري هنا ان المختصين بالأحجار يعتقدون بأن الحجر الأسود هو من أصل يمت الى الشهب السماوية بصلة .

وكانت الكعبة نفسها في الأصل عبارة عن بناء مكعب بسيط ، وكانت هناك كعبة أخرى في صنعاء اليمن ظلت تنافسها مدة من الزمن ، كما كان في بطرا او البتراء حجر أسود آخر ، بينما كان يوجد في الطائف وبعض الأماكن الأخرى عددٌ من الأصنام الحجرية للعبادة . وكان بناء الكعبة يجدد بين حين وآخر ، وتدخل عليه التحسينات المختلفة ، ثم يُغطى تغطية موقرة بجلود الحيوانات التي تنحر وقت الحج . وقد حلت خزاعة سنة ٢٠٧ للميلاد في محل جرهم والعمالقة في سدانة الكعبة بظروف وأحوال غامضة ، وفي سنة ٤٠٠ للميلاد حلت في محل خزاعة قبيلة كنانة القرشية التي ينتمي اليها شرفاء مكة الحاليون . ويذكر ديغوري عن قطب الدين الحنفي في هذا الشأن قوله : وقد حكمت خزاعة مكة وقامت بسدانة الكعبة بكل إدراك وحكمة من دون إقتراف ما يؤدي الى تعكير العلاقات بين الناس ، حتى تول قصي بن كلاب بن مرة ، الذي كان اول رجل من كنانة ينجح في الحكم ويعمل على توحيد قريش .

أما كيفية انتقال السدانة من خزاعة الى قصي فان ديغوري يورد قصة طريفة عنها في كتابه[1] . فهو يقول ان قصياً كان يسمى زيداً أيضاً . وكان يكنى بالمجمع لأنه وحد قريشاً وجمعها في كتلة واحدة . ولم يكن « قصي »

---

(١) الص ٣٧ .

سوى لقب اشتهر به لأنه جاء الى مكة من مكان ٍ قصي بعيد . فقد أخذته أمه من الحجاز وعادت به إلى أهلها في سورية حينما توفي والده ، وتزوجت هناك . وحينما شب قصي تنازع مع زوج أمه وأسرته وعاد الى عشيرته حوالي مكة ، وهناك وجد كل ترحيب وتزوج ابنة زعيم القبيلة حُليل بن جيش الخزاعي وكان اسمها حبه . وسرعان ما أنجب منها عدداً كبيراً من الأولاد ، وأصبح ثرياً كثير الغنى . وحينما توفي حُليل سلم مفاتيح الكعبة الى ابنته حبه التي أنعمت بها على قريب من أقاربها يُدعى ابن غبشان . على ان ابن غبشان هذا كان مدمناً على شرب الخمر ، كثير السكر بحيث باع مفاتيح الكعبة ذات يوم الى قُصي بن كلاب بقنينة من الخمر . فهاج عمله هذا قبيلته خزاعة التي لم تشأ ان تخرج سدانة الكعبة من يدها بمثل هذه السهولة ، لكنها لم تستطع استرجاعها من قصي الذي وقف من ذلك موقفاً حاسماً .

والمعتقد ان قصياً توفي سنة ٤٩٠ للميلاد ، ولكن بعد ان جعل من الكعبة مكاناً مقدساً تجله جميع القبائل وتقدسه بحيث صار من المعتاد عند السدنة والحجاج أجمع ان يتركوها قبل الغروب . ولم يعد يجرؤ أحد على المبيت في تلك البقعة المقدسة ، كما لم يعد يسمح لأحد ان يقضي نحبه فيها . وقد منع دفن الموتى أو إقامة المآتم فيها ، كما منع ارتكاب اي شيء مخالف او منطو على الغش فيها .

على ان قصياً جمع قبيلته وطلب الى افرادها ان يبنوا بيوتهم في المنطقة المقدسة ويعيشوا فيها . وحينما فعل ذلك أبان للناس وجوب تمتعهم باحترام خاص بحيث لا يتجرأ أي عربي على مهاجمتهم او إجلائهم عنها . والمقول أنه هو نفسه قطع أول شجرة ووضع أول حجر لبناء بيت دائم له في المنطقة المقدسة ، حتى يقتدي الباقون من أفراد عشيرته به ويقدمون على تنفيذ ما يريد . ويقول ديغوري ان هذا ربما كان قد حصل في سنة ٤٨٠ للميلاد ، لأن النبي محمداً عليه السلام كان قد ولد سنة ٥٧١ ، وهو خامس جيل ينحدر من قصي (اعتبر لكل جيل حوالي عشرين سنة) .

وقد أدخل قصي على ما يذكر ديغوري[١] كثيراً من الاصلاحات والتحسينات على الكعبة ووضعها ، ثم غير موقع الأصنام فيها وأمر ان يؤتى ببعضها من مكانها البعيد الى داخل الهيكل ، وبذلك جمع الآلهة كلها في مكان واحد كما وحّد قبيلته في كيان واحد . وبنى بالاضافة الى ذلك قاعة للمجلس وبهواً للمراسيم ، ظل يسمى فيما بعد بدار الندوة ، وقد كان يشترط في عضو المجلس ان لا يقل عمره عن أربعين عاماً ، باستثناء أبنائه الذين كان يسمح لهم بالعضوية حالما يبلغون سد الرشد[٢] .

يضاف الى ذلك ان قصياً جمع في يده وظائف البيت الحرام كلها ، فجمع الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، ورآسة الندوة ، واللواء ، والقيادة في الحرب . ثم نقل صلاحياته هذه كلها الى ابنه عبد الدار قبيل وفاته بأمل أن يؤمن له مركزه قبل ان يرحل الى الدار الآخرة . لكن أولاده الباقين نازعوا أخاهم في ذلك بعد وفاته من دون ان يكون التوفيق حليفهم ، غير ان أبناء عبد الدار تغلب عليهم أبناء أخيه عبد مناف الذي كان يتمتع بجانب أكبر من الحيوية ، مع البعض من نبلاء قريش . وبذلك انتقلت مفاتيح الكعبة الى آل شيبة الذين بقيت في أيديهم الى يومنا هذا . وعلى الشاكلة نفسها استطاع عمرو هاشم ، بن عبد مناف ، أن يحصل على حق السقاية والرفادة ، وكان هو الذي يشرف على تنظيم خروج القوافل الى الجنوب في الشتاء والى الشمال في الصيف (رحلة الشتاء والصيف) . وكان هاشم يصحب القافلة بنفسه في كثير من الأحيان . وفي إحدى سفراته هذه توفي في غزة بفلسطين وهو في مقتبل العمر فدفن فيها . ولهذا السبب صارت تسمى «غزة هاشم» في بعض الأحيان .

---

(١) الص ٣٨ .

(٢) في هذا الجزء تفصيل واف عن وظائف البيت الحرام وشؤون مدينة مكة العامة .

الخليلي

وكان هاشم خلال سفرته الأخيرة التي توفي فيها قد تزوج في المدينة بإمرأة من أهلها فرزق منها طفلاً نشأ وترعرع فيها حتى طالب به عمه مطلب وجاء به الى مكة فسماه عبدالمطلب. وحينما توفي العم في اليمن بعد ذلك ورث عبدالمطلب ماله وممتلكاته، ورزقه بعدد من الأبناء كان من جملتهم عبدالله والد النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

ويقول ديغوري[1] ان ذرية قصي تقاسمت الميراث فيما بينها، فصار قسم منها يتولى شؤون البيت الحرام، وقسم آخر مثل أبناء هاشم حصلوا على حق الرفادة والمتاجرة مع الخارج في الوقت نفسه، بينما اختص بعضهم الآخر بالتجارة فقط وهم أبنـــاء عبدشمس، أخي هاشم (الأمويون) فأصبحوا صرافين معروفين. غير ان أعضاء مجلس أعيان جمهورية مكة، على ما يقول ديغوري، كانوا يحسدون ذرية قصي على ما كانوا يتمتعون

(١) الص ٤١.

جانب من مدينة مكة المكرمة اليوم



به من امتيازات . وهذا ما أدى بهم الى انذار عثمان بن ﺣﻮﻳﺮث والتشهير به في الحال حينما أخذ على عاتقه ان يقوم بزيارة قيصر الروم ليقترح عليه عقد اتفاقية خاصة بين الطرفين تؤمن سلامة القوافل المكية التي تقصد الشام لقاء جزية سنوية ضئيلة تدفع بالعينيات ، والاعتراف بسيطرته على مكة .

وفي حوالي سنة ٦٠٠ للميلاد أعادت قريش بناء الكعبة مرةً أخرى ، فوسعت فناءها وأضافت الى البناء نفسه ، ثم زادت في علوه . وقد تم ذلك على أثر ما أصابها من الغرق بسبب السيول . فسنحت الفرصة لقريش في تلك الأثناء بأن تستفيد في التعمير من أخشاب سفينة أغريقية كانت قد غرقت بالقرب من ساحل جدة حينما كانت في طريقها من مصر الى الحبشة . فقد انتُدب وجيه من قريش ليفاوض (باقوم) ربان السفينة بقصد شرائها منه ، فتمت الصفقة واشترك في البناء نجار مصري ماهر كان موجوداً في مكة وربان الباخرة (باقوم) الذي استخدم في ذلك ما كان في السفينة الغارقة من حبال ورافعات . وقد أمكن بهذه الوسيلة أن يكون البناء بمقياس أوسع ، وان يُشيد الباب بمستوى يرتفع عن سوية الأرض لئلا تتسرب منه مياه الطوفان الى الداخل .

ويقول ديغوري [1] ان هذا التوسيع والتحوير كان آخر شيء تم من نوعه ، فأعطى الشكل الحالي للكعبة والبيت الحرام الذي لم يطرأ عليه أي تغيير في مظهره الأساسي خلال الألف والثلاث مئة سنة الأخيرة (كتب كتاب ديغوري سنة ١٩٥١) .

لقب الشرفاء

ويتطرق مرجعنا هذا بعد ذلك الى البحث في أصل كلمة « الشريف » فيقول ان منشأ استعمالها بالمعنى الاصطلاحي الذي يطلق على سادات مكة

---

(١) الص ٤٣ .

يكتنفه الغموض . غير انه يبدو أنه بدء باستعمالها في أيام الخلفاء الفاطميين ، على ما يقول السيوطي ، حين منع استعمالها كلقب خاص لغير ذرية الامامين السبطين الحسن والحسين عليهما السلام . ولقد بحث في المعنى الذي ينطوي عليه هذا اللقب عدد من المؤلفين العرب ، فقال الحصري في زهر الآداب انها تعني عدا التحدر من ذرية النبي الأكرم ان تتوفر في الشخص الشجاعة ، ونظافة النسب ، والأخلاق الفاضلة ، وسعة العقل الناتجة عن الاطـــلاع والتعلم . ويذكر القتيبي في (كتاب العرب) اربع صفات لذلك ، وهي الارتقاء بالنسب الى النبي الأعظم ، والتحلي بالخلق الانساني الرفيع ، والتحدر من أجداد أفاضل ، والاتصاف بالسخاء والكرم . ثم رسخ استعمال الكلمة بعد ذلك فأصبحت في القرن الثالث عشر للميلاد لقباً خاصاً يطلق الجميع على حكام مكة والبارزين من أسرهم ، ومنذ ذلك الحين فصاعداً توسع استعمالها فأصبح يشمل أفراد تلك الأسر بأجمعهم . وعلى هذا الأساس أصبحت كلمة « الشرفاء » تختلف عن كلمة الأشراف بمعناها العام وتعنى أفراد الأسرة المالكة في مكة .

مكه والصليبيون

وينفرد ديغوري في البحث[١] عن إقدام الصليبيين على مهاجمة الاسلام في عقد داره ، بقطع طريق الحج الى مكة ومحاولة الاستيلاء على المدينتين المقدستين في حوالي سنة ١١٨٢ ـــ ٨٣ ، على عهد الشريف قتادة ، وفي أيام الخليفة المقتدر في بغداد .

فهو يقول ان فارساً من فرسان الصليبيين الفرنسيين يدعى، رينو دي شاتيون **Reynaud de Châtillon** كان قد استولى على بلاد شرقي الأردن وقلاع موآب والشوبك شرقي البحر الميت ، فأصبح مسيطراً من هناك على

---

(١) حكام مكة ٢ الص ٧٩ – ٨٣ .

طريق الحج الى مكة المكرمة . فصارت تراود مخيلته خطة جريئة يهاجم فيها الاسلام في عقر داره ، ويحقق آمال الصليبية . وفي السنة التالية خالف شروط الهدنة المعقودة مع المسلمين ، وتوغل في جزيرة العرب حتى وصل إلى تيماء ، فقطع طريق الحج واستولى على عدد من القوافل الغنية غير أنه تخلى عن فكرته في مهاجمة المدينة بطريق البر ، للاستيلاء على ما كان يؤمل وجوده من أموال ونفائس في قبر النبي ، وقرر ان يفعل ذلك عن طريق البحر . على أن صلاح الدين رد عليه بانشاء قلعة حصينة في شمال شبه جزيرة سيناء ، واتخذها قاعدةً أمامية له . فلم يكن من الفارس رينو الا أن يعيد احتلال أيلة (ايلات) المطلة على خليج العقبة في الوقت نفسه ، بهجوم مفاجيء . وعمد بعد ذلك الى نقل السفن من موانيء فلسطين الجنوبية ، مثل عسقلون وغيرها ، الى البحر الأحمر بعد ان فسخها ونقل أجزاءها على ظهور الجمال بطريق البادية المار ببلاد أيدودم ووادي عربة . وفي خليج أيلة أعاد رينو بناء السفن المنقولة أجزاؤها ، فاستطاع ان يهيء خمس سفن حربية كبيرة ويحمل في كل منها ألف جندي من الصليبيين ، علاوةً على عدد آخر من السفن الأصغر منها . ثم عمد مع قسم من هذه الأرمادا الى محاصرة جزيرة «غراي» في البحر الأحمر ، وبينما كان يقوم بهذه المهمة توجه أحد قادته بباقي السفن الى سواحل البحر الأحمر الأخرى وأخذ ينهبها كلها ويعيث فساداً فيها من الشمال الى الجنوب قبل ان يعلم صلاح الدين بما فعل . ولما كانت السفن الصليبية تسير بالمجاذيف الجماعية ، فقد كانت أكثر سرعةً من سفن العرب الشراعية وأخف حركةً منها . ولذلك تسنى لهم ان يقطعوا اتصال الموانيء الصغيرة كلها بالعالم الخارجي ، ويستولوا على السفن التجارية ، فضلاً عن تدمير مواصلات الجيوش المسلمة . وقد ظلوا يغرقون جميع ما يصادفونه من السفن بعد ان يستولوا على شحناتها خلال سنة كاملة (١١٨٢ – ٨٣) . والى أبعد من ذلك جنوباً نهب الصليبيون ميناء عيذاب الأفريقي ، الذي كان على جانب كبير من الأهمية للحجاج

المتوجهين من وادي النيل الى مكة المكرمة . وهناك أحرقوا السفن التجارية كذلك ، وأغرقوا سفينة كبيرة كانت تقل عدداً كبيراً من الحجاج الى جدة .

ولم يكتف رينو الصليبي بأفعاله الشنيعة هذه فقط ، بل أقدم أيضاً على انزال حملة عسكرية في الساحل المصري فسارت شمالاً واستولت على كثير من القوافل الغنية القادمة من قصير . ثم ظهر رجاله في جميع موانيء الجزيرة العربية ، ومنها رابغ والهوارة في شمال ينبع وجنوبيها ، حتى أنهم ظهروا في باب المندب وعدن كذلك ، حيث أسروا عدداً من الشيوخ ورجال الدين في أثناء قيامهم بسد المدخل الى البحر الأحمر من هناك .

على ان الجيوش العربية في القاهرة كانت قد خفت الى تجهيز نفسها على ما يقول ديغوري ، وتهيأت لشن هجوم مقابل على الصليبيين . لكن الملك العادل ، أخا صلاح الدين ونائبه في غيابه ، لم تكن تتوفر لديه السفن المطلوبة في البحر الأحمر فارتأى ان يقلد رينو في ما فعل ، ونقل عدة سفن كبيرة من النيل والاسكندرية الى القلزم (البحر الأحمر) . وفي كانون الثاني ١١٨٣ أنزل هذا الاسطول العربي في البحر الأحمر بقيادة حسام الدين لؤلؤ (المسمى بالحاجب) الذي كان معروفاً بورعه ومقدرته في الحروب البحرية . وفي أقل من شهرين استطاع ان يحرق السفن الصليبية الثلاث التي كانت تحاصر جزيرة غراي ويأسر جميع بحارتها . وعلى مقربة من الهوارة هاجم باقي الأسطول الصليبي في منتصف الصيف ، ودمر سفنه بأجمعها . فحاول بحارة السفن المدمرة ان ينضموا في البر الى الرتل الذي كان قد بدأ بالزحف على المدينة المنورة قبل المعركة . وعلى مسيرة خمسة أيام من البحر ، ويوم واحد من المدينة ، هاجم المسلمون القوة الصليبية المؤلفة من ثلاث مئة محارب فدمروها شر تدمير . ومن بين المئة والسبعين صليبياً الذين نجوا من القتل خلال المعركة فأسروا وقتل عدد غير يسير حيث كانت تنحر الضحايا في منى ، وفي المدينة وعلى مقربة من مكة نفسها . اما الباقون فقد فر قليل منهم فنجوا بأنفسهم ووصلوا الى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وأخذ

البعض الى مصر فشهر بهم وعرضوا على الجمهور الحانق قبل ان يقتلوا على يد الدراويش وغيرهم . وقد شاهد بعضهم الرحالة المغربي ابن جبير ووصفهم في رحلته ، وهو يقول ان الاسطول العربي الذي قضى على الاسطول الصليبي بقيادة حسام الدين لؤلؤ كان يديره بحارة من المغاربة الأشداء الشجعان .

ويتابع ديغوري بحثه في هذا الشأن ويقول ان صلاح الدين الأيوبي قرر ان يضع حداً الى الأبد لهذا الخطر الذي صار يهدد مكة وغيرها من المدن المقدسة . فأمر بالاستيلاء على قصر رينو وقلعته . وبدأ حصاره بقيادته هو نفسه في خريف تلك السنة بالذات وقد بدأ القصف بالقنابر حينما كان الصليبيون يحتفلون بزواج ابن زوجة رينو ، فسقط قسم منها في وسط المحتفلين وعلى الراقصين والآلاتية لكن هذا الحصار لم يدم طويلاً لأن الملك بالدوين الرابع خف لنجدة رينو برغم مرضه الشديد فأنقذه . على ان رينو لم يبق طويلاً على قيد الحياة بعد حملته الفاشله في البحر الأحمر على كل حال ، لأن صلاح الدين دحر الصليبيين سنة ١١٨٧ في موقعة حطين بالقرب من الجليل ، فسقطت في يده مملكة القدس الصليبية . وقد أسر أمراء المسيحيين وفرسانهم ، وقتل رينو « عفريت الغرب » وخصم صلاح الدين شر قتلة في حضور صلاح الدين بالذات . وفي رواية انه قتله بيده .

الشريف قتادة وموكب الحج العراقي

ويذكر ديغوري[1] ما وقع في أيام الشريف قتادة من اعتداء على الحجاج العراقيين في مكة سنة ١٢١٠ و ١٢١٢ ، نقلاً عن (شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام) لمؤلفه تقي الدين أبي طيب محمد بن أحمد الفاسي ، الذي نشره مترجماً المستشرق الألماني فستنفيلد في لايبزغ سنة ١٨٥٩ .

وموجز ما يقوله الفاسي هذا أن أمير الحج العراقي يومذاك كان علاء الدين

(١) المرجع الأخير ، الص ٨٣ .

محمد بن الأمير ياقوت ، بالنيابة عن والده الذي كان حاكماً في خوزستان وأميراً للحج في الوقت نفسه ، وكان مساعده ودليله ابن فراس . وعلى رأس الموكب الشامي كان صمصام اسماعيل أخو شاروخ النجمي ، بينما كان يرأس الموكب الفلسطيني الحاج علي بن سالم ، وكانت من بين الحجاج في هذا الموكب ربيحة خاتون شقيقة الملك العادل . وقد حدث في منى بعد الانتهاء من رمي الجمرات ان انقض الاسماعيليون على أحد الشرفاء من أبناء عم قتادة ، وشبيهه في الخلقة ، فقتلوه ظناً منهم أنه قتادة نفسه . وكان القاتل يدعى هارون أبا عزيز ، وينتمي الى أم جلال الدين على ما قيل . وعند ذاك انبرى للعمل عبيد الشرفاء وخدامهم في الحال ، فتسلقوا سفوح التلال المحيطة بمنى وأخذوا يرمون الحجاج المحتشدين بالنبال والقذائف من (العرادات) . وظلوا خلال اليوم التالي كله يعتدون على الحجاج وينهبون ممتلكاتهم ، فحدثت عدة قتول من الجانبين . ولذلك أشار ابن أبي فارس على أمير الحج العراقي ، محمد بن ياقوت ، بأن ينقل مخيم العراقيين من منى الى الظاهر ، حيث يخيم الشاميون في العادة . وحينما بدأوا بالانتقال الى هناك تصور قتادة وعبيده ان العراقيين تحركوا للهجوم عليهم ، فعاجلهم بالهجوم ونهب جميع ما كانوا يملكون . وهو يصرخ قائلاً : « سوف لا أبقي أحداً منهم على قيد الحياة » .

وكانت ربيحة خاتون عندذاك في الظاهر فالتجأ أمير الحج العراقي الى خيمتها التي كانت فيها الخاتون أم صلاح الدين الأيوبي أيضاً . فما كان من السيدة ربيحة الا ان تبعث الى قتادة مرافقها ابن السقار يقول له « ما ذنب الناس اذا كان القاتل معروفاً ؟ أم أنك تختلق الحجج لسلب الحجاج ، مع أنك تعرف من نحن ؟ » وقد هدد ابن السقار قتادة بأنه اذا لم يكف عن الانتقام فان العاقبة ستكون وخيمة عليه حين يزحف الخليفة بنفسه عليه من بغداد ويزحف السوريون من الشام . وعندذاك أمر قتادة بايقاف العنف بشرط أن يدفع له الحجاج تعويضاً قدره مئة ألف دينار . وأخيراً تم جمع حوالي

ثلاثين ألف دينار من الحجاج ، ومن والدة صلاح الدين . وقد بقي مئات الناس مقيمين حول خيمة السيدة المعظمة ثلاثة أيام بقصد الحماية ، فكان الكثيرون منهم جياعاً عراة ، كما كان بعضهم مصاباً بجروح . وكان قتادة يعتقد ان الخليفة في بغداد هو الذي أوعز بتدبير قتله ، ولذلك أقسم على قتل أي حاج يصل الى الحجاز من أهل العراق .

وهكذا عاد حجاج العراق الى بلادهم وهم على جانب كبير من التعاسة . بعد مدة من الزمن أوفد قتادة ابنه راجحاً يستجدي العطف والرضا من الخليفة في بغداد ، فعفا عنه وبعثت له في السنة التالية هدايا وأموال كثيرة ، ثم وجه له الخليفة دعوة لزيارة بغداد . على أنه ما ان وصل الى الكوفة في طريقه الى المثول بين يدي الخليفة حتى غيّر رأيه وعاد راجعاً من حيث أتى ، لأن رجال الخليفة الذين استقبلوه في الكوفة كان أحدهم يقود أسداً مقيأً بسلاسل من حديد فتشاءم الشريف من ذلك . ثم بعث الى الخليفة بقصيدة من نظمه يعتذر فيها . ويقول (ديغوري) ان قتادة صرح أكثر من مرة في ملأ من الناس بأنه أحق بالخلافة من الخليفة العباسي في بغداد .

والظاهر أن خلاف الشرفاء مع العراقيين كان يتجدد بين حين وآخر برغم تقادم العهد وكر السنين . فبعد الحادث المذكور بمئة سنة أو يزيد نجد الشريف رميثة ، على ما يذكرا ديغوري ، يبعث ابنه محمداً بحملة إجتاز بها نجداً واحتل الحلة في العراق حيث كان حكم المغول الأيلخانيين آخذاً بالانحلال . وكان قبل ان يندبه لهذه المهمة قد حذره من غوائل العراق والعراقيين ، فأيدت الحوادث ما كان يخشاه لأن ابنه قتل في العراق خلال تلك الحملة . ولذلك انقطع توارد الحجاج العراقيين على مكة بعد تلك السنة مدةً تقارب أحد عشر عاماً ، خوفاً من انتقام الشرفاء لابن رميثة ، ونظراً

(١) المرجع الأخير الص ١٠٠ .

لاختلال الأحوال في البلاد على أثر انهيار الحكم المغولي فيها . ولم يعد العراقيون الى الحج بعد ذلك الا في ١٣٤٤ للميلاد على عهد الشريف عجلان ابن رميثة .

ومما يجدر ذكره هنا بمناسبة ذكر الشريف رميثة مما له علاقة بمكة ، أن امبراطوراً مسلماً من حكام العبيد في أفريقية يدعى منسي موسى حج الى مكة من (ماندينكو) مع حاشيته الذين كان يبلغ عددهم حوالي خمسة عشر ألف نسمة على ما يقال . وقد جاء معه بأكياس كثيرة من الذهب وصرف أموالاً طائلة في مكة وغيرها من البلاد الحجازية ، فظلت حجته هذه على ألسن الناس مدة طويلة من الزمن . وينقل ديغوري عن أحد المؤلفين [١] الانكليز قوله في هذا الشأن : « .. وكان حينما سار الى الحج يمتطي صهوة جواده ويتقدمه خمسة آلاف عبد من العبيد الأشداء الذين كان كلٌ منهم يحمل علماً من الذهب يزن (٥٠٠) مثقال أو ست ليبرات منه .. وكان الهدف الوحيد من رحلته الطويلة هذه اداء الفريضة الدينية ، وعلى الرغم مما كان فيها من أبهة وفخفخة فانها كانت تخلو من اي مغزىً سياسي .. وقد حدث بنتيجة مروره بمصر في طريقه الى مكة أن دخل كثير من الذهب في التداول بحيث قل سعره في السوق الى حدٍ غير يسير ، وبقي على مستواه ذاك مدة سنين عديدة .. »

الحج

هناك بحث مفصل عن الحج في دائرة المعارف الاسلامية . يبدأ بالاشارة الى كون الحج فريضة دينية على كل مسلمٍ ومسلمة : بالشروط والتحفظات التي تنص عليها أصول الدين . ثم يتعرض الى المشقة التي كان يلاقيها الحجاج

---

(١) Bovill, E. W Caravans of the Old Sahara, An Introduction to the History of Modern Sudan. الص ٧١ .

في الوصول الى بيت الله الحرام ، ويخلص من ذلك الى ذكر مواكب الحج وقوافله المشهورة التي كانت تقصد مكة في كل سنة .

فيقول ان موكب الحج السوري كان يسير في طريق القوافل التجارية القديم ، الذي كان يخرج من الشام ويجتاز البلاد الأردنية الى معان ، ومنها الى مدائن صالح فالمدينة المنورة . وقد كان الموكب السوري أكبر موكب يصل إلى مكة ، فقد بلغ عدد الحجاج الذين جاءوا معه سنة ١٨٧٦ على ما يقول الرحالة دوطي ستة آلاف شخص . وكان الموكب يأخذ معه في العادة محملاً خاصاً تسير وراءه القافلة بشكل مهيب . ولذلك كانت القلاع والخانات تبنى في المحطات الموجودة في الطريق بحيث يمكنها تأمين الطعام وسائر التسهيلات للحجاج . ويقول الرحالة بورخارت ان الموكب كان يقطع المسافة الى مكة في مدة ثلاثين يوماً .

وكان موكب الحج المصري يصحب على الشاكلة نفسها المحمل ، الذي كان يحمل في العادة الكسوة الثمينة الى الكعبة المشرفة . ويقول المستشرق لين ان الموكب المصري كان يغادر القاهرة في آخر اسبوع من شوال فيصل الى مكة في سبعة وثلاثين يوماً ، بعد ان يسير على طول الساحل البحري . وهناك طريق آخر كان يفضله الحجاج القادمون من مصر وبلاد المغرب ، وهو يخرج من القاهرة أو غيرها من البلاد المصرية فيتجه شمالاً الى أحد موانيء البحر الأحمر المواجهة الى جدة في الحجاز . وهذا هو الطريق الذي سلكه الرحالة المغربي ابن جبير ، والتبنوتي في (الرحلة الحجازية) .

وكان هناك موكب آخر يخرج من العراق فيجتاز جزيرة العرب ، وموكب آخر كان يخرج من اليمن . ويقول مرجعنا في دائرة المعارف ان الحكومة السعودية منذ ان تكونت لم تتقاعس عن بذل الهمة والعناية الزائدة في تأمين الطرق وتزويد الحجاج بالماء والعناية الصحية وغير ذلك .

وقد كانت قوافل الحجاج تضم عناصر من مختلف الناس . فقد كانت تضم الأمراء والتجار والبدو والشحاذين وغير ذلك . وكان هؤلاء يسافرون ماشين على أرجلهم او راكبين على ظهور الخيل والابل وما أشبه . وكانت السلطات في مكة تتخذ التدابير المختلفة لمنع تعرض البدو بالقوافل ، حتى اضطرت الى عقد اتفاقيات خاصة مع رؤساء القبائل وشيوخهـا لتسهيل شؤون الحجاج . فكان عليها ان تدفع بمقتضى ذلك مبالغ مقطوعة ، تسمى صرة ، لقاء هذا . وقد كانت هناك موانع قهارة أخرى في تاريخ الحج تحول دون سير القوافل بأمنٍ وسلامة الى مكة في بعض السنين ، مثل القرامطة ؛ والسلطات المصرية ، والقرصان ، والوهابيين . على ان الحكومة السعودية اليوم قد تمكنت من نشر لواء الأمن التام في هذه الطرق .

وكان وصول المحملين المصري والسوري يعد حادثاً له أهميته بالنسبة للمكيين على الدوام . فكانوا يستقبلون كل واحد منهما بالكثير من المراسيم ومظاهر الحفاوة فيخيم في موقعه الخاص خارج المدينة . غير ان أهميتـه قد تضاءلت كثيراً في السنوات الأخيرة .

اما مجموع الحجاج الذين يصلون الى مكة في كل سنة فهو معروف لدرجةٍ غير يسيرة من الدقة . فقد كان العدد يتراوح قبل الحرب العالمية الثانية ما بين (٣٦٠٠٠) و (١٠٨٠٠٠) ، لكن المعدل يمكن ان يعتبر حوالي (٧٠,٠٠٠) . ويصل معظم الحجاج في العادة قبل موعد الحج ، كما ان عدداً غير قليل منهم يقضون شهر رمضان في مكة كذلك . وهناك كثيرون يفضلون البقاء في مكة بعد الحج ، للدراسة الدينية او للمجاورة والاقامة حتى يتوفاهم الله في البلد المقدس . والملاحظ ان عدد الحجاج يزداد على الأخص حينما يصادف يوم الحج الرئيس (٩ ذو الحجة) في يومٍ من ايام الجمعة .

وتتطرق دائرة المعارف الاسلامية بعد هذا الى البحث في مناسك الحج

كلها بالتفصيل ، فتصفها بالوصف المألوف المعروف . ثم الى منشأ فكرة الحج في الاسلام فتقول ان موقف النبي عليه السلام من الحج الذي كانت تمارسه العرب قبل الاسلام لم يكن موقفاً واحداً في جميع الظروف والأحوال فهو في شبابه لا بد من ان يكون قد أسهم في كثير من الأحيان في طقوسه ومراسيمه ، وبعد الدعوة الاسلامية السامية لم يكن يعير هذه المراسيم كثيراً من الالتفات في بادىء الأمر كما يلاحظ من عدم وجود ذكر لها في آيات القرآن الأولى . ولا يبدو من أي شيء آخر انه كان قد اتخذ موقفاً واضحاً تجاه هذه العادة في الأصل .

على ان اهتمام النبي محمد بالحج كان قد ظهر في المدينة المنورة لأول مرة ، وهناك أسباب عدة كانت تدعوه الى ذلك . فقد أثار نجاحه اللامع في غزوة بدر الكبرى أفكاراً كانت تحوم في مخيلته حول مهاجمة مكة والاستيلاء عليها . ولا شك ان القيام بالاستعدادات اللازمة لاتخاذ مثل هذه الخطوة الجريئة كان لا بد من ان يقترن بمزيد من التجاح لو أثير الاهتمام الديني الدنيوي في نفوس أنصاره وأتباعه . وكان عليه السلام قد خُدع في تقدير موقف اليهود تجاهه في المدينة بحيث كان عدم اتفاقه معهم في أمور كثيرة لا بد من أن يجعل حصول قطيعة دينية معهم شيئاً لا مناص منه . وفي هذه الفترة بالذات نشأت فكرة ديانة ابراهيم وعلاقتها بالديانتين اليهودية والاسلامية. فقد أخذت الكعبة تصبح بالتدريج مركزاً للعبادة الدينية عند العرب ، ولا شك ان ابراهيم أبا التوحيد كان هو الذي بناها وشيدها بالاشتراك مع ابنه اسماعيل ، لتكون مجمعـاً للناس أجمع . وان مـا يقوم بـه الناس من الشعائر والعبادات في الكعبة يرجع سببه الى الأوامر الربانية الواردة في بعض سور القرآن .

وفي هذه الفترة كذلك جعلت الكعبة قبلةً للمسلمين وأصبح الحج فريضةً عليهم (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) . ولقد كان الوضع على مثل هذا في السنة الثانية للهجرة . ولم يكن في استطاعة النبي الأعظم

ان يحاول تنفيذ ما كان عنده من خطط الا في السنة الخامسة بعد الهجرة). أي بعد الحصار الفاشل الذي فرضته قريش على المدينة (واقعة الخندق، وقد كان أول مجهود بذل في هذا الشأن تجريد حملة الحديبية، التي جعلت أمر تأدية العمرة في السنة التالية شيئاً ممكناً ولو لم تؤد بالنبي عليه السلام الى الاستيلاء على مكة. وفي السنة السابعة سن محمد مناسك الحج في الكعبة، غير ان الفرصة لم تسنح للقيام بمراسيم الحج علناً إلا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة. لكنه لم يغتنم هذه الفرصة لنفسه هو وانما بعث بدلاً عنه في السنة التاسعة أبا بكر، ليرأس موكب الحج وقافلته الى مكة. وبينما كان أبو بكر في طريقه اليها أدركه علي بن أبي طالب في بعض منازل الطريق ليقرأ على الحجاج سورة «براءة» التي كانت قد نزلت على النبي عليه السلام في ذلك الوقت. وقد حرمت هذه السورة إداء الحج على غير المسلمين الا الذين كان النبي قد دخل في اتفاق خاص معهم. وفي السنة العاشرة حج النبي (ص) حجة الوداع، فكان للترتيبات التي أجراها في هذه الحجة أهمية بالغة بعد ذلك. فقد ألغى النسيء وأدخل استعمال السنة القمرية البحتة المذكورة في القرآن (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله).

ويتطرق مرجعنا في دائرة المعارف الاسلامية الى المنشأ الذي نشأت عنه مناسك الحج في أيام الجاهلية، ويحاول خلق أوجه شبه أو تقارب بينها وبين الموجود مثلها في الديانة اليهودية، من دون ان يحالفه التوفيق. فيبدأ بالاشارة الى العلاقة الموجودة بين موسم الحج في مكة وأسواق العرب التي كانت تعقد في أيام الجاهلية. فيقول أننا نعلم ان العرب كانت تعقد سوقين سنويين قبل الاسلام في شهر ذي القعدة، وهما عكاظ والمجنة. وكان يعقبهما كذلك سوق ثالث في أوائل ذي الحجة، وهو ذو المجاز الذي كان الناس يذهبون منه الى عرفات مباشرة. وعلى هذا فقد يكون الفرض الذي يفرض على المسلمين بالذهاب من مكة إلى عرفات مباشرة شيئاً جديداً.

وقد كان الحج الى عرفات يتم في التاسع من ذي الحجة ، فتشترك فيه مختلف القبائل العربية . على ان ذلك لم يكن شيئاً ممكناً الا حينما يكون السلم منتشراً لواوه في البلاد ، ولذلك كانت أشهر ذي القعدة وذي الحجة ومحرم تؤلف ما يسمى بأشهر الحرام المقدسة التي تتوقف فيها القبائل عن منازعاتها وخصوماتها ، وتضع أسلحتها جانباً في المنطقة المقدسة . وكانت المتاجرة وعرض السلع والمعروضات للبيع تقرن عادةً بالحج ومناسكه ، بعد الانتهاء من موسم قطف التمور . وربما كانت هذه الأسواق هي الشيء الرئيسي بالنسبة لمعاصري النبي محمد ، كما هي الحالة اليوم بالنسبة لعدد غير قليل من المسلمين الحاليين ، لأن المراسيم الدينية كانت قد فقدت أهميتها حتى في ذلك الوقت . وكان من المراسيم الرئيسية في حج الجاهلية « الوقوف » في سهل عرفات ، اما في الاسلام فان الحج من دون « وقوف » يعد شيئاً غير مقبول . ويمتد الوقوف في الاسلام من وقت الزوال حتى الغروب ، ويقول أهل السنة ان محمداً أمر بأن لا يغادر الحجاج سهل عرفات الا بعد الغروب ؛ بينما كان من المعتاد قبل الاسلام ان تبدأ « الأفاضة » حتى ولو قبل الغروب . لكن المقول ان محمداً لم يغير الوقت فقط وانما الغى الشعيرة جميعها بمنع الاسراع في الذهاب الى المزدلفة ، وأمر بأن يكون الدخول اليها على مهل . ويعتقد مرجعنا في دائرة المعارف الاسلامية ان هذا كانت له علاقة بعبادة الشمس في الجاهلية ، ولذلك تعمد النبي ان يغيّر في المواعيد .

وقد كان « قزح » إله الصواعق هو إله مزدلفة ، ولذلك كانت توقد النار فوق الجبل المقدس المعروف باسم قزح أيضاً . وهنا كان يتم الوقوف كذلك ، وربما كانت العادة التقليدية في الجاهلية المنطوية على إحداث الجلبة والضوضاء بكثرة ترجع في سببها الى كونها كانت تعويذة توددية تتعلق للاله المذكور .

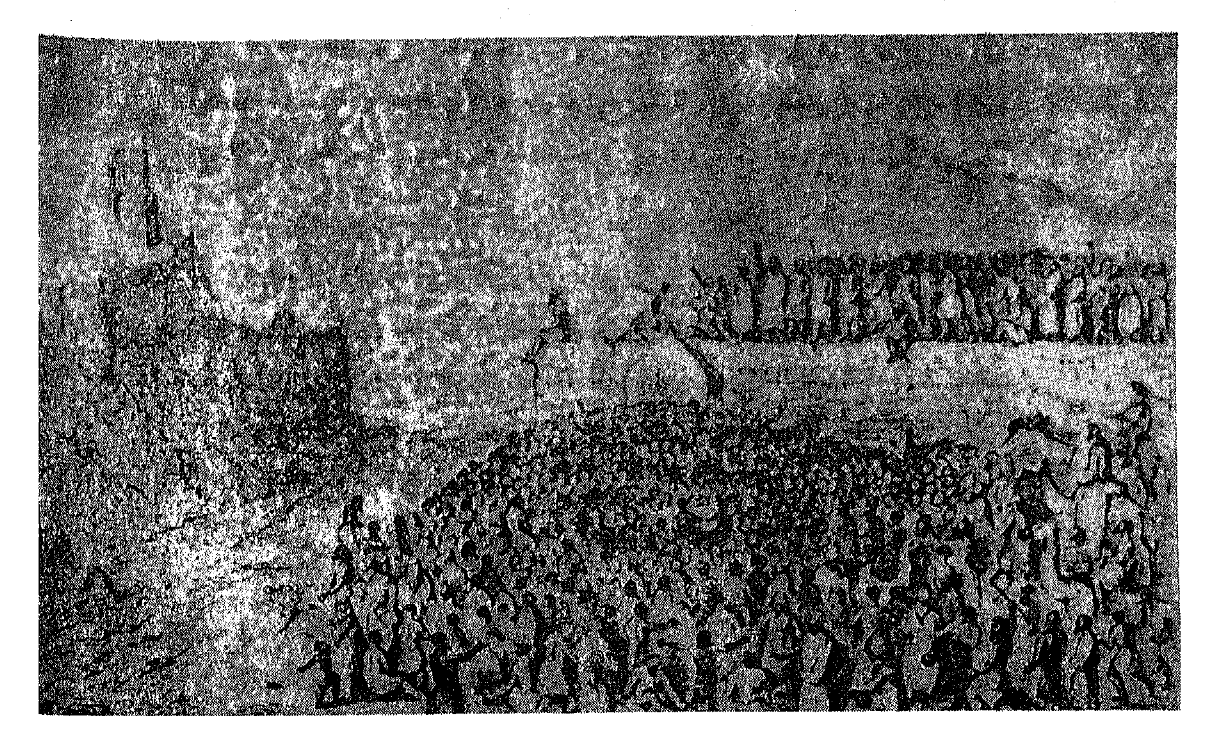
وحالما كانت الشمس تبدو في الأفق كانت تبدأ الأفاضة في الجاهلية . ولذلك فرض النبي عليه السلام ان تبدأ هذه الافاضة قبل طلوع الشمس ،

ليقضي على شعيرة من شعائر عبادة الشمس كذلك . ويقالُ أن العرب كانت تنشد في أثناء الأفاضة قولها « أشرق ثبير كيما نُغير » . لكن تفسير هذه الكلمات لا يعد شيئاً أكيداً ، ولو أنها قد فُسرت أحياناً بالقول : « أدخل الى نور الصبح يا ثبير ، لنعجل بالمسير » .

وحينما كان العرب يصلون الى منى كان أول شيء يفعلونـــه هو نحر الأضاحي على ما يبدو ، وما زال اليوم العاشر من ذي الحجة يسمى بيوم الاضاحي كما لا يخفى . وكانت الأبل المهيأة للتضحية في الجاهلية تُعلّم بعلامات خاصّة .

وكانت الجمار ، على ما يقول ابن هشام ، لا ترمى الا بعد ان تكون الشمس قد عبرت حد الزوال . ويقول المستشرق (هوتسما) أنه من المحتمل أن يكون رميها موجهاً الى عفريت الشمس . لأن هذا العفريت حينما يُنحى جانباً أو يطرد تكون قساوة الشمس قد انتهت بانتهاء الصيف ، ولذلك كان لا بد من أن يعقب هذا العمل التملق بالعبادة لاله الصواعق الذي يأتي بالخصب

الافاضة في الجاهلية كما يصورها مؤرخو الغرب



والمطر كما لوحظ من قبل في ذكر مزدلفة . غير ان المعروف عند المسلمين كما لا يخفى ان الجمار يراد برميها رجم الشيطان ، وعلى هذا فان محاولة هذا المرجع ايراد هذا التفسير بعد تصرفاً بعيداً عن الواقع . ثم يقول مرجعنا ان الترّوية قد تكون لها علاقة كذلك بالعبادة من أجل استدرار المطر ، التي بقيت آثارها حيّة بتقديس ماء زمزم .

ويقول المرجع كذلك ان بعض الحجاج كانوا يجففون لحوم الأضاحي في الشمس ، خلال أيام « التشريق » ، ليأخذوها معهم حينما يعودون الى ديارهم . وهذه العادة تنطبق على معنى كلمة تشريق التي يفسرها العرب القاموسيون بأنها تعني « تجفيف قطع اللحم في الشمس » .

زمزم

جاء في دائرة المعارف الاسلامية أن زمزم هي بئر مكة المقدسة ، التي تسمى بئر اسماعيل كذلك . وتقع في الحرم الشريف جنوب شرقي مكة في مقابل الركن الذي يوجد فيه الحجر الأسود . ويقدر عمقها بمئة وأربعين قدماً ، وهي محاطة في الوقت الحاضر بقبة رشيقة جميلة البناء . ويقوم الحجاج بشرب الماء المستخرج منها للحصول على الصحة والعافية ، وهم يأخذون من مائها الى أهليهم أيضاً ليسقوه المرضى والناقهين . وتعني زمزم بالعربية الماء الغزير .

وتنص الروايات العربية والاسلامية على ان هذه البئر لها علاقة بقصة ابراهيم الخليل . فقد فجرها جبرائيل لينقذ هاجر وابنها اسماعيل ، حينما أشرفا على الموت عطشاً في تلك البقعة القاحلة . وكانت هاجر أول من جمع ماءها ببناء جدار من الأحجار حولها . ومن الأكيد ان هذه البئر كانت تعتبر بئراً مقدسة منذ مدة موغلة في القدم . والمعروف في بعض الأخبار ، كما يستفاد من أبيات شعر قديمة ، ان الايرانيين كانوا يرتلون صلواتهم

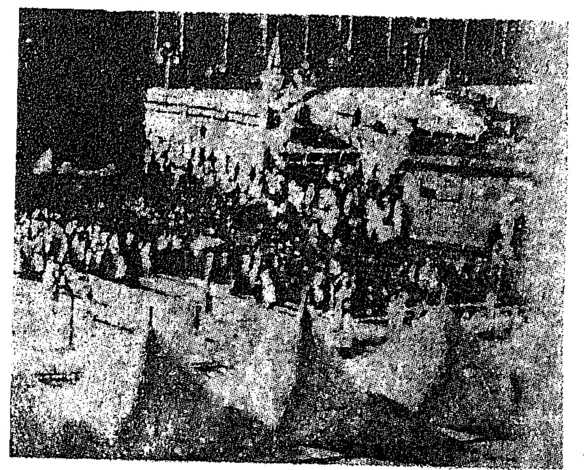
حول زمزم في الأزمنة الغابرة ، ويقول شاعر آخر ان هذه البئر كانت قد زارها ساسان بن بابك جد الأكاسرة الساسانيين .

ويفهم مما جاء في الأخبار ان جرهم ردمت زمزم في عهد الوثنية، وأخفت خزائنها فيها ، لكن المؤرخ المسعودي يقول ان جرهم كانوا أناساً فقراء لا يملكون مثل هذه الخزائن التي لا بد من ان يكون قد دفنهـا الايرانيون لا الجرهميون . على أن البئر أعاد اكتشافها وحفرها عبد المطلب جد النبي ، الذي بنى من حولها جدراناً من الحجر . وقد استخرج منهـا خلال ذلك غزالين من الذهب ، وبعض السيوف القلعية ، مع عدد من الدروع والزرود . فصنع باب الكعبة من السيوف ، وغلفها بصفائح الذهب التي أخذها من أحد الغزالين ، أما الغزال الثالث فقد احتفظ به في داخل الكعبة . وفي سنة ٩٠٩ (٢٩٧ هـ) فاض ماء زمزم عـلى غير المعتاد فأغرق عدداً من الحجاج . وقبل ان يغادر الحجاج مكة ويعودوا الى بلادهم ينقعون الأكفان التي يحتفظون بها للتكفن بعد الموت .

الكعبة

الكعبة حصن الاسلام وحرزها الحريز على ما تقول دائرة المعارف الاسلامية ، وهي تقع في وسط المسجد الحرام في مكة . ولأسمها علاقة بشكلها المكعب في مظهره . ويبلغ طول الجدار الذي تتكون منه الجبهة ويقع فيه الباب ، والجدار الخلفي ، أربعين قدماً ، أما الجداران الآخران فيبلغ طولهما خمسة وثلاثين قدماً ، كما يبلغ الارتفاع خمسين قدماً .

ويتكون بناء الكعبة من طبقات متتالية من حجر رمادي اللون جيء به من الجبال المحيطة بمكة . وهي تقوم فوق قاعدة من المرمر تبلغ عشر بوصات في ارتفاعها ، وتبرز حوالي قدم واحد عن البناء فتسمى « الشاذروان ». وتدل الخطوط الأربعة التي ترسم من مركز البناية بامتداد الأركان على جهات البوصلة الأربع تقريباً . ويسمى الركن الشمالي « الركن العراقي » ، والركن



وتغطى جدران الكعبة الاربعة بكسوة تصل الى الأسفل وتحزم بآيات قرآنية

الغربي « الركن الشامي » ، والجنوبي « الركن اليماني » ، والشرقي « الركن الأسود » نسبة الى الحجر الأسود .

وتُغطى جدران الكعبة الأربعة بكسوة تصل الى أسفل، وتشد بحلقات نحاس مثبتة بالشاذروان . وهنالك فتحات في الكسوة للباب وخروج ماء الغسيل . اما الكسوة فتصنع في مصر كل سنة ويؤتى بها إلى مكة بالمحمل مع موكب الحج . وترفع الكسوة القديمة كل سنة في اليوم الخامس والعشرين (او الثامن والعشرين) من ذي القعدة ، فتغطى الكعبة موقتاً بغطاء أبيض ينزل الى ما فوق الأرض بست أقدام ، فيقال عندئذ أنها « محرمة » ، وعند انتهاء الحج تغطى بالكسوة الجديدة . اما الباب فيغطى بكسوة خاصة لوحده ، وهي من صنع مصري أيضاً ، وتسمى البرقع .

وتتألف الكسوة من نسيج حريري مشجر ذي لون أسود ، حيكت فيه الشهادة . وعلى ارتفاع ثلثي الكسوة يدور من حولها حزام من التطريز المذهب ، المغطى بآيات قرآنية كتبت بخط جميل حسن . ويعتبر كل شيء من الكسوة القديمة قماشاً مقدساً بطبيعة الحال ، ولذلك يبيعها بنو شيبة سدنة الكعبة بقطع صغيرة تستعمل أحجبة وتمائم في شتى الظروف والمناسبات .

وعلى ارتفاع سبعة أقدام من الأرض يوجد الباب في الجدار الشمالي الشرقي ، وهذا الباب يطعم قسم منهه بتزيينات من الفضة . وفي داخل الكعبة ثلاثة أعمدة خشبية يستند عليها السقف الذي يؤدي سلم خاص اليه . والأثاث الوحيد الموجود فيه هو الأضوية العديدة من الذهب والفضة المعلقة فيه . وهنالك كتابات كثيرة حول الجدران الداخلية ، اما الأرضية فهي مبلطة بقطع من المرمر .

وقد بُني الحجر الأسود في الركن الشرقي ، على ارتفاع خمسة أقدام

من الأرض ومسافة غير بعيدة عن الباب . وهو يتكون اليوم من ثلاث قطع كبيرة ، وعدة كسر صغيرة ملصقة معاً ومحاطة بحلقة حجرية يحيط بها حزام من فضة . ويوصف الحجر أحياناً بكونه من نوع البازلت ، وأحياناً أخرى يعتبر من اللاب البركاني . على أنه من الصعب تعيين طبيعته ، لأن سطحه الظاهر قد تأكل فأصبح أملس بفعل اللمس والتقبيل . ويقدر البتنوني قطره باثنتي عشرة بوصة ، أما لونه فهو أسود ميال الى الحمرة مع بعض الجزيئات الحمراء والصفراء منتشرة فيه .

ويسمى القسم المحصور بين الباب والحجر الأسود من الجدار « الملتزم » لأن الحجاج يضغطون عليه بصدورهم عندما يبتهلون بجانبه . ويوجد في الركن الغربي كذلك ، على ارتفاع خمسة أقدام من الأرض ، حجر آخر يسمى « الحجر الأسعد » . وهذا الحجر يلمس ولا يقبل في أثناء الطواف حول الكعبة .

ويبرز الى خارج الجدار من تحت قمة الجدار الشمالي الغربي « الميزاب » المذهب الذي تلتحق به زائدة صغيرة تسمى « لحية الميزاب » . ويطلق على الميزاب اسم « ميزاب الرحمة » ، كما تقع القبلة المضبوطة ما بين الميزاب هذا والركن الغربي .

ويوجد في مقابل الجدار الشمالي الغربي ، من دون اتصال به ، جدار مرمر أبيض له شكل نصف دائري . يسمى « الحطيم » . ويبلغ ارتفاعه ثلاث أقدام ، وسمكه خمس أقدام ، كما يبعد طرفاه عن الركنين الشمالي والغربي بما يقرب من ست أقدام . وللفضاء نصف الدائري المحصور ما بين الحطيم والكعبة أهمية خاصة لأنه كان جزءا من الكعبة مدة من الزمن . ولذلك فانه لا يدخل في ضمن خط الطواف الذي يمد على مقربة من جهته الخارجية . ويسمى هذا الفضاء « الحجر » او « حجر اسماعيل » ، لأن المقول ان ابراهيم واسماعيل وهاجر كانوا قد دفنوا فيه ، ويسمى التبليط

الذي يتم فوقه الطواف « المطاف » ، وهناك خسفة في القسم [illegible] في مقابل الباب منه تسمى « المعجان » ، لأن الاسطورة الخاصة تقول ان ابراهيم واسماعيل كانا قد خلطا الملاط فيها عند بناء الكعبة .

ويدور حول المطاف ، وبارتفاع يزيد على ارتفاعه ، حاجز مبلط ، يبلغ عرضه بضع خطوات ، ويقوم فوقه واحد وثلاثون او اثنان وثلاثون عموداً من الأعمدة الرشيقة . وتسد صف الأعمدة هذا باب بني شيبة التي يقوم طاقها الكبير في مقابل جدار الكعبة الشمالي الغربي فيعتبر مدخلاً للمطاف . وفيما بين هذا المدخل المقوس ، والكعبة نفسها تقوم بناية غير كبيرة لهـا قبة صغيرة ، تسمى « مقام ابراهيم » . وفي داخل هذه البناية الصغيرة يحتفظ بحجر يقال ان ابراهيم كان يقف عليه في أثناء بناء الكعبة . ولا يسمح بالدخول الى المقام الا بدفع اجور دخولية خاصة . هذا ولم يستطع الأوربيون الذين زاروا البيت الحرام متخفين ان يشاهدوا الحجر ، ويقول الرحالة الانكليزي بورتون (سيأتي ذكره بالتفصيل بعد هذا) ان الريالات الخمسة التي طلبت منه للدخولية كانت أكثر مما تتحمله ماليته يومذاك فلم يدخل . أما الشرقيون من الرحالة فيقولون عنه انه حجر غير صلب يمكن ان تلاحظ فيه حتى الآن آثار قدمي ابراهيم الخليل ، في مقابل جدار الكعبة الشمالي الغربي أيضاً ، وما بين صف الأعمدة « المنبر » المصنوع من المرمر الأبيض .

ويكون التبليط الذي يقوم عليه صف الأعمدة أخفض بقليل من التبليط الذي يدور حولها ، فتتفرّع عنه ثمانية مماشٍ مبلطة تصل الى الأعمدة التي تحيط بالمسجد الحرام . وتقع على التبليط الخارجي اربعة مبان صغيرة ، كما تقع بالقرب من باب بني شيبة ، في مقابل الحجر الأسود ، القبة المقامة فوق بئر زمزم . اما المباني الصغيرة الثلاثة الأخرى فتسمى « المقامات » او الأماكن التي يصلي فيها أئمة المذاهب السنية الثلاثة عدا الشافعي . فيقوم المقام أو المصلى الحنبلي في جنوب مبنى زمزم تجاه الجدار الجنوبي الشرقي للكعبة ، وهو يتألف من سقف يعلو ويضيق حتى يتكون منه رأس مدبب

في الوسط ، ويحمل على أعمدة رشيقة من المرمر . ويكون مبنى المقام المالكي بالشكل نفسه ، وهو يقع تجاه جدار الكعبة الجنوبي الغربي . ويطل المقام الحنفي على الحطيم ، وجدار الكعبة الشمالي الغربي ، فيكون له سقفان أحدهما فوق الآخر . اما الشافعي فليس له مقام خاص به ، على ما يقول مرجعنا في دائرة المعارف الاسلامية ، ولذلك يصلي الشافعية تحت القبة فوق سقف زمزم أو في مقام ابراهيم . على أن الحكم الوهابي قد ألغى وجود المذاهب في داخل المسجد الحرام .

تاريخ الكعبة

ليس عند العرب مستندات تاريخية او شبه تاريخية تدل على أصل الكعبة ومنشئها ، على ما يقول مرجعنا في دائرة المعارف الاسلامية ، ولا تتيسر عند الاوربيين مثل هـــذه المستندات كذلك . لكن المستشرق الهولاندي هورغرونية (الذي سنذكره بعد هذا) يقول ان تفجر الماء في زمزم في وادٍ قاحلٍ جاف ربما يكون هو السبب في نشوء قدسية المكان بأجمعه . ولا بد من ملاحظة أن بطليموس يذكر في جغرافيته « ماكورابا » في مكان مكة . ولا شك ان هذه الكلمة تقرب من كلمة « مكراب » او « محراب » في لغة الجنوب العربي والأحباش . ولذلك يمكن ان يستنتج بأن الكعبة كانت موجودة في القرن الثاني بعد الميلاد . وتدل قصة أبرهة وزحفه على مكة على وجودها في القرن السادس للميلاد كذلك ، لكنها تنورنا بشيء عن مظهرها او عما كان فيها من أشياء . والمعروف ان تبّعاً الحميري الذي جاء الى مكة كان أول من جهز البناء بكسوة وباب له قفل ، اما المعلومات المتوفرة عن توزيع وظائف الكعبة على أبناء قصي فتدل على ان العبادة في هذا المكان قد أصبحت نظاماً دينياً منتظماً قبل مبعث النبي عليه السلام بعدة أجيال .

على ان المراجع التاريخية المتيسرة تبدأ بظهور محمد (ص) . وهي تشير الى أنه حينما وصل الى دور الرجولة والنضج حدث حريق في الكعبة

وأتى عليها كلها . وهنا يذكر مرجعنا قصة بنائها من جديد والاستفادة من خشب السفينة اليونانية الغارقة فيه ، مما أتينا على ذكره قبل هذا . ويقال ان الكعبة القديمة كان ارتفاعها لا يزيد على قامة واحدة ، ولم يكن لها سقف . وكانت عتبتها في سوية الأرض ، ولذلك كانت مياه السيول كثيراً ما تتسرب اليها . فرفعت سويتها عند تجديد البناء ، ووضع الباب فوق مستوى الشوارع بحيث كان على من يريد الدخول إليها ان يتسلق سلماً يؤدي الى فنائها . وكان الزوار غير المرغوب فيهم يدفعون من فوق العتبة الى أسفل . وقد اختلف أهل مكة فيما بينهم على الشخص الذي يضع الحجر الأسود في المكان المعد له في البناء ، فتحكم محمد الصادق الأمين في الأمر على ما هو معروف في تاريخه عليه السلام قبل الرسالة .

وحينما تسنى للنبي ان يفتح مكة في سنة ٨ للهجرة ترك بناء الكعبة على ما كان عليه ، لكن التجديدات التي كان يريد إدخالها فيه قد تحققت في سنة ٦٤ للهجرة (٦٨٣ م) على يد عبد الله بن الزبير . فقد حاصره الحصين ابن نمير في مكة حينما ثار فيها على الأمويين ، وعندما أخذ الجيش المغير بقصفها نصب عبد الله خيامه وخيام مؤازريه بالقرب من الكعبة فأدى الاصطدام الى تهديمها الى حد كبير ، بعد ان شبت النار فيها . وقد تسببت النار في تصدع الحجر الأسود وتكسره الى ثلاث قطع . وبعد ان انسحب الجيش الأموي شاور عبد الله المسؤولين عن الكعبة في نقضها كلها وبنائها من جديد . وعندما قرر ذلك ، واقتضى الأمر ان تزال الأنقاض . لم يجرأ أحد على التصدي للعمل لأن معظم السكان وعلى رأسهم عبد الله بن عباس كانوا قد تركوا البلد المقدس لأنهم كانوا يخشون ان ينزل عليهم عذاب من الله . ولذلك اضطر عبد الله بن الزبير ان يتسلق الجدران بنفسه ، وفي يده الفأس ، فيبدأ بالعمل المخيف . وحينما وجد قومه أنه لم تنزل به نازلة او يصيبه شيء تشجعوا فساعدوه في العمل .

وعندذاك بنيت الكعبة بأحجار مكة لا غير ، وملاط اليمن ، فجعل

ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً . وتنفيذاً لما جاء في السنة النبوية أُدخل الحجر (بكسر الحاء) في ضمن البناء ، وجعل بابان فقط في سوية الأرض إحدهما للدخول وآخر للخروج . على ان هذه التغييرات لم تستقم وقتاً طويلاً . فقد استولى الحجاج بن يوسف الثقفي على مكة سنة ٧٤هـ (٦٩٣ م) فقتل عبد الله بن الزبير ، وبموافقة من الخليفة عبد الملك عُزِلَ الحِجر عن الكعبة وسدّ الباب الغربي . وبذلك تطمنت رغبة بني أمية التي كانت تريد إبقاء شكل الكعبة على ما كانت عليه قبل الاسلام تقريباً ، وقد حافظت على شكلها ذلك حتى يومنا هذا . وكان الرأي العام المكي على الدوام غير راغب في إدخال أي تعديل ذي بال على الكعبة ، كما هو الحال في الجاهلية . ولهذا فحينما هدمّها مياه السيول سنة ١٦١١ م حُزمت البناية بحزام من نحاس لتفادي الكارثة ، غير ان سيلاً آخر حصل في ١٦٣٠ فجعل هذا التدبير شيئاً لا يفي بالمرام ، فتقرر إدخال بعض التحسينات والتجديد . لكن الأحجار القديمة كانت قد استعملت كلها في إعادة البناء على قدر الامكان .

اما عادة تغطية الكعبة بكسوة خاصة فيقال ان تبعاً الحميري كان أول من بدأ بها ، على ما مر سابقاً . على ان إكساءها بكسوة جديدة في كل سنة قد أصبح عادةً مستديمة في الأزمنة الحديثة . وقد كان يوم عاشوراء في الزمن القديم هو اليوم الذي تجدد فيه كسوة الكعبة ، غير انها كانت تكسى في رجب في بعض الأحيان كذلك . وكانت الكسوة تصنع من قماش يمني تارةً او قماش مصري تارةً أخرى . ويبدو ان الكعبة قد ناءت بثقل الكساوى على عهد الخليفة عمر ، وكادت تنهار ، فجردت من كساواها القديمة كلها .

وتشير الروايات التاريخية الى أن المقامات الموجودة حول الكعبة كانت موجودة في أيام العباسيين ، وكان المقام يسمى أحياناً « ظلة » . على أن المقول هو أن ابنيتها الحالية تعود في تاريخها الى سنة ١٠٧٤ (١٦٦٣ م) . ولقد ذكرت القبة المقامة فوق بئر زمزم منذ أيام العباسيين كذلك ، لكن بنايتها الحالية كانت قد شيدت في ١٠٧٢ للهجرة .

وقد كانت النذور والقرابين تقدم للكعبة في العهد الوثني وعهد المسلمين على السواء ، وكثيراً ما كانت الأموال التي تجمع من هذا المورد تستخدم للأغراض السياسية من قبل بعض الحكام والأمراء والملوك . فقد ذكرت بعض المصادر أن الخليفة عمر قال يوماً بأنه لن يبقي ذهباً وفضة في الكعبة وأنه سوف يوزعهما على جهات وأغراض مختلفة . غير ان علي بن أبي طالب قد اعترض على ذلك بشدة على ما يقال ، فعدل عمر عن رأيه .

اما تاريخ الكعبة في الاسلام فقد سبق ان أوردنا موجزاً عنه نقلاً عما ذكره ديغوري في (حكام مكة) من قبل ، ولكننا نود ان نضيف الى ذلك هنا بعض النقاط التي يوردها كاتب البحث المختص في دائرة المعارف الإسلامية أيضاً . فحينما استولى محمد (ص) على مكة جاء اليه عمه العباس وطلب اليه ان يحتفظ بوظائف خدمة الكعبة لنفسه ، غير ان النبي الكريم لم يكن يعلق أهمية كبرى على كل هذه الوظائف سوى السقاية والسدانة . فبقيت السقاية في يد العباس ، وأعطيت السدانة الى عثمان بن طلحة الذي عين ابن عمه شيبة ابن أبي طلحة وكيلاً عنه ، وبقي بنو شيبة في سدانة الكعبة حتى هذا اليوم أما الرفادة التي كانت في عهدة أبي طالب فقد تولاها أبو بكر في سنة ٩ للهجرة ، ثم تولاها الخلفاء أنفسهم من بعده .

وفي سنة ١٠ للهجرة كان محمد (ص) نفسه على رأس الحجاج الى مكة ، ولذلك لم يدخل الكعبة في هذه السنة أي وثني من عبدة الأصنام تنفيذاً لما جاء في سورة براءة التي نزلت عليه . فأصبحت مكة منذ تلك السنة معبداً للمسلمين وحدهم بالكلية ، وصار المسلمون في أنحاء العالم كافة يتجهون الى مكة في كل صلاة ، كما صار الطواف حول الكعبة لحجاج بيت الله الحرام أول المناسك الدينية وآخرها عندهم في اثناء الحج .

ومن المراسيم الخاصة التي تختص بالكعبة الشريفة يؤكد مرجعنا على اثنين منها على الأخص ، وهما عمليتا فتح الكعبة وغسلها . فان فتح الكعبة

يتم في أيام معينة . وعند ذاك يسمح بالدخول اليها للرجال أولاً ، ثم للنساء . وفي هذه الحال يوضع السلم المشار اليه من قبل بالقرب من البناء . وتعتبر الصلاة في الكعبة على جانب كبير من الأهمية والتقدير .

وبعد ان ينتهي أمد الحج في نهاية ذي الحجة يحين أوان غسل الكعبة ، وهذه العملية تتولاها السلطات المسؤولة في مكة وعدد من الحجاج أنفسهم . وكان أول من يدخل الكعبة لهذا الغرض شريف مكة المسؤول ، وبعد أن يصلي ركعتين يقوم بغسل الأرض بماء زمزم الذي يتسرب إلى الخارج من ثقب خاص في عتبة الباب . وكانت الجدران تغسل بنوع خاص من المكانس مصنوع من سعف النخيل على ما يقول مرجعنا . ثم يعمد الشريف الى رش كل شيء بماء الورد ، ويعقب ذلك تبخير البناية بأنواع العطور والبخور . ويقوم الشريف في النهاية برمي المكنسة الى جمهور الحجاج الذين يتخاصمون ويتنافسون فيما بينهم من أجل الحصول عليها . ويذكر البتنوني في رحلته ان المطوفين والزمزميين يبيعون الى الحجاج مكانس مماثلة بما لا يقل عن نصف ريال للواحدة .

فيتضح من ذلك ان تقديس الكعبة يمتد الى كل ما له علاقة بها ، مثل الحجر الأسود والميزاب وماء زمزم وما أشبه . على اننا نلاحظ في المراجع العربية ان الخليفة عمر خاطب الحجر الأسود ذات يوم بقوله « اني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا ان رسول الله قد قبلك لما قبلتك » . ثم ان الصلاة تحت الميزاب تعتبر صلاةً فيها الكثير من الأجر والثواب ، ولذلك يقول المؤرخ الأزرقي « الصلاة تحت المثعب تمحو الذنوب » . ويعد ماء زمزم الذي يسكبه الحاج على نفسه مرة بعد أخرى من دون ملل ، مفيداً لكل شيء عند الشرب .

عرفات [1]

يطلق هذا الأسم على جبل اشتهر بكونه مكاناً يحج اليه الحجاج بعد الطواف في مكة ، وعلى السهل القريب منه ، الكائن على بعد ست ساعات من شرف مكة كما تقول دائرة المعارف الأسلامية . ويتألف هذا الجبل المعتدل في حجمه وأبعاده ، من حجر الغرانيت ، فيصل بارتفاعه الى مئة وخمسين او مئتي قدم . وهناك درجات حجرية متسعة في الجهة الشرقية منه تؤدى الى قمته . وتوجد في الدرجة الستين فسحة خاصة يقوم في وسطها منبر تلقى منه الخطبة سنوياً بعد ظهر اليوم التاسع من ذى الحجة ، أي في يوم عرفات . وقد كانت توجد فوق القمة سابقاً قبة خاصة تسمى باسم « ام سلمة » ، فهدمها الوهابيون . والمعروف ان المسلمين المتدينين لا يتجاوزون في صعودهم حد الفسحة والمنبر . ويسمى الجبل في العادة جبل الرحمة .

اما سهل عرفات فيمتد الى جنوبي الجبل الى ان تحده سلسلة جبال الطائف الشامخة من الجهة الشرقية . ويغطي السهل نمو غير مرتفع من النباتات المستحية (ميموزا) ، وهو لا يمتلىء بالحياة والحركة الا في يوم واحد من السنة (التاسع من ذي الحجة) حينما ينصب الحجاج خيامهم احياءً لفريضة او شعيرة « الوقوف » ، ويتم الوقوف بعد ظهر اليوم المذكور فيمتد الى غروب الشمس . ويعبر الحجاج الذين يحضرون للوقوف عن حماستهم الدينية بقولهم « لبيك ، لبيك » بصوت عالٍ ، والصلاة وتلاوة القرآن الكريم .

ولا يعرف ما هو أصل عرفات ، غير ان التفسير الأسطوري على ما

---

(١) جاء في قاموس « المنجد » ان عرفات موقف الحاج على اثني عشر ميلا من مكة ، وهو أسم في لفظ الجمع . اما عرفة فهو اسم الجبل ، ويوم عرفة هو اليوم التاسع من ذي الحجة .

يقول مرجعنا هو ان آدم وحواء تلاقيا في هذا المكان وتعارفا ثانية بعد ان افترقا على أثر طردهما من الجنة . وهناك تفسيرات مماثلة غير هذه يذكرها المؤرخون العرب .

منى

تقع منى ما بين الجبال الكائنة في شرق مكة ،على الطريق المتجه منها الى عرفات . وتذكر دائرة المعارف الأسلامية نقلاً عن المقدسي أن المسافة بين مكة ومنى لا تزيد على فرسخ واحد ، بينما يقول المؤرخ الانكليزي (ويفل) ان المسافة تقدر بخمسة اميال ، وأن إكمالها الى عرفات يبلغ تسعة اميال . وتقع منى في وادٍ ضيق يمتد من الشرق الى الغرب ، ويبلغ طوله حوالي ألف وخمس مئة خطوة على ما يقول الرحالة بورخارت ، وهو محاط بأجراف منحدرة جرداء من حجر الغرانيت . ويقوم في الجهة الشمالية من منى جبل يسمى « ثبير » . فينزل القادمون من مكة الى هذا الوادي من ممشى جبلي نحت فيه عدد غير يسير من الدرجات ، وهذا هو « العقبة » التي اشتهرت بالمفاوضات التي كان النبي محمد (ص) قد أجراها مع المدينتين .

وتتألف البلدة من بيوت مبنية بالحجر ذات حجوم معتدلة ، يتكون منها شارعان طويلان . وفيما يقرب من العقبة عمود قصير منحوت نحتا غير صقيل ، يطلق عليه « الجمرة الكبرى » او « جمرة العقبة » ، ويرمي الحجاج جمراتهم على هذا العمود . وعلى مسافةٍ قليلة الى الشرق من هذا توجد في وسط الشارع « الجمرة الوسطى » ، التي يعرف مكانها بوجود عمود أيضاً . كما يوجد على مسافةٍ مماثلة من هذه مكان ثالث يسمى « الجمرة الاولى » . وحينما يصل المرء الى النهاية الشرقية من الوادي يجد على يمين الطريق مسجداً مربع الشكل محاطاً بسور خاص ، هو مسجد الخيف الذي أعاد بناءه صلاح الدين في ١٤٦٧ (٨٧٤ هـ) ، ثم جدده من بعده السلطان

المملوك قائدبك . وتوجد على طول الجهة الغربية من السور المحيط بالمسجد ثلاثة صفوف من الاعمدة .

وأبرز ما يلفت النظر في منى المفرق العظيم الذي يلاحظه المرء بين الشوارع الهادئة الخالية فيها خلال القسم الاعظم من السنة ، والازدحام الهائل الذي يحصل خلال شهر الحج . فان نصف مليون من الناس مع حيواناتهم المحملة بالأحمال الثقيلة يحاولون قطع الأميال التسعة في الفترة المنحصرة بين طلوع الشمس والساعة العاشرة زواليه قبل الظهر . ولذلك تكون كل بقعة في الوادي مغطاة في ذلك اليوم بالخيام التي يقضي الحجاج ليلتهم فيها .

ويقول مرجعنا في دائرة المعارف الأسلامية ان مناسك الحج في منى تعود في تاريخها الى أيام الجاهلية الوثنية . فيعتقد ان رمي الجمار هي عملية قديمة جداً ، لكن أهميتها في الأسلام يكتنفها شيء من الغموض ، مع انه يشك بان اكوام الجمار الثلاثة كانت موجودة قبل الأسلام . ومن الواضح كذلك ان مناسك الحج في منى كانت تعتبر خاتمة الحج كله حتى في الأزمنة القديمة . ويقول مرجعنا ان النبي محمداً (ص) أدخل بعض التغييرات المهمة في هذا الشأن ، فقد أوجب زيارة الحجاج لمكة قبل المكوث في منى لكن عناصر الحج القديمة بقيت من العوامل المهمة فيه لأنه لا ينتهي اليوم في مكة وانما ينتهي في منى كما كان بالسابق . وربما كان المكان الذي تنحر فيه الأضاحي ، الذي تفضله اكثرية الحجاج ، وهو سفوح ثبير الجنوبية ، من بقايا العهد القديم ايضاً ، لأن علاقته بقصة ابراهيم ربما تكون قد أدت الى اعتراف الأسلام بمثل هذه البقعة الوثنية . وهي كما يصفها بورتون الرحالة عبارة عن منصة صخرية مربعة الشكل يمكن الوصول اليها بعدد من الدرجات . ولم يمنع النبي نفسه استعمال بقعة النحر الوثنية مباشرة ، لكنه جردها عن اهميتها القديمة بقوله ان نحر الضحايا يمكن ان يتم في أي

بقعة من منى كلها ، وهذه وسيلة بارعة كان قد اتبعها في عرفات ومزدلفة كذلك .

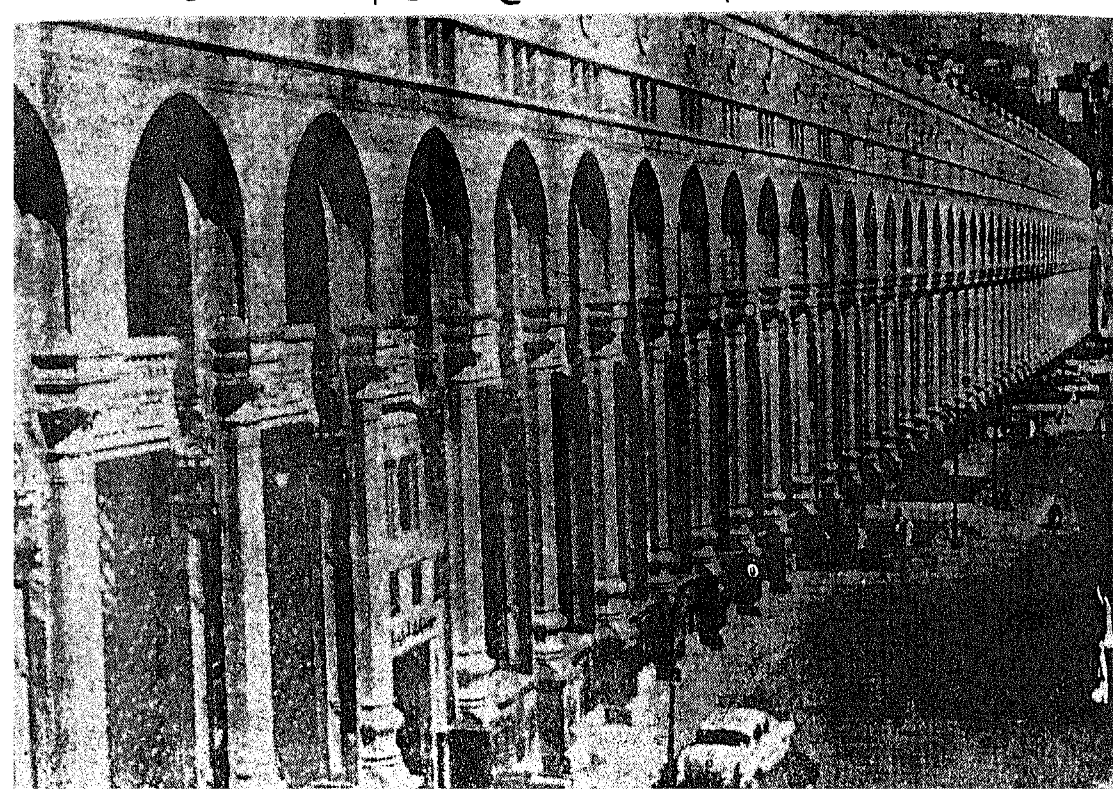
وتحتم التعاليم الأسلامية على الحجاج الذين يصلون الى مكة في ثامن ذي الحجة ان يغادروها بحيث يستطيعون اداء صلاة الظهر في منى ، والبقاء فيها حتى مطلع الشمس في اليوم التاسع ، وعند ذاك فقط يمكنهم الذهاب الى عرفات . على ان اغلبية الحجاج لا تفعل هذا وانما يذهبون في اليوم الثامن الى عرفات بعد الصلاة مباشرة حيث يصلون عند المساء . وبعد أن يؤدوا مناسك الحج في عرفات ومزدلفة يذهبون الى منى قبل طلوع الشمس في اليوم العاشر ليحتفلوا بيوم النحر الاكبر . وهنا يؤدون مناسك اختتام الحج كلها ، وهي النحر وقص الشعر والاظافر ورمي الجمار . وليس هناك اتفاق تام على الترتيب الذي يجب ان يتبع في أنجاز هذه المناسك ، على ان تحوير عملية رمي الجمار له أهميته لانها ترمى في يوم النحر على كومة العقبة ، بينما يقوم كل حاج في الأيام الثلاثة التالية برمي سبع جمرات صغار في كل يوم على الاكوام الثلاثة كلها . أما اختتام الحج فيتم بأيام منى أو أيام التشريق الثلاثة ، أي يوم ١١ و ١٢ و ١٣ من ذي الحجة . وتعتبر هذ الأيام أيام فرح وانشراح يحييها الحجاج بمظاهر البهجة والسرور ، وبانارة الأضواء وإطلاق النار من الاسلحة . على ان الحجاج كلهم لا يمكثون في منى طوال الايام الثلاثة ، وانما يمكنهم العودة قبل ذلك .

المزدلفة

جاء في دائرة المعارف الاسلامية ان المزدلفة مكان يقع في منتصف الطريق الموصل بين منى وعرفات تقريباً ، حيث يفضي الحجاج العائدون من عرفات الليلة المنحصرة بين يومي ٩ و ١٠ ذي الحجة ، بعد ان يؤدوا صلاتي المغرب والعشاء . وقبل ان تبزغ الشمس في صباح اليوم التالي ، يهرع الحجاج الى التسلق من وادي المحاصر الى منى . وتسمى المزدلفة كذلك

«المشعر الحرام» و «الجمع»، لكن رواية أخرى تقول ان الجمع يتألف من المنطقة الواقعة بين عرفات ومنى كلها بما فيها الموقعان نفساهما، بحيث يعني «يوم الجمع» يوم عرفات نفسه و «أيام الجمع» أيام منى نفسها. وترجع المناسك التي يقوم بها الحجاج خلال الليلة التي يقضونها في المزدلفة الى أيام الوثنية القديمة في تاريخها، على ما يقول مرجعنا في دائرة المعارف الأسلامية. ويعترف العرب انفسهم بذلك حينما يشيرون الى أن قصياً هو الذي ابتدع إشعال النار المقدسة في هذه الليلة، ويقولون ان قيادة الخروج الى منى تعتبر امتيازاً خاصاً لأسرة عدوان.

وكان المكان المقدس في المزدلفة جبل قزح، وقد بقي هذا الجبل محافظاً على قدسيته حتى بعد ان صرح الاسلام بأن المزدلفة كلها «مواقف». ويقول الأزرقي مؤلف مكة القديم: ان قزحاً كان يوجد فوقه برج مدور سميك الجدران، كانت النار توقد فيه» وفي أيام هارون الرشيد كانت هذه النار تغذى بالخشب، ثم صارت توقد الشموع فيه حتى تم بناء مسجد خاص



على بعد أربعمئة ياردة من البرج. وتضاء الأضوية في ليلة المزدلفة اليوم فوق هذا المسجد نفسه .

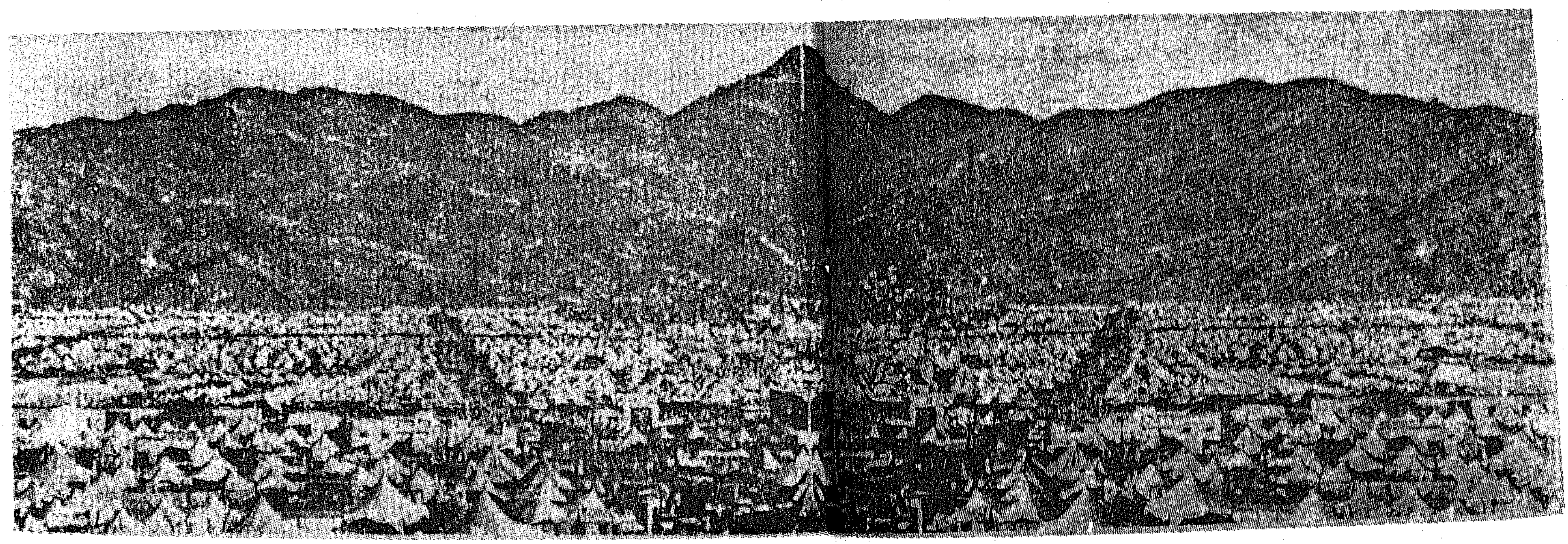
الصفا والمروة

ان الصفا والمروة ، على ما جاء في دائرة المعارف الاسلامية ، هما نشزان غير مرتفعين من الأرض موجودان في موقعين متقابلين من مكة المكرمة ، ويعني معناهما الحجر .

ويقوم المسلمون خلال الحج بالسعي بين هذين المرتفعين احياءً لذكرى هاجر ، أم اسماعيل ، التي ظلت تهرول بين الصفا والمروة للتفتيش عن ماء تأتي به الى ابنها العطشان . ويؤكد المؤرخون ان هذا المكان كان من الأماكن

المقدسة حتى في الجاهلية . فقد كان فيه صنمان حجريان هما « إساف » فوق الصفا و « نائلة » فوق المروة ، وكان العرب يسعون بينهما ويمسكون بهما للتبرك . وقصة هذين الصنمين الجاهليين الاسطورية قصة طريفة تتلخص في أنهما كانا شخصين سلكا سلوكاً شائناً في الكعبة ، فانقلبا الى صنمين حجريين وضعا فوق الصفا والمروة ليكونا عبرةً لمن يعتبر من الناس . وقد نُسيت هذه القصة بمرور الزمن فلم يعد أهل الجاهلية يعلمون بظروف وجودهما هنا ، وأخذوا يقدسونهما الى حد العبادة . وتقول روايات أخرى ان هذا المكان كانت توجد فيه أصنام من النحاس ، كما تقول روايات غيرها ان هذين التلين كان يعيش فيهما بعض العفاريت التي كانت تخرج أصواتاً مخيفة في الليل .

وقوف الحجاج في عرفات



الغربيون في مكة

هذا ويستفاد مما جاء في عدد غير يسير من المراجع الغربية ان مكة المكرمة تطرق الى ذكرها المؤرخون الغربيون منذ القدم ، وان عدداً من رحالي الغرب ومستشرقيه قد تسنى لهم الدخول اليها والاشتراك في مناسك الحج في مختلف الأدوار السابقة واللاحقة ، بعد ان اعلنوا اسلامهم الحقيقي او غير الحقيقي . وقد تهيأ لعدد من هؤلاء ان يكتب عن مجازفاته ومغامراته في سفرة مثل هذه في أكثر من لغة واحدة من اللغات الأوربية .

فمن أوائل الأوربيين الذين ذكروا مكة ووصفوا ساحل الحجاز على البحر الأحمر المؤرخ اليوناني ديودورس الصقلي [١] . فهو يقول ان هذا الساحل ليس فيه سوى عدد قليل جداً من الموانيء والمرافيء نظراً لوجود سلسلة طويلة من الجبال تمتد على طوله ، وهي تبدو جميلة جداً ملأى بالألوان للمارين بالسفن من قربه . الا ان منطقة داخلة في البحر تصادفهم بعد ذلك وهي ملأى بالقرى والبلـــدان التي يسكنها العرب الأنباط . ولهؤلاء بلاد واسعة تمتد على ساحل البحر ، وبعيداً عنه الى الداخل ، وهي بلاد كثيرة

The Historical Library of Diodorus the Sicilian, Book III Chap. 31.(١)

السكان غنية بالمواشي والأغنام. وكانوا يعيشون عيشة رخاء ونزاهة لما كان عندهم من قطعان كبيرة، حتى أطلق ملوك الاسكندرية الحرية للتجار بارتياد البحر الاحمر. فأخذ هؤلاء يسرقون السفن المعطلة، ويمارسون اعمال القرصنة حتى هددوا الحركة التجارية في ذلك البحر. وعند ذاك سيقت عليهم حملة بحرية أنزلت بهم العقـاب. ثم يذكر ديودورس وجود قـوم يسميهم «البيزومينيين»[1]، ويذكر ان هؤلاء كانوا يعيشون على اصطياد الحيوانات الوحشية. وهنا يقول ان هذا المكان يوجد فيه معبد مقدس يجله العرب كلهم.

اما مؤرخ الاغريق المشهور هيرودوتس، الذي كتب تاريخه في ٤٣٠ قبل الميلاد، فيقول[2] ان العرب كانوا يعبدون أوروتال أو أليلات. ولا شك ان هذين الاسمين يعنيان، على ما يقول ديغوري في كتابه[3] المار ذكره الصنمين «الله تعالى» و«اللات» الذي كان يوجد في الطائف. ثم يقول هيرودوتس كذلك ان العرب كانوا يتعاقدون ويتعاهدون لدى هذين الصنمين فيعتبر تعاقدهم نافذاً نفوذاً مضاعفاً حينما كان يؤخذ الى مكة.

لودفيكو فارتيما الايطالي

وأول من زار مكة من الأوربيين الحديثين وكتب عن رحلته فوصلت كتابته إلينا سالمة واضحة رجل ايطالي مغامر يدعى لودفيكو فارتيما، من أهالي بولونية في ايطالية على ما يقول ديغوري، ويسمى نبيل روما في المزاجع الاخرى. ويقول لودفيكو في رحلته أنه يرد على من يسأله عن السبب الذي دفعه الى القيام بها ان السبب ينطوي في الرغبة الملحة في السعي وراء المعرفة ومشاهدة العالم، وما فيه من معجزات الله عز وجل.

---

(١) Bizomenians

(٢) The History of Herodotus, Edited by Rawlinson, Book III, Chap 8.

(٣) الص ٢٣.

وقد أبحر من البندقية في ١٥٠٣ ، ووصل الى الاسكندرية ، وبعد ان زار حصن بابيلون في مصر على ما يقول توجه لزيارة طرابلس وانطاكية وبيروت ودمشق. وهناك ارتبط بصداقة مع ضابط من ضباط المماليك ، فقرر الذهاب الى مكة معه في ضمن موكب الحج السنوي الذي يخرج من دمشق بكثير من المراسيم والتقاليد. وقد تحرك الى مكة في اليوم الثامن من نيسان بزي جندي من جنود المماليك ، وهو يقدر ان قافلة الحج كانت تتألف من أربعين ألف رجل وخمسة وأربعين ألف حيوان. ومما يرويه عن وقائع الطريق ان القافلة اضطرت في يوم من الأيام الى الاصطدام بحشد كبير من أعراب البادية ، لكن الستين من جنود المماليك الذين كانوا موكلين بحراسة القافلة كانوا أكثر من ند للخمسين ألف (كذا) بدوي على ما يقول لودفيكو. وقد هوجمت القافلة في يوم آخر بحشد من البدو يقدر بأربع وعشرين ألف شخص (كذا) ، لكنها تغلبت عليهم بعد ان تمكنت من قتل ألف وخمس مئة منهم ! ويعود السبب في ذلك كله على ما يقول الى شجاعة الجنود المماليك وقوة بأسهم ، والى كون الاعراب كان قسم كبير منهم غير مسلحين وعراة أيضاً. وتقول شارحة رحلة بارتيما أو فارتيما (المنشورة مع رحلة بورتون الانكليزي) المسز ايزابيل بورتون بهذه المناسبة ان بدو الحجاز في ايامها (١٨٧٣) أصبحوا أشد خطراً وأقوى شكيمة لأنهم صاروا يستعملون (البواريد) والبنادق ، وان الطريقة الوحيدة لتجريدهم من قوتهم ودفع خطرهم هي منع استيراد الأسلحة النارية ومادة الرصاص لهم.

وبعد أن أدى فارتيما مناسك الحج كلها في المدينة ومكة على ما يقول استطاع بتدبير خبيث ان يهرب من القافلة وزملائه الحراس عليها الى جدة ، ومن هناك أبحر عن طريق البحر الأحمر الى ايران. ويذكر في وصف هزيمته انه اختبأ في بيت أحد المسلمين في مكة الى حين خروج موكب الحج الشامي منها ، لكنه يذكر انه كان من حسن حظه ان احبته إحدى قريبات

صاحب البيت فساعدته على التخفي والهرب .

وهو يذكر في الفصل الذي يتطرق فيه الى تشييد مكة وانشائها انها مدينة جميلة تكتظ بالسكان ، لأنها تحتوي على ستة آلاف أسرة . ودورها حسنة للغاية ، مثل دور الايطاليين على حد تعبيره ، وهناك بعض الدور تقدر قيمة الواحدة منها بثلاثة أو أربعة آلاف دوكات . ويذكر كذلك ان مكة لم تكن مسوّرة لأن أسوارها هي الجبال الطبيعية التي تحيط بها ، ولها أربعة مداخل . وحينما وصل الحج الشامي كان الموكب المصري قد وصل الى مكة ، ولذلك يذكر فارتيما بالمناسبة ان هذا الموكب كان فيه حوالي أربعة وستين ألف جمل ، وله مئة مملوك للحراسة . ويقول بطريقته التهكمية ، التي تدل على تعصبه ضد الاسلام ، ان الله سبحانه وتعالى أنزل لعنته على هذه المدينة فجعلها جرداء قاحلة لا تنتج أي شيء من العشب والأشجار ، ولا أي شيء آخر . وانما كانت تستورد معظم اطعمتها وحاجياتها من القاهرة عن طريق البحر الأحمر . وقد اندهش فارتيما من كثرة الحجاج الهائلة وتعدد جنسياتهم وقومياتهم ، بحيث يقول أنه لم يجد مطلقاً من قبل مثل هذا العدد من الناس يجتمع في بقعة واحدة من الأرض .

وفي الفصل المخصص للحج والغفران من رحلته يقول ان مركز مكة يوجد فيه معبد جميل جداً على حد تعبيره ، يشبه الكولوسيوم الموجود في روما ، لكنه مبني من اللبن المشوي . وللمسجد الحرام ، أو المعبد كما يسميه ، مئة باب ذات طوق . ثم يشير الى وجود الكعبة في الوسط دون ان يذكر اسمها ، ويقول ان المغفرة من الله تطلب عند الطواف حولها . وللكعبة التي يسميها برجاً ، باب فضة لا تزيد في علوها على قامة واحدة . ثم يص بئر زمزم ويقول ان لها قبة جميلة ، وان عمقها يبلغ سبعين قامة ، وان ، او سبعة رجال يقفون عادةً حول البئر ليستقوا الماء للناس منها . وهؤلاء يريقون ثلاثة أسطل من ماء زمزم فوق كل حاج من الحجاج ، فيتبلل به من قمة الرأس الى أخمص القدم ولو كان لباسه من حرير .

مملوك برتغالي مجهول الاسم

وفي تموز ١٥٦٥ حج الى مكة المكرمة مملوك١ برتغالي الأصل مجهول الاسم فكتب وصفاً دقيقاً عنها برغم اختصاره واقتضاب ما جاء فيه وقد اكتشف ما كتبه هذا المملوك في السنوات الأخيرة السنيور ديلافيدا مكتوباً في حاشية كتاب عربي موجود في مكتبة الفاتيكان برقم ٢١٧ . وكان هـذا البرتغالي قد تحرك من رابغ الى مكة في آخر يوم من حزيران ، وهو يقول ان الناس يذهبون عراةً الى مكة من هناك مشيراً الى الأحرام بطبيعة الحال .

وفي حوالي الوقت نفسه حج الى مكة كذلك رجل١ الماني يسمى هانس وايلد ، كان قد أخذه الأتراك اسيراً في هنغاريا يومذاك ، وسيق الى مكة فلم يعد الى المانيا الا في سنة ١٦١١ . وبعده بسنوات قليلة أُسر فتى بندقي ، يدعى ماركو١ دي لومباردو ، وهو يعبر الأبيض المتوسط بصحبة عمه القبطان فبُعث به الى مكة من مصر مصاحباً لابن سيده . وقد دوّن أشياء طريفة عن سفرته التي نشرها بعد ذلك بسنين عديدة المبشر يوجين روجر .

جوزيف بيتس الانكليزي

وقد حج الى مكة في أواخر القرن السابع عشر شاب انكليزي يافع من أهالي أوكسفورد يدعى جوزيف بيتس . وكان هذا الشاب وهو في السادسة عشرة من عمره قددفعه طموحه سنة ١٦٧٨ الى التطويح في الآفاق وزيارة البلاد ، ان ينخرط في سلك البحرية ، فأدى به ذلك الى ان يقع أسيراً في أيدي القرصان الجزائريين . وبعد ان عاش حوالي خمس عشرة سنة في الأسر والعبودية أخذه صاحبه الى مكة المكرمة والمدينة عن طريق الاسكندرية

---

(١) ديغوري ، الص ١٣٠ و ١٣١ .

والقاهرة والسويس . ويعتقد الرحالة بورتون ، الذي نشر مذكرات بيتس هذا مع رحلته ، ان وصف بيتس للأماكن التي زارها هو وصف دقيق مضبوط في الأعم الأغلب ، ومع ان كتابه تتصف بالتعصب الأعمى فانها خالية من الخرافات او الأشياء التي لا تصدق .

ونظراً لأن بيتس كان يجيد التكلم بالعربية والتركية فقد اتقن التعاليم الاسلامية اكثر من غيره . وكان صاحبه ، النقيب في خيالة الجيش الجزائري ، رجلاً مسرفاً منغمساً في الدعارة والفجور على ما يقول بيتس ، فصمم على ان يكون سبباً في اعتناق مملوكه الانكليزي الديانة الاسلامية تكفيراً عن آثامه وخطاياه . فاستعمل الضرب والشدة معه حتى نطق بالشهادة ، لكنه بقي خلال وقته كله الذي قضاه في بلاد الاسلام والمسلمين يعبر عن سخطه ودخيلة نفسه المجبولة على المسيحية في شتى الظروف والمناسبات .

وحينما أخذه سيده الجزائري الى مكة أعتقه وأخلى سبيله ، لكنه بقي يعيش معه ويخدمه لقاء أجور حتى عاد الى الجزائر ، وعندذاك أخذ يفكر في الهرب والعودة الى بلاده الاصلية . فاستطاع التسلل الى سفينة من السفن المتوجهة الى استانبول ، بعد ان أخذ معه كتاب توصية من المستر بيكر القنصل الانكليزي في الجزائر يومذاك الى قنصل انكلترا في أزمير المستر ري . ومع ان الحنين الى الجزائر قد عاوده في أزمير وصار يفكر في العودة واستئناف الحياة فيها كرجل مسلم ، فقد استقل باخرةً فرنسية متوجهة الى ليغهورن في ايطالية ، بعد أن دفع ثمن التذكرة عنه تاجر انكليزي كان يقيم في أزمير يدعى المستر أيليوت . ومما يدل على مقدار تعصب بيتس للمسيحية واحتفاظه بعقيدته فيها ، رغم جميع ما أصابه من تقلبات ، أنه ما كادت رجله تطأ الأرض في ليغهورن حتى خر ساجداً عليها وقبلها عدة مرات ، وهو يشكر الله على عودته الى ديار النصرانية بعد هذه الغيبة الطويلة عنها . ثم عاد الى موطنه في انكلترة بعد ذلك .

هذا وقد كتب جوزيف بيتس مذكرات تفصيلية عن سفرته الى مكة ،

وصف فيها البلدة وأماكنها ، كما وصف المسجد الحرام والكعبة ومناسك الحج كلها . وليس من الممكن بطبيعة الحال ان نورد هنا جميع ما كتب عن ذلك ، وانما سنورد نماذج منتخبة مما كتب . فهو يقول عن أول وصوله الى مكة :

.. وحالما وصلنا الى مكة المكرمة سار بنا الدليل في الشارع الكبير الذي يقع في وسطها ، ويؤدي الى المسجد الحرام (يسميه المعبد ،) وبعد أن أنخنا ذلولنا كان أول ما أخذنا الدليل اليه البركة لنقوم بعملية الوضوء ، وعند ذلك جاء بنا الى الحرم الشريف فخلعنا أحذيتنا وتركناها عند الكيشوان ، ثم دخلنا من باب السلام . وبعد ان سرنا خطوات معدودة وقف بنا الدليل ورفع يده للدعاء وأخذ يرتل بعض الجمل الدينية ، فقلده الحجاج وكرروا ما كان يقوله . وما أن وقع نظر الحجاج على بيت الله الحرام (يقصد الكعبة) في الداخل حتى انهمرت الدموع من أعينهم بغزارة ، وقادنا الدليل اليه في الوقت الذي كنا ما نزال نكرر ما يقول من الأدعية والجمل الدينية . وقد أعقبنا ذلك بالطواف سبع مرات من حوله ، وبالصلاة ركعتين من بعد ذلك . وبعد الانتهاء من كل هذا أخذنا الدليل الى الشارع من جديد حيث كان علينا ان نهرول أو نركض من مكان في الشارع الى آخر (بين الصفا والمروة) فنقطع مسافة لا تزيد على رمية سهم . وأني اعترف بأنني لم يكن بوسعي سوى ان أعجب بهؤلاء المساكين الذين يخلصون الى آخر حد في تأدية مثل هذه « الخرافات » ، وأقدر شعورهم حينما ألاحظ مقدار ما ينتابهم من الرهبة والارتعاش . والحق أنني لم أتمالك نفسي من البكاء وارسال الدموع حينما رأيت حماستهم المتناهية في العقيدة ، برغم ما فيها من وثنية (كذا) ، ومع كونهم يؤدونها على العميا .

ويصف بينس مكة فيقول أنها بلدة تقع في واد غير ذي زرع ، أو في وسط عدة جبال صغيرة . وهي غير عصيمة ، لأنها ليس لها أسوار ولا أبواب . اما سكانها فهم فقراء ميالون الى النحافة والهزال ، وسمر في لونهم .

على ان البلدة محاطة لعدة أميال بآلاف عدة من التلال والجبال الصغيرة التي تتقارب بعضها الى بعض جد التقارب . وكلها احجار صخرية ميالة الى السواد في لونها ... وهناك فوق قمة أحدها غار مشهور يسمى غار حراء ، كان النبي محمد يعتزل فيه فيستغرق في عبادته وتأملاته وصومه . وقد ذهبت اليه فلم أجد ان يد التجميل قد مسته مطلقاً ، فأعجبت جد الاعجاب بذلك .

ويقول بيتس كذلك ان مكة كان فيها ماء كثير ، لكنها خالية من العشب والزرع الا في بعض الأماكن . على أنه وجد فيها عدة أنواع من الفواكه ميسورة للناس مثل العنب والبطيخ والرقي والخيار والقرع وما أشبه . وهذه يؤتى بها في العادة من مكان يقع على مسيرة يومين او ثلاثة ، يسمى « حباش »(؟) ولعله يقصد بذلك الطائف .

ثم يذكر خلال وصفه للحج ومناسكه ان سلطان مكة (اي الشريف) الذي ينحدر من نسل النبي محمد (ص) لا يعتقد بأن غيره قمين بتنظيف البيت وتطهيره ، ولذلك يقوم هو شخصياً والأثيرون عنده من رجاله بغسله بماء زمزم المقدس ، ثم بالماء المطيب المعطر . وحينما يقومون بهذه العملية ترفع السلالم التي تؤدي الى بيت الله ، ولذلك يحتشد الناس تحت الباب ليدفع ماء الغسيل عليهم حتى يتبللوا به من الرأس الى القدم . ثم تقطع المكانس التي يكنس بها البيت المقدس قطعاً صغيرة وترمى عليهم فيتلاقفونها ، ومن يفز بقطعة منها يحتفظ بها كأثر مقدس لديه (؟) . ويتطرق بعد ذلك الى ذكر الكسوة ووصفها كالمعتاد[1] .

---

(١) اقتطفت هذه من ملحقات رحلة بورتون المشهورة التي سنأتي عليها فيما بعد ، الجزء الثاني الص ٣٥٨ — ٣٩٠ . Burton, Richard E — Pilgrimage to Al Madina & Meccah, Memorial Edition (London 1803)

القس جوزيف أوفينكتون

وقد كانت شركة الهند الشرقية في أواخر القرن السابع عشر معنية بجمع المعلومات عن موانيء البحر الأحمر وأهميتها ، فكلفت عدداً من رجالها بذلك . وكان من جملتهم القس جوزيف أوفينكتون الذي كتب في وصف جدة وأهميتها ، فنشر الوصف في كتابه المسمى « رحلة الى صوراة »[1] .

وهو يقول ان الميناء الرئيسي في البحر الأحمر يعود للسلطان ... وهو ميناء مكة . وليست الأراضي المحيطة بهذين البلدين ذات فائدة مطلقاً ، كما انها غير قابلة للاصلاح والتحسين بحيث يبدو أنها قد أُصيبت بلعنة من الطبيعة فحرمت من نعم الله تعالى بندرة وجود الأشياء كلها فيها ، ما لم تستورد لها من الخارج . ولذلك يتكبد السلطان مبالغ طائلة لتقويم أودها ، وتجهيزها من مصر بصورة مستمرة ، فتصل إليها حوالي عشرين الى خمس وعشرين سفينة كبيرة كل سنة ، محملة بالذخائر والمؤن والأموال . وما أشبه . وتزدهر جدة بمواصلاتها الدائمة مع الهند وايران والحبشة ، وأجزاء الجزيرة العربية الأخرى . فيأتي العرب اليها ببنهم (قهوتهم) ليشتريه الأتراك ويحملوه الى السويس . ويأتي اليها على الشاكلة نفسها الحجاج في كل سنة من أنحاء العالم الاسلامي جميعه .

ويليام دانيال وشارل جاك بوسيه

وفي عهد الشريف سعيد (١٧٠٠) وصل إلى جدة رجل انكليزي يدعى ويليام دانيال وآخر فرنسي يدعى شارل جاك بوسيه ، فخلفا وصفاً واضحاً عما شاهداه . فقد كان دانيال شاهد عيان للخصام الذي حصل بين الشريف الأكبر سعيد والباشا الذي كان يمثل السلطان في الحجاز . وهو يقول

---

(١) Ovington, Rev. John — A voyage to Suratt Reprinted by Oxford University Press in 1929.

ان الشريف أهان الباشا لأنه جاء الى جدة شخصياً وفي معيته ألفان من الخيالة ، وطلب الباشا الى حضرته فطالبه بتسليم مئة ألف جفوين . ولم يكتف بذلك فقط وإنما تجاوز على السلطان كذلك بقوله انه ابن مسيحية عاهر ، وأنه لا يعترف به حامياً للإسلام والمسلمين لأنه تصالح مع الدول النصرانية . ولذلك اضطر الباشا الى ان يرسل المبلغ المطلوب للشريف فيسلم على حياته .

وقد وصل الفرنسي المسيو شارل بوسيه الى جدة في اليوم الخامس من كانون الأول ، أي بعد الحادث المار ذكره بأيام قليلة . على انه يصف زيارة الشريف الذي كان ما زال مخيماً خارج أسوار المدينة . فهو يقول ان الشريف كان رجلاً في حوالي الستين من عمره ، تبدو في محضره المهابة والجلال ، وله شق صغير في الجانب الأيمن من شفته السفلى . غير ان رعاياه وجيرانه لا يستصوبون لطفه ورأفته . وقد أجبر الباشا الذي يعيش في جدة على ان يسلم له ألف وخمس مئة ريال ذهب انكليزي ، بعد ان هدده بالقتل إذا لم يذعن لطلبه . ثم يصف المسيو بوسيه كيف كان الشريف يأخذ ضرائب من الأتراك كذلك ، ويقول ان الشريف ، وهو العنيف المتكبر ، قد سحب خضوعه للسلطان الذي يسميه على سبيل التحقير « ابن مملوك » .

الرحالة « علي بك العباسي »

وقد حج الى مكة في سنة ١٨٠٧ (في عهد الشريف غالب) رجل من يهود اسبانية يدعى دومنيكو باديا أي ليبليج . بعد ان تزيا بزي المسلمين وسمى نفسه علي بك العباسي . وكان هذا اليهودي مكلفاً بمهام خاصة من قبل الحكومة الفرنسية ، فتجول كثيراً وكتب بالفرنسية تفصيلات مهمة عن الحجاز ومكة وغيرهما في كتاب [١] ضخم . وقد كتب عن الشريف

(١) Ali Beg Al Abbassi (Domingo Badia y Leiblich) — Voyages en Afrique et en Asie pendant les Années 1803 à 1807.

غالب يقول أنه كان انانياً غير متعلم ، وان الأنكليز كانوا يعتبرونه أحسن صديق لهم ، ولذلك كانوا يشجعون التجارة مع الهند بواسطته . كما يقول ان الشريف كان يبعث بسفنه لتتاجر مع مخا ومسقط وصوراة ، وأنه كان يدعي بعائدية مصوع وجزيرة سواكن له ، مع انهما كانا يخضعان للسلطان بصورة أسمية .

ومن طريف ما يذكره « على بك العباسي » هذا ، الذي اصبح كتابه مرجعاً مهماً للغربيين عن مكة ، وصفه لجماعة من البدو الوهابيين الذين جاءوا الى الحج في مكة سنة ١٨٠٧ بصفته شاهد عيان . فهو يقول .. وسرعان ما دخل البلدة جمهور من الرجال العراة ، الذين لم يكونوا يلبسون شيئاً الا الأسمال التي كانت تستر عوراتهم . وكان عدد قليل منهم يضعون بالاضافة الى ذلك شيئاً فوق أكتافهم ، كما كان قسم آخر منهم عراة بالكلية ، لكن الجميع كانوا مسلحين اما بالبنادق او بالخناجر . وحالما وقعت أعين المكيين على هذا السيل من العراة المسلحين هرعوا الى البيوت كلهم واختفوا عن الأنظار . وكان البعض من هؤلاء يركبون الخيول ، مع عريهم وتسلحهم بالرماح ، ويرتلون أدعيتهم وجملهم الدينيــة بصوت مرتــفع كل بالطريقة التي يختارها ، ومن دون خشوع او انتظام . وقد تولى أطفال مكة ، وهم الأدلاء على الدوام ، أرشادهم والطواف بهم لأن الكبار قد تلاشوا عن الأنظار . ولذلك أخذوا يمرون في داخل البيت الحرام ويقبلون الحجر الأسود وكأنهم مجموعة محتشدة من الزنابير . ويقول « على بك » بالاضافة الى ذلك ان الشريف غالباً كان خلال ذلك يشاهد الوهابيين من قصره القائم فوق السفح بعد ان أوعز الى جنده من العبيد والاتراك بان لا يغادروا مقراتهم بينما كان هذا المد القادم من البادية يكتسح داخلية مكة ، وينحسر عنها دون وقوع حادث يذكر . [1]

(١) اقتبست هذه المعلومات عن « علي بك العباسي » من كتاب ديغوري الذي مرت الأشارة اليه ، الص ١٨٨ — ١٨٩ .

جيوفاني فيناتي

وجيوفاني هذا رجل مغامر من أهالي فيرارا في ايطاليا ، وقد قدر له بعد تطويحات ومغامرات عدة ان يحج الى مكة المكرمة في ١٨١٤ ، باعتباره رجلاً مسلماً اسمه محمد . فقد سيق الى الجندية في بلدته سنة ١٨٠٥ ، ففر منها وقبض عليه ثم سيق اليها مرةً ثانية . وهناك اتفق مع جنود آخرين وفر الى ألبانيا فاشتغل عند أحد الباشوات الأتراك فيها ، واعتنق الاسلام فتوجه الى استانبول . وبعد مغامرات وتقلبات عدة وصل الى القاهرة في ١٨٠٩ وانخرط في سلك الحرس الألباني وأصبح عريفاً في حرس الخديوي محمد علي باشا الخاص . واشترك بعد ذلك في حملة سيقت الى مصر العليا للقضاء على المماليك وثورتهم فيها . ثم رابطت قوته في المطرية استعداداً لسوقها بقيادة طوسون باشا بن محمد علي لتأديب الوهابيين الذين احتلوا الحجاز ، فأبحرت القوة في ١٨١١ واستطاعت الأنزال في ينبع واستولت عليها بعد معركة اشترك فيها جيوفاني أو « محمد » اشتراكاً فعلياً . وبالنظر لأصابته بالروماتيزم الحاد عاد الى القاهرة ، وبعد ان بقي فيها مدة من الزمن سمع بانتصارات محمد علي باشا على الوهابيين في الحجاز ، فقرر الالتحاق بالقوة الألبانية المنجدة التي توجهت الى هناك في ١٨١٤ .

وهناك اشترك فيناتي في محاصرة القنفذة والاستيلاء عليها . وكان موجوداً فيها حينما استردها الوهابيون بفظاظة ، فجرح وتمرض ولذلك قرر الفرار من الجندية والتوجه الى مكة نفسها . فحج فيها وكتب عما شاهده خلال ذلك بتفصيل غير يسير . فهو يقول :

.. ولما كنت مسروراً لنجاحي في الفرار كنت في وضع فكري يتقبل شيئاً غير يسير من الانطباعات القوية ، ولذلك تحسست كثيراً بجميع ما رأيت عندما دخلت البلدة (يقصد مكة) . لأنها وان تكن ليست واسعة ولا جميلة بحد ذاتها ، فقد كان فيها شيء يبعث الرهبة والاندهاش في

النفس . وكان ذلك يلاحظ على الأخص عند الظهيرة حينما يهدأ كل شيء تمام الهدوء ، الا المؤذن الذي يدعو الناس الى الصلاة من فوق المأذنة ... وابرز ما يلاحظ في هذه البلدة البناء المقدس المشهور الذي يقع في وسطها . فهو فناء مبلط واسع له أبواب كثيرة تؤدي اليه من جميع الجهات ، مع ممر واسع يحمل سقفه أعمدة تحيط بالبناء كله ، بينما يقوم في وسطه بناء يدعى الكعبة ، وتغطى جدران هذا البناء من الخارج بكسوة من المخمل الثمين الذي تطرز فوقه كتابات عربية بالذهب .

ثم يعلق على ازدحام الناس في مكة وكثرة الحجاج فيها فيقول : .. ومع هذا التجمع الهائل الذي كان ينقطع بين حين وآخر في السنوات الأخيرة فقد وصلت الى مكة منذ ان اتت اليها قافلتان كبيرتان ، إحداهما من آسية وأخرى من افريقية ، يبلغ عدد القادمين فيهما حوالي اربعين ألف شخص كان يبدو عليهم كلهم مقدار ما يكنونه في نفوسهم من الاحترام والتقديس للبيت الحرام .. وهنا يعلق الرحالة بورتون ، الذي نشر ما كتبه فيناتي في آخر رحلته . على هذا بقوله ان « على بك » يقدر عدد الحجاج الذين وقفوا في عرفات سنة ١٨٠٧ بثمانين ألف رجل وألفي امرأة وألف طفل ، وان الرحالة بورخارت قدرهم في ١٨١٤ أيضاً بسبعين ألف . ثم يقول بورتون انهم لم يتجاوزوا الخمسين ألف نسمة حينما زار مكة سنة ١٨٥٣ .

ويقول فيناتي بالنسبة لمناسك الحج في عرفات ان الحجاج حينما يذهبون اليها لا بد من ان يضحوا ولو بذبح خروف فيها ، وان هذا يفعله الغني والفقير على سواء ويساعد فيه الغني الفقير عند الحاجة . وكان مثل هذا العدد الهائل من الضحايا يملأ الأماكن المكشوفة كلها ، فيتقاطروا الفقراء من جميع أنحاء البلاد ليأخذوا حصتهم منها .. وبعد ان تتم مناسك الحج كلها كانت تسجل الاسماء عند كاتب خاص يعين لهذه المهمة . وعند ذاك ينفض الحجاج ويعودون الى اماكنهم . ويعلق بورتون على هذا القول أيضاً بقوله ان هذه العادة لم يعد يعمل بها . وأن شهادة كان يعطيها الشريف من قبل الى جميع

من يستطيع دفع المال المطلوب عنها ومن يحتاج الى البرهنة على ذهابه الى حج البيت الحرام ، لكن هذه أيضاً لم يعد لها وجود .

جون لويس بورخارت

يعد الرحالة السويسري بورخارت من أشهر رحالي القرن التاسع عشر ، وأبعدهم صيتاً وشهرة . فقد تجول في بلاد النوبة وما جاورها من البلاد الأفريقية ، وتجول في مصر وسورية ، وفي الحجاز وما جاورها كذلك . ثم كتب كتباً قيمة عن رحلاته هذه كلها ، ومن جملتها « رحلاته الى بلاد الجزيرة العربية[1] » الذي يأتي فيه على وصف مكة المكرمة في تلك الأيام من جميع النواحي ، والمدينة المنورة كذلك . ويتألف المجلد من جزأين يحتوي الأول منهما على مشاهدات بورخارت في جدة والطائف ومكة ، وعلى وصف محلات مكة بالتفصيل وبيت الله الحرام والكعبة وسائر الأماكن المقدسة ، فضلاً عن سكان مكة وحكومتها واحوالها الجوية . ويحتوي الجزء الثاني على وصفه للحج ومناسكه بالتفصيل ، وعلى مشاهدته في سفرته الى المدينة المنورة وأماكن الزيارة فيها وحكومتها وأحوالها الجوية ، وعلى ما شاهده في ينبع وفي سفرته منها الى القاهرة .

وكان المستر بورخارت قد أسلم على ما يزعم عند قدومه الى مصر في عهد الخديوي محمد علي باشا ، وسمى نفسه الشيخ ابراهيم . ويقول ناشر كتبه الأنكليزي ، ويليام أوسلي ، في كانون الثاني ١٨٢٩ : ان معرفة بورخارت للعربية واطلاعه التام على أحوال المسلمين وعاداتهم قد ساعداه على تقمص دور الرجل المسلم بنجاح حتى استطاع ان يعيش في مكة خلال موسم

---

(١) Burchardt, John Lewis — Travels in Arabia, Comprehending au account of Territories in Hedjaz which the Mohammedans regard as Sacred.

الحج كله ويشترك في مناسكه وشعائره من دون ان يثير أدنى شك بشخصيته المنتحلة. وكان بورخارت نفسه يقول انه من بقايا المماليك الذين قضى عليهم محمد علي باشا في مصر، حينما كان يُسأل عن هويته. وقد تعرف خلال زيارته لمصر على عاهلها يومذاك محمد علي، ولذلك اغتنم فرصة توجهه الى الحجاز لادارة الحملة التي جردتها الدولة العثمانية بقيادته لاسترداد البلاد المقدسة من الوهابيين، وذهب لزيارتها وإداء « فريضة » الحج سنة ١٨١٤. وكان محمد علي باشا قد وصل الى الحجاز في ربيع ١٨١٣ وأقام في الطائف للأشراف على مهمته والقضاء على الوهابيين في عقر دارهم كذلك.

وقد نزل بورخارت في جدة يوم ١٨ تموز ١٨١٤، وسار منها الى الى الطائف لمقابلة محمد علي، ثم قصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج على ما يدعي. ويستبان مما دونه ان محمد علي باشا كان يشك في أسلامه، ومع هذا فقد سمح له بالتوجه الى الحج في مكة. وهو يأخذ بوصف الحج وشعائره قبل وصوله الى مكة، ويبدأ بذكر ما يختص بالاحرام بطبيعة الحال. فيذكر بهذه المناسبة ان المؤرخين العرب يروون عن هارون الرشيد وزوجته زبيدة انهما قصدا الحج في سنة من السنين مشياً على الأقدام من بغداد الى مكة، ولم يكن يستر جسمهما غير لباس الأحرام على طول الطريق وفي كل مرحلة من مراحل الطريق كان يوجد بخدمتهما قصر مؤثث تأثيثاً فاخراً. وان الطريق كله كان يغطى بالسجاد يومياً ليسيرا فيه ! !

ويأتي بعد ذلك على ذكر التوجه الى المسجد الحرام والطواف والسعي بين الصفا والمروة، وزيارة العمرة، ثم العودة الى مكة. على ان بوخاربت يذكر كذلك ان الكعبة كانت مكاناً مقدساً في أيام الجاهلية أيضاً، وان الناس كانوا يطوفون حولها بنفس النمط الذي يطوفون فيه حولها اليوم تقريباً، لكن المبنى المقدس كانت تزينه يومذاك ثلاث مئة وستون صنماً وكان على الرجال والنساء ان يظهروا امامها عراة كما خلقهم ربهم ليستطيعوا التجرد عن الخطايا والذنوب والتخلص منها مع الملابس التي يتجردون عنها.

وصف بورخارت لمكة

والملاحظ مما كتبه رحالتنا هذا أن إقامته في مكة كانت مريحة جداً ، فهو يقول انه لم يتمتع خلال سفراته في البلاد الشرقية كلها بمثل ما تمتع به في مكة من الراحة ، وانه سيظل يتذكر اقامته فيها الى الأبد برغم انحراف المزاج الذي ألم به فلم يسمح له بالتمتع بجميع ما سمحت له الأحوال التمتع به .

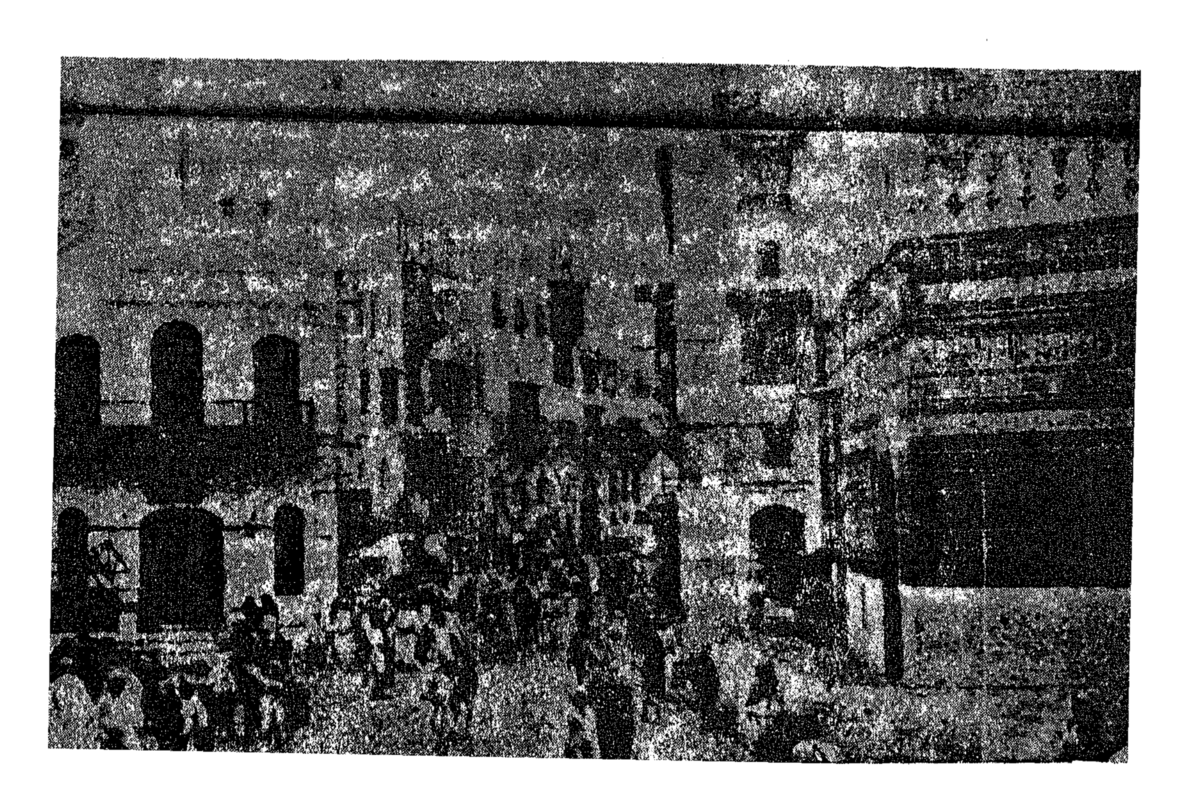
وبعد ان يشير الى التقديس والتبجيل الذي يكنه العرب جميعاً لها ، والى الأسماء التي تطلق عليها مثل « أم القرى » و « المشرفة » و « البلد الأمين » ، يأخذ بوصفها من جميع النواحي فيقول ان البلدة نفسها تشغل فضاءً يبلغ طوله حوالي ألف وخمس مئة خطوة ، اي من محلة الشبيكة الى نهاية المعلا . لكن جميع ما يطلق عليه اسم مكة بالمعنى الأوسع يمتد من ضاحية جرول (المدخل من طريق جدة) الى ضاحية المعبدة على طريق الطائف . ويبلغ هذا حوالي ثلاثة آلاف وخمس مئة خطوة . اما الجبال التي تحيط بهذا الوادي ، الذي كان يسميه العرب وادي مكة أوبكة ، فيبلغ ارتفاعها ما بين مئتين وخمس مئة قدم ، وهي جرداء خالية من الزرع والشجر . وينحدر الوادي برفق نحو الجنوب ، حيث تقع محلة المسفلة . ولذلك يتبدد المطر الذي يسقط أحياناً على مكة في جنوب مسفلة ، في الوادي المكشوف الذي يسمى وادي الطرفين . وتقع معظم البلدة في ضمن الوادي نفسه .

ويقول بورخارت ان مكة يمكن ان تعتبر بلدة جميلة ، لان شوارعها أعرض من شوارع المدن الشرقية الأخرى بوجه عام ، وبيوتها عالية مبنية بالحجر ، فيها عدد من الشبابيك التي تطل على الشوارع فتسبغ عليها منظراً تملأه الحيوية بخلاف الدور في مصر وسورية التي لا تطل على الطرق في الغالب . وهي ، مثل جدة ، تحتوي على عدد من الدورذات ثلاثة طوابق ، ويقول كذلك ان مكة مفتوحة من جميع الجهات ، لكن الجبال المحيطة بها تكوّن مانعاً حصيناً ضد العدو اذا ما دوفع عنها بطريقة أصولية . وقد

كان لها في الزمن القديم ثلاثة أسوار تحمي جوانبها المتطرفة ، وكان أحدها مشيداً عبر الوادي في شارع المعلا ، وكان الثاني مبنياً في محلة شبكية ، والثالث في الوادي الذي ينفتح على حارة المسفلة . وقد بنيت معظم بيوت مكة لتكون منازل للحجاج ، عدا بيوت بعض الأغنياء والشرفاء .

ويتطرق بورخارت الى ذكر الماء الذي يعتمد عليه سكان مكة فيقول أنه قليل ، وان قلته تكوّن مشكلة على الدوام . فان بئر زمزم المشهورة قد تفي بغزارة مائها جميع السكان ، لكنها على قداستها يكون ماؤها ثقيلاً على الذائقة صعباً في الهضم . كما ان الفقراء لا يمكنهم الاستقاء منه بحرية على الدوام ، على ان احسن ماء يؤتى به الى مكة من عرفات الواقعة على مسيرة سبع ساعات عنها ، لكن الحكومة اهملت القناة التي تأتي بهذا الماء . فهي مشيدة بالحجر كلها ، ولم ترمم او تنظف منذ خمسين سنة . وهناك مكانان

احد شوارع مكة وبيوتها القديمة التي يرجع تاريخ بعض ابنيتها الى ما قبل القرن الخامس عشر الميلادي



في داخلية مكة يمكن أخذ هذا الماء منهما ، ويقف عليهما في العادة عبيد الشريف لجباية الأجور .

قناة زبيدة

ويذكر بورخارت ان تاريخ هذه القناة يسهب فيه المؤرخون العرب ، وموجزه أن زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد كانت قد أمرت بسحب مياه « عين النعمان » من منبعها في جبل كرا الى مكة في قناة خاصة ، وصرفت مبالغ طائلة من مالها الخاص على ذلك . ثم أمرت بعد هذا بسحب مياه عين عرف من سفح جبل شامخ الكائن في شمال جبل كرا ، وربطها بمياه عين النعمان بعد ان كانت تسقي سهل حنين . وربطت في الأخير مياه أربعة ينابيع أخرى بهذه القناة كذلك ، وهي ينابيع البرود والزعفران وميمون وعين مشاش . على ان القناة قد أهملت بعد ذلك وسدت على ما يبدو ، لكنها أُصلحت في سنة ٦٤٣ هـ بأمرٍ من السلطان سعيد خدابنده ، ثم أصلحها بعض الاصلاح للمرة الثالثة الشريف حسن بن عجلان في مدة حكمه سنة ٨١١ ، وقد صرف مبالغ طائلة عليها بعد ذلك أيضاً السلطان قاتيباي في مصر سنة ٨٧٩ ، ثم أسهم في اصلاحها سنة ٩١٦ قانصوه الغوري من آخر سلاطين مصر المماليك الجراكسة . وفي سنة ٩٣١ حاول السلطان سليمان القانوني ان يعيد إنشاء القناة من جديد لكن التصميم المطلوب لم يتم وضعه ، حتى توفق بعد ذلك ابنه السلطان سليم الثاني في شق قناة جديدة بعد كثير من الأتعاب والنفقات ، وهي القناة التي شاهدها بورخارت تأتي بالماء الغزير الى مكة المكرمة . فقد حفر للمجر ى الجديد خلال الصخر الذي يمتد وراء جبل عرفات ، ونجح بذلك في تزويد مكة بماءٍ عذبٍ غزير سنة ٩٧٩ . ويستغرق طول القناة كلها مسيرة سبع أو ثماني ساعات . ومع هذا فقد شاهد رحالتنا بورخارت الشحاذين والمرضى والحجاج المنقطعين يستطعون شربة ماء عذب في شوارع مكة نفسها لان ملء الجرة الواحدة كان يكلف بارتين خلال موسم الحج على كل حال .

حواري مكة او محلاتها

ومن امتع ما يكتبه بورخارت عن مكة وصفه المسهب لمحلاتها المختلفة بعد ان شاهدها بنفسه ودقق أحوالها. فهو يقول ان القادم من جدة الى مكة المكرمة يجد في مدخلها برجين عاليين للحرس ، كان قد أنشأهما الشريف غالب للدفاع عن عاصمته المقدسة . وبعد ان يدخل القادم من بينهما بمسافة غير بعيدة يصادفه موظفو الشريف الذين يجبون الرسوم على البضائع . ثم يدخل الى « حارة جرول » ، التي يعيش فيها البدو المشتغلون في تجارة النقل ما بين مكة وجدة . وتأتي بعد « حارة الباب » التي تتألف من شارع عريض متسع يقوم في جانبيه عدد غير يسير من الدور الكبيرة الحسنة « حارة الشبيكة » التي تمتد الى اليمين في الغالب . ويقول بورخارت ان هذه المحلة كان أصحاب النبي عليه السلام قد ضويقوا فيها جد المضايقة في حروبهم مع قريش . وهناك عدد غير يسير من الدور الجيدة في هذه الحارة التي تعد من أنظف حارات مكة وأنقاها هواء ، ويقطنها الكثيرون من أهالي جدة كما توجد فيها دار كبيرة للشريف غالب تسكن فيها أسرته . وينتشر في جانبي الشارع الرئيسي منها عدد من المقاهي التي يتحرك منها في مساء كل يوم بريد الرسائل والمكاتيب الى جدة على ظهور الحمير ، وكانت السلطات تتقاضى بارتين عن المكترب الواحد .

وفي الجهة الغربية من الشبيكة تمتد نحو الجبل مقبرة واسعة تنتشر فيها أكواخ وخيام عديدة تعود لبعض البدو ، وبيوت حقيرة تسكنها النساء من الطبقة الدنيا . وتسمى الخندريس ، على انها على ما يظهر أصبحت مقبرة مهجورة . واذا ما سار القادم من الشبيكة على طول الشارع العريض المذكور نحو الشمال يصادف حماماً عاماً يعد واحداً من الحمامات الثلاثة الجيدة في مكة كلها . وكان هذا الحمام قد بناه في ٩٨٠ محمد باشا وزير السلطان سليمان الثاني ، ويعد من أحسن الأبنية في مكة . وتتكون من هذا الحمام عدد من الشوارع الفرعية المؤدية الى الحرم الشريف نفسه « محلة باب العمرة »

التي يسكنها عدد من المطوفين والحجاج ، ولا سيما الأتراك منهم . ويقول بورخارت ان معظم الحجاج يفضلون السكنى في هذه الحارة وغيرها من الحارات القريبة الى بيت الله الحرام لئلا يؤدي ابتعادهم الى فوات وقت الصلاة عليهم في داخل المسجد الحرام . ويضيف الى ذلك ما سمعه من ان قربهم هذا يسهل لهم التخلص من الأحلام المزعجة التي قد يحلمون بها في نومهم . فكثيراً ما يرى الحجاج وهم يركضون في منتصف الليل نحو المسجد الحرام حيث يتوجهون الى الطواف حول الكعبة وتقبيل الحجر الاسود وإقامة الصلاة القصيرة ، ويشربون قليلاً من ماء زمزم فيعودون الى فراشهم في الحال .

واذا ما سار السائر من محلة الشبيكة الى الجنوب ، وانحدر قليلاً في سيره يصادف ما يسمى بالسوق الصغير الذي ينتهي بباب المسجد الحرام المسماة « باب ابراهيم » . وقد وجد بورخارت فيما وجد في هذا السوق ان الجراد كان يباع فيه بالوزن . وتسمى نهاية هذا السوق من جهة الجبل « حارة حجيلة » ، وهذه يسكنها في بيوت لا بأس بها خصيان الحرم الشريف وخدامه . وتعد اخفض منطقة في مكة ، ولذلك فهي كثيراً ما تتعرض الى السيول الناتجة عن مياه الأمطار . وتسمى المنطقة الكائنة في شرق السوق الصغير وجنوبيه « حارة المسفلة » التي يقطن القسم الأكبر منها الهنود والفقراء من الناس برغم وجود عدد من البيوت الجديدة فيها . وفي الأقسام الخربة من هذه المحلة يسكن كذلك عدد غير يسير من العبيد الذين تقوم ازواجهم بصنع مشروب مسكر من الذرة يسمى « بوزة » . وقد سكن بورخارت في هذه المحلة على ما يقول .

وهو يقول بالمناسبة ان القمة الغربية من وادي الطرفين التي تقابل المسفلة كانت تقوم فوقها بناية صغيرة وقبة شيدت لتخليد ذكرى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، فصارت تسمى « مقام سيدنا عمر » ، لكن الوهابيين حينما استولوا على مكة قبيل ان يستردها منهم محمد علي باشا هدموا هذه البناية والقبة وخربوهما .

وعند التوجه من الثكنة التي يرابط فيها جند الشريف نحو الحرم الشريف توجد في الجهة اليمنى «حارة اجياد» التي يسكنها فقراء الناس وعدد من خدام الحرم الشريف. ويقرل بورخارت ان اسم الحارة هذه مشتق من اسم المكان الذي ترابط فيهخيالة تبع ملك اليمن حينما هاجم مكة، ويستنتج من هذا بأن الحارة لا بد من ان تكون من أقدم حارات البلدة.

ثم يذكر حارة الصفا القريبة من شارع المسعى، ويقول ان هذه الحارة توجد فيها دور جميلة يقيم فيها خلال موسم الحج عادةً عدد غير يسير من الأغنياء الأجانب. وان المسعى حينما شاهده خلال مدة وجوده في مكة كان يشبه السوق الاستانبولية. فقد كان هناك عدد كبير من الدكاكين يديرها أناس أتراك من أوربة او آسيــة الصغرى، وكان هؤلاء يبيعون مختلف الألبسة التركية وأنواعها. وكانت تباع في هذه الدكاكين كذلك السيوف الجميلة والساعات الانكليزية الممتازة، ونسخ القرآن المزخرفة. كما كان طباخو استانبول يبيعون فيها أنواع المأكولات والحلويات قبل الظهر، والكباب وغيره من اللحوم المشوية بعد الظهر، والمحلبية عند الغروب. وقد كان هناك عدد كبير من المقاهي التي كانت تزدحم بالناس من الساعة الثالثة صباحاً الى الحادية عشرة في المساء. ومما يستغرب، على ما يقول بورخارت، ان دكاكين من هذه الدكاكين كانت تباع فيهما المسكرات [1] أو المشروبات الروحية علناً خلال الليل فقط!!. وكان أحد هذه المشروبات يستحضر من الزبيب المتخمر، وهو مشروب قوي برغم خلطه بكثير من الماء عند تناوله. اما الآخر فقد كان عبارة عن نوع من «البوزه» المخلوطة بالبهارات.

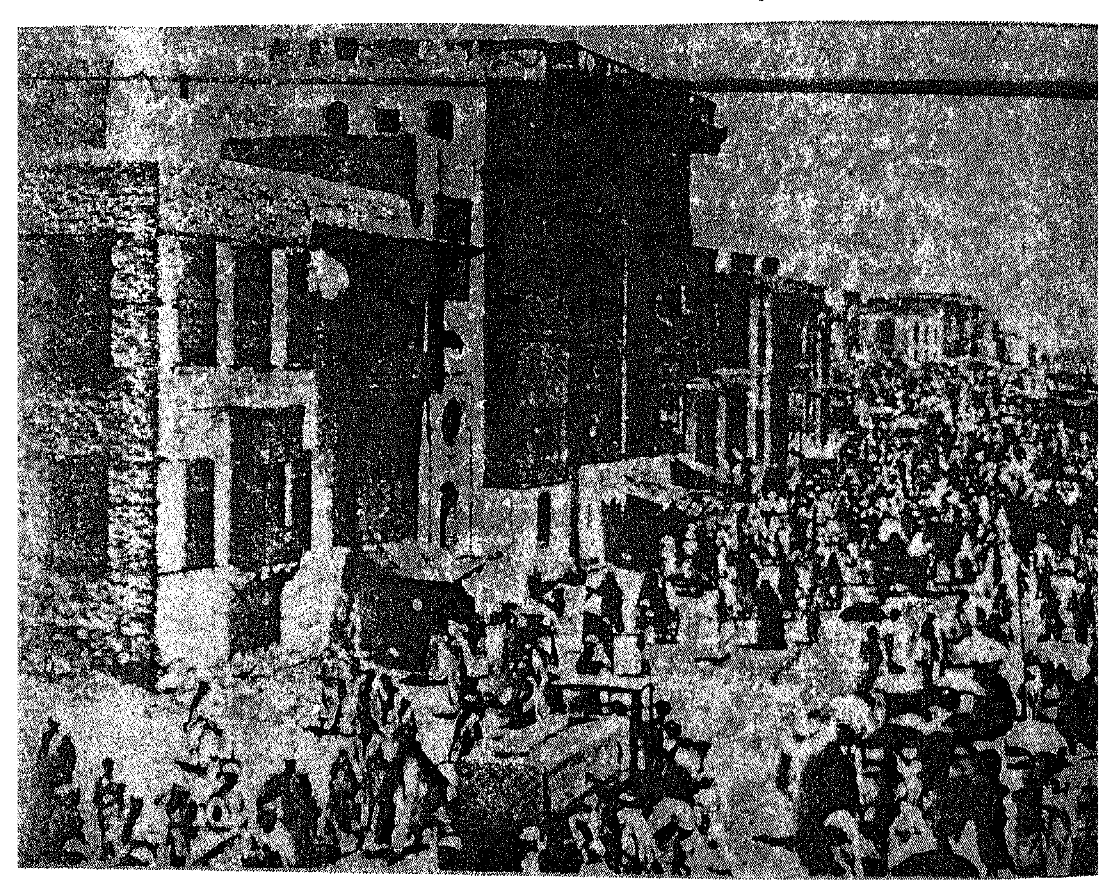
ويذكر رحالتنا كذلك ان المسعى يعتبر محلاً عاماً تنفذ فيه العقوبات العلنية، مثل احكام الاعدام. فقد أعدم أحد الناس بقطع رأسه فيه خلال

(١) الص ٢١٣ من رحلة بورخات المشار اليها.

مدة وجود بورخارت في مكة ، بعد ان حكم عليه القاضي بذلك لأنـه سرق مثتي باون انكليزي من أحد الحجاج الأتراك.

وفي المحل الذي ينتهي فيه السعي من جهة المروة لاحظ بورخارت وجود الدار التي كان يسكن فيها العباس عم النبي عليه السلام ، كما لاحظ وجود دكاكين الحلاقين الذين يحلقون شعور الحجاج بعد انتهائهم من السعي . وهنا أيضاً تجري المبايعات بكثير من الحاجات في صباح كل يوم ، وتوجد على مقربة من هذا المكان بركة وسبيل للشرب بناه السلطان سليمان القانوني واستمد له الماء من قناة مكة المشهورة . والى الشرق من المروة التي ينتهي فيها المسعى ، توجد السويقة التي تمتد بموازاة الجانب الشرقي من الحرم

المسعى القديم بين الصفا والمروة وقد جددته الحكومة السعودية اليوم وصيرت منه مسعى خاصاً وعلى جانب كبير من الروعة كما مرت صورته الحديثة من قبل



الشريف . وهذه عبارة عن سوق صغيرة نظيفة على الدوام يعرض فيها تجار الهنود الأغنياء سلعهم الثمينة مثل الموسلين والشال الكشميري وما أشبه. وهناك أكثر من عشرين دكاناً تباع فيها أنواع العطور والدهون والند وما أشبه . وفي دكاكين غير هذه تباع المسبحات والقلائد المرجان والصندل وأنواع المصوغات ، فضلاً عن سلع الصيني الفرفوري .

وفي منتصف السويقة توجد مساطب حجرية يبيع من فوقها النخاسون العبيد الأحباش من الجنسين . ويبلغ سعر العبدة الجميلة من هؤلاء ما بين مئة وعشرة ريالات ومئة وعشرين . ويسمى الطرف الشرقي من السويقة « الشامية » التي تمتد من اليمين الى الجبل ومن الشمال الحد حد الحرم الشريف . وهذه منطقة جيدة البناء يسكنها التجار الأغنياء . وتباع في دكاكينها السلع الشامية والحلبية من منسوجات حريرية وغيرها ، كما تباع السلع التركية في احيان كثيرة .

وهناك حارة تقع في شمال الشوارع المتفرعة من السويقة تسمى (كرارة) وهي محلة مشهورة ذات بيوت أنيقة يسكنها أغنى التجار وأكثرهم ثروةً ، من أمثال التاجر الجيلاني والسكات . والى الشرق من كرارة عبر الحارة المجاورة المسماة « ركوب » يمتد شارع كبير يسمى شارع المودعة ، وهو عبارة عن امتداد للمسعى .

ويتفرع بالقرب من الصفا شارع عريض يمتد الى الشرق في موازاة المودعة ، ويسمى الكشاشية . ويقيم في هذا الشارع الحاكم أو مدير الشرطة الذي يأتي بعد الشريف في المنزلة على ما يقول بورخارت ، ويجاورها ما يسمى « شعب المولد » أو « صخرات المولد » . ثم يأتي على ذكر عدد من الشوارع والحارات الأخرى مثل الغزي وسوق الحدادين والمعلا . ويوجد في الطرف الشمالي من المعلا ، عند اتصاله بسوق الحدادين ، مقهى يسمى « قهوة الحشاشين » حيث يباع المخدر المستحضر من « الحشيش » والبنج ، الذي يدخن مع التبغ . ويقول بورخارت ان الشريف غالباً كان قد فرض ضريبة فاحشة على بيع الحشيش ليحول دون انتشاره بين الناس .

ويذكر بورخارت كذلك «الزقاق الصيني» ، وزقاق الحجر الذي يقول ان الزهراء البتول عليها السلام وأبا بكر الصديق قد ولدا فيه . وقد سمي الزقاق باسم الحجر الذي كان يحيي الرسول الأعظم كلما كان يمر به عند رجوعه من الكعبة على ما يقال . وتنتهي مكة من جهة المعلا ومحل اتصاله بالغزي بسهل رملي تنتشر فيه بعض المقاهي المنعزلة . ويوجد على حافة هذا السهل عدد من البرك التي تتزود منها قوافل الحجاج بالماء ، فهناك بركة للموكب المصري وأخرى للشامي وكانتا قد بنيتا في سنة ٨٢١ هـ . وعلى مقربة من هذه البرك يوجد جامع يسمى جامع السليمانية ، والمقول ان «السليمانية» اسم يطلق على المسلمين الذين كانوا يردون الى مكة من قندهار وأفغانستان وكشمير وعدد آخر من البلاد الواقعة في هذه الجهة من السند .

وفي مقابل السليمانية ، في السفح الشرقي من الجبل ، تقع حارة «شعب عامر» في جوار الغزي وشعب علي . ويسكن شعب عامر الباعة المتجولون من بدو ثقيف وقبائل قريش ، مع عدد من الشرفاء الفقراء . وتوجد في هذه المحلة بعض المطاحن الكبيرة العائدة للحاكم التركي ، وهنا أيضاً تصبغ الأقمشة القطنية وأقمشة الكتان . ولا تعد هذه الحارة من الحارات المحترمة على ما يقول بورخارت لأن عدداً من النساء الساقطات يسكن فيها [1] . ويقول كذلك ان الشريف غالباً كان قد فرض ضريبةً باهظة على هؤلاء النسوة ، وشدد أكثر من ذلك على اللواتي كن يتبعن الحجاج الى عرفات . وتفرض مثل هذه الضريبة في القاهرة ، وغيرها من المدن المصرية الكبرى كذلك . كما يقول أيضاً ان شعراء العرب من مثل ابن الفارض يعرضون في أشعارهم بشعب عامر هذا ، ويلمحون الى من يقيم فيه .

---

(١) الص ٢٣٤ من رحلة بورخات المشار اليها .

وعند انتهاء المعلا ، وعلى مسافة غير بعيدة من قصر الشريف الكائن في شمال منطقة البرك ، يوجد قبر أبي طالب والد الامام علي عليه السلام وعم النبي الكريم صلوات الله عليه . وقد عمد الوهابيون الى تقويض البناء الذي كان قائماً فوق القبر فأحالوه الى كومة من الأنقاض ، ولم يجد محمد علي باشا بعدهم من المناسب ان يعيد البناء الى سالف عهده . ويقول بورخارت ان الناس في مكة يقدسون أبا طالب ويجلونه غاية الاجلال ، ويخشون القسم كذباً به .

ويختم بورخارت بحثه عن حارات مكة بالاشارة الى عدد نفوسها ، بعد ان يبحث في صعوبة تقدير النفوس في المدن والبلاد الشرقية عامة . وهو يقدر نفوس مكة في غير مواسم الحج ، في تلك الأيام ، بخمسة وعشرين الى ثلاثين ألف نسمة ، يضاف إليها حوالي ثلاثة الى أربعة آلاف عبد حبشي وغير حبشي . ثم يقول ان مكة كان بوسعها في تلك الأيام ان تسكن ثلاثة أضعاف هذا العدد من الحجاج أيضاً . ويشير كذلك الى ان إحصاءً للنفوس كان قد جرى في عهد السلطان سليم الأول (٩٢٣ هـ) فوجد ان النساء والرجال والأطفال قد بلغ عددهم حوالي اثني عشر ألف نسمة . وهو يروي ذلك عن المؤرخ قطب الدين ، الذي يذكر أيضاً ان نفوس مكة كانت أكثر من هذا بكثير في القرون الخالية ، لأن القرامطة حينما هاجموا مكة في ٣١٤ هـ بلغ عدد من قتل بأيديهم من سكان المكة حوالي ثلاثين الف نسمة

بيت الله الحرام

ويصف بورخارت في الجزء الأول من رحلته بيت الله الحرام بالتفصيل ، فيأتي على كل شيء فيه بحيث يستغرق وصفه ما يزيد على خمسين صفحة [1] . وقد ذكرنا شيئاً غير يسير عن معظم ما جاء في هذا الفصل عند الاشارة

(١) الص ٢٤٣ — ٢٩٥ .


احدى المنائر التي تزين المسجد الحرام

الى ما جاء في دائرة المعارف الاسلامية عنه ، ولذلك سنكتفي بالاشارة الى بعض النقاط المهمة الواردة فيه فقط . ومن طريف ما يورده بورخارت في هذا الفصل قائمة بأسماء الأبواب الموجودة في المسجد الحرام تحتوي على تسعة وثلاثين اسماً حديثاً تقابلها الأسماء القديمة لبعض الأبواب . لكنه يقول ان اهم الأبواب كانت : باب السلام الذي يجب ان يدخل منه كل حاج ، وباب العباس ، وباب النبي ، وباب علي ، وهذه كلها من الجهة الشمالية . اما الجهة الشرقية فأهم أبوابها باب الزيت ، وباب العشرة ، وباب الصفا ، وبابا الشريف ، ثم باب ابراهيم وباب العمرة في الجنوب ، وباب الزيارة في الجهة الغربية . ومعظم هذه الأبواب لها عقود عالية مدببة .

ويستفاد مما جاء في هذا الفصل كذلك ان محيط المسجد الحرام من الخارج كانت تزينه سبع منارات موزعة توزيعاً غير متساوٍ عليه ، وهي منارة باب العمرة ، ومنارة باب السلام ، ومنارة باب علي ، وباب الوداع ، ومدرسة قائد بك ، وباب الزيادة ، ومدرسة السلطان سليمان . ويفهم كذلك ان أبرز شخص بين السدنة في البيت الحرام وأولهم « نائب الحرم » او « حارس الحرم » الذي تحفظ عنده مفاتيح الكعبة المشرفة . وتودع عنده أيضاً المبالغ التي يتبرع بها المحسنون الى البيت الحرام ، فيوزعها بالاتفاق مع القاضي . ويتم تحت إشرافه اجراء التعميرات والترميمات بصورة مستمرة . ويقول بورخارت [١] ان المصروفات التي كان يصرفها نائب الحرم على شؤون البيت المقدس ، بالاتفاق مع الشريف والقاضي ، كانت تبلغ حوالي ثلاث مئة كيس .

ويأتي بعد نائب الحرم « أغا الخصيان » الذي يطلق عليه اسم « أغاة الطواشين » على ما يقول بورخارت . ويقوم الخصيان او الطواشون بواجبات

---

(١) الص٢٨٨ .

الشرطة في داخل الحرم الشريف ، علاوةً على قيامهم بغسل أرضية الكعبة وكنسها يومياً . وكان عدد الطواشين هؤلاء يزيد على الأربعين ، وهؤلاء يقدمهم الأمراء والولاة في العادة مع بعض المبالغ هدية للحرم المقدس ، كما فعل محمد علي باشا حين قدم عشرة منهم . ويعتبر أغا الطواشين من شخصيات مكة على ما يلاحظ ؛ بحيث يكون مخولاً بالجلوس مع الشريف والباشا والحاكم . ويحصل الطواشون على مبالغ كبيرة من واردات المسجد الحرام والتبرعات الخاصة التي يقدمها الحجاج ، علاوةً على ما يصل اليهم من استانبول . ومعظم هؤلاء من العبيد السود ، وبعضهم من الهنود [١] .

اماكن مقدسة اخرى

ويخصص بورخارت في رحلته فصلاً [٢] خاصاً لذكر بعض الأماكن والبقع المقدسة التي يقول عنها ان الناس ، خلال احتلال الوهابيين لمكة ، لم يكونوا يجرؤون على زيارتها او التقدم منها ، وان جميع الأبنية او القبب المشادة عليها قد تم تهديمها .

وأول ما يذكر من هذه الأماكن « مولد النبي » أو الموقع الذي ولد فيه سيد الكائنات النبي الأعظم صلوات الله عليه . وهو يقول انه وجد العمال يعيدون بناء المبنى الذي كان مشيداً فوقه . وقد وجد حفرةً صغيرة في الوسط قيل له انها البقعة التي كانت ام النبي جالسةً فيها حينما جاءها المخاض فولدته . والمقول ان المكان كله كان بيت عبد الله بن عبد المطلب والد النبي .

---

(١) وكان يسكن من هؤلاء الخصيان عدد في اقطار اخرى من الاقطار الاسلامية وتجري عليهم الرواتب لانتسابهم الى خدمة الكعبة ، وقد سكن العراق من بغداد والبصرة عدد منهم وكانت لهم حرمة بين الناس اكتسبوها من خدمة الكعبة ، وهم نظيفو الثياب وعليهم سمات من الوقار تكلل رؤوسهم عمائم بيضاء . الخليلي

(٢) الص ٣١٢ — ٣٢٨ .

ثم يذكر « مولد ستنا فاطمة » أو المكان الذي ولدت فيه الزهراء البتول سيدة نساء العالمين ، ويوجد هذا « المولد » على ما يقول بورخارت في بناية حسنة مبنية بالحجر يقال أنها كانت بيت أمها خديجة الكبرى ، في شارع صغير يسمى « زقاق الحجر » . ويؤدي سلم صغير اليه عند الدخول لأنه تحت مستوى الشارع ، وتوجد فيه بقعتان محددتان إحداهما ولدت فيها فاطمة الزهراء عليها السلام والثانية كانت تجلس فيها لتدير رحاها وتطحن الحب . ويقول : وفي جناح بالقرب من ذلك توجد حجرة صغيرة ، كان يجلس فيها النبي عليه السلام حينما كان جبريل ينزل عليه بالوحي ، ولذلك كانت تسمى « قبة الوحي » .

ويذكر بعد ذلك « مولد الامام علي » في الحارة المسماة « شعب علي » ويقول بورخارت ان هذا عبارة عن مسجد صغير توجد حفرة في فنائه لتدل على البقعة التي ولد فيها الامام علي بن ابي طالب عليه السلام .

ويشير بعد ذلك الى « مولد سيدنا أبي بكر » الذي يقول انه ضمن مسجد صغير يقع في مقابل الحجر الذي كان يحيي النبي (ص) عند مروره به . ويقول كذلك ان هذا المكان ليست فيه بقعة خاصة بالذات ، لكن ساحته مغطاة بسجادة ايرانية . ويعلق بعد ذلك فيقول ان جميع هذه « الموالد » كانت قد أعيد بناؤها وترميمها بعد اخراج الوهابيين من مكة في تلك الأيام عدا « مولد النبي » الذي كان يجري بناؤه مجدداً . وتشارك في سدانة هذه الأماكن المقدسة عدة أسر شريفية .

وقد ألفى بورخارت ان « مولد أبي طالب » في محلة المعلا قد تم تهديمه عن آخره ، وهو يتوقع ان لا يعاد بناؤه من بعد ذلك أيضاً . كما وجد الوهابيين قد هدموا القبة التي كانت مشيدة على قبر « ستنا خديجة » ولم يعد بناؤه ايضاً ، مع ان الحجاج وسائر الناس كان من المعتاد ان يزوروه بانتظام ، لا سيما في ايام الجمع صباحاً . ويقع هذا القبر في المقبرة الكبيرة الموجودة في محلة « المعلا » وهو محاط بجدار مربع ليس فيه ما يلفت النظر سوى حجر

حفرت عليه آية الكرسي بخط كوفي . وعلى مسافة غير بعيدة من هذا القبر كان هناك قبر آمنة والدة النبي (ص) . وكان مغطى بحجر حفرت فيه بعض الآيات القرآنية بخط كوفي قديم . ومما يذكره عن هذه المقبرة أنه وجد في نهاية كل قبر من قبورها تقريباً نباتاً من نباتات (الصبر) قد زرع ليدل على الصبر الذي يجب ان يتحلى به الموتى قبل ان يبعثوا في يوم المحشر .

وهناك أماكن كثيرة أخرى خارج مكة يأتي بورخارت على ذكرها ويشير الى قداستها . فيذكر أولاً جبل أبي قبيس الذي يقول انه من أعلى الجبال المحيطة بمكة ، وهو يسيطر عليها من جهة الشرق . وهناك قمتان فيه يزورهما الحجاج في العادة ، تسمى احداهما « مكان الحجر » والأخرى تقع عبر واد ضيق على مسافة قصيرة من مكان الحجر وتسمى « مكان شق القمر » ، اي المكان الذي يقال ان معجزة شق القمر قد وقعت فيه بعد ان ابتهل النبي الأعظم لله من أجلها لتؤمن به قريش . لكن بورخارت يقول ، بعد ان يذكر تفصيلات المعجزة ان هذه لا تستند على رواية صحيحة أو حديث نبوي مسند . ويقول كذلك ان هذه القصص وغيرها مما يختص ببعض الأماكن يلفقها المكيون لابتزاز المال من الحجاج . لكنه يذكر ان مكان شق القمر يخرج اليه أهل مكة عادة لرؤية الهلال في الأوقات المطلوبة .

ويأتي بورخارت كذلك غلى ذكر « جبل النور » الذي يقع في شمال مكة . فيصفه ويقول ان الصعود الى قمته يستغرق ثلاثة أرباع الساعة ، وهناك يجد الصاعد قبة صغيرة هدمها الوهابيون يوجد في ساحتها شق في الأرض . والمقول ان النبي صعد الى هذا المكان يوماً بعد ان ضايقته قريش ، وقال له أتباعه المشككون ان الله سبحانه وتعالى قد تخلى عنه . فاختلى فيه وأخذ يناجي الله مبتهلاً مستنجداً فنزل عليه جبرائيل بالآية الكريمة « ألم نشرح لك صدرك .. » ، وعلى مسافة قصيرة من اسفل هذا المكان يوجد « غار حراء » الذي نزلت فيه عل النبي (ص) عدة سور قرآنية .

وبعد هذا يشير بورخارت الى « جبل ثور » الذي يقع على مسيرة ساعة

ونصف من جنوبي مكة ، الى يسار الطريق المؤدي الى قرية الحسينية . وهو جبل شاهق توجد فوق قمته مغارة التجأ اليها النبي وأبو بكر قبل ان يهاجرا الى المدينة حينما أخذت قريش في مكة تضيق الخناق ، وتشدد فيه ، على محمد (ص) وأتباعه .

الكعبة

تفتح الكعبة ، على ما يذكر بورخارت ، ثلاث مرات في السنة فقط : في اليوم العشرين من رمضان ، واليوم الخامس عشر من ذي القعدة ، والعاشر من محرم الحرام . ويتم ذلك عادةً بعد طلوع الشمس بساعة واحدة ، بنصب سلم فيما يقرب من الباب الكبير ، وحالما يتم ذلك تتدفق عليه جموع المسلمين المحتشدة في أسفله وسرعان ما تمتلىء بهم داخلية الكعبة نفسها . ويتحتم على الداخل ان يصلي ثمان ركعات ، باعتبار ركعتين اثنتين في كل ركن من أركانها ، وان يبتهل بقرب أحد الجدران فيرتل بعض الأدعية والكلمات وهو يضغط بوجهه عليه . لكن ذلك يتم في العادة بكثير من النحيب وذرف الدموع ، وينطوي على شيء غير يسير من التوبة والابتهال بغفران الذنوب . ويقول بورخارت أنه لم يستطع البقاء هناك أكثر من خمس دقائق لأن حرارة المكان كانت مرتفعة بحيث لم يحتملها ، وأوشك ان يخر مغشياً عليه منها .

لكنه يقول ان الشريف يجلس عادةً في المدخل ومفتاح الفضة بيده ، يعرضه على الحجاج للتقبيل ودفع الرسم المطلوب عند الخروج . ويقدم الحجاج بعض المال الى الطواشي الذي يجلس بقرب الشريف كذلك . وتبقى الكعبة مفتوحة الى الساعة الحادية عشرة تقريباً ، ثم تفتح في الثاني للنساء . ويعقب زيارة داخل الكعبة الطواف حولها من الخارج أيضاً .

وبعد ان يصف بورخارت داخلية الكعبة واستارها بما هو معروف يقول ان زيارتها لا تشكل واجباً دينياً على الحجاج الذين يغادر مكة كثيرون

منهم من دون ان يفعلوا ذلك. وقد زارها هو مرتين، في يومي ١٥ ذي القعدة وعشرة محرم الحرام، فشاهد في المرة الأخيرة ان الستائر الجديدة التي بعث بها محمد علي باشا من القاهرة قد علقت، فكان قماشها ثميناً ونسجها أدق من نسج الكسوة السوداء التي تغطي الكعبة من الخارج. اما الستائر القديمة التي كان قد مر عليها أكثر من عشرين سنة، فقد بيعت علناً للمتدينين المتمكنين بسعر ريال واحد لكل قطعة مساحتها ست بوصات مربعة. وهناك مخزن خاص في مقابل باب السلام تباع فيه هذه القطع مع قطع الكسوة الخارجية كذلك. وقد وجد بورخارت ان ستراً كانت تصنع من قماش الكسوة، كما وجد في نفس المخزن الذي تباع فيه قطع الكسوة رسوم مكة والمدينة مرسومةً فوق الأقمشة وعلى قطع من الأخشاب فاشترى منها كما اشترى عدداً من قناني ماء زمزم.

ملاحظات حول سكان مكة

يلاحظ في رحلة بورخارت التفصيلية انه يخصص ما يزيد على سبعين صفحة[1] منها للتحدث عن سكان مكة وطبقاتهم وطباعهم، مع احوالهم الاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك. وسوف اوردها خلاصة مختصرة جداً عن ذلك.

فهو يقول اولاً ان سكان مكة يمكن ان يقال عنهم كلهم انهم غرباء وأجانب عنها. لان قبائل قريش الأصلية التي كانت تسكنها قد تفتتت وهاجرت الى الخارج بحيث لم يبق لها ذكر يعتد به في مكة. على ان محيط مكة وما جاوره ما زال يوجد فيه البعض من تلك القبائل البدوية على الأخص. وقد كانت توجد في مكة على أيام بورخارت ثلاث أسر قرشية معروفة فقط، وكان يرأس إحداها نائب الحرم. اما أكثر طبقات السكان فقد كانوا من أهالي اليمن وحضرموت، وكان يليهم في العدد أبناء الهنود المستوطنين

---

(١) الص ٣٢٩ — ٤٠٤.

والمصريين والسوريين والمغاربة والاتراك. وكان هناك أيضاً مكيون من أصل أيراني وتاتاري وبخاري وكردي وأفغاني، ومن كل بلد مسلم آخر تقريباً.

على ان أقدم السلالات المكية التي بقيت في مكة كذلك هي سلالة الشرفاء الاصليين، الذين ينتمون الى الدوحتين الحسنية والحسينية من ابناء الأمام علي بن أبي طالب عليه السلام. ثم يأتي بورخارت على وصف أنواع الشرفاء في داخل الحجاز وخارجه، ويقول ان تقاسيم الشرفاء في مكة هي تقاسيم جميلة مقبولة تقارب تقاسيم البدو في شكلها ولا سيما في الوجه والعيون والأنف الأقنى.

وبعد ان يصف لباس المكيين بالتفصيل يقول أنّ معظم الأسر المتوسطة والمتمكنة تقتني العبيد. ويذكر بالمناسبة ان النبي محمداً (ص) وجد تجارة العبيد الأفريقيين مستحكمة في بلاد العرب بحيث لم يبذل جهداً لألغائها. وبذلك ساعد على انتشارها وامتدادها الى الشمال الأفريقي بجميع ما كان يصحبها من قسوة وتعذيب. والظاهر ان المستر بورخارت غير مطلع على مقدار الجهد الذي بذله الأسلام والمسلمون في مختلف الادوار التاريخية من أجل تحديد الرق وتقليصه، وأكسابه الصفة الأنسانية التي لم يكن يحلم بها الغربيون انفسهم، الذين بقي الرق معروفاً عندهم بأبشع صوره في انكلترة وفرنسة وغيرهما الى ما قبل مدة من الزمن. ولا نرانا نحاجة الى ذكر ما تنص عليه التعاليم الأسلامية في هذا الشأن. ولا سيما بالنسبة للعتق والاعتراف بنسل النساء العبيد، وأباحة الزواج وما أشبه.

ويتطرق بعد ذلك الى اقتناء الجواري الحبشيات وتزوجهن عند الحاجة، ويقول في هذه الاثناء انه علم من الحلاقين والأطباء وباعة الادوية في مكة ان عادة الأجهاض منتشرة فيها، وأن الناس يستعملون لهذا الغرض بذور البلسم المكي المعروف.

وبعد ان يصف حالة مكـة الاقتصادية بأسهاب ، ويشير الى مقدار الثروة التي يصبها الحجاج فيها كل سنة ، يتطرق الى ذكر الشرور المنتشرة بين المكيين ومنها شرب المشروبات الروحية . وهو يقول [1] في هذا الشأن ان قدسية المدينة المقدسة ، وتعاليم الأسلام الرصينة ليس بوسعها ان تحول دون أقدام المكيين على تناول المشروبات الروحية ، والانهماك بما يتعلق بها من موبقات السكر . فان الأسطول الهندي (البريطاني بطبيعة الحال) يستورد دائماً الى الحجاز كميات كبيرة من العرق في براميل . ويباع هذا الكحول ، بعد خلطه بالسكر وخلاصة الدارحيني ، باسم «ماء الدارحيني» ، ويعتاد الشرفاء في مكة وجدة ، فضلاً عن التجار الكبار والعلماء وجميع الناس المرموقين ، على تناول هذا المشروب الذي يقنعون انفسهم بكونه غير محرم لأنه ليس بخمر ولا «براندي» . لكن الناس غير الاثرياء لا يستطيعون شراء مثل هذا المشروب الغالي ، وأنما يتناولون مشروباً مخمراً يصنع من زبيب الطائف ، بينما تشرب الطبقات الفقيرة البوزة . ويقول بورخارت كذلك انه لاحظ خلال مدة وجوده في الطائف ان تركياً من حاشية الخديوي محمد علي باشا كان يستقطر البراندي من العنب ويبيعه على ملأ من الناس بسعر اربعين قرشاً للقنينة الواحدة .

وحينما يكتب بورخارت عن مصرف المكاويين الباذخ يقول ان من بين الاشياء التي ينفقون عليها عادةً كثيراً من المال شراء الحبشيات اللواتي يحتفظ بهن الرجال للمتعة ، او الصرف على البغايا المتيسرات بكثرة . ثم يتطرق الى ذكر ما يقترفه المكيون ، وهو آسف ، من أشد انواع الفساد والفجور كل يوم حتى في داخل الحرم الشريف وهو اقدس مكان عند المسلمين . وهو يسهب في ذكر ذلك ، على اننا لا نعرف مقدار الصحة في كلامه ونستهجن ان يعمد رجل مثله الى ذكر هذه السقطات ان وجدت

---

(١) الص ٣٦١ ، ج ١ .

فعلاً . لكنه يقول ان هذا موجود في معظم المدن الآسيوية ، وفي مصر على عهد المماليك . على انه يقول كذلك ان المجتمعات البدوية لا تعرف مثل هذا الفساد . ويتطرق بعد ذلك الى ذكر المشروبات الروحية ايضاً ، والى بيعها حتى بالقرب من المسجد الحرام ، كما يتطرق الى تدخين « الحشيش » علناً ولعب الورق في كل مقهى من المقاهي العربية على ما يقول ، برغم المنع الموجود في القران الكريم لجميع انواع القمار .

على انه مع جميع ما يذكره من السيئات يشير الى الصفات الحسنة عند المكيين كذلك مثل السخاء والكرم ، ومحبة الغريب ومساعدته ، والامتناع عن السرقة والغش .

هذا ويتطرق بورخارت الى الناحية العلمية من ناحية مكة ايضاً ، فيقول ان العلم وتعلمه لا يمكن ان يؤمل ازدهارهما في مكان يفكر فيه الجميع بالحصول على الربح والمغنم أو الجنة . وهو يعتقد ان مكة في يومه ذاك لم تكن في مستوى البلاد الاسلامية الاخرى من هذه الناحية ، وحتى من ناحية العلوم الدينية . ويروي عن الفاسي المؤرخ ان مكة كان فيها إحدى عشرة مدرسة في ايامه ، بجانب عدد من الرباطات وغيرها . بينما لم تكن توجد ولا مدرسة واحدة تلقى فيها المحاضرات على ما يقول ، وليس فيها مكتبة عامة ملحقة بالحرم الشريف أيضاً . ومع عدم اهتمام المكيين بالكتب والتعلم فأن لغة مكة ، على ما يقول بورخارت ، ما تزال اكثر نقاءً ورقة في اللفظ والتركيب ، من لغة أي مكان آخر يتكلم أهله العربية في العالم . فهي تقرب من العربية القديمة المدونة ، وخالية من التحريف والاعوجاج . وهو لا يعتقد ان اللغة العربية كانت آخذة بالانحطاط يومذاك .

ولا ينسى الموسيقى العربية التي يقول أنها لا تمارس في مكة كما تمارس في غيرها من البلاد العربية ولاسيما في مصر وسورية . وليس هناك من الآلة سوى الربابة والناي والطنبور . ولم يسمع الاذان وهو يردد من فوق المنائر في مكة بمثل التأثير الذي يحدثه خلال الليل في مصر وسورية . ويذكر بالمناسبة

ان الشريف كانت له في مكة جوقة موسيقية خاصة ، مثل جوقة الباشوات ، تعزف على بابه مرتين في اليوم . كما يذكر ان المغنيات المحترفات يحضرن في حفلات الاعراس فيغنين بأصوات رخيمة رقيقة ويرقصن . وقد سمع من المكيين ان الغناء كان يسمع خلال الليل في كل شارع قبل استيلاء الوهابيين الأول على مكة .

حكومة مكة والشرفاء

كانت مكة والطائف وقنفدة وينبع على ما يقول بورخارت تابعة لشريف مكة قبل ان يحتلها الوهابيون ، والمصريون من بعدهم ، في اوائل القرن التاسع عشر . وقد مدد الشريف نفوذه الى جدة ، لكنها بقيت منفصلة عن ممتلكاته اسمياً لأنها كان يحكم فيها باشا ينتدب لحكمها من استانبول فيقتسم وارداتها مع الشريف . وكان الشريف يتربع على دست الحكم في مكة بالقوة عادةً ، او بنفوذه الشخصي وموافقة أسر الشرفاء القوية ، ثم يحكم باسم السلطان الذي يؤيد في العادة من يستطيع الحصول على المنصب . ولذلك كان الشريف في كل سنة يتلقى خلعة السلطان الواردة من استانبول بصحبة القفطانجي باشي ، فيعد في مقدمة باشوات الامبراطورية . وحينما كانت سلطة الباشوات في جدة تصبح شيئاً اسمياً فقط ، ويكون المسؤولون في الباب العالي عاجزين عن تجهيز جيوش كبيرة تصحب موكب الحج المتوجه في كل سنة الى الحجاز ، كان شرفاء مكة الحاكمون يصبحون مستقلين غير عابئين بالاوامر التي كانت تصدر لهم من استانبول ، برغم احتفاظهم بلقب خدام السلطان وتسلمهم الخلعة السنوية واعترافهم بالقاضي الذي كانت تعينه استانبول . غير ان محمد علي باشا استعاد سلطة العثمانيين على الحجاز كلها ، واغتصب السلطة من الشرفاء .

ويعلق بورخارت في حاشية[1] له على ذلك بقوله ان حكومة الحجاز كثيراً ما كانت تكون موضع نزاع بين خلفاء بغداد وسلاطين مصر وأئمة اليمن . فقد كان شرف امتلاك البلاد المقدسة ، ولو بصورة اسمية ، هو الذي تتنافس عليه الجهات المختلفة برغم التكاليف الباهظة التي كانت تصحب ذلك في كثير من الاحيان . وجل ما كانت تحصل عليه هو حق تجهيز الكسوة للكعبة ، وذكر الأسم في صلاة الجمعة في المسجد الحرام . ولقد انتقل النفوذ الذي كانت تمارسه مصر على مكة في هذا الشأن منذ بداية القرن الخامس عشر للميلاد الى سلاطين آل عثمان في استانبول بعد ان استولى السلطان سليم الأول على مصر نفسها .

وبعد ان يأتي بورخارت على تاريخ الكثيرين من الشرفاء واعمالهم ، ولا سيما الشريف سرور والشريف غالب ، يبدأ بوصف لباسهم ومواكبهم عند الخروج للصلاة وغيرها ، ويذكر بالمناسبة ان الوهابيين حينما احتلوا مكة أجبروا الشريف على الخروج ماشياً الى المسجد الحرام في أوقات الصلاة بحجة ان الركوب والفخفخة لا يناسبان الخشوع والورع الذي يجب ان يبديه الحاج او المصلي بجوار الكعبة ، ولكن الشريف غالباً حينما كان يمسك حكومة مكة بيدٍ من حديد كان يجبر الباشوات المرافقين لموكب الحج على الاعتراف بأقدميته في جميع المناسبات . وقد أشاع في أنحاء الحجاز بأنه كان أعلى من أي موظف في الباب العالي ، وحتى السلطان نفسه في استانبول كان يجب عليه ان ينهض له ويحييه .

وقد كان من عادة الشرفاء المقيمين في مكة منذ القدم ان يبعثوا بأولادهم الذكور للعيش والنشوء بين القبائل البدوية خارج مكة ، منذ اليوم الثامن لولادتهم ، ويبقوا هناك مدةً تقارب العشر سنوات او حتى يكون بوسعيهم ركوب الخيل والجياد . ولا يؤتى بالولد الى اهله خلال تلك المدة ، الا بعد

---

(١) الص ٤٠٥ ، ج ١ .

ان يبلغ الشهر السادس من عمره ليروه . وليس هناك رجل من الشرفاء ، فقيراً كان أم غنياً ، لم يقض طفولته او ينشأ بين القبائل البدوية مدة من الزمن . وقد كان من المعتاد ان ينشأ أبناء الشرفاء الحاكمين عند قبيلة عدوان المعروفة ببسالتها وسخاء أبنائها . وكان عثمان المضايفي ، الرئيس الوهابي الذي استخدمه الأمير سعود في إخضاع الحجاز من شيوخ هذه القبيلة بالذات ، فتزوج الشريف غالب أخته . اما الشرفاء الآخرون فقد كان أبناؤهم ينشأون في مضارب هذيل وثقيف وبني سعد وحرب وغيرهم . ويقول بورخارت ان الشرفاء يحصلون على الكثير من الفوائد عندما ينشأون هذه النشأة البدوية الخالصة ، فهم لا يحصلون على بنية قوية وحسب وانما يحصلون أيضاً على شيء غير يسير من النشاط والحرية في التصرف والشجاعة التي يعرف بها أبناء البادية ، علاوة على الاهتمام الزائد الذي يولونه للسخاء والضيافة والايمان بالعقيدة الحقة .

غير ان بورخارت يقول ان المكيين يشككون كثيراً في نزاهة الشرفاء واستقامتهم ، ثم يذكر ان القسم الأعظم من شرفاء مكة نفسها وخاصة الشرفاء الحاكمين من ذوي زيد يحتمل جداً ان يكونوا من الزيدية الذين يكثر أتباعهم في اليمن ولا سيما في جبال صعدة ، لكن الشرفاء يكذبون ذلك ويتمسكون بالمذهب الشافعي الذي يتمذهب به سكان مكة معظمهم ، أما الشرفاء المقيمون في الخارج فلا ينكرون ذلك . ويعتقد بورخارت ان الزيود ينقسمون الى فرق مختلفة ، ويرجع زيود مكة واليمن الى مؤسس المذهب الامام الهادي الى الحق يحيى بن الحسين الذي يرجع بنسبه الى الامام الحسن ابن علي عليه السلام . وكان قد ولد في الرص من أعمال القصيم في سنة ٢٤٥ هـ ، وأعلن عقيدته لأول مرة في صعدة باليمن سنة ٢٨٠ هـ ، فحارب العباسيين واستولى على صنعاء ، ثم أخرج منها . وحارب القرامطة فمات مسموماً في صعدة سنة ٢٩٨هـ . وهناك من يرجع نسب الزيدية الى زيد بن علي زين العابدين ، الذي قتل في الكوفة سنة ١٢١ للهجرة بأمر من هشام بن عبد الملك الأموي .

ويتطرق بورخارت الى ذكر القاضي الذي كانت العادة ان يتعين من استانبول ، فيقول ان الأباطرة العثمانيين كانوا يتوخون من ذلك الحيلولة دون استبداد الشرفاء بالناس والتأثير على شؤونهم العدلية . غير انه يذكر ان الناحية العملية تجعل ذلك شيئاً غير ممكن ، فان القاضي لا بد من ان يخضع للحاكم المحلي الذي يترك للحكم كما يشاء بشرط ان يبعث الواردات المطلوبة منه الى الباب العالي . ولذلك لم يكن بوسع الفرد ان يحصل على حقوقه في المحاكم ما لم تدعمه الحكومة أو يدفع رشوة الى المسؤولين . وعلى هذا فان وظيفة القاضي لم تكن تمنح الا بالبيع لأعلى المتزايدين على ان يكون مفهوماً بأنه يُسمح له بأن يعوض ما دفعه الى المسؤولين خلال مدة عمله .

ويتأتى دخل الشريف في الغالب عن رسوم الكمارك التي تدفع في جدة ، وكانت هذه تقسم بينه وبين الباشا التركي فيها ، ثم تسنى للشرفاء المتأخرين قبل استيلاء محمد علي باشا على الحجاز ان يستأثروا بها كلها حتى جاء الخديوي المذكور فصارت تؤخذ اليه بأجمعها . ويقال ان الشريف غالباً حينما استقل بالحكم وعظمت سطوته كانت عنده ثماني سفن كبيرة تشتغل في تجارة البن ما بين اليمن وجدة والموانيء المصرية ، وحينما كان يجد صعوبة في بيع ما عنده من هذه السلعة كان يجبر التجار على شراء شحناته منها بسعر السوق . كما كانت اثنتان من سفنه الكبيرة تقوم كل منهما بسفرة سنوية الى جزر الهند الشرقية ، وكانت السلع التي تأتي منها تباع الى الحجاج في مكة أو يشتريها تجار جدة مقاسمةً بالقوة . هذا فضلاً عن سائر الرسوم التي كانت تفرض على المأكولات والحيوانات وما أشبه . ولذلك كانت الواردات السنوية تبلغ في أيام الشريف غالب في مكة حوالي ثلاث مئة وخمسين ألف باون استرليني .

الحج

وفي الجزء الثاني من رحلته [1]، يخصص المستر بورخارت فصلاً

---

(١) الص ١ — ٨٧ ، الجزء الثاني من الرحلة .

كبيراً للحج ومناسكه وجميع ما يختص به من شؤون . وأول ما يبدأ به هو الاشارة الى ان المسلمين قد قلت حماستهم لتأدية الواجبات الدينية المفروضة عليهم في تلك الأيام ، ومن جملتها الحج الذي أصبحت تكاليفه الباهظة على الكثيرين من المسلمين تحول دون تجشمهم المصاعب من أجله . وصار قسم كبير منهم ينيب غيره للحج عنه بالأجرة ، إذا لم يترك الأمر بالكلية أو يماطل به .

ويشير بعد ذلك الى ان عدداً غير يسير من المسلمين كانوا قد وصلوا الى مكة قبل موعد الحج بثلاثة أو أربعة أشهر ، لأن تقضية رمضان المبارك في البلد المقدس فيه كثير من الأجر والثواب . ثم يأخذ بوصف مواكب الحجاج وقوافلهم التي تأتي من البلاد الاسلامية المشهورة ، ولا سيما سورية ومصر . فيقول ان موكب الحج القادم من سورية كان على الدوام من أقوى المواكب ، منذ كان الخلفاء يصحبون الحجاج بأنفسهم من بغداد . ويبدأ الموكب الشامي في العادة بالتحرك من الأستانة فيجمع في طريقه حجاج المدن والبلاد الأناضولية والسورية حتى يصل الى دمشق الشام ، حيث يمكث عدة أسابيع . وفي خلال الطريق الممتد من الأستانة الى الشام كله تؤخذ التدابير اللازمة للمحافظة على سلامة القوافل وما فيها من حجاج ، وتصحب الموكب من بلدة الى أخرى قوات مسلحة يجهزها الحكام المسؤولون . وفي كل محطة أو خان كان يجد الحجاج البرك والأحواض العامة من الماء التي كان السلاطين القدماء قد أنشأوها لراحتهم والعناية بهم ، ويقابلون بمظاهر البهجة والفرح في كل مكان . وقد كان كل موكب من مواكب الحج يضم عدداً كبيراً من الحيوانات ، لا سيما الابل ، برغم العدد القليل من الحجاج الذين كانوا ينضمون الى الموكب في بعض الأحيان . ففي ١٨١٤ لم يكن عدد الحجاج في الموكب الشامي ليزيد على خمسة آلاف حاج على ما يقول بورخارت ، لكن عدد الابل كان يبلغ خمسة عشر ألف بعير . وهنا يذكر في الحاشية بعض الروايات التاريخية المنّسبة ، فيقول نقلاً عن الفاسي المؤرخ أن والدة

المستعصم بالله ، آخر خلفاء بني العباس ، حجت سنة ٦٣١ ﻫ وكانت قافلتها تتألف من مئة وعشرين ألف بعير . وحينما حج سليمان بن عبد الملك الأموي سنة ٩٧ ﻫ استخدم تسع مئة بعير لنقل لوازمه وأغراضه فقط . ثم يذكر علاوةً على ذلك ان الخليفة المهدي صرف حينما حج في سنة ١٦٠ ﻫ ثلاثين مليون درهم ، كما أخذ أبو المعالي الملك الناصر سلطان مصر حينما حج في سنة ٧١٩ ﻫ خمس مئة بعير لحمل الحلويات وبعض الأطعمة فقط ، مع مئتين وثمانين بعيراً لحمل الرمان واللوز وسائر الفواكه . وكان في جملة ما أخذه للأكل ألف وزة وثلاثة آلاف دجاجة . هكذا جاءت رواية بورخات عن المقريزي ، لكننا حينما رجعنا الى النص الأصلي [1] وجدناه يقول (.. وجهز من الشام خمس مئة جمل تحمل الحلوى واالسكر وانات والفواكه ، وحضرت أيضاً حوائج خاناه على مائة وثمانين جملاً تحمل الحب رمان واللوز وما يحتاج اليه المطبخ ، سوى ما حُمل من الحوائج خاناه من القاهرة ، وجهز الف طائر أوز وثلاثة آلاف طائر دجاج) .

وكان الموكب الشامي على انتظام تام في سيره وسائر شؤونه ، فان باشا الشام او من ينيبه من ضباط كان يرأسه على الدوام ، فيعطي الاشارة في الحل والترحال باطلاق الرصاص . وتتقدم الموكب في الطريق ثلة من الخيالة ، كما تسير خلفه ثلة أخرى لرعاية المتخلفين . ويجتمع في ضمن الموكب الحجاج القادمون من المدن المختلفة في جماعات تسير سويةً على طول الطريق . ويتعاقد الحجاج عادةً مع أحد المقومين وهو يتعهد بتجهيز الدابة الى الحاج مع سائر ما يحتاج اليه خلال السفر . ولذلك يلاحظ كل عشرين او ثلاثين حاجاً مع مقومهم الخاص الذي يهيء لهم الخيم ويجهز الخدم فيوفر على الحجاج

---

(١) الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تأليف تقي الدين علي بن أحمد المقريزي ، الص ١٠٢ .

أتعاب السفر . ولا سيما بتحضيره شؤون الطعام والقهوة والماء وما أشبه لهم . ولقد كانت أجرة الحاج عند المقوم في ١٨١٤ مع أعاشته تبلغ مئـــة وخمسين ريالاً من دمشق الى المدينة . وخمسين ريالاً من المدينة الى مكة .

وكانت تشعل المشاعل في الليل . وتقطع المسافات اليومية ما بين الثالثة بعد الظهر وبعد مرور ساعة او ساعتين على موعد طلوع الشمس من اليوم التالي . لكن البدو الذين يحملون الذخيرة يسيرون خلال الليل فقط متقدمين القافلة . وكان يوجد في المحطات التي تتزود فيها القافلة بالماء حصن كبير مع حوض واسع من الماء ترد منه الجمال . وكانت ترابط في كل حصن حامية تتألف من عدد قليل من الجنود الذين يبقون فيها خلال السنة كلها . وفي مثل هذه الحصون كان يلتقي شيوخ البدو بالقوافل فيأخذون الأجور المعتادة . ولا تبعد المحطات بعضها عن بعض أكثر من مسيرة اثنتي عشرة ساعة عادة .

اما قوافل الحجاج المصريين وموكبهم فتسير على نفس النظام الذي تسير عليه القوافل السورية . لكنها نادراً ما تساويها في العدد لأنها تتألف من الحجاج المصريين فقط الى جنب الحرس العسكري . ويكون طريقها على جانبٍ أكبر من الخطر والمشقة . لأن الطريق الممتد على سواحل البحر الأحمر يمر من ديرات قبائل شرسة قوية الشكيمة كثيراً ما تحاول قطع الطريق على القوافل بالقوة . وكان الموكب المصري في ١٨١٤ يتألف من الجند المرافق للمحمل وحاشيته مع بعض الموظفين الرسميين . لأن جميع الحجاج المصريين فضلوا الحج عن طريق السويس وفي ١٨١٦ رافق موكب الحج عدد من وجوه مصر وسراتها . وقد جاء أحدهم بمئة وعشرة جمال لتحمل عفشه وحاشيته . مع ثماني خيم كبيرة . ولا بد من ان تكون نفقات سفره قد بلغت حوالي عشرة آلاف دينار . وكان مع الموكب أيضاً حوالي خمس مئة فلاح مع نسائهم من مصر السفلى . وهؤلاء لا يبالون عادة بمشاق السفر وأخطاره في البادية والبحر الأحمر . والغريب ان بورخارت يقول انه شاهد معهم

جماعة من البغايا والراقصات ، وان خيم اولائي النسوة كانت أجمل خيم الموكب وأكثرها زينةً وتزويقاً .

ويقول بورخارت كذلك ان موكب الحج الايراني الذي كان يخرج من بغداد في سالف الأيام ، فيأتي الى مكة عن طريق نجد . قد انقطع مجيئه حينما أوقف الوهابيون مجيء الموكب الشامي من سورية . وبعد ان عقد الأمير عبد الله بن سعود صلحاً مع طوسون باشا (بن محمد علي) في ١٨١٤ كان العدد القليل من الحجاج الايرانيين القادمين عن طريق البر قد عبروا من بغداد الى الشام وساروا مع الموكب الشامي بصحبة عكامين من بغداد . ومن الجدير بالذكر ، على ما يقول بورخارت ، ان الايرانيين لم يكن يسمح لهم على الدوام ان يأتوا الى مكة . فبعد ان أُعيد بناء الحرم الشريف في ١٦٣٤ أمر السلطان مراد الرابع بأن لا يسمح لأي ايراني من « شيعة علي » بتأدية الحج او الدخول الى بيت الله الحرام . فبقي التحريم سارياً عدة سنوات . غير ان المال الذي بذله الايرانيون سرعان ما فتح الطريق أمامهم الى الكعبة وعرفات .

وقد توقف مجيء الموكب المغربي للحجاج مدة سنين عديدة ، وأصبح قدومهم على دون هدى او انتظام . وكان من المعتاد أن يرأس الموكب قريب من أقرباء ملك مراكش ، فيسير مسيرات بطيئة نحو تونس وطرابلس ويجمع الحجاج في طريقه من كل منطقة . ويسلك هذا الموكب من طرابلس الطريق الممتد على ساحل البحر الى درنة ، ومن هناك يسير مع الساحل المصري الى القاهرة عن طريق الاسكندرية . ولا يرافق هذا الموكب الا عدد قليل من الجند لأن الحجاج يكونون مسلحين تسليحاً حسناً في العادة . ويقول بورخارت انه شاهد مع هذا الموكب جماعة صغيرة من عرب دراع النازلين جنوبي شرقي جبال الأطلس ، وكان أحدهم من بدو الشلوح الذين كانت منازلهم حينما تركهم تقع على مسيرة عشرين يوماً من تمبكتو . ويوجد مع موكب الحجاج المغاربة عادةً أناس من أهالي جزيرة جربا الذين يعتقد أنهم شيعة من

الامام علي كما يقول بورخارت . وكثيراً ما يبقى البعض من هؤلاء في القاهرة حيث يسكنون في حارة تسمى تيلون Teyloun . والمعتقد ان عدد حجاج المغرب كان يبلغ حوالي ألفي حاج في تلك الأيام .

وكان يأتي من اليمن موكبان للحج عن طريق البر من قبل ، وكان أحدهما ، ويسمى الكبسي ، يتحرك من صعدة فيسير في المناطق الجبلية الى الطائف ومنها الى مكة . اما الموكب الثاني فقد كان يتألف من حجاج يمانيين مع حجاج ايرانيين وهنود يصلون في العادة الى موانيء اليمن . وقد أبطل هذا الحج في ١٨٠٣ ، بعد ان كان من المواكب الغنية بالسلع المختلفة والبن ، وبعد ان كان يرأسه أئمة اليمن . وقد كان لهذا الموكب ، كما كان لغيره ، مكان خاص في مكة المكرمة ينزل فيه ، وقد خصص له حوض حجري كبير للماء .

ويذكر بورخارت في هذا الشأن أن كثيراً من الحجاج الأتراك كانوا يأتون بجماعات عن طريق مصر في أواخر عهد المماليك ، حينما كانوا يسيطرون على مصر العليا فقط بينما كان محمد علي باشا يسيطر على مصر السفلى . وكثيراً ما كان هؤلاء المماليك يعتدون على الحجاج الأتراك ويرتكبون أنواع الفظاعات تجاههم ، ومن جملة ما يذكر ان وحشاً يونانياً من أصل يهودي يدعى حسن بك اليهودي كان يشتغل مع المماليك ، وكان يفتخر بأنه قتل وحده حوالي خمس مئة من أولئك الحجاج المساكين . وكانت هذه المذابح الوحشية هي التي قدمت للخديوي محمد علي باشا حجةً للغدر بالمماليك والقضاء عليهم في قلعة القاهرة المعروفة .

أما الحجاج الباقون فيأتون الى مكة عن طريق البحر من اليمن وجزر الهند الشرقية ، وهؤلاء هم مسلمو الهند وكشمير وكجران والايرانيون القادمون عن طريق الخليج والعرب من البصرة ومسقط وعمان وحضرموت فضلاً عن القادمين من سواحل مليندا وومومباسا الذين يطلق عليهم « السواحليون » ويأتي مسلمو الحبشة وسائر بلاد العبيد بالطريق نفسها كذلك .

ويلاحظ من بعض ما يكتبه بورخارت في الرحلة انه ربما كانت له علاقة بالاستخبارات البريطانية في تلك الأيام . فهو يقول ان وصول الغرباء من جميع أنحاء العالم الاسلامي ، أي من تمبكتو الى سمرقند ومن بلاد الكرج الى بورنيو ، تجعل جدة مكاناً ممتازاً جداً للأوربي المسافر المعني بجمع الأخبار وحب الاستطلاع . فهو بتقديمه المساعدة للحجاج الفقراء ، وصرف مبالغ زهيدة لتجهيزهم بالمؤن ، يمكنه ان يجتذب اليه عدداً كبيراً فيستطيع بهذه الوسيلة جمع معلومات كثيرة تختص بأبعد البلاد المعروفة في أفريقية وآسية .

ثم يصف بورخارت وصول الموكبين الشامي والمصري ، ويذكر بمناسبة وصول الموكب المصري ان محمد علي باشا كان مقيماً في الطائف يومذاك ، للاشراف على الحملة المصرية المجردة ضد الوهابيين ، وقد وصل لتفتيش القوة التي وصلت مع المحمل فسُرّ بها لأنها زادت في أمله بالتغلب على الوهابيين . وهو يقول ان محمد علي كان يلف جسمه بأقمشة الأحرام الجميلة المصنوعة من الشال الكشميري ، لكن أحد الضباط كان يحمل فوق رأسه (رأس محمد علي) شمسية تقيه حر الشمس في أثناء سيره .

ويأخذ بورخارت بوصف مناسك الحج بالتفصيل ، مما أتينا عليه قبل هذا في هذا المبحث في مناسبات عدة من قبل . على أننا لا بد من ان نذكر هنا انه قدر عدد الحجاج الذين وقفوا في عرفات (سنة ١٨١٤) بسبعين ألف حاج . وقد كان مخيم الحجاج هناك يبلغ طوله بين ثلاثة وأربعة أميال ، وعرضه حوالي الميلين . وهو يقول في هذا الشأن أنه ليس هناك على وجه الأرض بقعة في مثل هذا الحجم الصغير يقف عليها مثل هذا العدد من الناس الذين يتكلمون بهذا العدد الكبير من اللغات واللهجات . ويقول كذلك أنه شخصياً لاحظ وجود أربعين لغة بين الحجاج ، وأنه كان هناك عدد آخر من اللغات الأخرى بطبيعة الحال . ويذكر بمناسبة ذكر المحمل المصري نقلاً عن المقريزي ان الظاهر بيبرز البندقداري سلطان مصر كان أول من بعث بالمحمل سنة ٦٧٠ للهجرة . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً أخذ سلاطين

المسلمين الذين يبعثون بمواكب الحج الى مكة المكرمة يعتزون بارسال محمل من عندهم ويعتبرون ذلك دليلاً حياً على ولائهم للاسلام والمسلمين . فجاء أول محمل من اليمن في ٩٨٠ هـ ، وفي ١٠٤٩ هـ جاء المؤيد بالله امام اليمن الزيدي وملكها مع المحمل بنفسه الى عرفات . كما كانت المواكب القادمة من بغداد ودمشق والقاهرة يأتي كل منها بمحمله الخاص من قبل . وقد جيء في سنة ٧٣٠ هـ بمحمل بغداد محملاً على فيل خاص الى عرفات .

ويقول بورخارت في آخر بحثه عن الحج ان بعض الحجاج كانوا يتوقون الى الحصول على لقب « خادم المسجد » الذي يمكن الحصول عليه بعد دفع حوالي ثلاثين ريالاً . إذ تعطى لقاء ذلك ورقة تنص على منح الحاج اللقب يوقعها الشريف والقاضي . وقد يستطيع في بعض الأحيان حتى النصارى الحصول على امتياز « خدام المسجد » ، وهذا ما يحاول الحصول عليه بوجه خاص سكان جزر الأرخبيل اليوناني لأنهم عندما يصادف وقوعهم في أيدي القراصنة من المغاربة الذين يعترف أشدهم بأساً وقوة بهذه الشهادة يستطيعون التخلص منهم . ويذكر بورخارت أنه شاهد قبطاناً يونانياً حصل على مثل هذه الشهادة بعد ان دفع ما يقرب من مئتي ريال لقاءها . فقد كان يقود سفينة من سفن محمد علي باشا وهو في طريقه الى بلاده ، فوجده مطمئناً جد الاطمئنان لأنه يستطيع بهذه الشهادة أن يقود أية سفينة كانت من دون ان يخشى خطر القراصنة المغاربة عليها . ولقد كان هذا اللقب في قديم الزمان له أهمية كبيرة ، لكنه لم تعد له في أيام زيارة بورخارت للحجاز أهمية تذكر .

السر ريتشارد بورتون

واذا كان المستر بورخارت لم يستطع في بعض الأحيان القيام بجميع مناسك الحج وتفاصيله على الوجه الأكمل ، فقد استطاع السر ريتشارد بورتون ان يفعل ذلك بعده بأربعين سنة من دون أن يكتشف أمره على الاطلاق . وكان الفضل في ذلك يعود الى اتقانه التخفي ، بعد ان تعلم العربية

والفارسية والتركية . واتقن تعلم الفروض الدينية المعروفة عند المسلمين . وقد استعد لذلك قبل ان يقدم على رحلاته المخطرة بأشهر عديدة واتخذ جميع التدابير اللازمة للقيام بمهمته خير قيام ، ومن جملة ذلك أنه عمد الى الاختتان . وهو يومئذ في الثانية والثلاثين من عمره . وقد جرب علاوة على ذلك تأثيرات الصبغات المختلفة في جلده ومظهره . وتعلم التنعيل واستعمال الرمح وما أشبه .

وكان بورتون من موظفي شركة الهند الشرقية. المعروفة. وبعد ان اشتغل عدة سنين في دوائرها في الهند حصل على رخصة طويلة الأمد من الشركة واتصل بالجمعية الجغرافية الملكية في انكلترة لتساعده مالياً في مهمته التي تنطوي على الدخول الى جزيرة العرب والحجاز على الأخص . ثم الوصول الى مكة المكرمة في موسم الحج للكتابة عنها بالتفصيل . فتوفق في ذلك . وبعد ان أكمل الاستعدادات جميعها أبحر من انكلترة الى الاسكندرية في اليوم الثالث من نيسان ١٨٥٣ باسم المرزا عبد الله من بوشهر . ويقول سيتون ديردون مؤلف كتاب « الفارس العربي » [1] أنه قبل ان يتوجه ال مهمته علم أن رحالة انكليزياً يدعى والين Wallin كان قد تمكن من الدخول الى مكة والحج مع الحجاج في ١٨٤٥ . لكنه لم يستطع تدوين شيء عما فعل ورأى لأنه كان خائفاً على حياته وخاصةً بعد ان لاحظ ان اثنين من اليهود قد أكتشف أمرهما في مكة تلك السنة فقتلهما الحجاج الهائجون شنقاً . فقرر ان يستفسر منه عن أشياء كثيرة قبل ان يقدم على الاضطلاع بمهمته . وكتب له بذلك . لكن كتابه لم يصل الى والين الا بعد أن كان قد توفي . ولذلك عمد الى دراسة ما كان قد كتبه بورخارت قبله من تفصيلات فدرسه دراسة مستفيضة . واستعد للرحلة على ضوء ما جاء فيها .

وبعد ان بدل هويته وجنسيته عدة مرات في مصر . وفي الطريق الذي

---

(١) Deardon, Seaton — The Arabian Knight, A Study of Sir Richard Burton, London 1953 الص ٤٢ .

أخذه منها الى ينبع فالمدينة المنورة ، وصل مدينة الرسول سالماً غانماً واستقر فيها باعتباره أحد الحجاج الأفغان . وبعد ان أطلع على ما في المدينة وأماكنها المقدسة توجه مع موكب الحج الشامي الى مكة في يوم ٣١ آب ١٨٥٣ . وبعد ثمانية أيام متعبة وصل الموكب بآلافه السبعة من الناس الى أم القرى . ويقول بورتون عن مكة حينما وصلها لأول مرة انه لم يجد فيها ذلك الجمال الرشيق المتناسق الذي يتجلى في آثار اليونان وايطالية ، ولا الفخامة البربرية المتجلية في أبنية الهند ، ومع هذا فقد كان المنظر غريباً فريداً في بابه بالنسبة اليه . ويقول كذلك « .. ويمكنني أن أقول حقاً انه من بين جميع الحجاج الذين كانوا يتعلقون بأستار الكعبة وهم يبكون ، أو يضغطون بقلوبهم النابضة على الحجر ، لم يكن هناك أحد في تلك اللحظة أشد شعوراً وأطغى عاطفةً من الحاج القادم من بلاد الشمال . فقد بدا لي كأن أساطير العرب الشعرية جميعها كانت تنطق بالصدق ، وكأن أجنحة الملائكة الخفاقة ، وليس نسيم الصبح العذب ، كانت هي التي تحرك الكسوة السوداء التي تجلل الكعبة المقدسة . لكنني لا بد لي من أن اعترف اعترافاً متواضعاً بأن عاطفة أولئك الحجاج المتدفقة كان مبعثها الحماسة الدينية ، أما عاطفتي فقد كان مبعثها نشوة الكبرياء المطمئن . [١] »

وقد كتب السر ريتشارد بورتون هذا عن زيارته الى المدينة ومكة بتفصيل مسهب استغرق مجلدين كبيرين لكن الملاحظ ان الرحالة المومأ اليه كتب عن جميع ما دونه سلفه بورخارت ، ولكن بطريقة مختلفة وتعليقات لا تشبه تعليقات بورخارت في كثير من المناسبات . غير ان الوصف العام لا يختلف عند الاثنين اختلافاً جوهرياً ، ولذلك نكتفي هنا بما سبق أن ذكر بشيء من التفصيل عن بورخارت ، لكننا سنورد شيئاً عما كتبه بورتون

---

(١) Burton, Capt. Richard F Personal Narrative of A. Pilgrimage to Al Madinah & Meccah. Edited by his wife Isabel Burton (London 1863) Memorial Edition. المجلد الثاني .

عند دخوله الى داخل الكعبة لأن بورخارت لم يذكر كثيراً عن ذلك .

في داخل الكعبة

فهو يقول : .. وكان جمهور من الناس قد احتشد حول الكعبة ، ولم أكن راغباً في ان أقف حاسر الرأس حافي القدمين في شمس أيلول . فصاح أحدهم يقول افتحوا الطريق للحاج الذي يريد ان يدخل البيت ، وعندذاك أفسح المتجمهرون الطريق .. وتقدم رجلان قويان من أهالي مكة كانا يقفان تحت الباب المرتفع ، فرفعاني بأذرعهما بينما سحبني رجل ثالث من أعلا الى داخل المبنى . فحياني في المدخل عدد من خدام الكعبة وهم من المكيين سمر البشرة الذين كان أشدهم سمرةً وبساطةً شاب من أسرة بني شيبة سدنة الكعبة . وهؤلاء يحتفظون بمفاتيح البيت عندهم ، وكان رئيسهم يوم زرت مكة الشيخ أحمد . وكان في يد ذلك الشاب مفتاح مذلاج الكعبة المطلي بالفضة ، وسرعان ما جلس على مسطبة خشبية في ركن الكعبة الأيسر وابتدرني بالسؤال رسمياً عن اسمي وقوميتي وتفصيلات أخرى . ولما كانت أجوبتي وافية بالمرام أمر الفتى محمداً الذي كان يصحبني بأن يقودني حول المبنى ويرتل أمامي الصلاة . ولا أنكر أنني حينما نظرت الى الجدران الخالية من الشبابيك ، ولاحظت وجود السدنة بالباب ، وجمهور المتعصبين الهائجين في أسفل الكعبة ، شعرت وكأنني فأرة في المصيدة . على ان ذلك لم يمنعني عن ملاحظة ما كان يحيط بي بدقة خلال صلاتنا الطويلة ، ورسم مخطط تقريبي بقلم الرصاص فوق قماش احرامي الأبيض .

فلم يكن هناك شيء أبسط من داخلية هذا المبنى الشهير . فان التبليط المساوي لمستوى الأرض يتألف من قطع من المرمر البديع بألوانه المختلفة التي يكثر فيها الأبيض . اما الجدران فان جميع ما كان ظاهراً منها كان مبنياً بالمادة نفسها . لكن القطع كانت غير منتظمة في شكلها ، وكثير منها مكتوب بكتابات طويلة . وكانت الاقسام العليا من الجدران ، والسقف الذي كان

النظر اليه يعتبر ضرباً من عدم الاحترام ، مغطاة بالدمقس الأحمر المورّد بالذهب ، والذي كانت حاشيته ترتفع الى علو ست أقدام عن الأرض لتكون بعيدة عن أيدي الحجاج . وكان السقف المنبسط يستند على دعامات مستعرضة ثلاث ، تستند هي بدورها على الجدارين الشرقي والغربي وتحملها في الوسط ثلاثة أعمدة يبلغ قطر كل منها حوالي عشرين بوصة . وهي مغلّفة ومزينة بخشب الند المحفور . ويوجد في الركن العراقي باب صغير يسمى « باب التوبة » ، يؤدي الى ممر ضيق ينفذ الى سلم يستعمله الخدم في الصعود الى السطح ، ولا يفتح الا عند الحاجة . ويشغل الركن « الأسود » او « الأسعد » صندوق مسطح القبة مضلع الشكل توضع فيه أحياناً مفاتيح الكعبة نفسها . ويصنع الباب والصندوق معاً من خشب الند . وتمتد ما بين الأعمدة ، على تسع أقـدام من الأرض عوارض معدنية لم استطع الاهتداء الى نوعية معدنها ، يعلق منها عدد غير يسير من المصابيح التي يقال أنها من ذهب .

ومع عدم وجود عدد كبير من الناس والخدم في داخل الكعبة فان الجدران الحجرية الخالية من الشبابيك ، والأبواب الضيقة فيها ، تجعل منها شيئاً أشبه بسجن البندقية . إذ يتساقط العرق من الأجسام في داخلها بقطرات كبيرة ، وقد ساورني الرعب حينما فكرت بامتلائها بالمتعصبين المتدافعين من الناس . وكانت شعائر العبادة تنطوي على الصلاة بركعتين ، والابتهال لمدة طويلة ، في الركن الشامي (الغربي) والزاوية العراقية (الشمالية) ، واليمانية ، وأخيراً تجاه الثلث الجنوبي من الجدار الخلفي . وهنا يقول بورتون ان بورخارت قد أخطأ حينما ذكر ان الصلاة تتم « في كل ركن » من الأركان الأربعة . « وبعد ان انتهينا من هذا كله عدت الى الباب حيث يتم الدفع .. »

الكسوة

.. وقد كانت الكعبة مبرقعة بكسوتها الجديدة حينما دخلنا فيها . على أن الكسوة كانت مرفوعة من السقف بالحبال بدلاً من ان تكون مشدودة

بالحلقات في أسفلها . وقد كانت مصنوعة من قماش أسود لماع . وكان الحزام او المنطقة الذهب التي تدور حول الكعبة من أعلاها . مع البرقع . يكاد لمعانه يأخذ بالأبصار . ومن المعتقد ان أول من جلل الكعبة بالكسوة تبّع الحميري . وبقي أكساؤها سارياً منذ ذلك العهد.. وكان من عادة العرب في الجاهلية ان لا يرفعوا الكسوة القديمة عند اكسائها بكسوة جديدة . بل كانت الكسوات تبقى واحدة فوق الأخرى حتى أصبح ثقلها يهدد بتقويض البناء .

وكان المال اللازم لتجهيز الكسوة يجمع من الناس منذ عهد قصي . الى ان تبرع ابو ربيعة المغيرة بن عبد الله بتجهيزه على حسابه الخاص بين سنة وأخرى بعد ان أثري وكثر ماله . وبذلك حصل على لقب العادل . وكان النبي الكريم يفضل ان تصنع الكسوة من القماش اليماني الرقيق . فأمر بأن يصرف عليها من بيت مال المسلمين . وحينما تولى عمر الخلافة صار يفضل ان تصنع الكسوة من الكتان المصري . وتجدد في كل سنة فيوزع قماش القديمة على الحجاج . ثم جاء عهد عثمان بن عفان فصارت تستبدل مرتين في السنة . أي في الشتاء والصيف فتكسى بالقميص المطرز في الشتاء والازار المصنوع من الكتان في الصيف . أما معاوية فقد كان يقدم الكتان والحرير في بادىء الأمر . لكنه أمر بعد ذلك باستبدال الكتان بالنسيج اليماني المقلم وطلب الى شيبة بن عثمان ان يجرد الكعبة عن كسوتها القديمة قبل التجديد ويطيب جدرانها بالخلوق . فصار شيبة يوزع الكسوة القديمة بين الحجاج فلم يعترض عبد الله بن عباس على ذلك .

..وقد أمر الخليفة المأمون (في القرن التاسع) بأن تستبدل الكسوة ثلاث مرات في السنة . وكانت تصنع على عهده من الحرير الموشى الأحمر فتكسى الكعبة بها في اليوم العاشر من محرم الحرام . وتصنع من الحرير الموشى الأبيض لتستبدل في اليوم الأول من شوال . وحينما قيل للمتوكل العباسي (القرن التاسع) ان قماش الكسوة صار يتهرأ بأيدي الحجاج من كثرة اللمس أمر

في باديء الأمر بأن تغلف الكعبة بكسوتين ، وان تكون كل منهما طويلة بحيث تصل الى حد التبليط . غير أنه أمر في الأخير بأن تجهز الكعبة بكسوة جديدة كل شهرين من أشهر السنة . فأصبح اهتمام العباسيين هـذا يعني سيطرتهم على الحجاز وشؤونه ، الأمر الذي كانت تتناوب عليه بغداد ومصر واليمن .

وكانت الكسوة في عهد الادريسي (القرن الثاني عشر للميلاد) تصنع من الحرير الأسود ويجددها الخليفة العباسي في بغداد سنوياً . اما ابن جبير فيذكر أنها كانت خضراء موشاة بالذهب . على ان أمر الكسوة صار يتولاه في القرن الثالث عشر السلطان قلاوون في مصر ، الذي أوقف لها واردات قريتين من القرى المصرية الغنية وهما بيسوس وسندبوس . وكانت واردات هاتين القريتين تخصص لتجهيز كسوة خارجية سوداء للكعبة وأخرى حمراء داخلية ، مع ستائر خاصة لقبر النبي الأعظم في المدينة المنورة . وحينما استولى العثمانيون على البلاد المقدسة أمر السلطان سليم بأن تكون كسوة الكعبة سوداء اللون ، ثم أوقف ولده السلطان سليمان (القرن السادس عشر للميلاد) مبالغ طائلة لهذا الغرض . وصارت الكسوة بعد ذلك تستبدل كلما ارتقى عرش آل عثمان وال جديد . اما الوهابيون فقد كسوا الكعبة عند اول استيلائهم على مكة بكسوة حمراء مصنوعة من نسيج العباءات العربية المصنوعة في الاحساء .

ويقول بورتون في الأخير ان الكسوة في عهده (١٨٥٣) كانت تصنع في مصنع النسيج القطني المسمى « الخرنفش » في باب الشعرية في القاهرة ثم يذكر ان الكسوة تتألف عادةً من ثماني قطع ، اثنتان منها لكل وجه من أوجه الكعبة ، ويغطى محل اتصال القطعتين بحزام ذهبي المظهر ، ثم تبطن بخام أبيض وتجهز بحبال قطنية . ويقال ان الكسوة كانت تنسج خلال حياكتها الآيات القرآنية كلها فيها . اما في عهد بورتون فقد كانت تنسج فيها الآية الكريمة (ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين) ،

مع سبع سور قرآنية هي : سورة الكهف ، ومريم ، وآل عمران ، والتوبة ، وتبارك ، وطه ، وياسين . وكانت هذه تخط بحروف « الطومار » وهو أكبر الخطوط الشرقية في الحجم ، ويقرأ من بعيد . اما الحزام فهو نطاق يبلغ عرضه حوالي قدمين ، ويحيط بالكعبة على ثلثي ارتفاعها . ويقسم الى اربع قطع يخاط بعضها ببعض ، وتخط على القطعة الأولى والثانية بعض آيات العرش ، أما على القطعتين الثالثة والرابعة فتنقش عناوين وأسماء السلطان الحاكم . وتحاك هذه الكتابات ، كما تحاك كتابات البرقع أو ستار الباب ، بالذهب الملفوف بالحرير الأحمر . وحينما تتم حياكة لكسوة في الخرنفش تنقل الى مسجد سيدنا الحسين في القاهرة بموكب خاص ، وهناك تبطن وتخاط فتكون جاهزة للرحلة الى البيت الحرام .

نقاط اخرى

وفي رحلة بورتون فصل[١] قيّم كثير الفائدة عن الحياة في مكة ، يصف فيها مكة نفسها وأحوال سكانها بشيء غير يسير من التفصيل . فهو يقول عنها أنها تعد مدينة حديثة نسبياً برغم ان منشأ بيت الله الحرام تضيع جذوره العميقة بين طيات الماضي السحيق . فقد بنيت حوالي سنة أربع مئة وخمسين ميلادية من قبل قصي وعشيرته قريش . وهي تحتوي على ثلاثين الى خمسة وأربعين ألف نسمة من السكان . مع وجود أماكن فيها لسكنى ثلاثة أضعاف هذا العدد من الناس على الأقل . وتبنى بيوتها بالطابوق وحجر الغرانيت والحجر الرملي المستمد من الجبال المجاورة . ومنظر مكة أشبه بواد متموج متعرج يمتد فوق هضبة صغيرة من الهضاب . ويبلغ أقصى طولها ميلين ونصف من معبدة في الشمال الى جبل أجياد في الجنوب ، كما يبلغ أقصى عرضها ما بين ابي قبيس في الشرق (الذي تمتد على سفوحه الغربية البلدة

---

(١) الفصل ٣٢ من الجزء الثاني ، الص ٢٢٧ — ٢٤٧ .

معظمها) وجبل هندي في الغرب . وتقوم الكعبة في مركز هذا الخط .

ويقول بورتون خلال تحدثه عن سكان مكة ، وما سمعه منهم عن مستقبل الاسلام . ان الكثيرين ممن عرفهم يذكرون ان الاسلام مكتوب له ان يصادف كثيراً من الأحن والنكبات في مقبل الأيام . ويخلص من هذا الى القول ان المسيحيين المتحمسين لنشر عقيدتهم وديانتهم في العالم يمكن ان يجدوا في وضع المسلمين الفكري هذا فرصةً للانتشار والتغلغل بينهم في الأجيال المقبلة . ثم يذكر في حاشيةٍ له ان الوضع لا يحتاج الى كثير من التنبوء قبل الأوان ليستنتج منه المرء بأن الانكليز لا بد من ان تضطرهم الأحوال السياسية لأن يحتلوا بالقوة ينبوع الاسلام هذا وقبلته المقدسة .

ويذكر من جهة أخرى ان المشروبات الروحية التي يذكر بورخارت وجود أمكنة خاصة لبيعها في مكة لم يعد لها وجود مطلقاً في أيامه ، وقد أكّد له بعض الضباط الأرناؤوط أنهم وجدوا صعوبةً فائقة في تهريب بعض القناني من هذه المشروبات من جدة الى مكة . ثم يشرح في الحاشية ان زيارة بورخارت كانت في عهد استيلاء محمد علي باشا عليها . ويعزو السبب الى هذا الوضع بطبيعة الحال .

ومن طريف ما يذكره بورتون في هذا الفصل ان أحد المطوفين كان يصحبه في ذهابه وإيابه الى العمرة ، فأصر عليه ان ينيبه للحج بالنيابة عن ابيه وأمه . فألفى نفسه مجبراً على الأذعان للطلب وأخبره أن أباه يسمى يوسف ابن احمد وأمه فاطمة بنت يونس . ففعل المطوف ذلك وأخذ أجرته المقننة عن عمله هذا .

وقد زار بورتون مقبرة مكة المقدسة كما يسميها ، التي كان يطلق عليها « جنة المعلا » . وهو يقول أنه شاهد فيها المكان الذي علقت فيه جثة عبد الله ابن الزبير بأمرٍ من الحجاج بن يوسف الثقفي . وقبر عبد الرحمن بن أبي بكر الذي يذكر انه موضع تقديس السنة والشيعة معاً ، وقبر السيدة خديجة

الكبرى الذي كان مغطى بقماش أخطر . وقبر آمنة والدة النبي عليه السلام الذي أعيد بناؤه بعد ان خربه الوهابيون . وبعد هذا يذكر بورتون قيامه بزيارة الأماكن الأخرى التي ذكرها بورخارت من قبل . ويشير في الحاشية الى ان الكتب التي رجع اليها تذكر اثني عشر مكاناً آخر للزيارة في مكة . لا يعرف عن أكثرها غير اسمها . وهي : المختبأ . ودار الخيزران التي كان النبي يصلي فيها سراً في بداية دعوته . ومولد عمر . وبيت أبي بكر ، ومولد جعفر الطيار بالقرب من مقبرة الشبيكة ، والمدّعى ، ودار الهجرة ، ومسجد الراية الذي غرس النبي رايته فيه عند استسلمت له مكة ، ومسجد الشجرة الذي يقول بورتون انه المسجد الذي جعل النبي الشجرة فيه تتقدم اليه وتتقهقر الى الوراء . ومسجد الجعرانة حيث لبس النبي لباس الاحرام وهو المكان الذي ما زال الايرانيون يزورونه . ومسجد ابراهيم ، ومسجد ابي قبيس ومسجد ذي طوى .

وأخيراً . يشير بورتون الى دعوة عشاء دعاه اليها رجل يقال له علي بن ياسين الزمزمي . وقد أكل فيها أكلات كثيرة منها الرز (البلاد) والباميا والسبانغ والبرياني والكمأة والورق المحشي والكباب والسلطة والخبز النفيس . ثم الكنافة والمحلبية وراحة الحلقوم . وقد أكل بعض ذلك بملعقة خشبية . وهو يقول في هذه الأثناء ان العرب يتجاهلون فن الأكل الفرنسي الذي يطيل الآكلون مدة أكلهم فيه . ويذكر بالمناسبة ان مكة تتجهز من الطائف ووادي فاطمة بكميات كثيرة من الخضر والفواكه التي يبلغ مقدارها في موسم الحج وحده مئة حمل بعير في اليوم على الأقل . ومما يؤتى به الى مكة الرقي والتمر والليمون والعنب والخيار وما أشبه .

وآخر ما نذكره عن بورتون مغادرته مكة المكرمة ومجيئه الى جدة حيث كشف للمستر كول القنصل البريطاني فيها عن هويته . ومع انه يثني على المستر كول . ويذكر انه رفع اسم بلاده عالياً وألقى دروساً على الشريف وغيره بوجوب احترام الاسم البريطاني . فأنه مع ذلك كله

يقول ان على المسؤولين البريطانيين ان يعينوا في هذه الجهات قنصلاً انكليزياً في جدة ووكيلاً محلياً يمثل الانكليز في مكة نفسها حتى يأتي اليوم الذي تجدهم فيه الحوادث على احتلال أم البلاد الاسلامية في يوم من الأيام ! ! وهو يقول أنه يلح في ذكر هذه الأمور لأنه لا يخرج عن طبع كل انكليزي حينما يود أن يرى الأنكليز متقدمين في كل مكان ، وحتى في جدة . ولبيان أهمية جدة ومركزها التجاري يذكر بورتون ان خمساً وعشرين الى ثلاثين سفينة تجارية ترد من الهند الى جدة كل سنة ، وان حجم التجارة معها يبلغ حوالي خمسة وعشرين لكاً من الروبيات .

المستشرق الهولندي هورغرونيه

لقد تسنى للمستشرق الهولاندي سنوك هورغرونيه الاستاذ في جامعة ليدن ان يقضي سنة كاملة من حياته (١٨٨٤ — ١٨٨٥) في الحجاز ، كانت ستة أشهر منها في مكة نفسها وستة أخرى في جدة . وقد عاش في مكة خلال هذه المدة طالباً من طلاب العلم يدرس العلوم الاسلامية ويتفقه فيها . وكان الاستاذ هورغرونيه قد طبع قبل ذلك كتاباً مفصلاً باللغة الهولاندية عن مناسك الحج حاول فيه ان يستقصي منشأ هذه الطقوس وتطورها في الجاهلية والاسلام . ثم نشر في ١٨٨٨ — ١٨٨٩ مجلداً كبيراً في جزءين بالألمانية ضمنه ما توصلت اليه افكاره المتحيزة عن (مكة) التي سمى المجلد الكبير باسمها . وكان الجزء الأول من المجلد يحتوي على موجز بالوصف الطوبوغرافي في مكة المكرمة نفسها . وتاريخ كامل للبلد الحرام منذ أيام النبي حتى سنة ١٨٨٥ م . ولم يترجم هذا الجزء الى الانكليزية على ما نعلم ، لكن الجزء الثاني منه ترجمه الى الانكليزية المستر جي أيج موناهان أحد قناصل الانكليز السابقين في جده ، ونشره سنة

---

(١) Hurgronje, C. Snouck — Het Mekkaansche Feest, 1880 Leyden

١٨٣٠ (لوزاك) بعنوان (مكة في القسم الأخير من القرن التاسع عشر) [١]. ويبحث هورغرونيه فيه عن الحياة اليومية في مكة، وعادات أهلها وسكانها، مع أحوالها العلمية، والاندنوسيين الساكنين فيها، الذين يطلق عليهم كلهم اسم (جاوا) على ما يقول.

ويبدأ هورغرونيه بحثه عن سكان مكة فيقول ان من يزور مكة يلاحظ في شوارعها أنواعاً عدة من القوميات، من الأتراك ذوي البشرة البيضاء الى النوبيين ذوي البشرة السوداء الطمطمانية. ثم يقول ان الخاليات القومية المختلفة هذه تأخذ في الغالب موقفاً غير ودي تجاه الجاليات الأخرى، وأن أغلب هؤلاء يقيمون في مكة بقصد المجاورة والتبرك. لكن ذلك لا يعني عدم وجود جماعات تقيم فيها لأغراض ومصالح دنيوية. على أن الأغراض الدينية، وشؤون العبادة، التي تدعو الكثيرين من سكان مكة الى الأقامة فيها الى آخر العمر، تقاس بالمقياس المادي الدنيوي كذلك كما يستفاد من القول العربي (حج مبرور، وذنب مغفور، وتجارة لاتبـــور).

ويقول هورغرونيه ان من مظاهر المصالح الدنيوية لأولئك السكان وجود حركة تجارية غير يسيرة في مكة، ولاسيما في موسم الحج. وينشط في هذه الحركة على الأخص الهنود الذين يحصلون على أرباح طائلة بالمتاجرة، والاقراض. ويقول كذلك ان الربا وان كان الشرع الاسلامي يحرمه تحريماً صارماً، فان اولئك المسلمين يتحايلون على النصوص الشرعية ويجرون معاملات الاقراض بالفائدة عن طريق ما يسمى بالمرابحة. ثم يذكر ان من جملة أساليب التحايل: اولاً — ذكر مبلغ أكبر من المبلغ الذي يقبضه

---

(١) **Mekka, in the Later Part of the Nine - teenth Century. Translated by J. H. Monahan.**

المستدين في السند المختص . ثانياً — قيام الدائن ببيع سلعة من السلع بسعرٍ فاحش يدفع بعد أجلٍ مسمى ثم يشتريه من جديد منه . ومعظم الدائنين هم من الطبقة المتوسطة عادة .

ومن الذين ينافسون الهنود في مكة في هذا المسعى الحضارمة الذين يأتون اليها في الأعم الأغلب وهم لا يملكون شروى نقير ، لكنهم يتصفون بقابلية فائقة للتأقلم والتحمل او الجلد غير المتناهي . فليس هناك أي حس او شعور شرفي ، على ما يقول هورغرونيه ، يمنعهم عن امتهان المهنة التي تدر عليهم شيئاً من الربح عند الحاجة . ولذلك يلاحظ ان كثيراً منهم كان يبدأ حمالاً بسيطاً في جدة ثم ينتهي وهو من التجار الأغنياء . ويأتي الكثيرون من اليمن لنفس السبب والعمل في بعض الأحيان ، لكن اليمانيين لا يمكن ان يضاهوا الحضارمة في هذا الشأن .

وبعد ان يذكر هورغرونيه طبقات السكان الفقيرة الأخرى من البدو والمغاربة والأفغان وغيرهم الذين يقيمون في مكة ، ويمتهنون مختلف المهن البسيطة ، يذكر بصورة خاصة التكروريين السود الاحرار ، والمعتقين من العبيد . ومن الغريب ان يعمد استاذ مثل هورغرونيه الى تسقط السوءات والمبالغة فيها بالشكل الذي يقحم فيه ذكر الفواحش من النساء في هذا الموضوع . فهو يضيف الى طبقات السكان هذه النساء اللواتي يأتين الى مكة ، من مصر على الأخص ، ليصبحن زوجات وفتيات بطريقة يسترن فيها بغاءهن على ما يقول ، وهي طريقة « الزواج بالمقاولة » .

والملحوظ أنه يثني بصورة خاصة على طبقة الاندنوسيين من السكان ، الذين يسميهم باسم « جاوا » . فهم يمتازون من بين الجميع بكونهم لا يأتون الى مكة بقصد الربح والمتاجرة ، وانما من أجل المجاورة والأغراض الدينية في الغالب . ومع عدم استبعادنا لما يذكره عن هؤلاء المسلمين الطيبين ، فأننا لا بد من ان ننوه هنا بأن منشأ اهتمام هورغرونيه الخاص بهذه الطبقة من سكان مكة قد يرجع الى كونه هولاندياً ، لأن هولاندا ظلت تحتل

أندنوسية . وتستغلها مدة طويلة من الزمن .

ومع كل هذا الاختلاف الملحوظ في طبقات المجتمع المكي فان الطابع الذي يطغى فيه هو طابع بلاد العرب الغربية . في لغته وعاداته وطباعه ، الذي يفرض عليه من أعلى . بوجود العدد الكبير من الشرفاء والسادة وغيرهم من أبناء الأسر المكية العريقة في القدم . ومن أسفل يتوارد سائر أبناء الحجاز وأفراد قبائل حرب باستمرار عليه . على انه يقول من جهة أخرى ان سكان مكة لا يخضعون بسهولة للشرفاء ومن لف لفهم ، و لذلك نجد ان لهم نزاعاتهم وتقاليدهم الخاصة . وبينما نرى ان اللغة والعادات وأساليب العيش المعروفة في بلاد العرب الغربية هي السائدة ، نجد من جهة أخرى ان الجميع يجتمعون في صعيد واحد هو صعيد استغلال الحجاج والاستفادة منهم ، لأن جميعهم من اكبر شريف فيهم الى الشحاذ في الشارع يعتاشون بصفة مباشرة وغير مباشرة على توارد الحجاج وحركتهم .

ويتطرق هورغرونيه كذلك الى النخاسة والمتاجرة بالعبيد فيقول ان جميع أنواع الأفريقيين منهم كان يمكن الحصول عليهم بكثرة يومذاك عن طريق الدلالين (النخاسين) . وقد وجد في سوق النخاسة الخاص ، الذي كان عبارة عن قاعة كبيرة بالقرب من باب الحرم الشريف (باب الدريبة) ان العبيد من كلا الجنسين كانوا يعرضون فيه ، ومنهم من كان قد استورد حديثاً الى السوق ومنهم من كان يباع على حساب مالكه السابق . وهو يصف السوق وما فيه من « بضاعة » وصفاً مفصلاً لا مجال لنقله هنا ، وانما نكتفي بالقول بان ما تحسس به هورغرونيه أكثر من أي شيء آخر في هذا الشأن هو ان تلك البضاعة البشرية كانت تعرض في سوق النخاسة وكأنها بقر يعرض للبيع ، ولاسيما النساء الشابات . لكن التدقيق في الأمر سرعان ما يظهر ان اولاء الشابات لم يكن يبدو عليهن أنهن مشمئزات من ذلك على ما يقول .

ويتعمق هورغرونيه في شؤون العبيد الأفريقيين وكيفية الإتيان بهم

على أيدي «الجلابة» ، وفي تأثير الأسلام عليهم في مواطنهم الأفريقية وخارجها ، فيقول ان العرب والمسلمين ينشرون الأسلام اينما يذهبون في أفريقية . وليس بوسع حتى المبشرين المسيحيين ان ينكروا تأثير ذلك في قرى العبيد التي سرعان ما تصبح نظيفة ، وينصرف سكانها الى العمل المثمر في الزراعة والصناعات البسيطة والتعلم ، وكثيراً ما تتميز بهذا القرى المسلمة عن القرى الوثنية . ويقول متحسراً ان المسيحيين المخلصين كانوا يشعرون بالخجل على الدوام حينما يلاحظون عند تقصيهم للحقائق ان العبيد نصف العراة الذين يمثلون الحضارة الأوربية يعرفون بلبس القبعات الكبيرة وشيوع المشروبات الروحية بين ظهرانيهم ، بينما يجدون من جهة أخرى ان المسلمين السود ينصرفون الى الأنتاج والعمل المثمر . ثم يخلص من ذلك ، بعد كثير من البحث والسرد ، الى ان الآلاف من العبيد والأحباش الذين يؤتى بهم الى البلاد الأسلامية ويتذكرون نشأتهم الأولى في بلادهم الأصلية يعتبرون أنفسهم بأنهم قد جعلوا أناساً من البشر عن طريق الرق والعبودية . وتجدهم في العادة قانعين بحالهم ، وغير راغبين في العودة الى بلادهم . ولذلك كله يدعو هورغرونيه الى عدم مكافحة التجارة بالرقيق بالأساطيل والقوة ، وانما بشيء أحسن من ذلك . فعندما يتعلم الأفريقيون أنفسهم معنى الحياة وقيمتها فان هذه التجارة الممقوته تبطل من أساسها . ولاشك ان مرور الوقت قد برهن على هذا القول الذي كان يدعو اليه هورغرونيه . ويلاحظ ان هذا الكاتب يعتذر عن توسعه في موضوع الرق والعبيد نظراً للأهمية التي كانت تعطى له منذ الأزل في المجتمع المكي نفسه ، ولأن المشكلة كانت من مواضيع الساعة في تلك الأيام .

ويعمد بعد ذلك الى ذكر الكيفية التي يستفيد بها أهالي مكة من الحجاج . فيبدأ بالأشارة الى آل شيبة سدنة الكعبة ، ويقول ان هذه الأسرة تستفيد من بيع قطع الكسوة القديمة عند تجديدها كل سنة ، ومن أيام فتح الكعبة والدخول اليها . فأن أيام فتحها معروفة ، فهي تفتح على ما يقول في يوم

١٠ محرم الحرام ، و ٢٧ رجب ، و ١٥ شعبان ، وبعض أيام رمضان ، وفي أشهر الحج . لكنها قد تفتح في أيام غير هذه للأثرياء الغرباء الذين يدفعون مبالغ غير قليلة عن ذلك . على ان البعض من أغوات مكة الحصيان يستفيدون شيئاً من هذه المناسبات كذلك .

ويذكر بعد ذلك طبقة « الزمزميين » فيقول ان السقاية في مكة كانت في ايدي العباسيين ، يتوارثونها جيلاً بعد جيل . ويتولون شؤون زمزم بموجبها . ومنذ ان تخلى العباسيون عن ذلك بقي امر الاستفادة من مياه هذه البئر المقدسة شيئاً مباحاً للجميع . لكن الحقيقة هي ان هنالك طبقة كبيرة خاصة تحتكر لنفسها أمر توزيع مياه زمزم ، يطلق عليها « الزمزمية » . وهؤلاء جميعهم كانوا يحتفظون بجرارهم في الحرم الشريف ودوارقهم الخزفية التي تبرد الماء ، وهذه تؤجر للحجاج فيحتفظ لهم بها ليشربوا منها عند الحاجة . وقد يقوم الزمزميون بخدمات أخرى للحجاج فيتقاضون عنها شيئاً من المال أيضاً .

ويشير هورغرونيه كذلك الى قوّام أماكن الزيارة المقدسة أيضاً مثل (مسقط ستنا فاطمة) الذي سماه بورخارت (مولد فاطمة) ، وغيره من الأماكن التي مرت الأشارة اليها من قبل . على انه يتوسع في ذكر طبقة « المطوفين » الكبيرة ، ويقول ان المطوف كان وما زال يقوم هو وأفراد أسرته بشؤون الحاج وخدمته من جميع الوجوه . والمعروف بان المطوفين يختصون عادة بخدمة الحجاج العائدين لقوميات وملل خاصة ، فهناك مطوفون للأتراك وآخرون للعراقيين ، وغيرهم لأهل الشام ، وغير ذلك . وهم يستقبلون زبائنهم من جدة وغيرها ، ويأخذونهم الى مكة فيستضيفونهم ويتولون أخذهم الى الحرم الشريف ، ثم الى عرفات ومنى والمزدلفة وغير ذلك . ويكوّن هؤلاء عصبة خاصة لها قوتها وأهميتها في مجتمع مكة ، ويختلفون في مستواهم الحضاري والثقافي وفي منزلتهم الاجتماعية تمام الاختلاف .

ثم يتطرق الى ذكر الخدمات الخاصة الأخرى ، والباعة في الأسواق ، والصرافين . وغيرهم ممن يستفيد من توارد الحجاج على مكة وحركتهم . كما يتطرق الى ذكر أصحاب البيوت والشقق . الذين يؤجرونها بأثاثها خلال الموسم .

ومما يذكره هورغرونيه في هذا الباب من كتابه[1] كذلك ، عودة مكة الى الهدوء النسبي في محرم الحرام حين يخرج منها عدد كبير من الحجاج عائدين الى بلادهم . لكنه يشير الى فتح الكعبة في يوم عاشوراء وتخلف عدد كبير من الحجاج من أجله . ويشير أيضاً في الحاشية (بمناسبة ذكر عاشوراء) الى ان الأيرانيين الموجودين في مكة يقومون سراً بأحياء ذكرى بطولة الحسين في هذا اليوم . اما في جدة فأنهم أخذوا يحيون هذه الذكرى بصفة علنية منذ وقوع الحرب الروسية التركية قبيل تلك الأيام ، ولايدرى ما هي العلاقة بين الترخيص بأقامة المآتم الحسينية وهذا الحادث . ويقول هورغرونيه ان الايرانيين يجتمعون هناك خلال العشرة الأولى من محرم في دار كبيرة يستطيع الغريب ان يدخل اليها كذلك ، وانه حضر المأتم بنفسه في تشرين الأول ١٨٣٤ فوجد ان الحاكم التركي كان حاضراً فيه أيضاً بدعوة من القنصل الأيراني . ولم يشرب هذا الحاكم (الشربت) فقط هناك وأنما بكى بكاءً مؤثراً كذلك .

ويتطرق علاوةً على هذا الى ذكر المواسم التي يحيي فيها أهالي مكة ذكرى بعض الأولياء ، فيخرجون الى قبورهم ويحتفلون بقربها . وهناك أيام خاصة في السنة لمثل هذه الاحتفالات ، وهي أيام « ستنا ميمونة » و « الشهداء » و « الشيخ محمود » و« المهدلي ». ويوم الشهداء هذا هو اليوم الذي سقط فيه الحسين بن علي وأنصاره شهداءً في أسفل جبل فخ . بعد ان جاء من ينبع ثائراً على العباسيين سنة ٧٨٦ للهجرة . على ان بعض

---

(١) الص ٤١ .

المكيين يعتقدون ان هذا المكان يرقد فيه البعض من الصحابة مثل عبدالله بن عمر .

الحياة العائلية

ولقد أفرد هورغرونيه قسماً خاصاً من الكتاب للحياة العائلية في مكة يومذاك (١٨٨٥)[١] . وقد عالج هذا الموضوع من جميع نواحيه معالجةً تفصيلية مملة فيها الكثير من الوهم والتحامل في بعض الأحيان . فهو يقول ان المرء في مكة حينما يتكلم عن حريمه فأنه يقصد زوجته وخادماته أو أية امرأة أخرى تعيش في بيته . ثم يدعي ان الرابطة الزوجية عند المسلمين في مكة وغيرها غير متينة ، والا لما وضعت على النساء القيود وفرض الحجاب والعزلة عليهن . ويذهب الى القول بان المرأة غير المتزوجة ، سواء اكانت عزباء ام باكر ، تعتبر عبئاً ثقيلاً على أهلها وأقربائها مالم يكونوا أثرياء . ولذلك فان امرأةً مثل هذه تتشبث بان تكون شريكة موقتة لرجلٍ من الرجال في حياته ، وبذلك تحصل على معيشة مجانية لنفسها عدا نوع من المهر الذي يتفق عليه اذا كانت أحوال الرجل المالية تساعد على ذلك ، كما تحصل على خادم أو خادمة من العبيد . وحتى بعض النساء الثريات يتمنين لو يحصلن على مثل هذا الزواج بالمقاولة ، ليتخلصن من استغلال أقاربهن لهن . ويقول في مناسبة أخرى ان العربي بينما يجد صعوبة في الافتراق حتى عن خليلته فأن علاقة الزواج المستديم ، والحب الصادق بين الأزواج ، بعيدة كل البعد عن تفكير الرجل المسلم ! !

ومع انه يقر ان القاعدة العامة في حياة مكة العائلية هي الزوجة الواحدة ، وان تعدد الزوجات يصعب وجوده الا عند الأثرياء ، فأنه يخوص في استنتاجات كثيرة غير واردة عن الخيانة الزوجية التي يعتبرها قاعدة عامة فيها . واورد هورغرونية الشيء الكثير من هذا وقد اكتفينا بالاشارة اليه منتقلين الى موضوع آخر .

---

(١) النص ١٥ – ١٤٦ .

الحياة العلمية

ويبحث هورغرونيه بالاضافة الى ذلك في حياة مكة العلمية فيفرد لها باباً خاصاً يزيد على الخمسين صفحة من الكتاب. فيتطرق في بحثه الى نشوء الفقه الأسلامي، والعلوم الدينية، والى العلوم الأخرى التي قد يدرسها طلبة العلم في مكة المكرمة. كما يتطرق الى المذاهب السنية الأربعة وانتشار كل منها في مكة وغيرها، والى الوظائف الدينية وما أشبه. ولا يتسع المجال هنا الى ايراد الكثير مما يقوله في هذا الشأن لأن معظمه أشياء عامة تختص ببلاد المسلمين جميعها، لكننا سنحاول ذكر شيء مما يختص بمكة ذاتها.

فهو يقول ان الدراسة الدينية تتم في الحرم الشريف في الأعم الأغلب، على شكل حلقات تعقد بعد الصلوات الخمس. وتتم على المذاهب الأربعة المعروفة، لكنه يذكر أن الاساتذة او العلماء الذين كانوا يتولون التدريس في الحلقات كان قليل منهم من الحنابلة الذين يشابه فقههم فقه الوهابية على ما يقول. وكانت حلقات المالكية تزيد في عددها على حلقات الحنابلة بقليل لان موطن المالكية الحقيقي هو البلاد الأفريقية المسلمة عدا مصر السفلى. فان أهل السودان والعبيد التكروريين، والأحباش المسلمين، وجميع المستسلمين من بلاد العبيد الأخرى، والذين يتبعون الطريقة السنوسية هم من معتنقي المذهب المالكي. اما المذهب الحنفي فقد كان هو المذهب الرسمي للأتراك، ولذلك كانت تكثر حلقاته التدريسية في الحرم الشريف على الدوام. وقد كان الأتراك يعينون في بداية الأمر في مكة لكل مذهب قاضياً خاصاً، بالنظر لطبيعة مكة الدولية بالنسبة للمسلمين في انحاء العالم كافة. غير انهم سرعان ما لاحظوا ان تنفيذ القانون لابد من ان يكون بأيديهم لتأمين مصالحهم في البلد الحرام، فصاروا يقتصرون على تعيين قاضٍ حنفي واحد فقط برغم وجود أكثرية شافعية في مكة نفسها. وكان

---

(١) الص ١٥٣ – ٢١٢.

هذا القاضي يتولى البت فيما يختص بقانون الأحوال الشخصية ، اما سائر الأمور فقد صار يبت فيها بموجب « القانون المنيف » وهــو القانون المدني الجديد .

وقد كان من الطبيعي والحالة هذه ان يتقاضى الأئمة الحنفية في الحرم الشريف أكبر الرواتب وأكثرها في مكة ، على ما يقول[1] هورغرونيه . فقد كان في القائمة المرسمية لسنة ١٨٨٥ — ١٨٨٦ خمسون الى ستين اماماً يتقاضون رواتب من واردات الحرم الشريف . وكان حوالي ثلث هذا العدد من الحنفية وبينهم أئمة من الهند وآسية الروسية ومكة ، وغير ذلك من البلاد الخاضعة للامبراطورية العثمانية . ومع كل هذا فقد بقي المذهب الشافعي له أهمية كبرى في مكة ، واستمر أئمته على تدريس حلقاتهم غير القليلة في الحرم الشريف . ويعزى انتشاره في هذه الجهات الى ان العباسيين كانوا يرعونه خلال مدة حكمهم كلها ، وكان المذهب الذي ينافسه في مكة يومذاك المذهب الشيعي الزيدي الذي كان يكثر معتنقوه في جنوب وغرب الجزيرة العربية .

وهنا يقول هورغرونيه ان الشرفاء كانوا انتهازيين بالنسبة للمذهب الذي يعتنقونه ، لأنهم استبدلوا عقيدتهم الزيدية الشيعية بالشافعية التي كانت تعتنقها الغالبية العظمى من رعاياهم أهالي مكة . ثم يذكر ان بعض المناطق في جوار مكة ما تزال فيها بقايا قوية من الشيعية الزيدية التي سيطرت على غربي الجزيرة العربية في يوم من الأيام . وبعد ان يفصل انتشار الشافعية وانحسار الشيعية الزيدية أمامها يقول انه ليس من المستغرب ان يتولى عدد من علماء الشافعية منصب « شيخ العلماء » ، وان يبلغ عدد الأئمة الشوافع في الحرم الشريف عشرين الى ثلاثين من مجموع خمسين الى ستين . وتعد حلقات الشافعية من أهم نماذج الحركة العلمية في مكة . وأغلب أئمة الشافعية

---

(١) الص ١٨٣ .

من متولدي مكة نفسها مثل شيخ العلماء أحمد دحلان ، والسيد عبدالله الزواوي الذي كان أبوه المشهور محمد صالح رجلاً شريفاً من أئمة الصوفيين . وأبي بكر الشطا . وممن اشتهر منهم كذلك أئمة أكملوا دراستهم في الأزهر مثل محمد البسيوني وعمر الشامي ومصطفى عفيفي ومحمد المنشاوي . وكان هناك علماء شوافع من أصل حضرمي أيضاً من مثل محمد سعيد بابصيل الذي يشغل منصب أمين الفتوى لشيخ العلماء ، ومن أصلٍ داغستاني مثل عبدالحميد الداغستاني الذي كان البعض يعتقد بأنه أعلم من سيد دحلان .

ويورد هورغرونيه معلومات كثيرة عن حلقات التدريس وطلبتها . والعلوم التي تدرس فيها ، وأوقاتها ، والأصول المرعية فيها ، وغير ذلك مما لا يمكن أيراد شيء منه هنا لعدم تيسر المجال الكافي له .

في أواخر القرن التاسع عشر

كانت العلاقات الموجودة بين الشرفاء الحاكمين في مكة والولاة الذين كانوا يعينون من استانبول قد أخذت تزداد توتراً في العشرات الأخيرة من القرن التاسع عشر . فقد أخذ الولاة يغتنمون الفرص لحصر السلطات المختلفة بأيديهم ، وجعل الشرفاء حكاماً بالأسم فقط وهياكل دينية لا يملكون سوى مناصبهم المبجلة . غير ان الشريف عبدالمطلب ، الذي كان ينتمي الى ذوي زيد ، ما ان تولى الحكم للمرة الثالثة ، بعد قتل الشريف حسين ، حتى أخذ الصراع يحتدم بين الطرفين وظلت شخصيته تطغى على الحكم وتفرض نفسها في كل مكان بحيث فكر أولو الأمر في الباب العالي بأن يضعوا حداً لذلك .

فتعين في مكة في تشرين الثاني ١٨٨١ قائد فعال جديد يدعى عثمان نوري باشا ، واعيد تعيين الوالي السابق عزت باشا فيها . وبعد مدة بارزة انتشرت في مكة احيطت قصر الشريف عبدالمطلب بقوات كافية

وقرىء عليه أمر عزله . ثم أخذ محجوزاً عليه الى الطائف[1] . وبعد ذلك نقل الى قصره الخاص في منى وبقي فيه حتى وافته المنية في ٢٩ كانون الثاني ١٨٨٦ . وقد ارتأت الجهات المسؤولة في الباب العالي ان يتولى الشراف الكبرى في مكة الشريف عون الرفيق الذي كان في الخمسين من عمره . ومع ان هذا الشريف كان يتصف بالميل الى التجدد وسعة الأفق ، فأنه كان يؤثر الانعزال في كثير من الأمور ويتحاشى التحدث في الشؤون السياسية . لكن الوالي التركي تمادى في خطته ولم يترك مجالاً للشريف عون بممارسة سلطته وتنفيذ مآربه . وقد بلغ الاستياء في الاوساط الشريفية في مكة وغيرها حداً جعل الشريف يقدم على عمل لم يقدم عليه شريف آخر من قبل . فقد قرر ان يغادر مكة الى المدينة مع أفراد أسرته البارزين . وعدد من أشراف مكة وتجارها ، والقاضي الشافعي مع جملة من العلماء ورجال الدين . فتمت هذه الهجرة الفريدة في بابها خلال الليل من دون علم السلطات المسؤولة بها . وأرسلت الرسل من المدينة الى استانبول تحمل احتجاج الشريف الى المسؤولين وتذمراته ، وتخبرهم بأن الشريف مع وجوه مكة وأشرافها لن يعودوا اليها حتى يكون الوالي قد نقل منها الى الأبد . ولما كان السلطان يومذاك يكن احتراماً خاصاً للشريف عون الرفيق ، تحتم على الباب العالي ان يذعن لمشيئة الشريف فنقل الوالي عثمان باشا الى حلب في الحال . فعاد الشريف الى مكة ، ونحي الموظفين الذين كانوا منسوبين الى الباشا السابق عن وظائفهم . وحينما تولى الوالي الجديد جمال باشا الحكم في مكة كان يتصف بالكثير من المرونة والميل الى تلبية رغبات الشريف .

وحينما توفي الشريف عون في ١٩٠٥ بادر الوالي أحمد راتب باشا الى ترشيح ابن اخت عون (علي بن عبدالله بن محمد بن عون) في مكانه . ليفسح لنفسه مجال السيطرة على الأمور في مكة نظراً لصغر سن الشريف

---

(١) [illegible]

وحداثة عهده في الشؤون العامة . وفي ١٩٠٨ أعلن الدستور العثماني وعزلت الحكومة التركية الجديدة أحمد راتب نفسه ، ثم نحي الشريف علي عن الحكم في مكة فالتجأ الى الانكليز في مصر . فتعين الشريف عبد الأله باشا في مكانه ، وكان هذا رجلاً طاعناً في السن قضى معظم حياته في إستانبول ، وقد قدر له ان لا يمارس الحكم في مكة برغم تعيينه شريفاً أكبر فيها لأنه توفي قبل ان يتوجه اليها . وقد ترشح في مكانه رجلان بارزان من الشرفاء ، الشريف علي حيدر من ذوي زيد والشريف حسين ابن علي من ذوي عون . ونظراً لأن الشريف علي حيدر كان متزوجاً بامرأة انكليزية في استانبول ، فقد رأت الجهات المختصة ان تفضل الشريف حسين عليه فصدر الفرمان بذلك وتسلم الخلعة المعروفة [١] .

الحسين بن علي

كان الشريف حسين بن علي قد دُعي من مكة الى الأستانة ليقيم فيها مع أسرته سنة ١٨٩٣ ، في السابعة والثلاثين من عمره لأنه كان يتصف بروح ثورية على ما يقول دي غوري في (حكام مكة) . وكان له يومذاك ثلاثة أولاد ، علي وعبدالله وفيصل ، أدخلهم في مدارس استانبول . وبقي هناك خمسة عشر عاماً في حكم المعتقل ، ولم يغادرها الا في ١٩٠٨ حينما توجه الى مكة ليشغل منصب الشرافة الكبرى .

وقد تم في عهده أنشاء سكة حديد الحجاز التي توصل الشام بالمدينة فتسهل وصول الحجاج الى مكة . ويقول ديغوري انه بينما كانت سكة الحديد تمتد خطوطها ما بين سهول هذه البلاد العربية ووهادها ، أخذت تنتشر في أنحاء البلاد العربية التابعة للامبراطورية العثمانية آراء وأفكار جديدة عن القومية العربية وأحيائها . فقد أدى صدور الدستور العثماني

---

(١) ديغوري الص ٢٦١ .

في ١٩٠٨ الى ان تفلت الآمال والأماني القديمة من عقالها وتنتشر في البلاد بالطرق البخارية. وفي مثل هذا الجو توجه الحسين بن علي الى مكة، فاعتبر موالياً للأتراك في أول الأمر لكنه حينما أخذ يجرد الحملات على العسير والقصيم لأخضاع العشائر فيهما، واستعادة نفوذ الشرفاء بينهم، صار الباشا العثماني في الحجاز يشك في إخلاصه وسلوكه.

وقد استطاع ضابط من الضباط الانكليز يدعى ويفل ان يحج متخفياً الى مكة خلال السنوات الأولى من عهد الشريف حسين، ويكتب كتاباً [١] خاصاً عن مغامرته هذه بعنوان (حاج عصري في مكة). ويصف ويفل الملك حسين والحفلة الرسمية التي كانت تقام سنوياً في العيد لتأييد تنصيبه فيما يأتي :

.. لقد كان هذا يوم العيد، وكان كل فرد قد لبس أحسن ما عنده من لباس، فصار المخيم كله يبدو في منظر جذاب. وقد ذهبنا صباحاً لنشاهد حفلة تقديم الهدايا الى الشريف، الذي كان مخيمه وهو مقام فوق مرتفع اصطناعي يتألف من أربع سرادقات عالية وعدد من الخيم الصغيرة. وكانت صفوف الجنود تكوّن فيما بينها ممرات للمدعوين، وتمنع الناس عن التقدم الى الأمام.. فصار كبار المدعوين يصلون واحداً بعد آخر مع الحاشية ويستقبلهم الشريف فيجلسهم على منصة تقوم في الطرف البعيد من السرادق الكبير. وكان هؤلاء هم وفود البلاد الأسلامية، وحاكم مكة، وبعض وجهاء المسلمين القادمين من الهند وغيرها، وغيرهم من الناس المعروفين. وبعد ان اجتمع الجميع وأخذ كل مقعده المعد له وصل السفير التركي مع هدية السلطان الموضوعة في صحن من الذهب. ويقول ويفل ولا اتذكر أي شيء كانت تحتوي عليه الهدية لأنها كانت مغطاة بقطعة من القماش، لكنني علمت انها كانت تتألف في السابق عادة

(١) Wavell, A. J. B — A Modern Pilgrim in Mecca (London 1918)

من مبلغ نقدي بعدة الاف . فجاء الشريف الى حافة المنصبة لاستقبال هذا الزائر الكبير ومرافقته الى الداخل .

وما ان انتهت المراسيم وركب السفير التركي للرجوع من حيث أتى حتى قام وجهاء مكة والحجاج الأجانب للسلام على الشريف وتقديم التبريكات له .. والشريف الحالي . السيد حسين . رجل محبوب جداً . وهو بالنسبة لما شاهدته بنفسي أهل لهذا التقدير كله . لأنه في الوقت الذي يحافظ فيه على هيبته ووقاره في المنصب يحاول أحياء تقاليد النبي والخلفاء الأقدمين الذين كان يستطيع الجميع الاتصال بهم والدخول عليهم ، ويضعون وصايا الأخوة والمساواة الواردة في القرآن في موضع التطبيق [1] .

الثورة العربية

ويصف ديغوري في (حكام مكة) طموح الشريف حسين . وكيفية اتصاله بالأنكليز وانتفاضه على الأتراك بمساعدتهم ، بما سمي بالثورة العربية التي بدأ بها في ١٠ حزيران ١٩١٦ (٩ شعبان) . فهو يقول ان الحسين أقدم على الثورة في هذا الوقت بنتيجة المراسلات التي تبودلت مع السر هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني يومذاك في مصر . وبعد زيارة رونالد ستورز (السكرتير الشرقي لدار الاعتماد في مصر) للحجاز . فضلاً عن خوفه من قيام الحملة التركية . التي كان يؤمل وصولها الى المدينة المنورة في طريقها الى اليمن ، بعزله وتنحيته عن منصبه في مكة .

وقد بدأت الثورة في يوم ٩ شعبان (١٠ – ٦ – ١٩١٨) في الساعة الثالثة والنصف من منتصف ليلة السبت . بأطلاق النار من البنادق على الثكنة العسكرية في مكة وبناية الحميدية التي كانت تضم الدوائر الحكومية . ثم فرض الحصار على القوات التركية التي كانت موجودة في جميع القلاع

---

(١) الص ٢٠٩ المرجع الأخير .

الأخرى . وكان اطلاق النار بهذا الشكل مفاجئاً للموظفين الأتراك وحاميتهم . ولذلك اتصل الضباط بقصر الشريف للاستفسار عن جلية الأمر فقيل لهم ان البلاد قد اعلنت استقلالها . وان عليهم ان يستسلموا في الحال فرفضوا ذلك . وبعد حصارٍ استدام ثلاثة أيام استسلمت حامية مكة . وتبعتها بعد ذلك حامية الطائف التي كان على رأسها حاكم الحجاز العام غالب باشا . وفي ٩ تموز تمّ الاستيلاء على جميع النقاط العسكرية الأخرى في مكة . وفي تشرين الثاني من تلك السنة نودي بالشريف حسين ملكاً على البلاد العربية كلها . لكن الحكومتين البريطانية والفرنسية أبلغتا الشريف في كانون الثاني ١٩١٧ أنهما تعترفان به ملكاً على الحجاز فقط .

ويقول الكولونيل ديغوري ان البريطانيين كانوا يطلبون من الملك حسين أكثر مما ينبغي ، لأنهم كانوا يسعون لشرائه بصراحة على ما كان يبدو . فأن حزنه ودهشته لما تمخض عنه مؤتمر سان ريمو ، حول الانتداب على فلسطين والعراق الذي منح الى بريطانية ، والمعاهدة التي أُريد عقدها معه في الأخير بتقديم الحماية له ومده بالمنح المالية لقاء اعترافه بأطماع الصهيونية في فلسطين ، أمور تذكرها جميع المراجع المختصة على ما يقول . وقد ألحّ في المفاوضات التي تكرر إجراؤها حول عقد المعاهدة على عدم إفساح المجال لليهود في فلسطين لأنهم كانوا يستهدفون إقامة دولة خاصة بهم فيها . وفي آب ١٩٢٣ كتب الملك حسين الى رئيس الوزارة البريطانية يستنجزه الوعود التي بذلوها له خلال الحرب ويطالبه بوجوب وضعها في موضع التنفيذ . لكنه لم يحصل على ردٍ عن ذلك مطلقاً وفي تلك الاثناء تمّ زحف الوهابيين على الحجاز ، وما حلّ تشرين الأول حتى تنازل هو عن العرش . وحينما استنجد بالبريطانيين لمساعدته في الوقوف بوجه الوهابيين أُجيب على آخر نداء وجهه في هذا الشأن بأنهم يعتقدون بان النزاع بين الطرفين كان نزاعاً دينياً لا يستطيعون التدخل فيه . وبذلك عاد الحكم مرة أخرى الى الوهابيين وكان الملك حسين قد تنازل عن الملك الى ابنه

الكبير الملك علي. ويختم [١] ديغوري بحثه هذا بقوله وقد قُدر للحسين ان يقضي نحبه وهو أبيٌ كسير في منفاه بعمان يوم ٤ حزيران ١٩٣١، وان يموت ابنه علي في بغداد يوم ١٤ شباط ١٩٣٥.

لورانس بلاد العرب

وكان من مقتضيات المساعدة البريطانية للشريف حسين في مكة، حينما ثار على الأتراك في ١٩١٦، أن أوفد الى الحجاز عدد من رجال الاستخبارات البريطانية الذين كان يضمهم في القاهرة ما يسمى بـ «المكتب العربي». وكان من أهم هؤلاء وأكثرهم اشتغالاً مع الحسين وأنجاله خلال الثورة العربية الكابتن تي أي لورانس، الذي حصل على شهرة واسعة خلال اضطلاعه بهذه المهمة حتى سمي بلورانس بلاد العرب [٢]. وقد دون لورانس مذكراته وخبرته، ورسائله في كتاب (أعمدة الحكمة السبعة)، وكتاب (ثورة في البادية) وكتاب (رسائل لورانس السرية) [٣]. لكن الذي اشتهر منها هو كتاب اعمدة الحكمة السبعة الذي طبعت منه طبعات عـديدة.

ولاشك ان لورانس كان قد اتصل بالملك حسين وابنائه الأربعة اتصالاً وثيقاً، ولاسيما الأمير فيصل، وتجول كثيراً في البلاد الحجازية عدا مكة المكرمة وما يحيط بها من المنطقة المحرمة على غير المسلمين. ولذلك لم نجد فيما طبع من كتاباته شيئاً خاصاً عن مكة بالذات، لكنه كتب عن الثورة من نواحيها المختلفة بطبيعة الحال، وعن الحسين وأبنائه وحكومته

---

(١) الص ٢٧٦.

(٢) Lawrence of Arabia.

(٣) Lawrence, T. E — Seven Pillars of Wisdom.
- Revolt in the Desert.
- Secret Dispatches of Lawrence.

ولاسيما في « رسائله السرية » التي كان يبعث بها خلال اضطلاعه بالمهمة الى المكتب العربي في القاهرة يومذاك ، والى مراجعه الأخرى . وقد وجدنا من المناسب أن ندرج شيئاً من ذلك هنا [١] .

فهو يقول عن نشوء الثورة في الحجاز ، كما سردها في حديثه اليه « سيدي فيصل » في كانون الأول سنة ١٩١٦ ، ان أخاه عبدالله كان يدور في خلده أول الأمر بأن الحجاز يستطيع مناجزة تركية بمساعدة الجيشين اللذين يمكن تشكيلهما من العراقيين والسوريين ، وبمعونة الأنكليز السياسية . غير ان الفكرة أهملت نظراً لما أبداه فيصل بأن تركية كانت قوية بحيث لا يمكن الوقوف في وجهها . وحينما أعلنت الحرب العظمى قرر الشريف حسين ان فرصته قد سنحت ، فبعث فيصلاً الى الشام لتمهيد الطريق الى ثورة في سورية نفسها فوجد ان الوقت لم يكن مناسباً وأشار على والده بالتريث . غير ان عبدالله أبدى لأبيه ان فيصلاً كان يتهيب ويخاف من إشعال الثورة ، ولذلك تم إشعالها في حزيران ١٩١٦ . وكان الشريف قد أعد البدو للأمر قبل أشهر وأخبرهم بأن لا يتحركوا قبل ان تصل أوامره اليهم .

وفي رسالة من رسائل لورانس السرية منشورة في نشرة المكتب العربي الصادرة في ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٦ نراه يبدي ملاحظات شخصية عن أفراد الأسرة الشريفية ويقول ان المرء يستطيع ان يرى بسهولة ان الشريف وابناءه الثلاثة يعدون أبطالاً في نظر البدو فهو على ما يبدو على درجة من الدماثة ومراعاة الغير بحيث يكاد ان يكون ضعيفاً ، غير ان مظهره ذلك يخبيء وراءه سياسة حصيفة عميقة الغور وأطماعاً بعيدة المدى ، وبعد نظر غير عربي مصحوباً بالعناد وقوة الشخصية .

---

(١) نقلا عن الترجمة العربية للرسائل التي قام بها كاتب هذه السطور ، ولم تطبع بعد .

.. وكانت ميوله عشائرية في الغالب . كما كان وهو ابن ام جركسية موهوباً بسجايا تعد غريبةً عن الترك والعرب معاً . غير انه عزم على أسر قلوب البدو بتنشئة أبنائه نشأةً بدوية . لكن الأتراك كانوا يصّرون على تثقيفهم في استانبول فوافق الشريف على ذلك بطيبة خاطر . ولذلك تلقى جميعهم تربية تركية من الطراز الأول . وتعرفوا خلال ذلك على أحوال العالم . لكنهم ما عادوا من استانبول وهم يلبسون الألبسة الغربية ويتخلقون بالأخلاق التركية حتّى جعلهم يبدلون ذلك في الحال ويراجعون عربيتهم من جديد . ثم كلفهم بأن يخرجوا على رأس دوريات الهجانة لحماية طرق الحج من تعديات البدو . وقد منعوا من العودة الى مكة حتّى في أيـــام العيد .

.. وهم الآن بدو خلص بأجمعهم . وعندهم بمقتضى دراستهم معلومات الموظفين الأتراك وخبرتهم ، ويجري في عروقهم ذلك المزيج المتكون من الذكاء الفطري والحيوية اللذين يتأتيان في غالب الاحيان من اختلاط الدم العربي بالدم الجركسي . وهذا يجعلهم مجموعة عائلية قوية جداً مرهوبة الجانب . ذات أهلية وكفاية تثير الأعجاب .

ويقول لورانس عن « سيدي علي » انه قصير القامة نحيف البنية . تبدو عليه أمارات الكبر برغم كونه ما يزال في السابعة والثلاثين من عمره . وتميل بشرته الى الصفرة في لونها ، وله عينان وسيعتان دعجاوان . وأنف رقيق قليل الانعقاف ، ووجه مجهد كثير التغضن ، وفم ذابل . ولحيته سوداء خفيفة ، ويداه نحيفتان جداً . اما عاداته وطباعه فبسيطة برمتها ، وهو حي الضمير متأن كيس شريف الحصال من دون قوة في الشخصية . وكثيراً ما يجعله ضعفه الجسمي فريسة لنوبات سريعة من الغضب والانتفاض مع حالات من العناد غير الجامح . وهو على مايبدو لا يحمل طموحاً لنفسه . لكنه سهل الاندفاع برغبات الغير . على انه يميل الى الكتب والمطالعة . ولديه اطلاع واسع في شؤون الشريعة والدين . ويبين في سحنته الدم العربي

أكثر مما يبين في اخوته .

اما « سيدي عبدالله » فيذكر لورانس عنه انه يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره . لكنه يبدو أصغر من ذلك . وهو قصير القامة ، ممتلىء التكوين ، ظاهر القوة كالجواد ، مع عينين مرحتين شديدتي الدعج ووجه مدور غير متغضن وشفتين قصيرتين ممتلئتين ، وأنف أقنى ولحية سمراء . يضاف الى ذلك انه صريح في طباعه لدرجة تلفت النظر وكثير الجاذبية ، غير متقيد مطلقاً بالرسميات ولذلك تراه يختلط مع افراد القبائل وكأنه احد شيوخهم . وقد يزن كلماته بتحفظ فيصبح منطقياً قوياً في المناسبات الخطيرة . لكنه قد لا يكون متوقد الذهن مثل ابيه . وهو يجد الآن في بناء مجد اسرته ، ولهذا يمتلىء رأسه بالافكار الغريضة الواسعة التي تختص بنفسه بلا ريب . وسيكون التصادم بينه وبين فيصل أخيه شيئاً موجباً للاهتمام . والعرب يعدونه سياسياً بارعاً ورجل دولة بعيد النظر . لكن ما فيه يدل على أنه سياسي أكثر منه رجل دولة .

ويقول لورانس عن « سيدي فيصل » أنه طويل القامة ، حلو الشمائل ، عنيف ، ملكي الملامح ، يبلغ من العمر احدى وثلاثين سنة . وهو كثير السرعة غير مستقر في حركاته ، كثير التفوق على أخوته في المهابة ، يعرف ذلك عن نفسه فيساوم به . وتصفو بشرته كما تصفو عند الجراكسة الأصلاء ، مع شعر فاحم وعينين سوداوين تشع منهما الحياة وتتركبان في وجهه بشيء من الميل ، وأنف أشم وذقن قصير . ولذلك يلوح للرائي كأنه أوربي . شديد الشبه بتمثال ريشارد الاول . وهو حاد المزاج صعب المراس قليل الصبر ، غير معقول احياناً ، يبدل اتجاه حديثه بصورة مفاجئة . ويمتلك من الجاذبية الشخصية والحيوية أكثر بكثير مما يمتلكه أخوته منهما ، غير أنه أقل منهم فطنة وتبصراً . كما أنه شديد البراعة غير كثير الوسواس احياناً . لكنه قد يكون ضيق الفكر متسرعاً عندما يعمل بتحريض من الغير . ومع هذا فأنه عنده ما يكفي من قابلية التأمل والتفكير بحيث يستطيع إصدار

الأحكام الصحيحة . وفوق هذا كله فهو صنم محبوب طموح ، تمتلىء مخيلته بالاحلام ويتصف بالقدرة على تحقيقها ، مع عمق نظر شخصي حاد كما انه رجل عمل كثير الكفاية .

ويقول عن الشريف زيد انه يناهز العشرين من عمره ، ويطغى عليه بالكلية صيت اخوته وسمعتهم . وهو كثير الاقتداء بأمه التركية ، مولع بركوب الخيل واللعب من فوقها . ولم يُعهد اليه بأية مهمة ذات شأن لكنه فعال متحرك . ومع ان طباعه فيها القليل من الفظاظه الا انه رفيق غير عاطل . وهو خجول بشوش ، وقد يكون احسن توازناً من اخوته الى حد ما لأنه على جانب أقل من الحدة .

اما بالنسبة لعقيدة الشريف وآرائه الدينية فيقول لورانس في نشرة المكتب العربي الصادرة في ٢٨ تموز ١٩١٧ ان الشريف حسين قد أوضحها للكولونيل ويلسن بحضوره . وهو يعتقد ان الشريف شافعي في الظاهر . وكان يتخذ موقفاً وسطاً بين الشيعة وأهل السنة عند تحدثه ، لكن المعتقد بوجه عام انه يعتنق العقيدة الزيدية . ويقول لورانس كذلك ان (سيدي عبدالله) شيعي بالصراحة تقريباً ، وهو كثير الميل الى الجعفرية ، وان سيدي علي جازم في سنيته . اما سيدي فيصل فهو غير اصولي ويميل الى اتخاذ موقف غير واضح بالنسبة للعقيدة الدينية ، لكنه قد يكون شيعياً اكثر منه سنياً برغم الغموض الذي يبدو فيه . على انهم كلهم غير ميالين الى إظهار موقفهم الحقيقي في هذا الشأن ، ويحافظون على اعتراف لا مطعن فيه بالشافعية امام الناس .

وقد سأل لورانس الشريف الاكبر عن حقيقة اللقب الذي يلقبه به العرب الشماليون ، وهو لقب « امير المؤمنين » ، وهل يلاقي ذلك التلقيب قبولاً عنده ، فأجاب بعد شيء من التأمل بالنفي . ثم قال له ان الناس ينسبون له اطماعاً لا شيء منها عنده ، وانه سمعهم يتحدثون عن إحيائه للخلافة . وبادر الى توضيح موقفه من ذلك ايضاً بقوله ان الخلافة قد انتهت بأبي بكر .

وان إحياءها اليوم يعد ضرباً من السخافة . لا بل كفراً بالنسبة لقواعد الدين وأصوله ، وانه لن يتدخل قطعياً في شؤونها . وقال الشريف علاوة على ذلك ان فكرة الخلافة الأسلامية كان البريطانيون قد اقترحوا استغلالها على السلطان عبد الحميد فاستغلها فعلاً ليضرب الشرفاء بها . وكان ذلك شيئاً قاضياً على هيبة الأسلام لأنه حاول قلب الدين الى عقيدة سياسية ، فتحمل مسؤولية القلاقل التي وقعت في تركية وجزيرة العرب وشمال أفريقية وجاوة والهند والصين . وهو بالنسبة لهذا المثل السيء أمامه ، وبالنظر لصداقته مع بريطانية العظمى ، لا يسعه الاعتراف بخلافة أخرى أو بوجوب تسنمها على ما يقول .

ويعود لورانس فيذكر بعد كل ذلك أنه يرى شخصياً بأن الشريف حسيناً لا يمكن ان يرفض لقب « أمير المؤمنين » اذا ما جاء عن طريق مبايعة أتباعه له بهذه الأمارة . وليس بطريق انتحاله اللقب من تلقاء نفسه . هذا ويقول لورانس بالمناسبة ان تلقيب الشريف بهذا اللقب كان شائعاً في الحجاز يومذاك بين القبائل من قاف الى قنفذة .

استيلاء الوهابيين على مكة

لقد كان استيلاء الوهابيين على مكة نقطة تحول خطيرة في تاريخ البلد الحرام ، وصفحة جديدة من صفحات تاريخه المفعم بالحوادث . وخير من يصف هذا الحدث المهم ، وما يحيط به من مضاعفات ، من الغربيين سنت جون فيلبي الذي اعتنق الأسلام على يد الملك عبد العزيز السعود فأصبح يسمى باسم الحاج عبدالله فيلبي[1] . فقد أشار فيلبي الى استيلاء الوهابيين

---

(١) والمعروف عن المستر فيلبي انه كان يكره الملك حسين ويكره اولاده ، وقد كان له الموقف المعارض بشدة في ترشيح احد انجال الملك حسين للعراق مما رواه مؤرخو السياسة وبما سيقرؤنه فيما بعد .

الخليلي

على الحجاز كله في معظم كتبه تقريباً ، لكن اهم كتابين يرد ذكر هذا الحادث فيهما هما كتاب (اليوبيل العربي).وكتاب (أربعون سنة في الأوعار [1]).

فهو يعود بالحادث الى أيام الملك حسين ، ومبايعة بعض العرب له بالخلافة ، ويقول في (اليوبيل العربي) ان مصطفى كمال كان قد اعلن ألغاء الخلافة في تركية فتمسك الملك حسين تمسكاً قوياً بخرقة النبي ، الى ان يقول : ولو كانت الظروف غير الظروف التي كانت تحيط بالملك حسين لرحب العالم الأسلامي بهذا الحادث الذي تعود فية الخلافة الى رجل من آل البيت النبوي الكريم ، ولكن الحسين لم يستطع الحصول على التأييد المطلوب لادعائه الا في شرقي الاردن وسورية والعراق ، حيث تمكن أولاده فيها من استحصال بعض الدعم والتأييد . ووصل الى عمان في كانون الثاني ١٩٢٤ ، ونودي بخلافته رسمياً في عمان يوم ١٤ مارت بعد ان جرى الشيء نفسه في الجامع الأموي في دمشق .

وفي آب من تلك السنة وصل هجوم الأخوان الوهابيين الى زيزا في جنوب عمان وبمفاجآة مذهلة وقع في اليوم الثالث من أيلول ما لم يكن في الحسبان . فقد ظهرت قوة وهابية كبيرة يقودها سلطان بن بجاد في ضواحي الطائف عاصمة الحجاز الصيفية . فانسحب الأمير علي ، ابن الملك الأكبر ، مع قواته على عجل الى ما يقرب من مكة تاركاً الطائف لمصيرها المحتوم . واستسلمت من دون مقاومة تذكر ، ولم يجد ابن بجاد صعوبة في التخلص من علي وقواته في موقعه حدة التي تقاطرت على أثرها الى مكة فلول تلك القوة والمدنيين الهاربين من سكان الطائف .

وسرعان ما تناهت هذه الأنباء الى ابن سعود في الرياض ، فاندهش

---

(١) Philby, H. St. Gohn -- Arabian Gubilee, London 1952.
— Forty Years in the Wilderness, London 1957.

في سهولة تداعي خط الدفاع الحجازي أمام هذا التعرض البسيط . وأصبح يعنى في الدرجة الاولى بما سيحدث بعد هذا ، ويتوقع حدوث معركة في مكة قد تؤدي الى كثير من القتل واراقة الدماء . ولأجل ان يحد من تعصب رجاله المتطرفين بعث بأوامر مستعجلة الى الجبهة يمنع فيها احتلال مكة بالقوة ويحث الوهابيين على ضبط انفسهم حتى يصل اليهم هو بنفسه . والحقيقة ان الأمير علياً كان في تلك الأثناء قد تجاوز مكة خلال فراره ، امام الوهابيين الى جدة . فقرر الملك حسين بعد كثير من الاحجام والتردد ان يخلي مكة المكرمة ليتحاشى وقوع معارك دموية في شوارعها . ولذلك وقع شرف احتلال مكة من دون مقاومة على عاتق سلطان بن بجاد . ولم يتعرض احد خلال ذلك بسكان مكة انفسهم ، لكن بعض القبب المشادة فوق قبور مقبرة المعلا قد هدمت ونهبت ممتلكات بعض الشرفاء .

اما في جدة فقد رضخ الملك حسين لضغط الرأي العام عليه ، وتنازل عن العرش لأبنه علي ، ثم استقل باخرة من البواخر مع أسرته الى العقبة التي كان قد نزل فيها قبل سبعة اشهر فقط في طريقه الى حيث نودي به خليفة للمسلمين . وقد كانت مهمة الملك علي في الدفاع عن جدة مهمة شاقة . ولذلك حاول فيها ان يحسم الخلاف مع ابن سعود بالحسنى فاستقدم من الخارج لهذا الغرض السيد طالب النقيب ، وأمين الريحاني ، والمستر فيلبي ، ويقول فيلبي أنه نصحه بمقابلة ابن سعود شخصياً حينما يصل الى مكة . ويستسلم . على ان مستشاريه العسكريين حرضوه على قتال الوهابيين وردهم الى باديتهم ، بعد ان يصل اليه المتطوعون من سورية وشرقي الاردن .

ويقول فيلبي في (أربعون يوماً في الاوعار [1]) ان الملك حسيناً ابرق الى ابنه من العقبة في مثل هذا الوقت العصيب ، الذي كان الجو مشحوناً فيه بالتأزم ، يطلب اليه الاستماتة في الاحتفاظ ولو بجزء صغير من البلد

(١) Fourty Years in Wilderness : الص ١٢٢ .

الذي ولدت فيه الثورة العربية . فتقرر عدم الرد عليه .

ويفهم مما كتبه فيلبي ان المفاوضات والوساطات بين الطرفين لم تجد نفعاً فترك جدة في يوم ٣ كانون الثاني ١٩٢٥ . وأخذ ابن سعود يقصف جدة بمدفعيته في اليوم الثاني بعد أن وجه إنذاراً لأهاليها بالاستسلام . ويقول فلبي انه عاد الى جدة في تشرين الثاني من تلك السنة ليشهد المرحلة الأخيرة من انهيار المملكة الهاشمية في الحجاز . لكنه يذكر ان رجلاً انكليزياً آخر يدعى ايلدون رتر **Eldon Rutter** كان قد قضى صيف ١٩٢٥ وخريفه كليهما في مكة منتحلاً صفة أحد الحجاج المسلمين ، فكتب كتاباً مهماً في ذلك (لم نعثر عليه مع الأسف) يصف فيه أول عهد ابن سعود في حكم الحجاز . وهو يصفه شخصياً كذلك ، ويصف ديموقراطيته وبساطته المحببة للناس . فيقول « .. ان طموحه الشخصي لا يحده حد ، لكن الذي يخفف من وطأته هو ما عنده من حذر وقابلية تمييز شديدة . وهو عدو لا يرحم في المعارضة والحرب ، لكنه أعظم العرب أنسانية في التاريخ عند النصر . اما طريقته في الحكم فمن مزاياه فيها أنه يلجأ الى المشورة والرأي حتى بين الأقارب ، ويعد حكمه حكماً مطلقاً في أساسه » .

وبعد ان استولى ابن سعود على الحجاز أدرك البريطانيون ان وجود الملك حسين في العقبة سيؤدي بطبيعة الحال الى تدفق الجيش الوهابي على حدود شرقي الأردن وفلسطين . فاتخذوا الخطوات اللازمة لنقل الملك اللاجىء على ما يقول فيلبي الى قبرص ، واحتلوا العقبة بسرية من السيارات المصفحة . فكان لذلك وقع سيء عند ابن سعود الذي أبدى تذمره لأيلدون رتر .. ولأجل ان يظهر ابن سعود للعالم بأنه غير عازم على التخلي عن أي جزء من مسؤوليته الجديدة تجاه الحجاز . اتخذ الترتيبات اللازمة للمناداه به ملكاً عليه خلفاً طبيعياً للأسرة الهاشمية ، بعد ان تشاور مع سكان مكة والمدينة وجدة ، ورؤساء العشائر . فتم ذلك في المسجد الحرام بمكة المكرمة بعد صلاة الجمعة في اليوم الثامن من كانون الثاني ١٩٢٦ .

وكان من حسن حظ المستر ايلدون رتر ان يحضر هذه المناسبة العظيمة . التي صادف وقوع يوبيلها الفضي في نفس اليوم الذي وقع فيه اليوبيل الذهبي للمناداة به ملكاً في الجزيرة العربية ، بالتقويم القمري .

أسلام عبد الله فيلبي

كان المستر سنت جون فيلبي ، أو الحاج عبدالله فيلبي ، قد بدأ الاتصال بالعرب عند أول اشتغاله في العراق مع الحملة البريطانية التي نزلت الى البر العراقي سنة ١٩١٥ لمقاتلة العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى . وقد ازداد تعلقه بالعرب وتقربه لهم خلال مدة وجوده في العراق ، واتجه اتجاهاً خاصاً نحو السعوديين والملك عبدالعزيز السعود بعد ان أوفد بمهمة رسمية خاصة اليه . وصار يكره الهاشميين بعد ذلك ويدعو الى آل سعود في كل فرصة او مناسبة . فأدى به ميله هذا الى مقاومة فيصل الأول عندما جاء الى العراق ، والدعوة الى تأسيس حكم جمهوري فيه . فأخرج من وظيفته على أثر ذلك ، وتقلبت به الأحوال حتى استقر عند الملك عبدالعزيز السعود بعد ان توفق في احتلال الحجاز ، وصيّر عاصمة ملكه في مكة المكرمة سنة ١٩٢٦ .

وحينما توطدت علاقته بالسعوديين على هذا المنوال وبقي مقيماً في الحجاز والرياض أُشيع عنه انه تزوج من أميرة سعودية فتركته زوجته الانكليزية وعادت الى بلادهـا . وكان لا بد له من ان يفكر بالأسلام واعتناقه للدين الأسلامي وهو في وضعه هذا ، ففعل ذلك على يد الملك عبدالعزيز السعود . فهو يقول في كتابه (أيامي في البلاد العربية [١]) :

---

(١) Philby, H. St. Ghon — Arabian Days, London 1947.
وهو الكتاب الذي ترجم فصلا كبيراً منه عن العراق كاتب هذه السطور ونشره في كتيب رانه (أيام فيلبي في العراق) ، بيروت ١٩٤٩ .

.. ومنذ أيامي الأولى في الهند انجذبت الى الأسلام انجذاباً تاماً لتأكيده الشديد على ما كان يبدو لي صالحاً من الفلسفة وأساليب الحياة. وكنت قد تخليت عن المسيحية منذ مدة طويلة لأكون فيلسوفاً ليس له حس ديني خاص او اقتناع بأي دين من الأديان. مع أنني كنت أعترف بأن الدين في حد ذاته يعد ضرورة لا مناص منها للسواد الأعظم من البشر. وكان الاسلام في الهند من جهة أخرى يبدو لي أنه قد حُمّل بأكثر مما يجب من المبادىء والطقوس غير الأساسية التي كان يصعب قبولها من دون تحفظ واحتراز زائد. وقد وجدت أهل السنة في العراق على شيء غير يسير من الضحالة وعلى جانبٍ كبير من الرسميات في ممارسة الدين او التفكير به. بينما لم تجذبني العقيدة الشيعية بقديسيها وعلمائها الأصوليين. ولذلك لم تتح لي الفرصة للاتصال بما كنت أعتقد أنه الشكل النقي الطاهر من الأسلام الا عندما ذهبت الى جزيرة العرب. التي ألفيت فيها ذلك الأسلام الذي يستمد تعاليمه بالكلية من منابع وحيه الأصلية في القرآن وسنة النبي الأعظم. من دون ان يمت بشيء من الصلة الى ما طرأ على التعاليم الأصلية من تفسير وتأويل بعد ذلك. وقد لاح لي بعد درس عميق ان العقيدة الوهابية هي الشكل المثالي للدين. وان تعصب أتباعها لم يكن مكروهاً في نظري أنا. ذلك لأنني وجدت عند الوهابيين مزية غير موجودة عند غيرهم. وهي أنهم يمارسون ما يعتقدون به ويدعون اليه بصراحة. وان عقيدتهم تبدو متفقة تمام الاتفاق مع ما تتطلبه حياة الأنسان والمجتمع البشري بأبسط أشكالهما. وهي عقيدة يستطيع المرء ان يتقبلها بسهولة. ويتخذها دليلاً في حياته ومسلكه من دون ان تستولي عليه ذهنية عدم النزاهة في الفكر. كما أن مقاييسها الاخلاقية تناسب. على ما يبدو. حاجات البشر الأساسية أحسن مما تناسبها الديانات الأخرى كالمسيحية مثلاً. ولئن كان تشريعها قاسياً من بعض الوجوه. فهي لا تقر الزيف. اما تعدد الزوجات الذي تقره وتعترف به. والذي كثيراً ما كان هدفاً

للنقد والتجريح . ففيه من التدابير الواقية ضد العهر والفسق ما يفضل على التدابير الموجودة في الوصايا العشر [1] ..

وبعد ان يسرد فيلبي في كتابه المشار اليه كيفية دخوله الأسلام واعتناقه أياه نهائياً . وأخذه الى مجالس الملك ابن سعود في مكة يقول :

.. وقد روى الملك للمجلس المحتشد كيف صفقت السيدة نورة شقيقته من فرحها عندما سمعت أنني اصبحت مسلماً ، ثم قص عليهم بعض ما كان دار بين كلينا من الحديث في هذا الشأن . ثم قال فجأة اننا يجب ان نجد له أسماً جديداً ؛ فماذا تقترحون كلكم ؟.. لماذا لا نسميه عبدالله ؟ نعم . فليكن اسمه عبدالله . عبدالله فيلبي . وهكذا كان منذ ذلك الوقت حتى اليوم ..

ويكتب فيلبي في (أربعون عاماً في الأوعار) فصلاً [2] خاصاً عن خطواته الأولى في الأسلام على ما يسميها ، ويقصد بذلك حجه الى بيت الله الحرام لأول مرة . اي بعد ان اعتنق الأسلام . ويفهم مما كتبه في هذا الفصل انه كان قد فاتح صديقه الملك عبدالعزيز منذ مدة برغبته في اعتناق الاسلام وحجه الى البيت الحرام . لكن الملك كان يوصيه بالصبر والانتظار . وقد أشار عليه بعد ان أسلم بان يقضي « مدة تجربة » في جدة تستغرق عدة أشهر قبل ان يقدم على أداء هذا الواجب الديني المقدس ، لكن الأقامة في جدة طوال هذه الأشهر كانت شيئاً لا يروقه وفاتح الملك بأن يقضيها معه في مصيفه الجميل بالطائف على ما يقول . فاستجاب له الملك ، وفي يوم ٧ آب ١٩٣٠ اتصل به تلفونياً وأمره بأن يستعد للتوجه الى مكة بعد ظهر ذلك اليوم نفسه حيث تدبر له زيارة البيت الحرام .

---

(١) أيام فيلبي في العراق ، الص ١٣ و١٤ .
(٢) الفصل السابع ، الص ١٤٣ .

ويقول فيلبي ان ذلك قد تم بالفعل فوصل بعد ان ترك جدة بساعتين الى واحة الحده في وادي فاطمة الكائنة على بعد أميال معدودة عن منطقة مكة المحرمة التي كان ينتظره فيها وفد من الشخصيات المرموقة من مثل الشيخ عبدالله السليمان وزير الماليه السعودي . والشيخ فؤاد حمزة نائب وزير الخارجية ، اللذين أوكل لهما الأشراف على قضية دخوله الى مكة المكرمة . وبعد ان التقى بالوفد المذكور في مخيم خاص . توضأ وأحرم وأخذ بالسيارة الى بيت الشيخ عبدالله الجميل الكائن في ضواحيها الغربية . بعد ان مر بالشميسي والعلمين اللذين يدلان على الحل والحرم . وبقهوة العبد (قهوة سالم) وما فيها من بئر ومقهى . ثم بالمقتلة وأم الدود وبستان البير وجرول .

وبعد ان تناول العشاء متأخراً تلك الليلة . وهي ليلة المولد النبوي لسنة ١٣٦٠ هـ ، جيء له بسيارة خاصة قبيل منتصف الليل وأخذ بصحبة «مطوع» من مطوعي الوهابية يدعى صالح العنتري . ويقول فيلبي انه توجه الى البيت الحرام مع هذا المطوع بقلب خافق . وهو آخر الملتحقين بأبسط الأديان وأشدها تأثيراً في النفس . بالدين الذي يقول نبيه الكريم (كل مولود يولد على الفطرة ، وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه) .

ثم يتابع وصف دخوله الى البيت الحرام فيقول .. وبعد ان تركت الخفين في خارج العتبة العالية ، التي تصد المياه المتدفقة عند هطول الأمطار . سلمت قيادي الى دليلي الذي أمسك بمعصمي الأيمن وأدخلني من (باب السلام) الى صحن الحرم الكبير الذي كان يمتد أمامنا بروعة وبهاء في ضوء القمر اللامع . وكانت تقوم في وسطه الكعبة المشرفة . المجلله كلها بالكسوة السوداء . التي كان يدور حولها من ثلثي ارتفاعها عن الأرض حزام من الكتابة المنقوشة بالفضة . وكان بضع مئات من الناس ينتشرون في الصحن الكبير هنا وهناك . للصلاة وسائر أنواع العبادة والتأمل . بينما كان عشرات الناس غيرهم يطوفون حول الكعبة مكونين تياراً لا

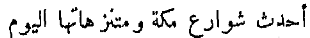
ينقطع الا في أوقات الصلاة . وقد سرت . وأنا أكرر الأدعية والجمل الدينية التي يتلوها دليلي الآخذ بيدي على الدوام . على طول الممشى المبلط بخشونة الى وسط المسجد الحرام حتى وقفت بين يدي الكعبة نفسها . وكان الكشك المشاد فوق مقام ابراهيم (او مصلاه) ، والبناء المبني فوق بئر زمزم . يقعان على يميني وشمالي بالتعاقب ، حينما كنت أواجه الحجر الأسود الموضوع بارتفاع الكتف في الركن الشرقي للكعبة المشرفة نفسها . وحالما تنحى الحجاج الآخرون عن الحجر تقدم دليلي اليه بخشوع فقبله ، ففعلت كما فعل ، ثم قادني للطواف سبع مرات حول الكعبة وهو يتلو الجمل الدينية المطلوبة لأكررها بعده . وكنا نقف في كل دورة لنقبل الحجر الأسود ، كما كنا في الركن الجنوبي نحيي على الشاكلة نفسها الحجر اليماني الذي كان عبارة عن قطعة غير منتظمة من الغرانيت ناتئة من فتحة في العمود .

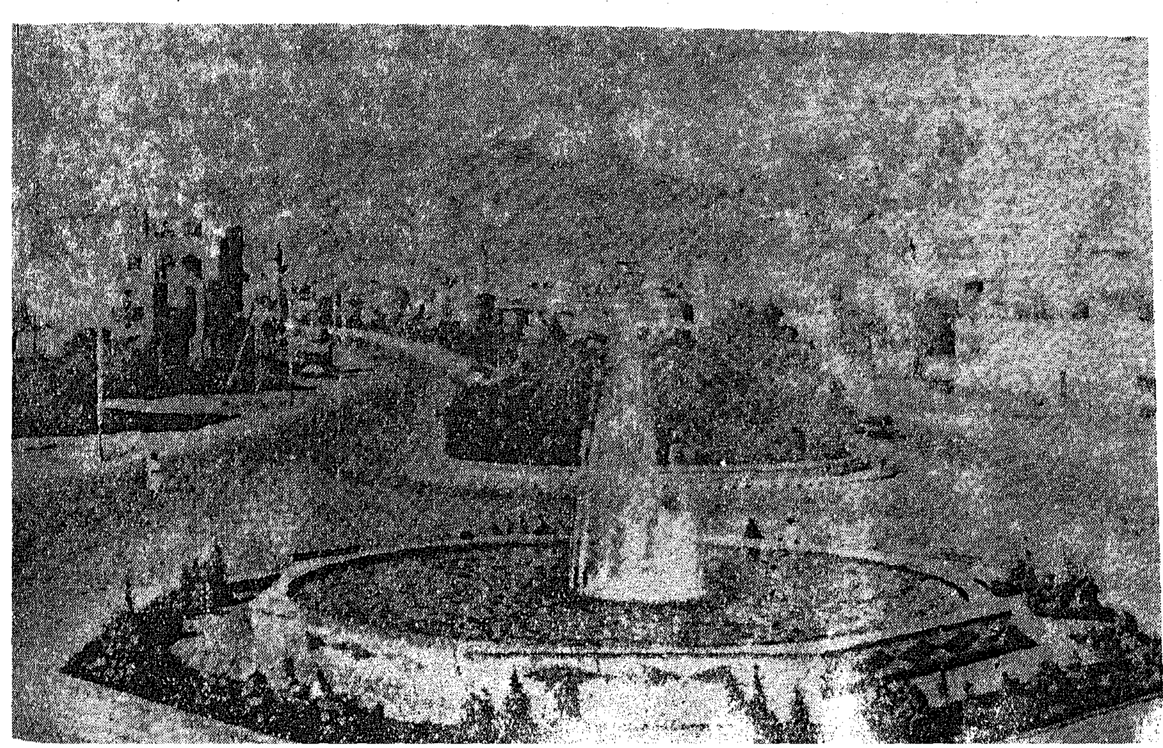
وحينما انتهينا من الطواف في الدورات السبع ، انتقلنا الى مقام ابراهيم لأداء ركعتين من الصلاة فيه كالمعتاد ، ثم انتهت الشعائر بزيارة لبئر زمزم حيث شرب كلانا قدحاً من الماء المقدس الذي وجدته شيئاً مستساغاً خالياً من التأثير السيء في المعدة ، على خلاف ما ذكره الرحالة بورتون وغيره ممن انتقد مذاقه ومحتواه الكيمائي . والحق ان شعيرة الطواف كانت شيئاً مؤثراً في النفس ، الى أبعد ما تستطيع الكلمات وصفه وتحديده . لكن الغريب في الأمر أنها كانت تكاد تكون شيئاً مألوفاً عندي كما لو كنت قد قمت به من قبل . ولاشك ان ذلك قد يكون مرجعه كثرة ما قرأته واطلعت عليه من كتب الحج وشؤونه من قبل .. ويمكنني ان أدعي بالنسبة للعطف الذي شملني به عبد العزيز السعود من دون مبالغة بأني كنت أول شخص دخل الأسلام دخولاً فعلياً وهو في وسط جمع حاشد من الرموز والأنصبة التاريخية العريقة ، وعلى مقربة من المسجد الحرام في مكة .

وبعد ان تركنا المسجد الحرام من (باب الصفا) توجهت مع دليلي

الى أداء شعيرة السعي . المنطوية على على قطع المسافة ما بين تلي الصفا والمروة سبع مرات متتاليات على الاقدام . أي قطع مسافة تقدر بثلاث مئة وثمانين ياردة . ويتم هذا السعي بالهرولة عبر الطريق العام خلال خمس وثلاثين ياردة ، ومشياً على الاقدام خلال المسافة المتبقية . وقد كانت مسافة الميل والنصف من هذه المرات السبع المارة في طريق وعر غير مبلط مسافة متعبة حقاً ، حينما تتخللها الوقفات القصيرة في نهاية كل مرة لأداء الصلاة في اتجاه الكعبة . ولذلك سرني ان أعود الى دار الشيخ عبدالله السليمان لأقضي بقية الليل مرتاحاً فيها ، بعد ان بقيت فترة قصيرة من الزمن أتحدث فيها الى ضيف آخر في البيت هو المهندس البولوني المسلم فؤاد أحمد سافيشكي الذي كانت بعهدته الورشة الحكومية يومذاك .

وفي صباح اليوم الثاني ، الجمعة ، شرفني بالزيارة الشيخ عبدالله ابن


أحدث شوارع مكة ومتنزهاتها اليوم



حسن أحد العلماء الوهابيين في مكة ، الذي كان ينتمي الى أسرة مؤسس الوهابية الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وكان قد جاء ليهنئني على اعتناقي الأسلام ، ويدبر أمر اصطحابي له مع سائر أقطاب المذهب الوهابي في مصلى الداودية لأداء صلاة الجمعة في المسجد الحرام . والى ان يحين ذلك الوقت أخذني الشيخ فؤاد حمزة لمشاهدة معالم مكة وضواحيها القريبة بالسيارة . وبعد أن أديت صلاة الجمعة لأول مرة في حياتي عدنا جميعاً الى بيت عبدالله السليمان للغداء : وكان الشيخ عبدالله بن حسن رقيقاً جداً في استقبالي والاحتفاء بي . وقد ضحكنا حينما تحدثت اليه عن ما كان قد جرى ذات يوم قبل سنوات . فقد صادفني في قهوة بير ابن حساني الواقعة في طريق المدينة فاعترض اعتراضاً شديداً على وجود كافر مثلي يومذاك في تلك الجهات . وكانت الملاحظة التي ابداها اليوم «انه لم يكن بيني وبين جهنم يومذاك سوى الموت ، اما اليوم فتوجد الجنة اذا استجاب الله تعالى لأسلامي واعتبره شيئاً نابعاً من القلب » .

ويفهم مما يذكره الحاج عبدالله فيلبي في فصل[1] آخر من كتاب (أربعون عاماً في الأوعار) انه خرج من مكة بعد زيارة الحرم الشريف لأول مرة في حياته . وعاد الى الطائف فرحب به الملك ابن سعود وسماه عبدالله على النحو المار ذكره قبل هذا . لكنه عاد الى مكة مرةً ثانية بعد ذلك ليقيم فيها ويصبح مواطناً من مواطنيها المرموقين ، وكان ذلك في تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ . وهو يقول أنه قضى عند عودته اليها يومين في ضيافة عبدالله الفضل رئيس المجلس الاستشاري حتى وجد له بيتاً خاصاً يعيش فيه . فتم له ذلك وسكن في الدار رقم ٢٧ من محلة جرول المعروفة

(١) الفصل الثامن ، الص ١٦٤ .

في مكة ، بقرب حدائق البلدية وقصر وزير المالية . وهو يقول « .. وفي اليوم الأخير من تشرين الأول ١٩٣٠ اصبحت مواطناً من مواطني مكة ، وبقيت كذلك مدة ربع قرن . »

مراسيم الحج وفرائضه

كتبه

الخطيب جواد شبر

عضو جمعية منتدى النشر
وجمعية الرابطة العلمية في النجف

فريضة الحــــج

الحج لغة هو القصد ، ولهذا سمي الطريق محجة لانه يوصل الى المقصود . والحج شرعاً هو القصد الى بيت الله الحرام واداء مناسك خاصة وطقوس معينة في زمن معين ، وهو واجب على كل مسلم ومسلمة تتوفر فيهما الشروط المعينة .

وتتفق طقوس الحج وكيفية ادائها عند جميع المذاهب الاسلامية باستثناء فرق طفيفة اوردنا اهمها في آخر هذا البحث .

والمتفق عليه عند عامة المسلمين ان الحج يجب في العمر مرة واحدة ، ووجوبه عند حصول الاستطاعة . ومن وجب عليه الحج فاتى به فمات في الاثناء ، فان كان بعد الاحرام ودخول الحرم اجزأه والا فلا .

شروط وجوب الحج

هي : ١ ــ البلوغ . ٢ ــ العقل . ٣ ــ الاستطاعة وذلك بأن يكون مالكاً مؤونة السفر من الزاد والراحلة ذهاباً وإياباً ، وقادراً على تموين عياله الذين وجبت نفقتهم عليه . وكان سالماً من المرض متمكناً من السير وغير خائف في الطريق

واول واجبات الحج هو الاحرام من احرم يحرم اذا اهلّ بالحج

والعمرة وباشر اسبابها وشروطها من نخلع المخيط ، واجتناب الاشياء التي منع منها الشرع . وهو توطين النفس على اجتناب تلك المحرمات التي نهى الاسلام عنها وسيأتي الكلام عليها .

واجبات الاحرام

١ — لبس ثوبي الاحرام ، للرجل وهما : ازار ورداء يأتزر باحدهما ساتراً ما بين السرة والركبة ، ويرتدي بالآخر ساتراً للمنكبين . ويجب ان يكونا غير مخيطين للرجال ، ويعتبر في الثوبين مما تصح فيه الصلاة .

٢ — النية وهي القربة والاخلاص فينوي الاحرام لعمرة متمتع بها الى حج التمتع حج الاسلام لوجوبه قربة الى الله تعالى .

٣ — التلبية وهي قول الحاج : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

ويجب النطق بها على النهج الصحيح وتجب مرة واحدة إذ لا ينعقد الاحرام الا بها . وقد تتكرر استحباباً .

محرمات الاحرام

يجب على المحرم ان يلتزم بترك ما يحرم فعله ما دام محرماً ، وهي محرمات الإحرام الواجب على المكلف ان يلزم نفسه بتركها .

١ — صيد الحيوان البري وذبحه ، دون غيره من الحيوانات ، وكذلك امساكه واكله والاعانة على صيده بدلالة أو اشارة او نحو ذلك من اساليب الصيد أو الذبح ، قال تعالى (ولا تقتلوا الصيد وانتم حرم) اما السباع الضارية اذا كان يخاف منها ، او السباع من الطيور اذا اذت حمام الحرم فيجوز قتلها حفظاً لنفسه ولحمام الحرم ، فاذا اصطاد المحرم الصيدَ أو

ذبحه كان ميتة ، ويحرم عليه وعلى كل احد أن يأكل منه . نعم لا يحرم قتل الحية والعقرب والفأرة ، ولا كفارة في قتل الزنبور خطأ ، وفي قتله عمداً صدقة بشيء من طعام .

هذا اذا كان الصيد برّياً . اما الصيد البحري فلا يحرم .

وكما يحرم الصيد على المحرم ولو كان في غير الحرم ، كذلك يحرم الصيد على المحل في داخل حدود الحرم وتلزمه الفدية كما تلزم المحرم ولو قتل المحرم الصيد في الحرم لزمته الكفارتان : القيمة والعين .

٢ ــ تحرم مباشرة النساء على المحرم وطأً ، بل حتّى التقبيل واللمس بشهوة .

٣ ــ عقد النكاح سواء كان ذلك لنفسه ام لغيره ، دائماً او منقطعاً ، وسواء كان للمحل أو المحرم .

ويجوز الرجوع بالمطلقة في حال الاحرام .

٤ ــ الشهادة على النكاح ولو لغيره .

٥ ــ الاستمناء بأي سبب كان بالملاعبة أو باليد أو غير ذلك .

٦ ــ الطيب بجميع اقسامه وانحاء استعمالاته كالمسك والعنبر ، والعود ، والزعفران ، والكافور ، وعطر الورد وغيرها من العطور ، وحتّى الهيل والقرنفل . فلا يجوز وضع ذلك في الثياب ولا في الطعام والشراب أو دهن البدن به . ولكن لا بأس بأكل الفواكه العطرية كالتفاح والسفرجل وبقية الفواكه .

٧ ــ لبس المخيط للرجال فقط دون النساء . ويستثنى من ذلك محفظة الدراهم .

٨ ــ لبس الخف والجورب ونحوهما مما يغطي ظهر القدم ، وخير شيء هي احذية (الاسفنج) ولا بأس بستر ظاهر القدم بثوب الاحرام

أو ثني الركبة عند الجلوس او تحت الدثار عند المنام .

٩ ــ الاكتحال بالسواد .

١٠ ــ النظر في المرآة مطلقاً ، سواء كان بقصد الزينة ام بقصد آخر ، واذا نظر في المرآة استحب له تجديد التلبية ــ رجلاً كان الناظر او امرأة ــ ولا بأس بالنظر في الماء الصافي .

١١ ــ الفسوق ــ اي الكذب سواء كان على الله أو على الرسول او الأئمة عليهم السلام ، أو على الناس . والسباب والمفاخرة وكل كلام بذيء ولفظ قبيح .

١٢ ــ الجدال ــ وهو قول ــ لا والله ، وبلى والله ــ اما في اظهار المودة وتقديم الاكرام والانعام وعند اثبات الحق ودفع الباطل فلا بأس به .

١٣ ــ التختم ــ وهو لبس الخاتم للزينة . ولا بأس بلبسه اذا كان للسنة ــ اي للاستحباب الشرعي ــ ويجوز للمرأة لبس ما اعتادت من الحلي.

١٤ ــ الادهان ــ بأن يطلي جسده بالزيت أو السمن او غيرهما من الادهان ، حتى ولو لم تكن فيه رائحة طيبة الا للضرورة كاستعماله وقاية من تشقق الجلد .

١٥ ــ ازالة الشعر مطلقاً الا للضرورة مثل الوقاية من القمل أو خشية الصداع . ويكره الاحرام في الثياب الوسخة وان كانت طاهرة .

١٦ ــ الحنّاء للزينة ، والاولى تركها مطلقاً . ويستحب النظافة في البدن والثياب قبل ذلك .

١٧ ــ تغطية الرأس اختياراً ، ويحرم ذلك على الرجل دون المرأة .

وتجب عليه الفدية عند تغطية الرأس[1] .

١٨ ـ تغطية المرأة وجهها بنقاب وغيره مما يلصق على الوجه كلاً او بعضاً وحتّى في حال النوم .

١٩ ـ التظليل للرجال اختياراً في حال السير الا اذا كان ماشياً ، فيجوز ان يمر تحت الظل عابراً .

٢٠ ـ إخراج الدم من البدن بأي سبب كان . بالقصد أو بالحجامة او السواك او حك الجلد .

٢١ ـ قلع الضرس وان لم يخرج الدم عدا الاضطرار .

٢٢ ـ تقليم الأظافر ولو ظفراً واحداً او بعض ظفر الا مع الأذى يجوز تقليمه .

٢٣ ـ لبس السلاح بأنواعه . اما (السكين) الصغيرة للشؤون الخاصة فلا بأس بها . ويجوز حمل السلاح اذا خاف من عدوّ أو سارق بشرط اخفائه .

٢٤ ـ يحرم على المحرم وغيره قطع كل نبت في الحرم وكذلك قلعه ، ويستثنى من ذلك (الاذخر)[2] وكذلك يستثنى النخل والفواكه ، وما كان الانسان قد غرسه هو بنفسه ، او كان نابتاً في ملكه أو في منزله ويكره الكلام بغير ذكر الله تعالى .

---

(١) الفدية عند تغطية الرأس هي : شاة ، والفدية من الفداء بكسر اوله ، يقال فداه تفدية اذا استنقذه ، وفاداه اذا اعطى فداءه وانقذه ، والفدية في الاسلام هي التصدق عندما يخل بواجب من الواجبات .

(٢) الاذخر نبت طيب الرائحة .

الميقات
او المواقيت

وهي الحدود المكانية المعينة بالذات لمواضع الاحرام ، فلا يجوز للحاج ان يتعداها الا باحرام منها او مما يحاذيها ، ولا يجوز لأحد ان يدخل مكة الا محرماً الا لمرض او من يتكرر دخوله كالحطاب والحشاش ونحوهما . ولو خرج بعد احرامه ثم عاد في الشهر الذي خرج فيه اجزأ وان عاد في غيره احرم ثانية .

يجب عليه ان يتجرد من ملابسه ويرتدي ثوبي الاحرام وهو : ازار ورداء . ويتقدم الى بيت ربه بثوبين غير مخيطين ورأس مكشوف .

المواقيت المكانية هي التي عينها رسول الله وحددها تحديداً كاملاً واضحاً محيطاً بمكة المكرمة من جميع جهاتها وسائر اقطارها ونواحيها : شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً .

اولاً – مسجد الشجرة ويسمى (ذو الحليفة) لاهل المدينة ولمن كان طريقه على المدينة من اهل الافاق والاقطار كسائر الحجاج الذين يؤمون زيارة المدينة ويقومون بزيارة النبي اولاً وقبل الحج .

ويبعد عن مكة نحو ٤٩٢ كيلو مترا . اما الذين يذهبون الى جدة عن طريق الجو ثم الى مكة فعليهم ان يحرموا من حدود الحرم بالمكان المسمى بـ (الحديبية) .

ثانياً – وادي العقيق ، ويبعد عن مكة المكرمة نحو ١٠٠ كيلو متر وهو ميقات اهل العراق واهل نجد . واول هذه الميقات من جهة العراق موضع يسمى (المسلخ) ووسطه (غمرة) وآخره (ذات عرق) .

ثالثاً – الجحفة وهو لاهل الشام ومصر ومن عبر على طريقهم الى مكة من اهل الاقطار والامصار الاخرى ، ويبعد عن مكة نحو ١٨٧ كيلو مترا .

رابعاً ــ قرن المنازل ويبعد عن مكة المكرمة نحو ٩٤ كيلو مترا وهو ميقات اهل الطائف ومن عبر على طريقهم الى مكة .

خامساً ــ يلملم وهو جبل من جبال تهامة ، ويبعد عن مكة المكرمة ٩٤ كيلو مترا تقريباً ، وهو ميقات اهل اليمن ومن عبر على طريقهم الى مكة .

سادساً ــ ادنى الحل ــ وهو حدود الحرم وميقات من لم يعبر الى مكة من احد هذه المواقيت .

انواع الحج

الحج على ثلاثة انواع :

١ ــ حج التمتع ٢ ــ حج القران ٣ ــ حج الافراد

والنوع الاول وهو حج التمتع يتكون من عبادتين : الاولى : العمرة ، والثانية : الحج ، وهو الواجب على كل مكلف مستطيع يبعد وطنه عن مكة المكرمة ٤٨ ميلاً اي ما يساوي ٩٦ كيلو متر تقريباً من كل جانب فان كانت المسافة اقل من ذلك كان حج قران او افراد .

والتمتع اصله التلذذ . وسمي هذا النوع به لما يتخلل بين عمرته وحجته من التحلل الموجب لجواز الانتفاع والتلذذ بما كان قد حرمه الاحرام مع ارتباط عمرته بحجه حتى انهما كالشيء الواحد .

وافضل انواع الحج : حج التمتع ، ثم حج القران ، ثم حج الافراد وانما سمي بالقران (او القارن) لان الحاج يقرن هديه معه ويسوقه عند احرامه اما (الافراد) فلإنفراد العمرة عن الحج فيه بخلاف حج التمتع وذلك بأن يعتمر بعد ان يحل من الحج عمرة مفردة وحج التمتع تكون عمرته متقدمة عليه ومرتبطة به بخلاف القران والافراد فان عمرتهما متأخرة عن حجتهما .

كيفية حج الافراد وحج القران

وهو فرض اهل مكة ومن بحكمهم. وكيفيته اجمالا :

ان يحرم بالحج اولاً من ميقاته الذي مرت الاشارة اليه في المواقيت ، أو من حيث يسوغ له الاحرام. ثم يمضي الى عرفة فيقف بها ثم الى المشعر فيقف به ثم الى منى يوم النحر فيقضي مناسكه بها ثم يأتي الى مكة فيطوف بالبيت ويصلي ركعتي الطواف ويسعى ويطوف طواف النساء ويصلي ركعتين وليس عليه هدي ولا اضحية ، وعليه عمرة مفردة بعد الحج . ولا بد فيه من النية . وله ان يأتي بها بعد الحج بلا فاصل ، وان يؤخرها الى غير اشهر الحج .

وحج القران كالافراد الا انه يتميز عنه بسياق الهدي عند احرامه ولا يجب الهدى على الحاج المفرد ، ولا على القارن الا اذا ساق القارن معه الهدي من الاحرام .

قال الامام محمد الباقر عليه السلام :

الحاج على ثلاثة وجوه :

رجل افرد الحج وساق الهدي . ورجل افرد الحج ولم يسق الهدي ، ورجل تمتع بالعمرة الى الحج .

ولما كان اكثر من يؤم بيت الله من القسم الثالث من اقسام الحج ؛ ومن كل فج عميق من النائين عن مكة ومن يكون حجهم حج تمتع استدعي التفصيل فيه دون القسمين الاولين : القران والافراد .

ان الواجب هو تقديم العمرة على الحج ، وان حج التمتع يتكون من عبادتين :

الاولى العمرة [١] . والثانية الحج .

اما الواجب على هذه فخمسة افعال :

١ - النية وهي القصد والعزم على الفعل وطلب القربة الى الله تعالى اذ لا عبادة بلا نية القربة .

٢ - الاحرام وهو ان يحرم لعمرة التمتع لحج التمتع حج الاسلام من الميقات متقرباً الى الله تعالى .

٣ - الطواف وركعتاه [٢] والطواف سبعة اشواط .

٤ - السعي بين الصفا والمروة [٣] سبعاً .

٥ - التقصير بأن يأخذ المعتمر شيئاً من شعر رأسه ويقصر منه او من اظفاره .

هذه هي واجبات عمرة التمتع ، ولا يجب فيها طواف النساء ، فاذا فرغ من تقصيره حل له كل شيء احرم منه ؛ ولهذا سميت : عمرة التمتع اي التلذذ والانتفاع مما كان يحرم الانتفاع به عليه بسبب الاحرام . ويبقى المعتمر محلا يتمتع بما يشاء مما يحل للمحل في الحرم حتى يحرم للحج على التفصيل الآتي بيانه .

---

(١) اعتمر الرجل زار البيت . والمعتمر الزائر ، ومن هنا سميت العمرة عمرة لأنها زيارة البيت يقال : اعتمر فهو معتمر اى زار وقصد ، وفي الشرع زيارة البيت الحرام لأداء مناسك مخصوصة كالطواف والسعي والتقصير .

(٢) المطاف هو موضع الطواف . وتطوف بالبيت دار حوله

(٣) الاصل فيه هو المشي السريع ، وفي الشرع المشي بين هذين المكانين

يسعى الحجاج بين الصفا والمروة في المسعى الجديد الذي شيدته الحكومة السعودية اخيراً واصبح مسعى خاصاً



الطواف وواجباته

يجب على المعتمر للتمتع بعد دخول مكة أن يبتدىء بالطواف لعمرة التمتع . والطواف ركن[1] فمن تركه عامداً الى زمن لا يمكن فعله فيه قبل الوقوف بطل حجه وصار حج افراد قال تعالى (وليطوفوا بالبيت العتيق)[2]

والمريض يطوف معتمداً ، أو راكباً ، او محمولاً ، فان لم يتمكن استناب .

ويجب الطواف في حج التمتع ، وحج الافراد ، وحج القران ، وعمرة الافراد وعمرة القران والعمرة المفردة مرتين :

١ ـ طواف الحج سواء للتمتع ، او الافراد ، أو القران ، وعمرتيهما والعمرة المفردة وهو ركن .

٢ ـ طواف النساء لكلٍ من حج التمتع ، وحج الافراد ، وحج القران ، وعمرة كلٍ من الافراد ، والقران ، والعمرة المفردة . ولكنه ليس بركن بخلاف الطواف السابق فانه ركن ويبطل كل نسك بتعمد تركـــه .

شرائط حج التمتع

يجب على المعتمر عمرة التمتع ان يطوف حول البيت طواف عمرة

---

(١) معنى الركن في الحج والعمرة هو الذي يبطلهما بتركه عمداً ، قال صاحب (الحدائق) قد صرح الأصحاب بأن الطواف ركن من تركه عامداً بطل حجه ، ومن تركه ناسياً قضاه ولو بعد المناسك . والاركان في الحج عند الفقهاء هي، النية، الاحرام، الوقوف بعرفات، الوقوف بالمشعر ، طواف الزيارة – ويسمى طواف الحج ، السعي بين الصفا والمروة
والاركان في العمرة هي : النية ، الاحرام ، طواف الزيارة ،

(٢) البيت العتيق – الكعبة المشرفة ، وسمي عتيقاً لانه لا يملك ولانه اقدم ما على الارض من البيوت .

التمتع بشروط :

١ ــ النية المشتملة على قصد القربة والتعيين بكونه طواف حج . او عمرة . أو نساء . أو غيرها . وتكون هذه النية مقارنة لاول جزء منه . وذلك بأن يقول : أطوف سبعة أشواط في بيت الله الحرام طواف عمرة التمتع لحج الاسلام . حج التمتع لوجوبه قربة الى الله تعالى .

٢ ــ الطهارة من الحدث الاكبر والاصغر . والمتعذر عليه الوضوء او الغسل يتيمم بدله [١] فلو احدث في أثناء الطواف قبل اكماله اربعة أشواط استأنف .

٣ ــ طهارة البدن والثياب .

٤ ــ اباحة اللباس بأن لا يكون لباسه مغصوباً .

٥ ــ ستر ما يجب ستره في الصلاة للرجال والنساء ، كلٌ بحسب حاله .

٦ ــ الختان فلا يصح طواف الاغلف وان كان طفلاً .

٧ ــ يجب ابتــداء كل شوط من الاشواط السبعة بالحجر الأسود والاختتام به . فلا يصح ان يبدأ الطواف بغيره كما لا يصح الاختتام بغير الحجر الأسود ايضاً .

ويكفي في حصول الابتداء والاختتام المحاذاة العرفية في ابتــداء الشوط وختامه .

٨ ــ جعل البيت على اليسار فلا يصح الطواف بعكس ذلك .

٩ ــ ادخال حجر اسماعيل في الطواف وان يجعله الطائف على يساره . والعكس باطل .

---

(١) اما اذا كان الطواف مستحباً فلا يشترط فيه الطهارة من الحدث الاصغر.

١٠ خروج تمام بدنه عن البيت وعن حجر اسماعيل وعن ما يحسب من البيت .

١١ كون الطواف بين البيت والمقام مقام ابراهيم فلا يصح أن يجعل مقام ابراهيم داخل المطاف . بل الواجب ان يكون مقام ابراهيم على اليمين . والبيت على اليسار . ويلزم على الطائف أن لا يبعد عن البيت ازيد من ٢٦ ذراعاً بذراع اليد تقريباً من جميع الجوانب . فلا يبعد عن الكعبة بما يزيد على هذا المقدار والا خرج عن المطاف .

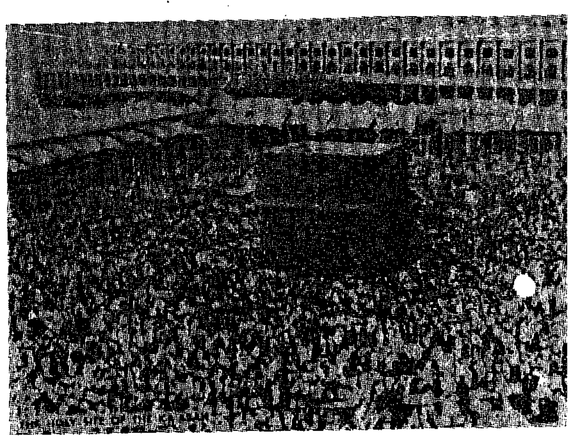
١٢ — اكمال سبعة اشواط [١] بلا زيادة ولا نقصان . فلو شك في العدد بعد الفراغ لم يلتفت .

١٣ — الموالاة في الطواف فانها شرط ، ومعناها المتابعة بين اشواط الطواف ، ولا يعمل الطائف خلال القيام بالطواف عملاً يفصل بينها .

ركعتا الطواف

ثم يصلي ركعتي الطواف بعد فراغه من الطواف خلف مقام ابراهيم عليه السلام وهي الصخرة التي وقف عليها ابراهيم الخليل . وهو يبني جدار الكعبة ، وان لم يتمكن من الصلاة خلف المقام صلاها عنده من احد الجانبين فان لم يتيسر له ذلك يصليها حيث شاء في المسجد الحرام مع مراعاة الاقرب فالاقرب الى خلف المقام .

الكعبة المشرفة في اثناء الطواف



(١) الشوط هو الجري الى الغاية مرة واحدة . والجمع اشواط .

حج التمتع

هو الجزء الثاني الذي يقع بعد التمتع المار الذكر .

ولذا يضاف اليه ، فافعاله امور مترتبة مجملها :

الاحرام ، والوقوف بعرفات ، ثم الوقوف بالمشعر ، ثم المضي الى منى يوم العيد ، ورمي جمرة العقبة ، ثم الذبح ، ثم الحلق ، ثم طواف الزيارة وركعتاه ، ثم السعي ، ثم طواف النساء وركعتاه ، ثم المبيت بمنى ليلة الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر ، ورمي الجمرات الثلاث .

— التفصيل :

بعد الاحلال من عمرة التمتع يكون الاحرام بالحج — وهو ركن من الاركان — والاحرام من مكة ، والافضل من المسجد . ويستحب ايقاعه يوم التروية — وهو اليوم الثامن من ذي الحجة ، فيلبس الحاج ثوبي الاحرام ثم ينوى الاحرام للحج ثم يلبي فيقول : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . فينعقد احرامه وتحرم عليه المحرمات المذكورة في العمرة . اما النية فكيفيتها : ان يقول اقف بعرفة وقوف حج التمتع حج الاسلام لوجوبه قربة الى الله تعالى . ويخرج الى منى ، والوقوف بعرفات تاسع ذي الحجه حاضراً فيه مستوعب الوقت كله — من زوال الشمس الى غروبها اختياراً من يوم عرفة . والموقف الاضطراري هو من مغيب الشمس ليلة العيد الى طلوع الفجر .

عرفة

يوم عرفة يوم التاسع من ذي الحجة

وعرفة : ميدان واسع ارضه مستوية يبلغ نحو ميلين طولاً في مثلهما عرضاً . تحيط به سلسلة جبال على شكل قوس كبير ويمر بطرفي القوس

من جهة الجنوب الطريق الى الطائف وفي شماليه جبل الرحمة المعروف عند الناس بجبل عرفات وانما جبل عرفات ما اطاف بهذا الميدان ، وجبل الرحمة اصغر جزء فيه . قالوا : وحدها من بطن عرفة و (توبة) و (نمرة) الى ذي المجاز .

سبب التسمية

يقال ان سبب هذه التسمية لان الناس يعترفون بذنوبهم فيها وقيل غير ذلك .

المزدلفة
او المشعر الحرام

المزدلفة : بضم الميم وسكون الزاي المعجمة وفتح المهملة وكسر اللام اسم فاعل من الازدلاف وهو الاجتماع . تقول : ازدلف القوم اذا تقدموا . وهي موضع يتقدم الناس فيه من عرفات الى منى وقيل لانه يتقرب فيه الى الله ، او لمجيء الناس فيها في زلف من الليل ـ اي (ساعات) فسميت المزدلفة قال تعالى (فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) والمشعر الحرام هو جبل في آخر المزدلفة واسمه قزح ووصف بالحرام لحرمته او لانه من الحرم وسمي مشعراً لانه موضع لشعائر الله وعبادته .

منى واعمالها

وينتقل الحاج من عرفات الى المشعر الحرام ، وان عليه ان يمكث فيه من طلوع الفجر الى طلوع الشمس مختاراً .. فاذا طلعت الشمس من يوم العيد انتقل من المشعر الى منى ، وبينهما واد يسمى واد (محسر)

وليس للحاج ان يتجاوزه الا بعد طلوع الشمس .

ولمنى مناسك شتى ، تستمر من يوم النحر ، وهو يوم العيد الى صبيحة اليوم الثالث عشر ، او مساء اليوم الثاني عشر ، وفي منى تنتهي واجبات الحج ، وتسمى الايام الثلاثة ، وهي ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، من ذي الحجة ايام التشريق .

منى

منى بالكسر والتنوين يقع في درج الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار وقد سمي بذلك لما يمنى به من الدماء اي يراق .

وكانت منى في الجاهلية مقراً لسبعة اصنام : بعضها على الطريق وبعضها على الجمرة الاولى ، وبعضها على شفير الوادي ، وبعضها على الجمرة الوسطى ، وعلى الجمرة الكبرى ، وعلى جمرة العقبة .

ويستحب التقاط حصى الجمار من المشعر والاحتفاظ بها الى منى للرمي وعددها سبعون .

قال العلامة الحلي في كتابه (تذكرة الفقهاء) يرمي في كل يوم احدى وعشرين حصاة ، على ثلاث دفعات ، كل واحدة منها سبع حصيات ، يبتدىء بالاولى وهي أبعد الجمرات من مكة ، وتلي مسجد الخيف ، ويستحب ان يرميها حذفا ــ اي يضع الحصاة على باطن الابهام ويدفعها بظاهر السبابة ــ عن يسار الجمرة من بطن المسيل بسبع حصيات ، ويكبر عند كل حصاة ، ويدعو ثم يتقدم الى الجمرة الثانية وتسمى الوسطى ويقف عن يسار الطريق ويستقبل القبلة ويحمد الله ويثني عليه ويصلي على النبي ثم يتقدم قليلاً ويدعو ثم يرمي الجمرة ، ويصنع كما صنع عند الاولى ، ويقف ويدعو ايضاً بعد الحصاة الاخيرة .

ثم يمضي الى الجمْرة الثالثة — وتسمى بجمرة العقبة — ويرميها كالسابقة ولا يقف بعدها وبها يختم الرمي .

وان مجموع ما يرميه في الايام الثلاثة بمنى ٦٣ حصاة — هذا ان بات بمنى ليلة الثالث عشر — كل يوم ٢١ تضاف الى السبع التي رماها يوم العيد ، فتتم على السبعين .

الافاضة الى المشعر والوقوف به

يجب الافاضة من عرفات الى الشعر الحرام ليلة العيد والبيتوتة بها .

توضيح : اذا غابت الشمس وزالت الحمرة المشرقية افاض الناس الى المشعر [١] بسكينة ووقار . فاذا وصلوا الى الكثيب الاحمر عن يمين الطريق يجب في الوقوف بالمشعر الحرام امران :

١ — المبيت بالمشعر ليلة العيد ، ويكفي فيه صدق المبيت ولو بعد ثلث الليل او نصفه .

٢ — الوقوف [٢] بالمشعر من طلوع الفجر الى طلوع الشمس من يوم عيد النحر وعندما يفرغ الحاج من الوقوف بالمشعر وجب عليه ان يأتي يوم العيد عاشر ذي الحجة الى منى ويسمى يوم النحر .

ما يجب في منى من افعال الحج

الواجبات الثلاثة التي تجب على الحاج بعد أن يفيض من المشعر ، بعد طلوع الشمس من يوم العيد الى منى لاداء مناسكها الثلاثة بالترتيب

---

(١) المشعر ويسمى المزدلفة ، يقع بين منى وعرفات.

(٢) اي كون وجوده في المشعر سواء كان جالساً او متنقلا . والمشعر هو فرسخان عن مكة المكرمة ويسمى بـ (المزدلفة) .

١ – رمي جمرة العقبة يوم العيد، ووقته من طلوع الشمس الى الغروب .

٢ – الذبح او النحر[1] .

٣ – الحلق أو التقصير .

فاذا افاض من المشعر يوم عيد النحر وجب عليه العود الى منى، ويتوجه رأساً الى جمرة العقبة لرميها بالحصيات السبع التي التقطها من المشعر، او من داخل حدود الحرم الشريف .

ووقت رميها يكون من طلوع الشمس من يوم العيد الى غروبها .

والرمي هو اول اعمال منى . فلا يجوز للحاج أن يقـدّم الذبح أو الحلق عليه . فلو اخلف الترتيب أو عمل بالعكس أثم ولا شيء عليه من الكفارات .

وتجب النية بأن يرمي الجمار تقرباً الى الله تعالى . والواجب ان يباشر الرامي عمل الرمي بنفسه ؛ فلا يجزى غيره عنه الا في بعض الأحوال .

والرمي بسبع حصيات، فلو كانت اقل لم يكف، واصابة الجمرة أو موضعها بكل من الحصيات السبع . فلو أخلّ بواحدة فلابد من تعويضها باخرى . والرمي على التعاقب والترتيب

وأما الواجب الثاني في منى بعد الرمي هو الذبح أو النحر . والواجب هدي واحدٌ ويستحب الزيادة .

والواجب أن يكون الهدي من النعم الثلاثة : الابل، البقر، الغنم . والمعز من فصيلة الغنم، ويشترط السن في كل هذه . فالإبل ما اكمل السنة الخامسة ودخل في السادسة، والبقر ما اكمل الثانية ودخل في الثالثة،

---

(١) النحر يكون للابل، والذبح لغيرها من النعم .

والمعز ما اكمل الثانية ودخل في السنة الثالثة ، والضان ما اكمل الاولى ودخل في الثانية – اي ما اكمل السنة الاولى – .

ويشترط أن يكون الهدي صحيحاً ، فلا تكفي العرجاء ولا العوراء ولا مقطوعة الأذن او مكسورة القرن الداخل ولا المهزولة ولا الجماء ، أو البتراء ، ولا الجرباء .

ويجب ان يكون الذبح يوم العيد فلا يجوز تأخيره ، وأن يكون بمنى فلا يجوز في غير منى . ويكره له ان يخرج شيئاً مما ذبح في منى الى الخارج الا اذا لم يكن في منى من ينتفع بالهدي .

اما الواجب الثالث من واجبات منى فهو الحلق أو التقصير ولو بقدر الانملة وذلك يوم العيد بعد الرمي والنحر . فهو أن يحلق رأسه كله . اما التقصير ، فهو أن يأخذ شيئاً من شعر رأسه أو لحيته أو شاربه أو شيئاً من الأظافر .

والحلق يتعين في الحجة الاولى، اما الحجة الثانية وما بعدها فيكون مخيراً بين الحلق والتقصير .

أما النساء فيحرم عليهن الحلق ويتعيّن التقصير .

الهدي في الحج

الهدي : هو ما يهدى الى بيت الله الحرام من بدنة وغيرها .

وهو اسم للحيوان الذي يقدمه المحرم ويسوقه قرباناً لوجه الله قال تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهرَ الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الارض وأنّ الله بكل شيء عليم »

والقلائد جمع قلادة ما يجعل في الهدي من العلامة ، وتكرر في القرآن

اسم (الهدي) في غير هذه الآية : قال تعالى « فمن تمتع بالعمرة الى الحجّ فما استيسرَ من الهـــدي » وقال (حتّى يبلغ الهديُ محلّه) وقال « هَدياً بالغَ الكعبة » . وهو من شعائر الله « والبُدنَ جعلناها لكم من شعائرِ اللهِ لكم فيها خيرٌ فاذكروا اسمَ الله عليها صوافَّ فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانعَ والمعترَّ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » .

السعي بين الصفا والمروة

وبعد الفراغ من الطواف وصلاة ركعتين يجب السعي سبعة اشواط بين الصفا والمروة وتستحب المبادرة اليه فوراً بعد ركعتي الطواف بحيث لا يعد متهاوناً فحينما يفرغ من صلاة الطواف يستلم الحجر الاسود ويقبله ان امكن والا اشار اليه ثم يخرج الى السعي بسكينة ووقار — من الباب الذي هو الآن معلّم باسطوانتين معروفتـــين ومنه كان خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو يحاذي الحجر الأسود ثم يصعد الصفا وينظر الى البيت ويستقبل الركن الذي فيه الحجر الأسود . ويحمد الله ويثني عليه ويكبره ويصلي على النبي وآله .

ويجب استحضار القلب والنية بأن يقول : أسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط سعي عمرة التمتع . لحج التمتع . حج الاسلام لوجوبه قربة الى الله تعالى .

والسعي واجب بعد صلاة الطواف وهو ركن كالطواف . وان يبتدىء بالصفا ويختم بالمروة ، بأن يحسب السعي من الصفا الى المرة شوطاً ، ومنها الى الصفا شوطاً آخر . وهكذا الى ان يتم سبعة اشواط .

فابتداء السبعة من الصفا وختمها بالمروة .

ويجب ان يكون هذا السعي واقعاً في الطريق المتعارف في الذهاب

والاياب ، فلو ذهب من وسط المسجد الحرام مثلاً الى المروة أو العكس لم يكن مجزياً .

وكذا لو خالف فابتدأ بالمروة بطل سعيه كما يجب ان يحتفظ بالعدد بأن يكون السعي سبع مرات بلا زيادة ولا نقصان في (المسعى)

فلو دخل في الأثناء الى المسجد أو خرج منه الى السوق ثم رجع لم يصح منه ذلك السعي .

ويجوز السعي راكباً كما يجوز الطواف راكباً لكن سعيه راجلاً أفضل ، وان يكون على سكينة ووقار .

ويجوز له الجلوس على الصفا والمروة للاستراحة ، أما الجلوس ما بينهما فالأحوط تركه بدون عذر . وتستحبّ الهرولة في السعي ما بين المنارتين المعلمتين الآن باللون الأخضر ، ولا تستحب الهرولة للنساء لقول الامام الصادق عليه السلام : لا أذان ولا هرولة على النساء بين الصفا والمروة .

التقصير

هو آخر واجبات عمرة التمتع . ويجب في كل من الحج والعمرة : ففي الحج يكون بعد الذبح في منى . وفي العمرة يكون بعد إكمال السعي . وبه يفرغ الانسان ويتحلل من عقد احرامه .

فبعد فراغه من السعي يجب عليه التقصير ويحصل بأخذ شيء من شعر رأسه ، او لحيته ، او شاربه أو حاجبه ، او تقليم بعض اظفاره .

ولا يكفي حلق تمام الرأس بل لا يجوز الحلق في العمرة [1] وتجب النية للاحلال من احرام عمرة التمتع لحج الاسلام قربة الى الله تعالى .

---

(١) ولا يحسب تقصيراً ويجب عليه فدية شاة .

فاذا قصر حلّ له كل شيء حُرم عليه بالاحرام حتى النساء الا الصيد في الحرم : محرماً كان أو محلاً .

العودة من منى

بعد اداء مناسك (منى) الثلاثة يعود الحاج الى مكة المكرمة ليؤدي الواجبات الثلاثة ، والاولى أن يكون يوم العيد وإن جاز تأخيره الى يوم ثاني العيد .

اولاً — الطواف وصلاته كالطواف السابق إلا ان النية تكون لحج التمتع حج الاسلام ويسمى بـ (طواف الزيارة) و (طواف الحج) ايضاً . والصلاة ايضاً خلف مقام ابراهيم . والاولى أن يكون ذلك في يوم العيد .

ثانياً — السعي بين الصفا والمروة .

ثالثاً — طواف النساء بعد السعي مباشرة ، فلا تحل النساء للرجال . ولا الرجال للنساء الا بعد الاتيان بهذا الطواف وركعتيه وبعد أداء هذه الواجبات الثلاثة يجب الرجوع الى منى للمبيت فيها ليالي التشريق [1] وهي :

ليلة الحادي عشر ، والثاني عشر ، ورمى الجمار الثلاث في يوميهما ، ثم ان بات ليلة الثالث عشر رمى في يومها ويجب عليه رمي الجمرات [2] الثلاث على الترتيب الآتي :

الجمرة الاولى التي تلي مسجد الخيف .

ثم الوسطى .

---

(١) واختلف في وجه التسمية ، فقيل سميت بذلك من تشريق اللحم وهو تقديده وبسطه في الشمس ليجف لان لحوم الاضاحي كانت تشرق فيها .

(٢) والجمرة لا تختلف في وصفها عن عمود صغير مبني بالطابوق ومطلي بالجص ، لا يتجاوز ارتفاعه ثلاثة امتار ، يحيط به حوض يسقط فيه الحصى التي يرميها الحجاج .

ثم جمرة العقبة وهي القصوى .

اولاً — الجمرة الاولى وهي اقرب الجمرات الى منى . ثم الوسطى وهي التي تليها .

ثم جمرة العقبة وهي آخر الجمرات من جهة مكة المعروفة بالكبرى .

ولا يجوز الرمي ليلاً ، لا لليوم الماضي ولا لليوم الآتي مع التمكن منه نهاراً .

اما الخائف والمريض والراعي وامثالهم فيجوز لهم رمي جمرات كل يوم في ليلته . ويجوز أن يرمي المريض من يستنيبه لذلك .

انما وقت الرمي للجمرات يكون من طلوع الشمس من يوم الحادي عشر الى غروبها ومن لم يتق في احرام الحج والعمرة من النساء والصيد يجب عليه بيتوتة الليلة الثالث عشر ، وكذلك على من لم يخرج من منى او حدودها قبل المغرب .

ومن بات ليلة الثالث عشر يجب عليه رمي الجمرات في نهارها — اي ان للحاج ان يخرج من منى في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة بعد زوال الشمس وقبل غروبها ، واذا بقي في منى الى المغيب وجب عليه المبيت في منى ليلة الثالث عشر ، ولا ينفر منها الا بعد طلوع الشمس .

وعندما يفرغ الحاج من ذلك فقد أتمّ حجه ، وله ان يرجع الى اهله . والافضل ان يطوف طواف الوداع في مكة بالبيت ويقول : « اللهم ان البيت بيتك ، والعبد عبدك ، وقد قُلتَ من دخله كان آمناً . فامني من عذابك وأجرني من سخطك . اللهم من تهيأ وتعبأ وأعدّ واستعد لوفادة الى مخلوق رجاء رفده وجائزته ونوافله وفواضله فاليك يا سيدي تهيئتي وإعدادي واستعدادي رجاء رفدك ونوافلك وجائزتك فلا تخيّب اليوم رجائي ، يا من لا يخيب عليه سائل ولا ينقصه نائل ».

مزارات مكة المكرمة

١ – زيارة مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو في سوق الليل بزقاق المولد .

٢ – منزل خديجة زوجة النبي (ص) في جانب مولد النبي وهو الآن مسجد معروف .

٣ – زيارة عبد مناف في مقبرة قريش ، وهي بقعة معروفة بمكة

٤ – زيارة عبدالمطلب جد النبي .

٥ – زيارة أبي طالب عم النبي ، وبقعته في وادي قريش معروفة .

٦ – زيارة آمنة بنت وهب والدة الرسول (ص) وقبرها في (المعلى) أو في (الابواء) على خمس مراحل من مكة .

٧ – زيارة خديجة زوجة رسول الله (ص) بـ (الحجون) وقبرها هناك معروف في سفح الجبل .

بعض الفروق في الحج

عند المذاهب الإسلامية

قالت الشيعة الامامية : الطهارة شرط في الطواف الواجب فلا يصح طواف المحدث ، وبه قال مالك والشافعي لما ورد من قول الرسول (ص) : الطواف بالبيت صلاة الا انكم تتكلمون فيه .

وقال ابو حنيفة ليست الطهارة شرطاً ، واختلف اصحابه فقال بعضهم بالاول وبعضهم بالثاني . وعن احمد بن حنبل روايتان احداهما على رأي الشيعة والثاني ان الطهارة ليست شرطاً فمتى طاف للزيارة غير متطهر اعاد ما دام مقيماً بمكة ، فان خرج الى بلده جبره بدم .

قالت الشيعة الامامية يجب ان تكون نية العمرة مستقلة ثم ينوي للحج نية ثانية واوجبوا لكل نسك احراما مستقلاً فلا يجيزون الجمع بين الحج والعمرة في احرام واحد ولا بنية واحدة . وقد اجاز فقهاء السنة ان يجمع الناسك في احرام واحد وبنية واحدة بين الحج والعمرة .

قالت الشيعة الامامية : لو استأجر الرجل الصحيح من يحج عنه الحجة الواجبة لا يجزيه ذلك ، اما اذا استأجر من يحج عنه النافلة اجزأه ، وبه قال ابو حنيفة . وقال الشافعي لا يجوز ان يستأجر لا نفلا ولا فرضاً .

قالت الشيعة الامامية : الاعمى يتوجه اليه فرض الحج اذا كان له من

يقوده ويهديه ، ووجد الزاد والراحلة لنفسه ولمن معه . وقال ابو حنيفة لا يجب عليه الحج وان وجد جميع ما قلناه .

قالت الشيعة الامامية : من استقر عليه وجوب الحج ولم يفعل ومات وجب ان يحج عنه من صلب ماله مثل الدين ولم يسقط بوفاته ، هذا اذا خلف مالا ، فان لم يخلف مالا كان ولية بالخيار في القضاء عنه . وبه قال الشافعي وعطا وطاووس ،

وقال ابو حنيفة ومالك : يسقط بوفاته بمعنى انه لا يفعل عنه بعد وفاته وحسابه على الله حين يلقاه والحج في ذمته ، وان كان اوصى حُجّ عنه من ثلثه ويكون تطوعاً لا يسقط الفرض به عنه ، وهكذا يقول في الزكوات والكفارات وجزاء الصيد كلها تسقط بوفاته ولا تفعل عنه بوجه .

قالت الشيعة الامامية : من قدر على الحج عن نفسه فلا يجوز ان يحج عن غيره اما اذا كان عاجزاً عن الحج عن نفسه لفقد الاستطاعة جاز له ان يحج عن غيره .

وقال مالك ابو حنيفة : يجوز له ان يحج عن غيره على كل حال ، قدر عليه او لم يقدر .

قالت الشيعة الامامية : لا يجوز الاحرام قبل الميقات فان احرم لم ينعقد احرامه ، الا ان يكون نذر ذلك وقالوا : لا خلاف ان النبي (ص) احرم من الميقات .

وقال ابو حنيفة : الافضل ان يحرم قبل الميقات . وللشافعي فيه قولان احدهما مثل قول ابي حنيفة والثاني الافضل من الميقات الا انه ينعقد قبله على كل حال .

قالت الشيعة الامامية : اذا حمل المحرم على رأسه مكتلا أو غيره لزمه الفداء وبه قال الشافعي . وقال ابو حنيفة لا يلزمه .

قالت الشيعة الامامية : اذا وطىء المحرم ناسياً ، أو تطيب ناسياً ،

لم تلزمه الكفارة وبه قال الشافعي وعطا بن ابي رباح والثوري واحمد واسحاق .

وقال ابو حنيفة : ومالك : عليه الفدية .

قالت الشيعة الامامية : ما عدا المسك والعنبر والكافور والزعفران والورس والعود لا يتعلق به الكفارة اذا استعمله المحرم .

وخالف جميع الفقهاء في ذلك فاوجبوا الكفارة فيما عداها .

قالت الشيعة الامامية : الطواف يجب ان يكون حول البيت والحجر معاً ، فان تباعد من البيت حتى يطوف بالسقاية وزمزم لم يجزه . وقال الشافعي يجزيه .

قالت الشيعة الامامية : اذا طاف منكوساً ــ وهو ان يجعل البيت على يمينه فلا يجزيه ، وعليه الاعادة ، وبه قال الشافعي ، وقال ابو حنيفة :

ان أقام بمكة أعاد ، وان عاد الى بلده جبره بدم .

قالت الشيعة الامامية : التحلل في الحج ثلاثة ، اولها اذا رمى وحلق وذبح ، فانه يتحلل من كل شيء الا النساء والطيب ، فاذا طاف طواف الزيارة وسعى حل له كل شيء الا النساء ، فاما الاصطياد لا يحل له لكونه في الحرم ، ويجوز له ان يأكل منه ، فاذا طاف طواف النساء حلت له النساء .

وقال الفقهاء كلهم انه يتحلل بتحليلتين معاً : بالرمي وطواف الزيارة ، والتحلل الاول يحصل بشيئين : رمي وحلق ، او رمي وطواف ، او حلق وطواف ، ويستبيح عند ذلك اللباس وترجيل الشعر والحلق وتقليم الأظفار . قال الشافعي ولا يحل له الوطء الا بعد التحلل الثاني قولاً واحداً والطيب على قولين ، قال في القديم لا يحل بالتحلل الاول ، والآخر يحل قولاً واحداً ، فاما عقد النكاح والوطء فيما دون الفرج والاصطياد

وقتل الصيد فعلى قولين ، قال في القديم لا يحل ، والثاني يحل له كل هذا ، وبه قال ابو حنيفة ولم يعتبر احد طواف النساء بحال .

قالت الشيعة الامامية : اذا وطىء المحرم ناسياً لا يفسد حجه .

وقال ابو حنيفة يفسد حجه مثل العمد ، وهو احد قولي الشافعي ، وقوله الثاني لا يفسد .



فهرست الكتاب









